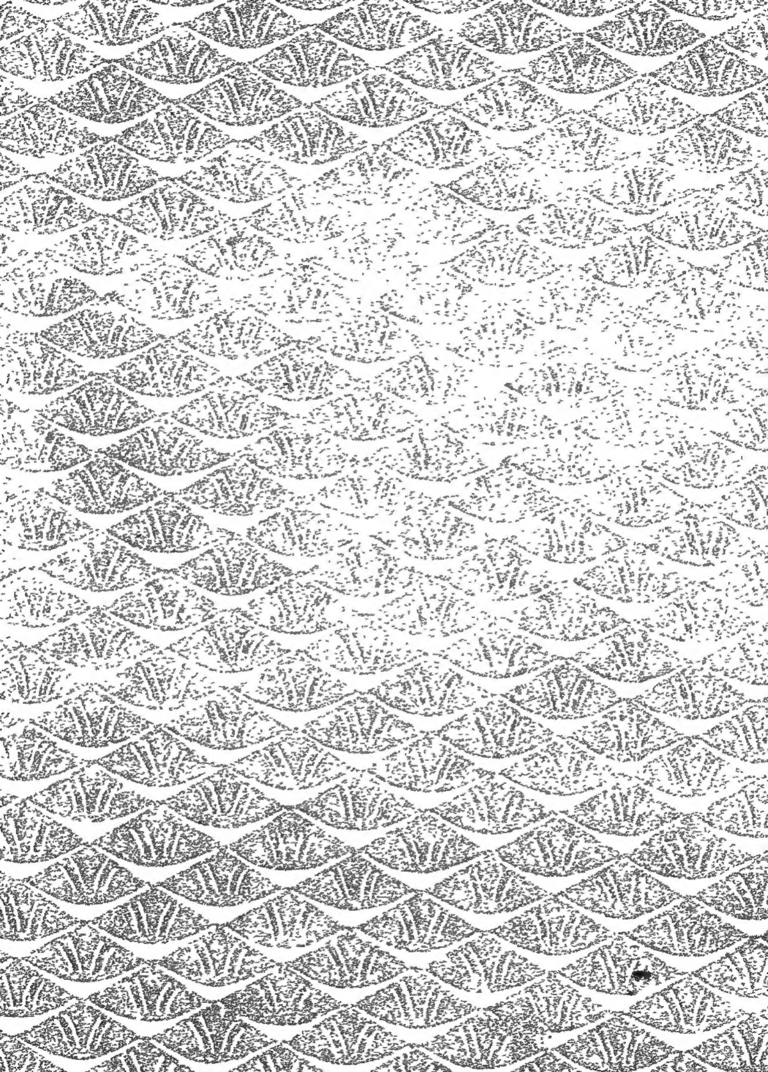
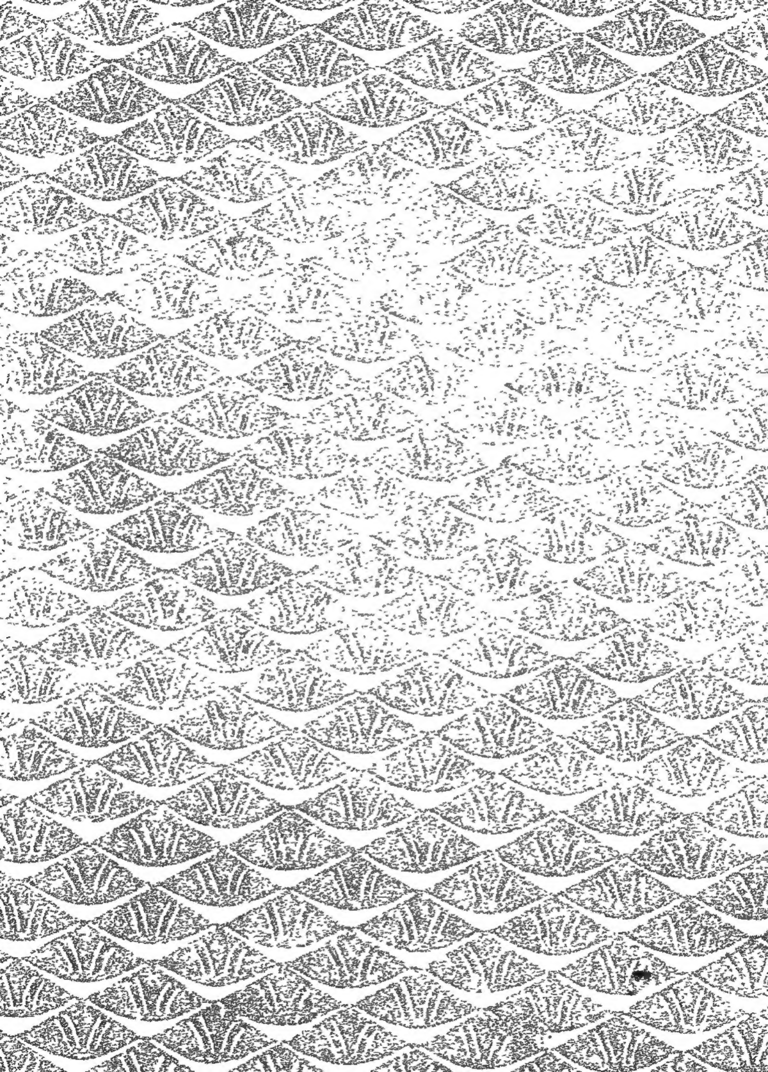






قصص التاريخ الاسلامى

سلسلة روايات عربية مصورة

بقلم

ابراهيم رمزى

رواية

باب القمر

عن
احداث مصر وبلاد العرب والشام
ايام بعثة النبي عليه
الصلاة والسلام

تطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع المدابغ نمرة ١٥ بمصر
ومن المؤلف بشارع الزقازيق نمرة ٣٦ بمصر الجديدة
الثمن ٢٥ قرش صاغ خلاف اجرة البريد

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد بن عبدالله خاتم الرسل وسيد الخلق أجمعين وعلى آله وصحابته والتابعين

أما بعد فهذه الرواية هي الحلقة الأولى من سلسلة قصص استخرت الله فى وضعه على معالم التاريخ الاسلامى لا سيما فيما له علاقة بمصر تحقيقا لأمنية تمناها أستاذنا إمام المصلحين المرحوم الشيخ محمد عبده فى بعض ما سمعته من حديثه فى الخرطوم سنة ١٩٠٥ واجابة لتكليف من امام الوطنيين أستاذى وصديقى المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش يوم كنت أعمل تحت رياسته فى تحرير جريدة اللواء فى سنة ١٩٠٩ ثم تقاضانيه أيام جمعنا الفلك الدوّار مرة أخري بوزارة المعارف سنة ٢٥ حين كنت أعمل تحت رياسته كذلك فى التفتيش على مدارس المعلمين الأولية

فان أكن قد تأخرت كثيراً فالعمل العظيم يحتاج إلى توفر والرأى لا ينضج فى زمن قليل . وقد يكون للكاتب من حالة النـاس ما يقعده عن العمل إذا نشط له و يصرفه عن المضى فى الطريق اضطرارا . بيد أنى قد عجلت من المقصد بشىء منذ سنة ١٩١٣ فيما وضعت للتمثيل العربى من من روايات تاريخية من قبيل ما عنى (١) ولـكن ذيوع الروايات التمثيلية

---

(١) كرواية الحاكم بأمر الله وبنت الاخشيد وأبطال المنصورة والبدوية والعروة الوثقى

فى يد الممثل لا فى يدى ، وعرضها معلق على إرادته لا إرادتى ، و إحسان أدائها مرتبط بكفايته لا كفايتى ، وانتشارها بين الناس تبع لحالة الزمن معه لا معى . كما أن أ كُلُها مقصور على المدن فى مصر و بعض البـلاد العربية القريبة منا ، حين أريد أن أدنيه من كل عين وكل يد وكل قلب فى مصر و بلاد العربية وأصقاع الاسلام شرقا وغربا وجنوبا وشمالا وأبلغه إلى اخوانى فى الاسلام الذين يتاخمون غير اخوانهم فى البلاد النائية من آسيا وجزائرها وإلى أرومة المجد والفضل المنتشرة فيما بين جدار الصين وأطراف نهر الطونة(٢) أولئك الذين نصروا الاسلام فنصرهم وأعزوه فأعزهم والذين سيجد القراء ما طالت الحياة حلقات من هذه السلسلة خاصة بفضلهم . فلقد كان منهم علماؤه الأعلام الذين ستبقى مؤلفاتهم ما بقى الدهر أصفى مورد وأصدق معلم لطلاب حكمة الدين والحديث والتفسير والشريعة والأدب واللغة والتاريخ وفنون العلم والعرفان طرًا ، والذين كان منهم الرجال العظام الذين وقف منهم الملوك والامراء والجنود يذودون عن حياض الاسلام ذود الأسود ويكتبون بأعمالهم المجيدة صفحات من أخلد صفحات التاريخ الاسلامى ، والذين جعلوا للاسلام من حبهم للفنون فنونا خاصة به فى العمارة والموسيقى والزخرفة وزينة الحياة فى المدن والمنازل ادراكا لمعنى نعمة الاسلام وتحقيقاً لمشيئة الله فى قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

---

(٢) من الترك والفرس والديلم والهنود والتتر والكرج وسائر الاسيويين .

وسيكون محور غالب القصص تاريخ الأسلام فيما له علاقة بمصر. وإذا قلنا مصر فقد قلنا بلاد العرب والشام والعراقين وبرقة و إفريقية وما يتصل بها شرقاً وغرباً إذ أن جوهر الذين كانت لهم يد فى صياغة أحوال الدنيا فى وادي النيل منذ الفتح العمرى رجال من أهل تلك الأقطار . فالالمام بهم يتطلب حتما الالمام بتاريخ هؤلاء العظام والتوغل فى بيئاتهم بما لا يقصر القول على مصر . بيد أن مصر كانت فى جميع من الأزمان ذات اتصال وثيق بهذه الأصقاع إماتابعة كما كانت فى عهد الراشدين والأمويين والعباسيين الأول والعثمانيين أو متبوعة كما كانت فى عهد الفاطميين والأيوبيين وسلاطين المماليك البحرية والبرية . أو تابعة اسما ومتبوعة فعلا كما كان حالها أيام الطولونيين والأخشيديين والأسرة المحمدية العلوية القائمة .

وهل يملك كاتب مهمته ما ذكرت أن يتجاهل منابت من كان سكان السفينة وقلم التاريخ فى يدهم ويهمل مصادرهم وعلاقاتهم بالخلافة والخلافة نفسها أو يقتصر من أمرهم على أعمالهم فى مصر حين أن أمجد صفحاتهم إنما خطوه بسيوفهم فى غير أرض مصر كصلاح الدين و بيبرس ومحمد على مثلا

على أن أروع حوادث التاريخ الاسلامى وأمجد وثائقه وأملأها بالعبرة وأصرحها فى القول المنذر إنما كان يوم حملت مصر أمانة الاسلام فى القرون الوسطى دون سائر إخوانها من العوالم الاسلامية . ذلك يوم اجتمعت أوربة على حزب الاسلام لأبادته و إبادة العربية معه فجاهدت مصر واستبسلت حتى أنقذت الاسلام للدنيا والعربية لأوطانها . ولن يعمى كاتب بهذه الأحداث

العظيمة حيث تصادم الشرق والغرب أو بالأحرى حيث أخذ الغرب يعلننا بارادة السوء التى لم تزايله حتى يومنا هذا (٣) ولا يعيرها إلا اهتماما قليلا ويتجاوز ما كان لمصر فيها إلى توافه الأمور ، حين نقصد بدراسة التاريخ على أية صورة و بأن نكتب قصصاً محوره حوادث التاريخ الاسلامى أن ندل فيما ندل على هذه الارادة السيئة القديمة العهد والتى كان من أثرها فى حاضرنا ما نرى ، ابتغاء التنبيه والتذكير والاهابة بالجنسية العربية خاصة والاسلامية عامة أن كفى ما أنتم فيه فانهضوا واعملوا واحموا أنفسكم من عوامل الافناء التى أخذتكم من كل جانب

أبدأ سلسلة القصص فيما يختص بمصر برواية « باب القمر » هذه . و إنما سميتها كذلك لأنه اسم الباب الغربى من سور مدينة الاسكندرية الذى دخل منه السلار شاهين قائد الفرس لما جاء لفتح مصر (٦١٦—٦١٨م) على أثر فتحه الشام والقدس (٦١٦م) فتم بذلك نصر كسرى أبرويز على هرقل فى أدنى الأرض قبل أن تحق عليهم كلمة الله فيعود الروم ويجلوهم عن الديار فى بضع سنين .

ليس هذا فيما يلوح لبعض القراء لأول وهلة فى شيء من تاريخ الاسلام بمصر اذ الاسلام أنما جاءها بمجيء الأمير عمرو بن العاص لفتحها فى خلافة الفاروق عمر رضى الله عنهما أي بعد ذلك الفتح الفارسى بثلاث وعشرين سنة . ولكن الواقع غير ذلك . فان الحرب التى جرت بين الروم والفرس

---

(٣) راجع كتاب الشرق الاسلامى والعصر الحديث للاستاذ حسين مؤنس

هى التى مهدت لانتشار الأسلام ، والخلافات المذهبية والجنسية هى التى أيقظت النفوس الى حاجة الدنيا الى اصلاح العقول والقلوب وتنظيم الحياة على شرعة الحق العقلى والخلاص من تلك الأوزار . وهى التى أظهرت فضل الأسلام ونبهت العرب الى حق اخوانهم عليهم وحفزتهم الى فتح العراق والشام ومصر وما وراءها لأنقاذ الوطن العربى وجيرته برا بالجار . وما يملك كاتب له نظرية فى ذلك مؤيدة بتلك المظاهر أن يمر بهذا العهد الخصب كأنه ما حل قاحل ، وهو هو العهد لاعهد سواه ، لأمكان إظهار السر العظيم فى نشأة الأسلام وذيوعه هذا الذيوع السريع وفى استقراره فى مصر الى الأبد وانتشاره منها الى ما وراءها . واذا عرضت الأسباب فى موسمها فمن الخطل أن يتركها الكاتب على أن يتحدث عنها بالرواية بعد انتهاء موسمها بسنين .

واذ كانت مهمتنا تاريخ الأسلام وكانت فترة الحرب بين الفرس والروم هى الفترة التى بعث فيها النبى المصطفى عليه السلام وأجاب فيها دعوته أولئك الرجال الذين خطوا بسيوفهم وأقلامهم تاريخ الدنيا بعد ذلك فمن الخطل أكثر من ذلك أن يمرّ بها الكاتب دون أن يلمّ بمعالم الحال فى بلاد العرب برمتها وما كانت عليه من العقائد والمذاهب والنظم ويذكر جوهر الدعوة وحوافزها ويعرض تاريخ صاحبها صلوات الله وتسليماته عليه ويتأمل بيئته وأثرها فيما فكر وفيما صنع وفيما جهر ويعرض الأمر كله فى نور العلم الحديث ليتيسر فهمه عند أهل هذا الزمان الذين جعل العلم لعقولهم

كرامة فهم لا يمكن أن يفهموا الشيء ويصدقوه الا اذا كان منطبقا على قواعد المنطق ونظريات علم الاجتماع ولذلك يطلبون الى الكاتب ، لكى يقتنعوا أن يجيب الناس بالتعبير الحديث الخالص من روح التشيع : ما بلاد العرب ؟ ما البيئة التى وجد فيها صاحب الدعوة ؟ ما هى الدعوة ذاتها ؟ هل كانت ضرورية لبلاد العرب وللدنيا ؟ أهى دينية تعبدية فحسب كسائر الأديان جوهرها صلّوا وصوموا وكونوا أخياراً أم أن الصلاة والصيام مما بنى عليه الأسلام لا الأسلام نفسه وأن للأسلام غرضاً أعم ومقصداً اجتماعيا عالميا حفز العرب الى المجاهدة فى سبيله بالقلب واللسان واليد ؟

هذا ماعنيت به ومن ثم فالرواية من حيث موضوعها القائم بالنسبة الى مصر جوهرية فى تاريخ مصر الأسلامى وجوهرية فى تاريخ الاسلام. ولذلك اقتصرتُ فى الحقيقة على حوادث الأسلام التى دعت الى تيقظ الحنيفية فى مكة وظهور الأسلام فى بلاد العرب ولم تتعرض لما بعد ذلك من تاريخ الرسول عليه السلام لأنه تاريخ تطبيق دعوته فى يثرب فى أيامه وليس هذا موضوعى الآن واقتصرت على عرض الأسباب التى دعت فيما بعد الى تهافت الناس على الأسلام فى مصر لما جاء به الأمير عمرو بن العاص وهى بالذات أسباب تهافت غير المصريين عليه فى غير مصر من بلاد الفتوح .

***

ولعله يجمل بنا أن نعجل هنا بعرض تاريخى وتوطئة لما نحن فى صدده لبيان الرأى الذى اتجهت الرواية الى تقريره .

الوثنيــة والمجوسية والفتيشية والصابئة والبوذية والبرهمية والمزدكية واليهودية والتثليث والتربيع وغيرها هى الأديان التى كان عليها العرب فى أنحاء الجزيرة العربية فى أيام الرسول عليه السلام وكانت سـببا فى الفرقة بينهم والعداوة . وكانت دعوة الرسول توحيد العبادة بتوحيد المعبود : توحيد الله تعالى الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هــدى فاطر السموات والأرض الواحد الأحد القيوم الذي إليه الرجعى واليه النشور . فصارت بلاد العرب تدين بوحدانية الله . والعرب كانوا فى جزيرة العرب ملكا للفرس فى اليمن وأحرارا جمهوريين فى مكة ويثرب وكانت دعوة الرسول متجهة الى توحيد الوطن تحت لواء واحد هو لواء العربية الموحدة. فصارت بلاد العرب كما أراد لها عليه السلام .

وكان العرب فى العراق والشام ومصر عبيداً للفرس والروم . وكانت دعوة الرسول الى الوطنيين بعد ماخلت أم الجزيرة من الشرك ومن نير الأجنبي أن جاهدوا وحرروا إخوانكم فى هذه البلاد النائية ووحدوا كيان الجنس العربى حيث يكون ، فأصبحت بلاد الجنس العربى حرة على يد صاحبيه أبى بكر وعمر فى عشر سنين .

وكانت الدنيا فيما وراء ذلك شقية بحكامها مرزوءة بنظمها ومعتقداتها لا حق للشعوب فى شىء من الحرية والحياة الصحيحة اذ كان خيرها مقصوراً على الحــكام الزمنيين والدينيين فى الأمــة وخير الأمة مقصورا عليهــا أما جيرانها فأشقياء بأنفسهم وبجيرتهم ، فدعا الرسول الى التوحيد كذلك فى

الا نسانية . دعا الى الاخاء العام والحرية العامة ورفع الاضطهاد من الجنس للجنس المخالف والى التسوية بين الناس ما داموا على شرعة واحدة . ومن ثم دخلت الأمم فى دين الله دين الفطرة الشاعرة بوحدانية الله الراغبة فى العيش والسلام والاخاء العام : دين الاسلام البار والعربية الداعية وصاروا فى الحقوق مع العرب سواء لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وتاريخ فارس وتركستان وأفريقية أظهر دليل على ذلك وأقواه . ومن ثم نرى اليوم بين مسلم الشرق ومسلم الغرب صلة نفسية قوية أسقطت فروق الجنس إسقاطا تاما وتيسر بفضل الأسلام ماعجز عن تحقيقه علماء الاشتراكية لأودعاة انسانية وحكومات أوربة بالرغم من عصبها ومواثيقها ومعاهداتها .

هذا هو مقصد دين الأسلام الذى دعا اليه محمد خير خلق الله وهذا ماتحقق فكان العالم صعيداً واحداً وكانت الدولة قوية فى مجموعها لم يستطع أن يفتئت عليها أحد أو يلحق بها أذى . فلما استنام المسلمون الى الدهر وغفلوا عن سر عظمتهم وحقيقة هذا الدين وما كان لهم فيه من عصمة — كان ما هو حاصل من تفتتهم ووشك ذهاب ريحهم . ثم رأوا أوربة فى منعة فالتفوا يبحثون عن سر ذلك ويلتمسون الدواء والنجاء ، والدواء فى يدهم والنجاء قريب لو درسوا مبادىء الأسلام . ولكنهم لم يفعلوا بل فتنوا بمبادىء أوربة العنيدة التى لم يشأ لها سادتها أن تعتنق الأسلام احتفاظا بما كان فى أيديهم من القوة والسلطان ، حتى أذا لقيت شعوبها ما لقى من قبلهم وأخذت تلتمس المخرج من الشرور التى تكتنفها لم يخرجها مما

كانت فيه إلّا نور انبعث اليها من الأسلام فى الأندلس ومن الأسلام فى الحروب الصليبية وأخذ كتابهم يدلون بآراء هى نضج آراء الأسلام ، كالاشتراكيين إذ ينادون بضرورة نشر مبادىء الأنسانيـة التى هى — كما مر بك — من قواعد الأسلام ومن أجلها جاهد العرب إذ قال دينهم « إنما المؤمنون إخوة » وقال نبيهم « لا فضل لعربى على عجمى إلّا بالتقوى » وكالاجتماعيين الذين يقولون بالديمقراطية وهى من قواعد الأسلام التى أعلنها الرسول إذ جعل للموالى من الحقوق وفرص الحيـاة ما للسادة فـكان منهم القضاة والحـكام والولاة

والراشونالست الذين لا يرون أن يكون للدين أكليروس وكهنوت يحرمون و يمنعون . ولا للدنيا أن يكون الملك فيها على غير إرادة الجمهور وهو شرعة الحـكم فى الأسلام وكالأطباء الذين يرون ضرورة اجراء تمرينات رياضية كل صباح والنظافة طول النهار والصوم فى بعض الأيام وهذه من قواعد الأسلام وكالـكماليين الذين يرون أن يعمر القلب فى ليـله ونهاره بالتقوى وحب الخير وهو ماقرره الأسلام فى جعل الصلاة مع أقسام اليوم وكالقانونيين الذين يرون ألا يكون الزواج رباطا من حديد يقضى على الزوج والزوجة أن يظلا عليه ولو انتفت مصلحتهما منه وترتبت عليه شرور . وذلك ما راعاه الأسلام . وكالأجتماعيين ثانيا الذين يرون من حق الحكومة أن تأخذ من فيض الله على الاغنياء قسطا معلوما تصلح به حال من قعد بهم الفقر والمرض أو العجز والشرور الطارئة حتى لا تثور النفوس المحرومة

وتعبث بالسلام والحياة الاجتماعية كما يحصل فى أوربة وغير أوربة من الأمم ، ومطلوبهما هذا من قواعد الأسلام حين قرر الزكاة وحين جعل الأحسان إلى الناس من كفارة الذنوب والتقصير فى أداء الفروض الدينية

أقول كل هذا من شرائع الأسلام ومبادئه الأساسية اهملناها فأهملتنا الدنيا ثم لما تنبهنا على روعة مما نرى لأوربة من المنعة والعز والسلطان عكفنا ندرس أبحاثهم وفلسفتهم وخطبهم ومواثيقهم بعضهم مع بعض ففتنا بما يكتبون وما يقولون وفتن المتطرفون بالحادهم ولادينيتهم . وخير ما وصلوا إليه حاضر بين أيدينا فى ديننا ونظمنا وتاريخنا وفى أن الأسلام دين الفطرة الذى لايخجل عقل من اعتناقه دين التوحيد الذى بنى عليه السكون فهو لايغرى بالحاد ولا لادينية كما يغرى سواه إنما يكون الألحاد فيما لايقول بذلك . دين الديموقراطية التى كانت تشتاقها النفوس منذ عرفت الاجتماع دين الانسانية والمحبة والاخاء والمساواة وهو أقصى ما وصلت إليه العقول. هو فى شرعنا من أربعة عشر قرناً حين أنهم ما عرفوه إلا منذ عهد قريب جداً ولا نزال حناجر بعض الأمم تتطالب به حكامها وتثور من أجله ومع ذلك لا يظفرون بشىء .

***

أشد عناصر الوطنية اتحاد الجنس واللغة والبيئة ثم الدين . وهذا ما اجتمع لنا نحن العرب مهما ترامت بلادنا — على انه ترام لايفصله فاصل . فوطننا العربى كتلة واحدة فى ناحية من أرض الله يشمل كل

البقاع التى يشغلها العرب وتكون لهذا دولة واحدة ولا افتئات منا فى هذا فانه إذا جاز لبعض الأمم الأوربية أن تضم تحت جناحيها أجناساً وشعوباً وبلاداً لاتتصل بها بأقل لحمة فمن حقنا من باب أولى ان نوحد وطننا العربى ونصونه ونحج الى كعبته شباناً وشيباً لنتزود لحياتنا من مهد الاسلام والعربية . وإذا قلنا وطننا فهو وطن جنسنا كله — أى جميع الجزيرة العربية التى جئنا منها : الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين والعراق والشام وفلسطين ومصر وجيرتها التى عمرناها قبل الاسلام وبعده وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان والصحراء الكبرى وأواسط أفريقيا والجزر المتصلة بها . هذه بلاد العرب من قبل أن يبعث النبي عليه السلام ثم ملأها العرب من بعده بالنازحين إليهما من بلاد العرب الأم على مدى ثلاثة العشرة من القرون . جنسنا فيها واحد هو جنس العرب ولغتنا فيها واحدة هى العربية ومجتمعنا فيها واحد إذ حياتنا الاجتماعية فى كل صقع منها مثيلة بها فى كل صقع عربى آخر ودين الغالبية ، التى لا تعد الأقلية فى جوارها شيئاً كبيراً ، هو الدين العربى . على أن هذه الأقلية عربية قديمة الأرومة ولن يخرجها من حظيرة الوطنية العامة كونها بقيت على غير الأسلام . ولكن هذه الأوطان قد عبثت بها اطماع أوربة الاستعمارية وفككت من أوصالها

وفى اعتقادى أن جهودنا فى سبيل الحياة والاستقلال يجب أن تكون موجهة الى توحيد الوطن العربى الذى حددته سواء كنا تابعين فى هذا أو

متبوعين ما دام يعصمنا الأسلام من الزلل . ولذلك يجب أن نحيي الخلافة في صورة عصبة متحالفة لأقطار العرب وسائر المسلمين لنحيي المبدأ الذى قامت عليه دولة الأسلام فى وجه الدنيا المغيرة منيعة خيرة ليكون من قوينا لضعيفنا صون ومن عالمنا لجاهلنا نور ومن غنينا لفقيرنا ثروة وتمكين . ولنا من وسائل ضمانة حسن العمل والتوازن ما عرفنا العلم والتاريخ والنظم القائمة .

هذا ما يجب علينا عمله والدعوة اليه بكل وسيلة اذا كنا راغبين حقا فى الحياة على صورة صحيحة مسعدة أو كنا متألمين حقا لما أصابنا من الوهن والاتضاع . يجب أن نحيي وطننا العربى وديننا العربى ونجرى على ما أمر به رسول الله سيد العرب وسيد الخلق معا لنستعيد مجدنا وهناءتنا ومنعتنا وإلا فماذا ينتظر هذا الشرق الاسلامى من الدنيا اذا كان لا يعمل لها عملها بل يهمل أسباب المنعة والقوة ويكتفى من الأمر بالدعاء لله تعالى أن يرد عنه غائلة المغتالين ومطامع المغيرين . لا . لن يجيب الله دعاء قوم يعطيهم الاسلام فيتجاهلونه أو يكتفون منه بمظاهر العبادة . فما العبادة الا وجه من وجوه الأسلام . أما روح الأسلام فالأخاء والتعاون والتناصر والعمل الجدى على صيانة بلاد الله ودينها من عوامل الفناء الملحة عليه من كل جانب، بكل وسائل الصيانة والدفاع، ورد منعتها اليها لتستطيع أن تعيش شريفة وتسعد الدنيا معها وتمحو منها هذه الشرور العصيبة التى تفتك الآن بالناس جميعا حتى بالفاتك نفسه .

من أجل هذا شرعت فى وضع هذه السلسلة القصصية لأعرف معالم تاريخ الاسلام الى من لا يعرفونه أو لا يجدون الوسيلة ولا الزمن إلى مطالعته أو لمن عندهم كل هذا ثم يهملونه إذ هو علم ولا يهملونه إذ هو قصص. وقديما عرف الأوربيون فضل القصص فى الدعاوة والتبصير والدرس الذى ما كانوا يملكونه لولا أن يصاغ فى القالب الذى تتهافت عليه الأيدى والقلوب ، وهو قالب القصة التى لا يجد فيها الناس مشقة عليهم فى قراءتها ولا تكليفا وإن وجدوا فيها علما ونورا بل يجدون فى عنوانها مغريا بتناولها وفى روايتها حاديا على قراءتها وفى اللذاذة منها تطلعا إلى أمثالها . ومن ثم تنتشر حيث لا يخطر على البال: فى المدن والصحراوات والبحار وفى الجبال ،فى البيوت والفنادق والمعسكرات والمستشفيات،فى القطر والسفن والطائرات وفى الترام والسيارات وفى الضياع والمزارع والمضارب والمنتجعات والمشاتى والمصايف، بين أيدى الكبار والصغار من رجال ونساء و بين العلماء والجهلاء والأغنياء والفقراء والابناء والامهات والبنين والبنات وفى أيدى التلاميذ ومعلميهم والجنود وضباطهم والعمال والصناع والسادة والخدم وأحلاس البيوت.جميع هؤلاء ومن لا يستطاع حصرهم سيكون لهم من هذه الرواية وما سيتبعها من سلسلة قصص التاريخ الاسلامى أيسر وسيلة للعلم به وا كتناه الحقيقة فيه وسيرون الاسلام فيما فعل المسلمون وسيكونون يومئذ أدنى الى الاجابة عند الاهابة وأرعى للآباء ساعة النداء وأزكى قلبا وأعظم بالعقل والروح حبا لرسول الله وتقديرا للخير الأعلى الذى جاءنا من ظلال سدرة المنتهى.

وسيكون دأبى فى هذا القصص غير دأب ديماس الفرنسى فهو لم يهتم الا بالخيال ولو أفسد التاريخ ولا دأب وولترسكوت الانجليزى فهو لم يرع للتاريخ كبير حرمة بل سيكون إمامنا فى ذلك لورد ليتون[٤] وأيبرس[٥] الالمانى فقد راعى كل منهما التاريخ أولا وغلب حقه على حق الخيال لأنه لم يكن بصدد الأدب وحده بل كان بصدد مواعظ التاريخ وعبره. ولأحرى بى أن أنهج نهجهما وانا بصدد العبرة من تاريخ بلادى ومواعظه حين أنهما كانا يكتبان عن غير بلادهما . على أنى لم أجد هذا المسلك علىّ شديد الوعورة حين كتبت قصصى التمثيلى وهو أشق من هذا الصنف وأصعب مراسا ولذلك أرانى شاكرا فضل الله علىّ فى أنى لم ألجأ مرة إلى مباحثات الأدب القصصى فألوى التاريخ أو أقدم الحوادث أو أؤخرها من أجل الأدب بل التزمت مسار التاريخ فيما بين أيدينا من الكتب المعتمدة العربية والافرنجية إلا فيما يختص بأشخاص الرواية الذين تخيلتهم

واذا قلنا الرواية فمعنى هذا الذوات التى حيكت بينها قصة محبة تقصر أو تطول تبعا للمقصد . وإذا طالت بنا قصة باب القمر فالمقصد واضح والغرض أعم وأوسع من أن تتضمنه بضع مئات من الصفحات

* *

ولا بد لى قبل أن أنتهى من هذه الكلمة أن أدل — وان لم أكن

---

(٤) مؤلف خاتمة بومبى (٥) مؤلف وردة التى نقلها إلى العربية أستاذنا محمد مسعود

فى حاجة كبيرة إلى الدلالة — على أن معتزى هذه القصة وهو ورقة بن صليح أو ورقة بن العفيفة شخص خيالى استولدته من ذاتية الزمان العربى فى أوائل القرن السابع الميلادى . هو مثال مكة الفتاة فى انتظار الهادى الأعظم ولسان آرائها وآمالها وعلو نفسها ثم تحمسها لأصلاح بلادها ولم شعث جنسها وأصلاح الأنسانية وانقاذ الدنيا من أوزار العقول على أثر ما أصابت من الهدى ببعثة الاسلام . غلام استولدته فى كنف زعيم الحنفاء قبل الرسول عليه السلام — ورقة بن نوفل ابن عم سيدة المؤمنين رضى الله عنها خديجة بنت خويلد زوج الرسول عليه السلام وربى على ما أراد له هذا الحنيفى الذى كان يدعو هو وزيد بن عمر بن نفيل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وغيرهم من حكماء العرب إلى الحنيفية أى دين ابراهيم عليه السلام دين التوحيد الذى اقتضت رحمة الله بعباده أن يبعث به محمداً صلوات الله عليه ، وتسلياته هدى ونوراً للعالمين كافة .

وسيرى القارىء لهذا أنى بنيت روايتى على معالم التاريخ فى بلاد العرب من صنعاء إلى نجران فالطائف ومكة فيثرب وبلاد ثمود والقدس والشام ومصر والاسكندرية فى أيام بعثة المصطفى عليه السلام ، مصوراً للقارىء حالتها الاجتماعية والسياسية والدينية وذاكراً ماجرى من الأحداث فيها ، وما فعلت قريش العاصية حين دعاها النبى عليه السلام إلى ترك عبادة الأوثان : ليكون ماقصدنا من إيراد تاريخ الرسول عليه السلام فى مكة أبين وأوضح بأسبابه ومقدماته وملابساته ، متبعين فى ذلك خطى

كتب السيرة الصحيحة (ونبّهنا اليه فى الهوامش) ومستأنسين بما لدينا من مصنفات علماء الفرنجة الذين لا يسعنى إلا الاقرار بفضلهم علينا ، بما جهدوا وما بحثوا و بما أظهرونا على جلائل شئون وتفاصيل أمور ما كان فى مقدورنا معرفتها أو تبيّنها إلا بجهد كبير ودرس طويل ، و بتجرّد منطق ليس من الميسور تحقيقه إلا برياضة نفسية شاقة . هم أساتذتنا بما أخذنا عنهم فلهم شكرنا الخالص فيما علمونا ، واليهم يرجع الحمد بما مكنتنا مؤلفاتهم من الاستعداد لأداء ما نشعر أنه أصبح مطلوبا منا إلا وهو هداية الناشئة العصرية وتبصيرها بحقيقة دينها وأدب سلفها ، ومحاضرتها فيما كان وما يجب أن يكون فى الدنيا على نحو ما يفعل كتاب الفرنجة اليوم . و إذا استشعرنا هذا الواجب ، ونرى من حقنا أن نؤديه قبل سوانا ، فذلك لأن الناشئة العصرية لم تعد تأمن فيما يقدم لها من حكمة الدين وتاريخ من حملوا أمانته و رسالته ، وشرح مقاصده وقواعده ومبادئه إلا لـكاتب من أنفسهم . لاشكا فى مقصد غيره ، ولـكن لأن وجهة الـكاتب العصرى فى مهمته الدينية غير وجهة غير العصرىّ . هو يلتمس الجانب الاجتماعى ، و يعنى بالقومية ومقوّماتها . وهذا ما يعنى مصر الفتاة أساسياً . وهو مثلها وليد الشك ينتهى إلى يقين لا وليد التسليم لأول خاطر . وأساليبه أقرب إلى ذهنيتها وما اعتادت . ولأن للأدب العصرى مطاليب كثيرة ليس فى مقدور من لا يتيسر له الاطلاع على مناحى الفرنجة فيه أن يستكملها كمطاليب الفنون التى اختص بها الفرنجة ومن أخذ عنهم . ولهذه أصول وقواعد يبنى عليها

علم النقد الحديث أى علم معرفة القيم فى المؤلفات ، وتبين وجود الكمال والنقص فيها .

ولذلك أبادر فأعترف لعلماء النقد بنقص تعمدت أن يبقى نقصاً . ذلك أننى لم أورد فى روايتى من المواقف ذات العلاقة بشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام إلا ما كان له سند صحيح من كتب السيرة . أما ما كانت ضرورة الرواية تتطلب استكماله بالخيال على سبيل الاحتمال فقد نبوت عنه وتركته ، لاعتبارات كثيرة لايجوز أن يتجاهلها حماة الأدب والقصة اعتماداً على أن الرسول وصفه الله تعالى بأنه بشر مثلنا يوحى اليه، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ـ لأن ذاتية الرسول عليه السلام مقدسة عندنا وليست مما يجوز أن يتناوله الكاتب حتى فى أبسط نواحيها أى فى الحوادث العادية كالأكل والمشى والتحية والالتفات والابتسام والدعاء، فى مواقف متخيّلة ليست ذات سند . فان مانزعم نحن أنه من عادىّ الأمور لا يكون كذلك فى الواقع فيما يختص بذاتية كل خلجة من خلجاتها وحركة من حركاتها مما يبنى عليه أحكام ويؤخذ منه قواعد وبه يستشهد . من أجل ذلك أهملت هذا الجانب من مستلزمات القصة إهمالا تاماً ، إلا فى ثلاثة مواقف لم أكن أستطيع مع اقتضائى إياها إلا أن أشبع السياق فيها . وهذه نبهت القارىء فيها بالاشارة فى الهامش إلى أنها تخيّل لاحقيقة تاريخية،وارتاح علماء الدين إلى ذلك .على أنى تلوت الجانب العربى من القصة على أستاذنا صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية

أصول الدين و إذ رأى فرط حرصى على ما أنا بصدده أشار بأن ألزم القارىء التنبّه إلى هذا فى صلب الكلام نفسه وسياقه ففعلت . فله عظيم شكرى .

نعم حسب القصة من أنها قصة ما لا بد أن ينبه وكان يكفى للأمر أن يشار اليه، ولكنا لا نريد أن نطبق هذا على أقدس ذاتية خلقها الله .

***

وإذ يجب أن أتقدم بالشكر إلى من كانت لهم يد فى هذا العمل ، فشكرى أوجهه بعد ذلك إلى صديقى الفاضل محمد أفندى جبر مدير مكتبة وزارة المعارف لفضله علىّ قديماً وحديثاً فقد هدانى باطلاعه الواسع إلى ما لم يكن فى استطاعتى الاهتداء اليه من موارد العلم فيما له علاقة بعملى القصصى من سنة ١٩١٣ إلى يومنا هذا . و إلى أبى الفضل والسادة الفضلاء الشيخ الوقور الاستاذ حسين بك أباظه إذ أعارنى من مكتبته مالم أكن أستطيع الوصول إليه من كتب التاريخ والفقه ولتوليه عنى البحث والتحقيق فى كثير من المسائل براً منه بدينه و إكراماً للعلم و إلى صديقى الفنان الأستاذ حسين أفندى فوزى عضو بعثة وزارة المعارف ومدرس الرسم والتصوير بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، ثم إلى الأستاذين الناشئين أحمد أفندى زكى وكامل أفندى منصور من طلاب الفنون الجميلة العليا فى روما فقد تولوا تصوير مناظر الرواية وأجادوا .

وأرفع شكرى كذلك إلى العلماء الفضلاء أصحاب الفضيلة والعزة محمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف ومراقب المجمع اللغوى والاستاذ

الكبير الشيخ مصطفى العنانى مفتش أول العلوم العربية بالجامعة الازهرية الشريفة وفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد الحسينى الظواهرى المدرس بكلية أصول الدين والاستاذ النابغة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من جلة علماء الازهر الشريف وإلى المربى الكبير صاحب العزة محمد لبيب الكردانى بك مراقب التعليم الأولى بوزارة المعارف وإلى الاستاذ الجليل أمين سامى حسونة بك ناظر معهد التربية وإلى المؤرخ العمدة الدكتور حسن ابراهيم حسن أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية الموقرة وزميله العالم الجغرافى النابه الاستاذ الشرقاوى ، وإلى الاديب الفاضل الشيخ عبد الرازق سلطان مدرس التاريخ الاسلامي بكلية اللغة العربية ، وإلى الاستاذ العالم الأجل الشيخ عبد الرحمن الجزيري كبير مفتشي مساجد الأوقاف لاطلاعهم على الرواية قبل عرضها على القراء وتفضلهم علىّ بالكلمات الكريمة التى اقتضيها وأنشر بعضها بترتيب ورودها تحدثاً بفضل الله علىّ ، وإثباتا لامتنانى وشكرى الدائم ، فان فيهما غذاء لنفسى يقويها على المضى فيما اعتزمت من خدمة الدين والتاريخ بقدم ثابتة وقلب مطمئن . كما أن فيها تزكية لعملى عند من أردتهم بما اعتزمت من صياغة التاريخ الاسلامى فى قالب قصصى .

على أنى لا أريد أن أقصر شكرى على ذوى الأيادى الظاهرة علىّ فى عملى فان هناك فريقاً من علية القوم فى مصر وزعماء الرأى والفكر فيها كانت لهم علىّ ولا تزال أيادى خير قوتنى فيما أنا بصدده: وزراء وقضاة وكتاب وعلماء،

وأساتذة فى الجامعتين، ومراقبون ومفتشون ومدرسون فى وزارة المعارف وسيدات من زعيمات الحركة القومية فى مصر قرءوا منه وتتبعوه ، فكان ارتياحهم اليه ، واستحثاثى عليه ، وتساؤلهم عنه معوانا لى على العمل ، وتقوية للجهد.

وكذلك إلى رصفائى الأدباء الذين لا أزال أحن إلى عهدى معهم ـ وأدعو الله أن يمكننى من الأوبة اليهم ـ كتاب الجرائد العربية الذين رحبوا بالمشروع وكتبوا عنه قبل ظهوره حسن ظن منهم بأخيهم وتشيعاً للفكرة كما تشيع معلمو التاريخ لها واغتبطوا بها

والى صديقى المفضال صاحب العزة الأستاذ مصطفى غزلان بك رئيس قلم التوقيع بالديوان العالى الملكى لتفضله بكتابة عنوان الرواية فى شكله الرمزى بخطه البديع النادر المثال

وآلان

أضع الرواية بين يدى العالم الاسلامى راجياً أن أكون قد وفقت الى طريق الخير الذى قصدته . ولقد كنت أرجو أن يكون فى الأحياء أستاذى وصديقى الخالد الذكر الشيخ عبد العزيز شاويش لأقول له : هذا باكورة ماسألتنى أن أنهض له فهل يرضيك ؟ أو يكون حياً أستاذ المصلحين السيد الامام المرتضى الشيخ محمد عبده رضى الله عنه لاقول له : ياخليفة الافغانى العظيم ويامن كان عليه أن ينفخ فى الصور ليوقظ العقول ويهيب بالناشئة أن يعملوا للدين والوطن ، هل أردت أن يكون الامر من هذا القبيل ؟

هذا ما أترك الجواب عليه لخليفتك الاعظم وولدك الأبر الاكرم :

صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر

الشيخ محمد مصطفى المراغى

شيخ الجامع الازهر

وزعيم النهضة الاسلامية العصرية وداعية الحركة الاصلاحية العلمية من بعدك ، والذى يعد جلوسه على كرسى الرياسة العليا فى الجامعة الازهرية فوزاً مما لك فى عليين .

أتركه بين يديه مستفتياً فان كان الرأى أنى فى سبيل الوفاء لك ولاساتذتى من بعدك فواسمداه وإلا فانى منتصح فى منهجى بنصحه ومستهد فيه بهداه والله الموفق وحده إلى الصواب ؟ ابراهيم رمزى

مصر الجديدة فى ١٥ مارس سنة ١٩٣٦

كلمات السادة العلماء

كتب إلىّ صاحب الفضيلة والعزة الاستاذ محمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف والمراقب العام للمجمع اللغوى يقول متفضلا :

* * *

صديقى الكاتب الكبير

. . . . تصفحت رواية « باب القمر » أولى حلقات قصص التاريخ الاسلامى فراعتنى عنايتكم بتصوير التاريخ تصويراً قصصياً أخاذا جمع بين صحة النقل وحسن العرض هذا إلى روعة الاسلوب وسلاسته وتخير الالفاظ المهذبة والعبارات المحررة. ولعمرى أن هذا الصنيع خير ما يحبب التاريخ إلى القراء ويملأ نفوسهم تعلقا به واقبالا عليه ، ويبصرهم بما كان عليه سلفهم الصالح من خلال سنية وآداب رضيّة . وان اضطلاعكم بهذا العمل الجليل قد استوجب لكم تقدير العارفين واعجاب المثقفين . ؟

* * *

وتفضل الصديق الكريم والعالم الكبير الاستاذ الشيخ مصطفى عنانى المفتش الأول للعلوم العربية بالجامع الازهر والمعاهد الدينية فكتب الىّ يقول : صديقى المفضال. . . . .

. . . تصفحت على عجل قصة « باب القمر » فرأيتها مضيئة مشرقة جذّابة مشوّقة ورأيتك قد بذلت فيها جهدا لايقوم به الا أمثالك ممن

وهبوا حياتهم وفكرهم لخدمة العلم وتقريبه الى النفوس وتحبيبه إلى القراء وتذكير الجهود بمآثر أسلافهم الخالدة ومحاسنهم الطريفة والتالدة وعرضها عليهم فى ثوبها القشيب وشكلها الناضر وجمالها الباهر . نفع الله بك ووفقك إلى الخير وجزاك بما يجزى به العاملين المخلصين .

* * *

وكتب صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الحسينى الظواهرى المدرس بكلية أصول الدين بالازهر الشريف بعد ديباجة كريمة :

« هذا وإن رواية « باب القمر » . قد وفق الله صاحبها الى فتح باب جديد للدعوة الاسلامية على وجه شهيّ جذاب . لا يستطيع قارئها أن يلقى نظرة على أولها حتى يكملها فتكمل له السعادة لما تضمنت من الحقائق التاريخية التى صاغها باسلوبه العذب المتين . نسأل الله أن يجعل جزاءه على ذلك الجنة إنه ولى الاجابة » ؟

* * *

وتفضل حضرة صاحب العزة الاستاذ المربى الكبير محمد لبيب الكردانى بك مراقب التعليم الاوّلى بوزارة المعارف فكتب يقول :

صديق الكاتب الكبير . . . . .

« ليس لى أن أتحدث عن روعة القصة وسحرها ، فهذا مما للجمهور أن يدلى فيه برأى ، وإن كنت واثقا أنه سيطرب كما طربت ، ويعجب كما أعجبت ، ولكن الذى لى أن أدلى به مع الثناء العظيم هو أن الحقائق

التاريخية والجغرافية التى صيغت عليها روايتك « باب القمر » دلت على فرط حرصك فى رعاية التاريخ واستقصائك البحث فيما لا يعنى به إلا المعلم المتعمق المطالب فى قاعة المحاضرة بما يتم ويكمل . وفى اعتقادى أننا نستطيع اليوم وقد اعتزمت أن تكتب تاريخ بلادنا الاسلامى فى القالب القصصى الرائع الصادق الذى رأيناه فى « باب القمر » — أن نعتمد على قصصك فى تعليم الناشئة واستدراك مافات غير الناشئة مما كان يجب أن يعلموه من تاريخ جنسهم ودينهم وسلفهم الصالح المجيد فى مدى القرون الثلاثة العشرة التى مرت بنا ، من غير ما مشقة ولا تكليف

وإذ كان هذا غرضك من هذا القصص الذى أنت فيه علم من أعلامه المعروفة ، فانى أهنئك من صميم قلبى لوثوقى أن سيكون لجهدك ماهو حقيق به من التوفيق والاقبال من أمتك التى تخدمها منذ زمن بعيد بمنتهى الاقتدار والبر والأمانة . . . ؟

* * *

وتفضل عميدنا العالم الفاضل مخرج ناشئة المعلمين للمدارس المصرية الاستاذ أمين سامى حسونه بك ناظر معهد التربية فكتب يقول : —

أخى الاستاذ . . .

. . . . أشكرك إذ خصصتنى بقراءة قصتك الجديدة « باب القمر » قبل نشرها وإنى كمعلم أرحب بالفكرة التى أوحت إليك كتابة تاريخ حقب من حقب الاسلام فى قصص ممتع كهذا. ذلك أن القصه أصبحت أداة من أدوات

التربية الحديثة يستعين بها المعلم على تحبيب مادته لعقول المتعلمين . ففي المراحل الاولى من الطفولة تكاد تكون القصة هي السبيل الأول الناجح في تنمية الملكات وتكوين أحسن العادات وفي جميع مراحل التعليم الأخرى نستعين بالقصة على تحبيب القراءة والاطلاع للتلاميذ . وعندما تنقطع صلتنا بالمدرسة وينصرف كل منا إلى العمل الذي أعد له في الحياة تستمر القصة همزة وصل بيننا وبين نواحي المعرفة المتنوعة :فالطبيب أو المهندس مثلا قد ينصرف بطبيعة عمله عن قراءة كتب التاريخ ولكنه يقرأ القصة التاريخية أو يشاهد تمثيلها بعاطفة الحب للقصة فيتعلم من التاريخ وفلسفته أضعاف ماتعلمه بالمدرسة . وهكذا كل من لم يتمكن من إتمام دراسته العالية يستكمل ثقافته العامة بقراءة القصص الراقية . فأنت إذ تكتب قصصك بهذا الروعه والدقة تخدم التاريخ الاسلامي أجل خدمة وتقدم للقراء عامة مادة ثقافية ممتازة ، وللمؤرخين موضوعاً جديداً للدراسة والتحليل . وسيرى كل من يقرأ قصتك — كما رأيت — عظم المجهود الذي بذلته في تحضير مادتك وتنسيقها. فقد جمعت في قصتك بين التاريخ والاجتماع والأدب الراقي، وأنت في عملك تذكرني بتولستوي لما كتب (أنا كرنينا) فمثل لنا أصدق تمثيل حياة الروسيا السياسيه والاجتماعية بجانب موضوع القصة الرائع . وما كان لنا أن نحصل على هذه المعرفة بالسهولة التي حصلنا عليها إلا عن طريق القصة . فاهنأ يا أخي بمجهودك ، وليهنأ به قرّاء العربية وعشاق الأدب العالي والثقافة العميقة. لقد فتحت فتحاً جديداً في عالم الأدب بترقية

القصة العربية ، إذ وضعتها فى مستوى القصة الغربيّة . فلك منا الشكر والتقدير والسلام . »؟

* * *

وتفضل الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية فكتب يقول بعد ديباجة كريمة : —

إلى الاستاذ الكبير والشاعر المطبوع . .

تصفحت روايتك الخالدة « باب القمر » أولى حلقات السلسلة القصصية التى اعتزمت بناءها على معالم التاريخ العربى الاسلامى فبهرنى اقتدار السيد على أن يصوغ لنا تاريخ بعثة النبى عليه السلام ، واحداث الزمان الجارية فى مكة ويثرب وبلاد العرب وثمود والبنطيين وما دونها من الشام ومصر من اقتتال أكبر أمتين فى الأرض يومئذ ، فى قصة طليّة ساحرة بأسلوبها وأدبها ، رائعة بما تضمنت من الحقائق التاريخية والنوازع النفسية والاسباب الاجتماعية التى لم يطرقها من المؤرخين المصريين إلا القليلون المتعمقون . وإنى كمعلم للتاريخ الاسلامى أرى أن هذه القصة ستبلغ غاية المدى فى تبصير الجمهور المصرى والعالم الشرقى بتاريخ نشأة الاسلام وحقيقة العربية والاسلام ، وتاريخ مصر والشام فى تلك الحقبة التى تعد على ابهامها فى كتب التاريخ أهم حقبة فى تاريخ مصر والاسلام .

ولقد وقفت غير مرّة وأنا أطالع الرواية أتفحص معين نفسك

المؤدبة المهذبة وأنا ممتن عليك ومغتبط بك لأن قصة غرام فتاك ورقة ابن العفيفة بلمياء ابنة الحارث بن كلدة كانت على روعتها واهتزاز النفس لحديث حبهما منسجمة الموضوع مع القداسة والطهر الذى يغمر رواية محورها أثر الرسول الأطهر فى هذه الحياة الدنيا . فلا يسعنى إلا أن أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيكم عن التاريخ الاسلامى وعن اللغة العربية وآدابها جزاء من يحسن عملا . ؟

* * *

وتفضل الاستاذ العالم محمد عبد المنعم الشرقاوى مدرس الجغرافية بكلية الآداب بالجامعة المصرية فكتب يقول : —

استاذى الكبير . . . .

. . . . تكريم منك إلى أن ترسل الىّ الحلقة الأولى من سلسلة القصص الذى نهضت لصياغته على معالم تاريخ العرب والاسلام

ولقد قرأتها فاذا بى أمام عمل جليل ممتع ومهذّب كدأبك فى كل ما كتبت . بل لعمرى انك تفتح فتحا جديداً فى عالم الأدب كنا وكانت الامم العربية فى أشد الاحتياج اليه لتبصير الناشئة بتاريخ سلفهم واحياء عزة القومية العربية فى نفوسهم ، وجمعهم تحت لواء واحد فى معترك الامم المتدافعة فى ميدان الفوز والغلبة .

ولا أرانى مبالغا اذا قلت أنك بما اعتزمت ستعمل على اذاعة تاريخ العرب والمسلمين وجهودهم فى سبيل الانسانية بما لا يبلغه كتاب علمى أو

بحث مستفيض . وكمدرس للجغرافية يعرف قدر جهدك فيما بنيت عليه قصتك ، أبعث اليك بتهنئتى على ماوفقت اليه واعجابى بهمتك التى لا تعرف الـكلل فى سبيل العلم والادب »

***

وتفضل الـكاتب المقتدر والخطيب الدينى العالم فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى فـكتب يقول :

عزيزى الأستاذ الجليل

تصفحت روايتك (باب القمر) فألفيت أسلوبا رائعا وخيالا حكيما ومعانى سامية لها أحسن الأثر فى نفوس الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه

وقد أعجبنى منك شدة أدبك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبارتك وتجنبك ما عساه أن يؤاخذ به الروائى من التساهل فى العبارة والإمعان فى الخيال إلى حدّ لا يليق بهذا المقام الأقدس . فلك على هذا العمل الجليل حسن المثوبة من الله عز وجل وحسن الثناء من المتأدبين الذين لهم من روايتك هذه أجمل الفوائد وأجل العظات والسلام عليكم ورحمة الله »

***

وتفضل صديقنا الأستاذ النابه الشيخ عبد الرازق سلمان مـدرس التاريخ بكلية اللغة العربية وصاحب التأليف الطيب فى هـذا الموضوع

فكتب تحليلا وتقديرا جديرين بأدبه الواسع وعلمه الغزير نجتزىء منه بما يأتى « يبعث على العجب العاجب ما تكشفت عنه الأيام من مدهش فى تاريخ العرب والاسلام هلهل تلك الستور التى طالما أسدلت على حقائق هذا الضرب من التاريخ فسفرت فى ثوب جديد طرزه جلال المنطق ورائع الخيال وبرزت لأبناء الضاد فى اسلوب غير مسبوق اليه فكانت من أبدع ما نسقته يد الانسان فى هذا الزمان

لقد راح صديقنا الاستاذ الكبير يستنطق الدهر بما كنزه فى ثناياه من مجد الشرق ويستوحى القرون ما احتجنته من عظمة العرب ويستلهم الأيام ما أسرته من فضل الاسلام فأدرك البغية وأحرز الأمل المنشود ودل بما بذله من جهود على أنه غرة وضاءة فى جبين العقل ودرة فى تاج التفكير انبعث منها نور العلم انبعاث المدنية الحديثة فى الشرق والغرب من باب القمر . . .

. . . .

وإنا لنرجو أن يتخذ الشباب من باب القمر عظة تحرك هممهم وتشحذ عزائمهم فيخلقون جيلا إسلاميا جديراً أن يعتز بعزة الاسلام ويحفظ كرامة الاسلام . وأنه ليتسع أمام نفوسنا باب الأمل عند ما نقدم للقراء « باب القمر » فجزى الله المؤلف عن اللغة والتاريخ والعلم والأدب أحسن الجزاء »

* * *

وتفضل الاستاذ النابغه الشيخ محمـد عبد اللطيف دراز من علمائنا الاعلام فـكتب الى يقول :—

عزيزى الاستاذ . . .

« . . . . رأيت فصولا من رواية « باب القمر » فأعجبت بأسلوبها القصصى الطريف وعددته فتحا جديدا فى باب التأليف الحديث وسيدفع الشبان إلى الاتصال بالتاريخ الاسلامى وإذا اتصلوا بهذا التاريخ فقد تلقوا منه دروس المجد والعظمة ادام الله توفيق الاستاذ الـكبير لخدمة الامة والاسلام » .

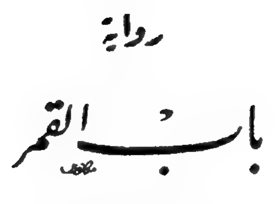
﴿ فالحمـد لله اولا وأخـيراً ﴾

ودلالة على ما قصدت من البر

اهـــدى الرواية

الى ابنتى الوحيدة

اسمية



الفصل الاول

قافلة مكة

كان أهل نجران[1] وجيرتها من بلاد اليمن وباديتها يعلمون أن القافلة عائدة إلى مكة فى بكرة اليوم الاول من الربيع — ربيع سنة ٦١٦ الميلادية لتدرك عيد العزى[2] إلهة قريش[3] الكبرى قبل موعده بعشرة أيام .

(١) ناحية فى شرق بلاد اليمن الشمالى ذات نخيل واشجار ومياه كثيرة كورتها نجران وهى على ثلاثة جبال . وتبعد عن صعدة الى الشمال خمس مراحل وعن صنعاء عاصمة اليمن عشر مراحل (٥٠٠ كيلو) وبينها وبين مكة عشرون يوما . وهى ذات تجارة واسعة فى حاصلات اليمن ومصنوعاتها من الجلد . وفى العطارة والعطور وكانت فى أيام النبي عليه السلام أسقفية مسيحية ثم دخلت فى الاسلام على يد سيدنا خالد بن الوليد وكان أمراؤها بنى عبد المدان اخوال ابى العباس السفاح الخليفة العباسى

(٢) وثن كان لقريش شمالى مكة فى طريق العراق عند مكان يسمى نخلة الشامية على مسيرة تسع ساعات من مكة كان له سدنة وحجاب وله عيد كبير تجتمع فيه قريش والاعراب : يقال كان صنما على انه فيما يخيل الينا كان شجرة قديمة العهد على رابية وقد ازالها سيدنا خالد بن الوليد بأمر الرسول عليه السلام أثر فتح مكة .

(٣) أشهر قبائل العرب : وأفصحها واشرفها : وقريش عاشر جد للنبي عليه السلام

ولذلك حرص كل راغب فى شهود العيد من شباب صعدة وصنعاء وأبناء سراتهما ، وكذلك كل من كان فى سبيله إلى العراق أو إلى الشام ، من يهود اليمن ونصارى بنى كندة (٤) أن يكون فى نجران قبل يوم القافلة ليسير فى أمنها وحماها

وعمل تجار مكة الذين كانوا قد وردوا اليمن فى أوائل الشتاء ليستبضعوا لهذا العيد أن ينسلوا إلى نجران قبل موعد الرحيل بأيام ليستريحوا هم وجمالهم من وعثاء الأسفار فى مرابع اليمن وأسواقها المترامية قبل أن يندفعوا

ومنه تفرعت بطون ولعل أعظم البطون شأنا فى تاريخ مكة وبلاد العربية بعدئذ بنو عبد المطلب جد الرسول عليه السلام وبنو أمية . وكان لكل بطن شأن دينى أو مدنى فكان لبنى هاشم (ابى عبد المطلب) السقاية والعمارة ولبنى أمية الراية ولبنى نوفل (أهل السيدة خديجة) الرفادة والاحسان ولبنى عبد الدار سدانة الكعبة وحجابتها ولهم دار الندوة ولبنى اسد رياسة الشورى ولبنى تيم (اهل سيدنا ابى بكر الصديق) الاشناق اي الديات والمغارم ولبنى مخزوم (اهل سيدنا خالد بن الوليد) القبة والاعنة اى شئون الحرب ونبنى عدى أهل سيدنا عمر بن الخطاب السفارة ولبنى جمح الايسار والازلام والقداح ولبنى سهم الاموال المحجرة اى المخصصة لآلهتهم (٤) أهل امرىء القيس

شجرة مختصرة من تفريع قريش

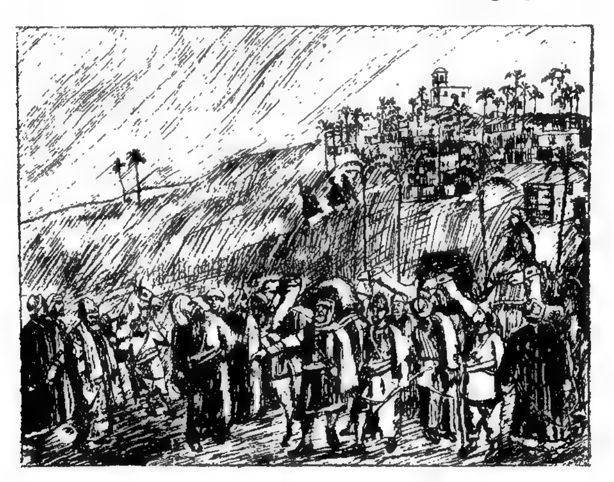
فى سفرة أخرى أمدها عشرون يوماً متواصلة . على أن منهم من كان فى نجران من قبل ليستولى على ما تصنعه أيدى أهلها من البرد والادم ويزاحم على ما يرد اليها من العطور والتحف التى يتهافت عليها الناس فى الاعياد . ولذلك امتلأ سفح الجبل من نجران ومغارس نخيله دون البيوت بمضارب الاعراب والتجار ومناخات الابل ومرابط الخيل والبغال وأكداس البضائع ، ولاحت نجران كأنما هى فى يوم الحشر لاجتماع أنواع الخلق فيها ، وتزاحم الناس فى اسوقها متفرجين أو مستبضعين . وانتعشت الحياة فيها بما كان ينفق الرحل من الاموال ، وما يدفعونه فيما يشترونه من الاثمان .

وفى عشية الربيع سمرت القافلة سمر الوداع واشترك أهل نجران فى السامر بمعازفهم وأعوادهم وغلمانهم وقيانهم ، فشربوا ، وغنوا ورقصوا ، وتلهوا ، الى أن انتصف الليل أو كاد ، فعاد أهل نجران الى بيوتهم وانصرف أهل القافلة الى مراقدهم ، ليغنموا شيئا من الراحة قبل الرحيل فى بكرة الصباح .

جاءت ساعة الرحيل ، فما همت النجوم بالادبار حتى هب الرقود على صوت المنادى : أيها العير ، آذنت الشمس بالشروق . هبوا الى الأحمال .

لم تكن الشمس قد آذنت بشىء ولا الفجر ، ولكنها أكذوبة اعتادها المنادون ليوقظوا الركب من رقاده ، ويصرفوه إلى العمل . ولم

يكن الركب على علم بحقيقة الساعة ، لأنهم كانوا نازلين على سفح الجبل من جانبه الغربى ، وما كانت الشمس لو طلعت لتبين لهم قبل أن يعلو النهار وتعلو الشمس هضباته . ولذلك نفروا من مراقدهم ليقوّضوا الخيام ويلموها ويجمعوا الرواحل ويحملوها حتى اذا تنفس الفجر كانت القافلة قد تهيأت للرحيل عن نجران



الشمامسة يتراكضون نحو القافلة

ولكنها ما كادت تنتظم فى طريق الحجاز ، ويهم المنادى أن يصيح: سيروا على بركة الله ، حتى اضطرت الى الوقوف على صياح متدارك وارد

من ناحية الـكنيسة ونداء من منادين يقولون : قفوا . انتظروا لا ترحلوا .

وقف الركب . والتفت الناس نحو الصائحين وهم على أكوار الابل فاذا هم يتبيّنون فى فترة الصباح ثلاثة أشباح تنحدر عن قمة الجبل حيث قامت الـكنيسة ، وتتراكض بين النخيل القـائم على السفح تراكض الظلمـان المستنفرة تبتغى ساحة الركب بأدنى سفحه. حتى إذا دنت لاح أنها أشباح ثلاثة من الشمامسة جاءوا لينهوا إلى الركب بخبر . فأخـذ النـاس فى عجبهم يتساءلون ما ذا جرى ؟ لماذا يقفهم أهل الـكنيسة عن الترحال بعدما توجهوا واعتزموا الرحيل ؟ وفى ذلك ما فيه من سوء الطالع وشر النذير . ولـكنهم لم يلبثوا فى عجبهم طويلا فقد بلغ المجلّى (٥) من أولئك الشمامسة ساحة العير ، واستطاع أن ينهى اليهم وهو يلهث من شدة الركض ، أن مولاه ابن الحارث (٦) اسقف نجران المعظم يأمرهم بالعودة إلى المضارب حتى يسافر معهم فى الغد ، وانه يريد لقاء سلمان المنادى .

تذمر الركب لهذا الامر على اختلاف من فيه ايما تذمر حتى المنادى حتى الحداة والسائقون ، وغالبهم من نصارى نجران أتباع الاسقف نفسه وملتمسى بركته وفضله ، ولـكنهم لم يملـكوا إلا أن يطيعوا كارهين، ويأخذوا

---

(٥) سوابق الخيل ثمانية : فأولها المجلى ويسمى السابق والمصلى الثانى والمقفى الثالث والتالى الرابع والعاطف الخامس والمنمر السادس والبارع السابع والاطيم الثامن

(٦) ابن الاثير

بعقاود الجمال لينيخوها غاضبين . واستشعرت البعران سورة الغضب من أصوات قادتها ، وشدة أخذهم بزمامها فعجت ذعرا ، ولغبت استشفاعا ، ثم بركت فى النهاية طوعا للصوت والاشارة

وكان الذين فى الركب من تجار مكة ويهود صنعاء أشد حنقا وغضباً لأنهم كانوا يحملون فى القافلة أكداسا من بضاعة الأعياد ، فكل يوم يقضونه انتظاراً أو تلوّماً يذهب بالكثير مما أملوا من الكسب فى تجارتهم . ولذلك عارضوا فى الانتظار ، وأمروا رجالهم بالمسير . ولكن الرجال أبوا أن يخذلوا اسقفهم الكريم ، وأدرك العيرأن لابد لهم من الاناخة فشرعوا فى ذلك وهم محنقون . ونفس أحد اليهود عن صدره وخاطب الشماس : أما كان مولاك الاسقف يعلم أن القافلة تسير اليوم ! وأن الناس تاركون فراشهم فى السحر ! ليدركوا ساحة الركب ويتحملوا ! لماذا لم يعلن العير برغبته هذه فى أصيل الأمس أو عشيته ويتركنا فى مضاربنا ولا يكلفنا هذا العناء الكبير !

فلم يحر الشماس المخاطب جوابا . ولكن أحد الاثنين الآخرين تصدى من عنده بجواب لفقه فى غير وعيه مما عنده من الاخبار التى كان يحرص أهل الكنيسة ألا تذاع إلا فى أيام الصلاة العامة على لسان الأسقف وحده . ولذلك عاقبه الأسقف بعد يومه على ما قال ، إذ خشى أن يتهمه اليهود بسوء . قال الشماس :

وردت إلى مولانا رسالة من اسقف بنى تغلب يدعوه للقدوم على

عجل إلى ديار ربيعة ليتذاكرا هناك فيما وقع بالشام من الاحداث .

فضحك اليهودى لهذا الجواب هازئا وسأله متهكما :

خبرنى بربك متى جاءت هذه الرسالة إلى مولاك الأسقف ! ومتى جاء الرسول ! أفى موهن الليل مع روح القدس ! أم فى السحر على جناح العقاب!

لم تخف لهجة التهكم على الشماس ، ولكنه ما كان يستطيع أن يجابه اليهودى بمثلها ، فقد كان اليهود حكام اليمن وولاة الشريعة فيها من قبل الأكاسرة ، وكان مخاطبه لكثرة أسفاره معروفا فى ديار نجران بما له من عريض الجاه فى صنعاء . فصمت كما صمت الأول ، وتدارى عن الجمع فى جبانة ، وسار عائداً إلى الكنيسة يتبعه صاحباه وسلمان .

وقال أحد تجار مكة وهو ينزل عن راحلته غاضبا : أما والعزى وربها لأرفعن الامر إلى بنى عبدالدار [٧] يوم أصل إلى مكة، ولأنتصفن لنفسى ولتجارتى من هذا الأسقف ، فاذا لم ينصفنى الحكم فلأعوقن الأسقف عن الرحيل الى ديار ربيعة يومين ولو خلته القافلة

عندذلك تراءى الحداة والسائقون المتحدثين ينتصرون لراعى كنيستهم الأكبر بعد ما كانوا أول الغاضبين، ويحاولون تطييب خواطر المتذمرين تفاديا من الشر ، فانبرى أحدهم يقول :

وحق مريم البتول ، ومارسرجيوس الشهيد [٨] ، ماعمد الأسقف إلى

(٧) هم أصحاب دار الندوة واليهم كانت تنتهى الخصومات للفصل فيها

(٨) يقول بطلر إنه شفيع نصارى اليمن ومصر

ما فعل بملكه ، بل هو أمر جلل أوحى به إليه كما قلت يا أبا دؤاد . فلم يطق اليهودى سماع هذا ، وأشار بعصاً كانت فى يده الى الرجل ليفسح له الطريق ، وسكت ثم عاد إلى الكلام فقال وقد نالت قدمه الأرض : لاعجب أن يكثر الوحى فى هذه الأيام ! إذا جاز أن ينبغ فى الوثنيين من أهل مكة أمّى ويدعى الوحى ، فلماذا لايدعى الوحى مثله أسقف نجران !

تضاحك الجمع لدن هذه الملاحظة ، وانتهز الجمالة فرصتها السانحة فأخذوا فى حل الحمول ، وانبرى أحدهم، وهو من جمالة ثقيف [٩] — يقول: أما أنا فلا أومن بالوحى ، ولكنى أومن بالأسباب . ولا بد أن يكون لدى الأسقف سبب جلل حمله على رجائنا أن ننتظره . وإنى لأعدكم أيها الرفاق أن نغذ فى السير فنعوّض أنفسنا من يومنا الضائع يومين. إن الطريق سهل منبسط ، والهواء لايزال قرا ، ولن يضيرنا أن نبكر فى الغدوّ كل يوم ساعة ، ونتعوّق فى الرواح كل عشية مثلها . فأجاب المكى متهكما :

---

(٩) قبيلة عربية عظيمة الشأن مستقرها الطائف وهى قرية عظيمة فوق جبل على يومين جنوبى شرق مكة يزيد ارتفاعه على الف وخمسمائة متر وفيه مياه كثيرة وبساتين كروم وزروع . ومن مشهورى الثقفيين القائد والحاكم الشديد الحجاج بن يوسف الذى يعزى اليه استقرار ملك بنى امية بعد الراشدين ، والحارث ابن كلده اشهر اطباء العرب وكانوا يعبدون اللات كما تعبد مكة العزى . وقد استعصت الطائف على جيوش النبى عليه السلام . واستعملت جيوش المسلمين فيها ما كان معروفا من آلات حرب الحصار يومئذ وهى المجانيق والدبابات فالاولى آلات لرمى الاحجار الكبيرة لتهدم الحصون والثانية قلاع متنقلة على عجل يكون فيها الجند بحيث يستطيعون أن يوازوا الاسوار ويقاتلوا وهم فيها . فاذا أجلوا العدو تسلقوا الاسوار ودخلوا. ولم تسلم الا بعد غزوة تبوك .

أجل ، لكى تقتل البعران إعياء ، وتحرمنا فترة العيد كلها . ثم نزل عن بعيره ، ونزل معه الا كثرون

ضحك الناس لهذا مرة أخرى ، وانبرى بعض من كانوا يودعون الركب يخففون عنهم بالكلم الطيب . هذا يقول : إنما أراد الله أن نأنس بكم ليلة أخرى . وذاك يستكرم فيقول : إنكم أهل صنعاء ومكة أهل جود وكرم ونحن هنا نعيش فى خيراتكم ، فلا بأس عليكم أن تكرمونا بالبقاء هنا ليلة أخرى

على هذا هدأت سورة الغضب وسرّى من الناس فنشطوا الى خيامهم يحلونها عن الرواحل ويضربونها فى المضارب كما كانت ، وشرع الخدم والعبيد يعدون طعام الصباح .

الفصل الثانى

أحداث الشام

لم يكن الشمامسة صادقين ولا كاذبين حين قال المجلّى : إن الأسقف راحل غدا مع القافلة ، ولا حين قال المصلّى . إن رسالة جاءته من أسقف بنى تغلب (١) فى الحيرة يرجو قدومه إلى ديار ربيعة (١) ليجتمع به هناك ، و يتذاكرا فيما وقع بالشام من الاحداث ، ولكنهم على كل حال نفذوا مشيئة الأسقف فيما أراد من تأجيل سفر القافلة إلى الغد .

نعم جاءته أخبار متوالية مع الركبان فى مدى السنين السبع الماضية عما كان جاريا فى أدنى الأرض من اقتتال الفرس والروم ، واندحار جيوش الامبراطور فوقاس ، وخلفه هرقل فى أرمينية والشام أمام جيوش كسرى ابرويز ووقوف القائد الفارسى شاه ورز على شاطىء خليج القسطنطينية يحاول عبور الماء ليضرب المسيحية الرومية فى عقر دارها ضربة قاضية ، وانصراف زميله القائد شاهين إلى دمشق و بيت المقدس ليجهز على مملكة الروم فى الشام وفلسطين ، وحقا أن هؤلاء الشمامسة الثلاثة اشتركوا فى صلاة الشكر الحارة للرب على زوال دين الكفر الرومى من بلاد المسيحية، وعلى ما أنزل الفرس باتباع مذهب خلقيدونية (٢) الملكى من الويلات

(١) قبيلتان عربيتان مسيحيتان فى جنوبى العراق .

(٢) بلدة على خليج القسطنطينية اجتمع فيها بطارقة المذاهب المسيحية ، فى سنة

بالتقتيل ، وتهديم الكنائس وتفضيح الأعراض جزاء مخالفتهم لدين اليعاقبة (٣) الحق ، دين أهل الشام و بلاد العرب ومصر والحبشة ، ولا شك أنهم سمعوا بعض القساوسة والرهبان يشيرون على الأسقف فى فرحهم بهذا الفوز الباهر أن ينهض فيقصد بهم إلى الحيرة ، ويدعو أسقف بنى تغلب ليذهب معهم هو وقسانه وفدا إلى مارية زوجة كسرى أبرويز وأختهم فى المسيحية اليعقوبية ، رافعين اليها آيات الشكر على برها بدينها، إذ حملت زوجها على قتال الروم و إبادة دين الكفر ويقيموا الصلاة تلو الصلاة فى الكنيسة التى اقامتها لعبادة الرب فى بلاد المجوس ليتم لها النصر بالاستيلاء على بيت المقدس ، وتخليص الصليب المقدس من أيدى أدعياء الولاية عليه من بطارقة الروم على أن تعطيهم إياه ليحفظوه عندهم فى كنيسة نجران ، بعيدا عن أيدى الطامعين ، وأن الأسقف أقرهم على هذا الرأى السديد وعزم على تنفيذه عند ما يسترد شيئا من العافية التى فارقته بسبب كبر السن ، وهو يأبى إلا أن يعزوها الى الجو ، وتقلب الأحوال — ولكنه ما كلف الشماسة إلا أن ينطلقوا فيوقظوا سلمان عن الرحيل ، ويدعوه اليه . نعم سمعوه يقول فى صوت المريض شيئا عن إزماع أحد

٤٥١م وكان قرار الغالبية اقرار مذهب الروم على انه الاصدق والاصح وسمى الملكى لانه دين ملوك الروم ويعتقدون ازدواج طبيعة المسيح (٣) واليعاقبة اتباع يعقوبوس بارودايوس الذى تمسك بالعقدة المعروفة فى الشام ومصر ومشهدها مدينة اذاسا بين دجلة والفرات ويعتقدون أن جسم المسيح يفنى ويفسد .

الناس السفر فى الغد ، ولكن لم يخطر على بالهم أن فى نجران أحدا تتأخر القافلة عن الرحيل من أجله ، الا بنو عبد المدان . وهؤلاء كان يمكنهم أن يقفوها من تلقاء أنفسهم بغير حاجة الى الوساطة من الأسقف . ولذلك قدروا انه الاسقف نفسه قد عزم على تنفيذ ما أجاب اليه القساوسة وكذلك أنهوا الى سلمان انه مسافر فى الغد ، وتطوع الشماس الثانى بابداء سبب سفره ، فكان ما كان من غضب التجّار ، واستهزاء يهودىّ صنعاء ، ووثنى مكة بالأسقف الموقر على مسمع من أشياعه وأتباعه ولذلك عنفهم الأسقف على سوء ما قالوا ، واوكل إلى كاتبه معاقبة القائلين عقاب الحق بضرب العصا وصفع القفا .

أما ما جرى فحقيقته أن باذان الوالى(٤) الذى كان على اليمن أخبر معاونيه فى الحكم من اليهود فى صنعاء بما كان من اندحار جيوش هرقل فى الشام ، وتسلّط الجنود المجوسية على الكنائس والاديار بالهدم والتقويض جزاء عناد أهليها واقفالهم الأبواب فى وجوه الجيوش

وأن إخوانهم النازلين فى أنطاكية وأذاسا(٥) انضموا علانية إلى كسرى، وسبقوا المجوس فيما اقترفوه من أعمال التخريب . وعلموا كذلك أن الفرس

---

(٤) كانت اليمن ولاية تابعة للفرس ايام بعثة النبي عليه السلام وما زالت كذلك حتى اسلمت اليمن فى السنة العاشرة من الهجرة على يد سيدنا على وأرسل النبي عليه السلام معاذ بن جبل واليا عليها .

(٥) بطركيتان يعقوبيتان فى بلاد الشام .

ن طريقهم إلى بيت المقدس ، ولا بد أن يصنعوا فيه ما صنعوا فيما قبله من بلاد المسيحية . فتيقظت فى نفس هؤلاء الحكام اليمنيين أمنيتهم القديمة ، ألا وهى ! إعادة مملكة أورشليم[٦] فى فلسطين إلى ما كانت عليه فى عهدها الماضى ، ورأوا أن يرسلوا إلى هؤلاء الاخوان وفدا يوقظ فيهم هذه الأمنية الغالية إن لم تكن قد تيقظت من قبل ويشتركوا معهم فى التدبير لتحقيق غاية الامانى هذه

عينوا هـذا الوفد سرا ، وجعلوه تحت إمرة واحد من رجال الحكم النابهين اسمه إسحاق بن مردة ، وجعلوا معـه رفقة من أمثاله وبعض الأحبار ، ولـكنهم أذاعوا أنهم راحلون برسالة ولاء مجدد الى متبوعهم الاعظم ، ومولاهم الاكرم كسرى أبرويز ملك ملوك الأرض ، وبتهنئة خالصة على فوز جيوشه على عاهل المسيحية وتطهير أرض المعاد[٧] من دين ابن يوسف النجار[٨] ، على أنهم كانوا يحملون معهم هدايا وتقدمات إلى كسرى وزوجته مارية ليلقوه بها غير ما سبق لهم تقديمه اليه من قبل . ولـكنهم لم يشاءوا إعلانها لئلا يغروا بهم الاشرار فموّهوا على الناس أمرهم بأن خرجوا من صنعاء فى عير قليل العدد ، وساروا بغير ما حرس كبير ،

---

(٦) مدينة بيت القدس

(٧) فلسطين

(٨) يصر اليهود على أن عيسى بن مريم ابن يوسف النجار لا ابن الله كما يقول المسيحيون (٩) جرش بلدة كبيرة بين صعدة ونجران

لأنهم كانوا يسيرون فى بلاد لهم فيها المكانة العليا ، وهى بلاد صنعاء وصعدة وجرش، أما نجران فما بعدها فكانت لبعدها عن مستقر السلطان مما يستوجب أن يسير العير فى حمى عير أكبر . فكان مقصدهم أن يسيروا فى ركب مكة ولكنهم ما بلغوا صعدة حتى مرض اسحاق فاضطروا أن يقضوا بها ما كان فى نيتهم قضاؤه فى نجران قبل رحيل القافلة . فلما أبلّ عاودوا الرحيل وواصلوه من بلد إلى بلد فى طريق نجران حتى إذا كان اليوم الثانى لافاضتهم من جرش ، وذلك قبل ان ينصرم الشتاء بيوم وليلة — كانوا قد وردوا حلة فى الطريق على نهر هناك من الانهار الكثيرة التى تخترق بلاد اليمن وتكثر حولها الزروع والاشجار . واذ كانوا يزعمون أن بينها و بين نجران بضع ساعات، حين كانت فى الواقع على مسيرة يومين أو حوالى ذلك ، آثروا فى جهلهم ان ينيخوا فى جوارها قبل موعد الاناخة و يقضوا العصر والليل فى حمى أهلها و يرتاحوا واثقين أنهم بالغو نجران فى ضحى الغد قبل نهوض القافلة بساعات من النهار وساعات طويلة من الليل

وكان مقدم جمالة الركب يزعم أن بين يومه و يوم نهوض القافلة من نجران ثلاثة أيام أو مثل ذلك لأنه جلس فى حظيرة الجمال هو وإخوانه الجمّالة وعبيد العير يعدون الايام والشهور على أصابعهم ، و إذ كان غلام الحبر الذى فى العير ، فى نظر نفسه ، أحق الناس بأن يصدق لأنه متصل بسيده الذى له التوقيت والتاريخ فقد اقنع مؤتمرهم أن أول أيام الربيع

يوم الخميس أى بعد يومين وليلة وأربع ساعات من حين إناختهم تلك الليلة

اجتمع جهل الوفد بالطريق إلى جهل الجمالة بالمواعيد ، فكان كل منهم فى العشى سعيداً بما هو فيه . ولكن حدث أن خطر على بال أحد العبيد الذين وافقوا غلام الحبر من غير علم بالزمن ولا بغير الزمن ، أن يسأل سيده فى ذلك ، لا ليتزكى ولا ليشى بأحد بل شعوراً منه بأن هناك شيئا مما كان بين سيده و بينه من الكلفة قد رفعته صحبة الطريق . ولكن سيده كره منه هذا ونظر إليه شزرا ولم يجبه . فتطوع أحد رجال الوفد وأجاب بالحقيقة فى لغة يفهمها العبد فقال له : إذا طلعت شمس الغد يبقى بينك وبين الربيع يوم كامل أى نهار كامل وليلة واحدة

ظهرت الدهشة على وجه الرجل ، و بدا شىء من القلق فى عينيه وأخذ ينظر إلى زميله المفتى غلام الحبر ، وهذا ينظر إليه متوسلا أن يصمت . ولكن مقدم الركب كان قد دخل وسمع بما جرى ، وما قيل ، فاضطرب وأعلن الامر لسادته على الفور ، واتهم غلام الحبر بخداعه ، وأنكر العبد نيّة الخداع بل أنكر أنه قال شيئا بتاتا إلا ماقال جميع الجمالة . وأراد إسحاق أن يصرف هذه الضوضاء ، فقال : لا بأس ، لم يصبنا من هذا الخطأ أذى والحمد لله . فليس بيننا و بين نجران إلا نصف نهار ، ومن ثم يبقى لكم يوم طويل عريض تقضونه فى نجران لتستبضعوا ما تشاءون لرحلتنا فى بلاد الوثنية

هنا دق الجمال على صدره دقة يأس وقال : ست ساعات ! يا سيدى الامير ! إن بين هذه الحلة ونجران مرحلتين كبيرتين لا يقطعهما الركب إذا جد فى أقل من يومين متواصلين

فقال إسحاق : ويحك ! ماهذا ! فاستمر الجمال يقول : وإذا كان بيننا وبين قيام قافلة مكة يومين فمعنى هذا أن تموت الجمال اعياء

فانزعج إسحاق ونهض يقول: ويل لك ياعبد السوء ! ألم تقل لى هذه حلة الأراك ؟

قال : بلى ياسيدى . قال : ألم تقل لى إن حلة الأراك على نصف مرحلة من نجران ؟ قال : بلى يا سيدى . فقال اسحاق : فما هذا إذن ؟ فقال مقدم الركب : لقد كان مولاى يسألنى عن تخوم البلاد ومرابضها ، وبين بلدة نجران وتخومها من ناحية جرش مرحلة كبيرة [١٠] وحلة الأراك على مسيرة ست ساعات من هذه التخوم

سقط فى أيدى الوفد اليهودى ، وضاق صدرهم ، إذ تبينوا أنهم لن يبلغوا نجران فى أول الربيع ، ولن يدركوا القافلة . وملكهم اليأس من كل جانب . وكاد إسحاق يضرب الرجل بسيفه لقاء ما أنزل به من الهم ،

---

(١٠) المرحلة العادية خمسون كيلومترا تقريبا كما بين القاهرة وبنهاضلا والكبيرة سبعون أو حوالى ذلك

ولكنه اكتفى بشتمه ، وسبه وطرده من حضرته ، وهو محنق مغضب حتى كاد الرجل ينصعق ذعراً .

وجلس إسحاق وصحبه صامتين يفكرون فيما تبينوا ولا يهديهم الفكر إلى سبيل . أيغامرون بأنفسهم فى الطريق إلى مكة فيسيرون عيرا تغرى قلته أعراب نجد والحجاز بتخطفهم وقتلهم وسلب مامعهم ؟ أم ينتظرون قافلة أخرى تخرج من نجران وهى لا تسير فى العادة إلا مرة فى الشهر أو الشهرين يضيع على أمراء اليمن فى غضونه فرصة العمل لتحقيق أمنيتهم فى قيام مملكة أورشليم ! أم يرسلون رسولا يستمهل القافلة حتى يبلغوا نجران: عدّاءلا يستقر ولا يتلوّم حتى يبلغ ساحة الركب ! ولكن أين العدّاء وهم فى حلة من حلل البادية لم يجدوا فيمن مرّ بهم من أهلها إلا أنقاضا من الناس أكلت الصحراء جسومهم ؟ وأين من لايهاب غوائل الطريق إذاهو سار وحده فى تلك المهامه والأحقاف ؟ لقد حاولوا أن يغروا الجمالة بوافر الأجر والجزاء إذا قام أحد منهم بهذه المهمة، فأبوا كلهم وذعروا ونكصوا على أعقابهم معتذرين بأن فى هذه البادية جنسا من الناس يعرفون بالنسانيس يسيرون على قدم واحدة (١١) ، ماإن يروا أحدا من غير جنسهم حتى يجتمعوا عليه ويحملوه إلى غيرانهم فى مجاهل الصحراء يرقصون حوله ويعزفون ، ثم يلقونه فى النار ليشووه ويأكلوه .

ملك اليأس فؤاد إسحاق كما ملك سواه ، ولكنه لم يطق البقاء فى

(١١) عن لسان العرب

مكانه فنفر من مجلسه وخرج إلى ظاهر فسطاطه يستنشق نسيم الصحراء ، وينفّس عن صدره بالمشى فى الخلاء ، وقد صور له اليأس أن يهمّ هو نفسه بهذه المهمة ليستوقف القافلة حتى يرد عيره بما معهم من الاثقال والحمول ، ولكنه لم يكن بصيرا بالطريق . ثم تواردت عليه أخيلة مما صوّره له جهالته من مخاوف الصحراء ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب ، وأخذت الارض تصطبغ بألوان دهماء وتمد النفس للاوهام ، فخطا نحو رفقته يستأنس وقد عوّل على المضىّ إلى نجران فى هوادة ، وينتظر بها حتى يرحل إلى الحجاز عير آخر .





الفصل الثالث

ورقة بن ضليح

ما كاد إسحاق يستقر فى خيمته ، وينهى إلى رفقته ما استقر عليه رأيه حتى بلغ أذنهم صياح استغاثة ودقدقة أقدام غير بعيدة عن الفسطاط . فنهض من مجلسه فزعا ونهض من معه كذلك ، وخرجوا إلى ظاهره ليروا ماهنالك. و إذا بهم يصطدمون بمقدم جمالتهم فارا من القتل ، و إذا هم يرون فتى من عنفوان الشباب يجرى محنقا مغضبا و راء الجمال ، والسيف مصلت فى يده . فاعترضه إسحاق قائلا :

على رسلك يافتى ! من أنت ؟ ولماذا تجرى بالسيف وراء الرجل ؟

وقف الفتى فى روعة شبابه يلهث وهو محنق ، لايتكلم بل أخذ ينظر إلى الحكم و رفقته بعينين واسعتين سوداوين طويلتى الهدب زادهما الغضب سعة وسواداً ، وأظلهما حاجبان مقوسان كالسيف الذى فى يده وينظرون منه الى محيا أسيل لم تخف سماحته حتى من وراء ماعلاه من الغضب ، وفم منتظم الشفتين والثنايا ، وعنق متلع على صدر رحب فى قامة وسط بين الطول والقصر ، وليس عليه إلا ثوب [1]

---

(١) الثوب هو الجلابية عندنا يكون فوقه الرداء . والثوب اما أن يكون باكمام واسعة أو ضيقة فان كان ضيق الكم سمى دراعة . وغالب الاثواب بغير ماتسميه ياقة

أسوديين المسوح والحبر(٢) ، قد تمطنق عليه بحميلة سيفه ، وغرس خنجره في حزام عليه غير عريض

وإذ لم يرد سؤال إسحاق عاد إسحاق يسأله وهو يعمل على تهدئته : ماسبب هذا ياترى ؟ هل أساء الرجل إليك ؟ فأجابه الفتى وقد عرفه لأنه رآه هو و بعض من معه فى صنعاء : إن هذا الجمّال لص غادر . ثم تعجب للسائل كيف لم يتذكره فقال: ألا تذكرنى أيها السيدا لحكم ؟ إنى أنا ورقة ابن صليح المكى وقد تلاقينا قبل اليوم

لم يذكره الحكم ، ولا أحد من رفقته . فصمت متأملا ثم قال انا تلميذ الحارث بنى كلدة الثقفى الطبيب ألم ترنى معه ؟ قال إسحاق: أناأعرف الحارث حق المعرفة فهو من أصدقائنا ولكنى لا أذكر انى رأيتك معه. قال: اولا تذكر انّا تحادثنا فى سوق صنعاء ؟ قال: ما أكثر نسيانى قال ورقة ويحى أيها السيّد اسحاق ! ألا تذكر مجيئك أنت وهذا الحبر الجليل عندنعيم الصيدلانى فبعتك شيئا من عقاقيره وإن نعيا خبّركم انى من مكة وان الحبر سألنى عن رجل من بنى اسماعيل اسمه محمد قام فى مكة يدعو إلى الحنيفية ملة أبيكم ابراهيم ، فلما أجبته مصدقا قال الحبر: هذا مصداق ما ورد فى التوراة !

أو يسمونه زياقا : وأما الرداء فهو العباءة أو البرنس ويكون فوق الثوب — واختلاف التفصيل بين تضييق وتوسيع لا يغير من الواقع . واختلاف الجهات أدى إلى اختلاف التسمية وحيرة المتأخرين فى تصور الصور والاشكال

(٢) نسيج من الصوف الاسود والحبر فيه حرير

هنا تذكر إسحاق والخبر هذه الحادثة فقالا على الفور : أجل . أجل . أهو أنت ؟ قال : أنا هو بعيني ! ثم التفت ورقة الى أحد رفقة الحكم فقال له : وأنت أيها السيد سليمان : ألم تكن معها فى السوق يوم غنّك بعير كان محملا قثاء ! وكاد يوقعك على الأرض لولا أنى تلقيتك بين ذراعى ! فرد سليمان : بلى . بلى معذرة إليك يافتى . ولكن سورة الغضب قد أخفتك عنى . خبرنا ما قصة الرجل ؟ قال : إن قصته لقصة السفالة وأسوأ المكر والدناءة : ذلك أنى كنت عند نعيم الصيدلانى وكان هو عنده أيضا يلقى حمولا أتى بها اليه من أرض سبأ[٣] . هناك علم أنى راحل إلى مكة بما جمعته لنفسى من بادية حضرموت[٤] واليمن من نبات العقاقير ومعادن الادوية . فعرض علىّ أن ينقلنى إلى حيث أريد ، وإذ لم يكن لدى ما أوثر به غيره عليه ، وكانت ثقة نعيم به قد أعدتنى رضيت بعرضه . وما زال الرجل من بعدها يتألفنى حتى وثقت به . وإذ خطر لى أنه يحسن بى أن أشترى رواحل لمتاعى حتى لا يتحكّم فىّ الجمالة فى الطريق ، فقد أبديت له هذه الرغبة فاقرها مستحسنا ، وعرض على أن يصحبنى إلى سوق الجمال ليهدينى بخبرته إلى الأشد الاصبر . فشكرت له هذه المكرمة ، واتفقت معه على يوم نذهب فيه الى السوق . فلما جاء هذا اليوم حدث أن

---

(٣) ناحية قديمة فى شرق صنعاء ورد ذكرها فى القرآن الكريم كان ممن آل اليهم الملك فيها الملكة بلقيس التى تزوجت من سليمان ابن داوود عليهما السلام وقصتها واردة فى سورة النمل . وقد وقف أحد الطيارين المستكشفين على آثارها منذ عامين ورسمها فدل الرسم على أنها كانت ذات قصور عظيمة

(٤) ناحية كبيرة جنوبى اليمن ممتدة من عدن على شاطىء البحر الهندى إلى عمان

كنت مضطرا إلى انتظار كلاًّ من حضرموت يجيئني ببعض ما لم يتيسر لى الحصول عليه من العشب النافع للحمى ونهزة الشيطان . فاعتذرت اليه من قعودى ،ولـكنى نقدته ما كان قدّره من الثمن لثلاثة بعران ، ورجوت منه أن يذهب ليشتريها بنفسه ثم يجيء بها إلى دارى ليحمل عليها حمولى. وقد كنت علمت من المضرب أنـكم راحلون فى بكرة الغد إلى نجران مثلى فصح عزمى على الرحلة كذلك فى بكرة الغد معكم . ولـكنى لما عدت إلى دارى فى العشية علمت أنه لم يجيء فقدرت أنه حاضر بها فى السحر . فلم يحضر فى السحر . ومع ذلك قدرت الخير والتمست له عذرا أثر عذر حتى مضى يوم كامل .فاضطررت أن أذهب للسئوال عنه فلم أهتد الى شيء . وعلمت من بعض رجال الدرب أنكم خرجتم الى صعدة فى سبيلـكم الى نجران فى نفس اليوم الذى كنت ضربته للرحيل عن صنعاء . واذ كنت أكره أن ارجع عن العزم اذا اعتزمته فقد حسبت مسافة الطريق فادركت أنى مضيع فرصة المسير فى قافلة مكة كما أضعت مالى اذا أنا انتظرت بعد ذلك يوماً ولذلك تركت الأمر بين يدى نعيم الصيد لانى ومضيت فى تنفيذ عزمى. واذ كنت ضريا بطرق اليمن ومسالك الأعراب فى البادية لـكثرة ما جبتها فى طلب العقاقير من منابتها ومعادنها ، حتى عرفنى أهل البادية جميعا — اشتريت ببقية مالى بعرانا أخر ، وأخذت أقرب طريق الى نجران ، طريق الجبل الذى لايجرؤ على عبوره الا اليائس مثلى أملا أن ابلغ نجران قبل القافلة .ولـكن البعران كانت ضعيفة هزيلة فلم تسعفنى

ولا أزال من نجران على مسيرة يومين ، ولم يبق على قيام القافلة الى مكة غير يوم واحد ، ولذلك رأيت أن أنتظر بها حتى تخرج قافلة أخرى ، أو عير كعيرى وعيركم فاعاود السير الى الحجاز أو ألتمس وسيلة أخرى للرحيل

ولقد رأيت مخيمكم من فوق الجبل ، وأنا لا أدرى من أنتم . وكان قد أدركنى التعب ، وحنّت نفسى الى الراحة، فملت نحوكم لأستريح وأريح الجمال ، ثم أرى لى رأيا فيما بقى من الطريق . فما كدت أنيخ حتى أبصرت بالرجل قادماً نحونا ، يتعرفنا وهو لا يدرى من أنا، بل ما كان يخطر بباله أن يرانى . حتى اذا قرب منى وعرفنى أدرك ماوراء ذلك فصرخ من الذعر لما تبينّه فى وجهى من الغيظ لدن رؤيته وثوران رغبة الانتقام منه على الفور. وجرى اليكم وجريت وراءه لأقتله أولا اراحة لقلبى فما عاد يهمنى المال. وكان الجمّال فى أثناء الحديث قد أخرج المال من جيبه مصروراً فى قطعة من ثوب خلق، وأخذ يقاطع حديث ورقة لكى لا يتمه ويقول : خذ مالك خذ مالك . انى لم أجد جمالا صالحة . ولم أملك أن أعود اليك . ثم رمى فى صرته عند قدمى صاحبه، فلطمه إسحاق إذ ذاك على وجهه لطمة شديدة من شدة ماعراه من الغيظ ، ثم تناول رقبته ودفع به حيث التى الصرة وهو يقول لورقة : دونك رأسه فاعله بالسيف. لعمرى لهو أهون جزاء . فانبطح الرجل على وجهه يستغيث ويسترحم . ولكن ورقة ركله برجله وشتمه فنهض وجرى الى حظيرة الجمال . وانحنى أحد اليهود فتناول المال من الأرض ، وقدمه الى صاحبه . فأخذه هذا وانصرف الى بعرانه

أما اسحاق فقد عاد الى خيمته وتبعه اخوانه ، وهم آسفون لما أصاب الفتى ، وحانقون على الجمال لغدره وخيانته . وودوا أن يتركوه حيث هم لولا أنهم كانوا فى قلة . بيد أنهم قرروا ألا يروا له وجها طول الطريق ، وأن يجعلوا أحد جمالة ورقة سائق العير ، ورئيس التحميل إذا هو آثر الرحيل معهم . ثم ذكروا الفتى وما بدا لهم من كمال رجولته ، وعظيم شجاعته التى هونت عليه أن يسير فى ثلاثة بعران فى طريق محفوف بكل مكاره البادية . وتساءلوا فيما بينهم : ترى ألا يقبل هذا الفتى المكى أن يسير فى مهمتنا ويعوق نهوض القافلة ؟

نعم إنه لا يحمل رسالة إلى ملك الملوك مثلنا ، ولا هدية ثمينة ، فلا حاجة به إلى العجلة ، وقد قال ذلك فعلا ، ولكنه كان يود أن يدركهم حتى قطع المفازات مغامراً ليرحل معهم لولا ما أصابه من غدر ذلك الجمّال . وقد لا يكره أن يدرك عيد الهته الكبرى إذا نحن أيقظنا فى نفسه الذكرى وأريناه السبيل إلى ذلك . ولكن من لنا بمن يحمل القافلة على الانتظار حتى ولو بلغتها رسالتنا ! إنها قافلة قرشية ، وهولاء القرشيون لا يرون لنا عليهم حقا ، بل لعلهم يؤثرون أن يحرجونا ولو لم يكن لهم مصلحة فى هذا الاحراج .

فأشار عليهم أحدهم أن يرسلوا فى طلب ورقة للعشاء معهم ، وأن يتلطفوا معه فى الحديث ، ثم يبلغوه حاجتهم ، ويجعلوا له لانجازها أجرا بمقدار كرامتهم وشدة حاجتهم — عشرة دنانير ذهبا — وخمسة ينقدها منادى

القافلة فى نجران ليحمله على قبول التأخير . فوافق الوفد على هذا الرأى ، وذهب أحدهم يدعو ورقة ، فلما دخل عليهم نهضوا تجلة له من حيث لا يشعرون ، وأجلسوه أكرم مجلس ، ودعوا بالطعام فلم يأكل إذ كان قد تبلغ لليل وانتهى . وعرضوا عليه الرأى فقبل ، وعرضوا عليه المال فرفض . وأبى أن يقدم رشوة للمنادى ، بل اقترح أن يقصد إلى الأسقف وهو السيد المطاع فى نجران، برسالة من إسحاق وتحية ، ورجاء منه أن يؤجل سفر القافلة يوما ليلحقوا بها . فاذا بلغوها فيها ، وأكرموا منادى القافلة وحداتها بما ودوا أن يكرموه به على يديه . ولكنه طلب اليهم أن يعدوا له خير رواحلهم وأصبرها ، على أن يأتوا برواحله ورجاله فى الغد معهم الى نجران

كبر الفتى فى عيون اليهود لمروءته وإبائه ، وشكروا له فضله وحسن رأيه ، ووعدوا أن يعدوا له أكرم النوق . وعلى هذا استأذن فى الانصراف ليدرك شيئا من ساعات النوم استعداداً لمشقة السفر فى الغد فنهضوا لتوديعه حتى غاب ، وعادوا ليعطوا الأمر باعداد خير نوقهم لركوبه ساعة يفيق .

الفصل الرابع

الشملالة

استيقظ ورقة في موهن الليل على رغاء الراحلة التي أمر اسحاق باعدادها . فرمى عنه غاشيته، ولم تكن غير برنس سميك اشتراه من أحدى أسواق الساحل فى بعض رحلاته ليكون مزدوج النفع : غطاء فى الليل ورداء فى النهار . ثم نهض فانتعل خفيه واحتمل سيفه وقوسه ، وأصلح مكان خنجره من حزامه وعمد الى سقاء الماء فنطل على وجهه بعض ما فيه ، وخرج ليأخذ سمته الى نجران

لم يكن ورقة خبيرا بالغ الخبرة بالابل ، ولكن ما وقعت عينه على الراحلة باركة على باب الخيمة حتى تبين أنها من أكرم النجائب، فلم يتمالك نفسه من فرط الاعجاب بها والتحدث بذلك الى رجال عيره الصغير ، وكانوا قد أفاقوا هم أيضاً على رغائها وجاءوا لخدمته قبل الرحيل .

رأى عيطاء طويلة القوائم عصلبية فرهة ، مخيفة النظرة كأنها مارد فى مسلخ عيطبول ، فقطع أنها شملالة عبر بواد .ودنا منها يربت على صفحتى عنقها بيديه اغتباطا بها وازدهاء بركوبها

ثم إذ مال نحو الكور ليرى ما عليه ، مالت بعنقها تتفحصه هى أيضا تفحص العروس خاطبها، فلما رأته فى ثوبيه وسلاحيه ، وشمت ريح عارضيه ،

وكانت قد أحست وقع يديه ، لاحت كأنما ارتاحت إليه ، فارزمت إرزاما ، ورجّعت في وجهه حنينا . وكأنما أدرك ما قصدت فسره رضاها ، وتناول رأسها في يديه وهو يقول لها : إيه يا شملالة · نضو أسفار مثلك وحليف قفار ، بيد أني أحمى الذمار ، وأنبو عن مظنة العار . ولقد عركت الدهر فما وجدت أعدل من الرمح ولا أمضى من الحسام البتار . هلم في سبيل نجران

ما كاد يمسك بالعنان و يعتلي الكور حتى نهضت كالكثيب وهمت بالسير في طريق الجبل . وما كاد ورقة يودع أصحابه ويوصيهم بحوامله وحموله حتى كانت قد غاصت في مجرى النهر إذ كان جافا وعبرته واعتلت جانب الطريق ، فلاحت في مواجهة نور القمر البازغ كأنما هي شعف في الجبل ، أو قطعة من سحب دهماء تدفعها الريح على لبة السماء

سارت به النجيبة دبيبا أشبه بزميل ، ثم وجيفا أقرب إلى الارقال ، فهي تطوى الارض طياً كانت تتلاصق به المرئيات وتتواصل كأنما هي متراصة ، وورقة من فوقها كراكب السفينة في البحيرة الهادئة . فانصرف الى التفكير فيما يحيط به من جلال الله و بدائع صنعه ، وتواردت عليه في سكون الليل ذكريات مما رأى ومما شهد ، فأخذ يتأملها و يتعجب و يحمد الله على أنه نجا بنفسه من غوايات الشيطان ، وأغناه بفضله عن الاذعان لغير مايتبين فيه الخير والصدق. وظل على هذا الحال حتى وهن الليل فتنبه الى نفسه ، والى القمر البازغ ، والى وقع خفاف الناقة على الطريق وقعا منتظما ، أثار في نفسه ميزان الشعر فالفى نفسه يحدوها بأبيات لايدرى

كيف انطلق بها لسانه ، ولا متى كان أول ماقال منها :

أيها المشرق فى هذى الفلاة	لم ذا الاسراف فى نور الاله ؟
ليس فى هذى الحياة مبصر	يطلب النور فتحبوه سناه
ليس فى الارض التى تغمرها	غير ذئب يحسب الناس شياه
ليس فيها منصف من ظالم	أو نصير من أفاعيل البغاة
أكند الخلق لرب الخلق من	خصهم بالخير فى هذى الحياة
كفروا من بعد ايمانهمو	ثم صدوا كل هاد عن هداه
غيّب الضوء فما أجدرهم	بنهار مظلم مثل دجاه



ولكن القمر لم يعره أذنا ، بل زاد إشراقا ظهرت به ابتسامة انسانه الساخر وضوحا ، ولاسيما حين بلغ أذنيه عواء قريب شاهد على اثره ذئبين يدبان على جانب الطريق عن يمينه حتى اذا حاذاها جريا نحوه فى همهمة الجائع ودمدمة الظافر ، والناقة ترعاهما ولا تعيرهما التفاتاً ، بل ترقل فى طريقها كالنسر الجامح ، ولكن ورقة كان كما قال نضو قفار وحليف أسفار ، وكم مر به مثل.

هذا فجازه مع السهم المارق ، ولذلك نزع قوسه عن مشجبها فى قتب الراحلة واستخرج سهما من كنانته ، والذئبان يراوغانه ويعتورانه ميامنةومياسرة، ويهمان به وبالناقة حتى اذا أوشك أحدهما أن يعلق ببطنها ليبقره كان السهم قد اخترق يافوخه فهوى على الارض صريعا . ولكن كان الذئب الثانى قد قفز عن الارض قفزة حاذى فيها رأس الناقة ووقع على عنقها ليعقرها عقر النمر حين شوّح بذيله ليلطم ورقة على وجهه على عادة الذئاب فى القتال . ولكنه لم يلطم الا كتفه ، وتدلى على لبان الناقة ، وسرعان مااستل ورقة خنجره من قرابه ، وحاول أن ينال من الذئب مقتلا . ولكن الذئب كان أبعد من منال يده اذ كان ورقة على سنام الناقة والذئب على قفاها فشد ورقة عنانها لترفع رأسها ويدنو قذالها فيدنو الذئب منه . ولكن الذئب كان أسرع منه وأبصر فما كاد ورقة يغمد الخنجر فى خاصرته حتى كان الذئب قد لطمه بذيله مرة أخرى على صفحة عنقه فارتدت الطعنة عن المقتل ، وأصابت فخذ الذئب ، فوقع على أثرها على الارض يحاول الجرى على ثلاث

عند ذلك وقف ورقة ناقته وأناخها وترجل وأخذ يتفحصها ، ولكنه لم يجد بها الا جرحا على صفحة العنق اليسرى من ناب الذئب ، وجر وحافى لبانها من مخالبه لم تجز الى اللحم . ذلك بأن قذالها كان مغطى بالاديم ، فلم يبلغ الناب منه مأربا كبيرا ، وكان الذئب فى ذعر ممن وراءه فلم يتمكن من فريسته .

حمد الله ورقة على هذه العاقبة . وتناول سقاءه وأخذ يغسل جروح الزميلة وفيما هو كذلك رأى جثة الذئب المصروع فأخذ يتأمله حتى اذا ملأ عينه منه وقلبه رأى نفسه يحدثه حديث الظافر المطمئن ويقول : إيه ياذئب العرب الابىّ الكريم الذى لايستخذى ، ولا يمارى،ولا يبيع حياة الحرية مع الجوع بكل فضلات موائد الامراء والأقيال كما فعل بعض قبيلك فى الراحلين اذ استكلب وارتضى عيشه المذلة والهوان من أجل لقمة يلقيها اليه بنو الانسان . لا لعمرك لقد أنصفت ، فان كنت قد خذلت الليلة فطالما ظفرت ، وانى لأراك سيداً عملسا ، عليك كسوة كريمة لم ينسجها لك غير ناجذيك وأظفارك . وتلك لعمرى من أردية الأسعدين . ولكنك ياذئب حاولت أن تأكل أكرم خلقين أنا وهذه النجيبة : حبيبين لم يجتمعا إلا منذ قليل ، وقد تعاهدنا على الوفاء ، فاعذر إذا أنا حميت إلفى ، وجعلت حتفك فداء حتفى . ثم تناول ورقة قبضة من تراب الصحراء فعفر به الجروح ، وإذ أنت الشملالة وعجت من ألم الضماد ربت على عنقها ، وهوّن الأمر عليها ، ثم اعتلاها فنهضت به ،وأخذت فى المسير كما كانت وكأن لم يصبها شىء .

الفصل الخامس

القرضاب

ذر قرن الغزالة على ورقة بعد مسيرة ست ساعات لم يقطعها عليه إلا الذئب فى قليل من الوقت . وكان صباحا بهيجا يملأ النفس روعة واغتباطاً بالحياة . وكانت الناقة تسير على سجية واحدة من الهمة والنشاط ، لا يعتورها فتور ولا تراخ فى المسير . وكأنما كانت معوّدة هذه الطرق ، فهى عارفة بالدروب بصيرة بالمجازات . ولذلك لم يكن ورقة فى كبير حاجة إلى تسييرها فلقد حدث له أنها صرفته غير مرة عما يعلم أنه طريق نجران ويحاول ردها فأبت أولا ثم أطاعت فوجد أنه كان فى ضلال فعاد بها إلى حيث اختلفا . ومن ثم ترك لها العنان . فكانت تسير فيما كانت تغالبه عليه . وكثيراً ما كان يدعها تسير على هواها فيراها تأخذ سمتاً يجهله . تدخل دربا لا عهد له به ، وتخرج منه إلى وادٍ ملتو ، أو ترقى مصعداً فى جبل ، ثم تنخرط منه إلى سفح فواد وهكذا ، فاذا هو قد قصر الطريق بقدر ما يقصر الوتر من القوس . والواقع أن هذه الناقة لم تكن مما يسير فى القوافل ، فان القوافل تلتمس أهون السبل وإن كان أطولها التماساً للسهولة والراحة ، بل كانت راحلة من رواحل الرسل والبرد بين اليمن والعراق ومدائن كسرى وهؤلاء لا يلتزمون طريق القافلة وإن هان ، إذا عرفوا ما هو أقصر منه ولو كان

شاقا . ومن ثم كانت الشملالة أدرى من راكبها بحاجته وأضرى بالطريق ولذلك أذعن فى آخر الأمر لها وسلّمها قياده ، وشغل نفسه بتأمل الأصقاع التى كانت ترودها .

ولقد كان من بين تلك المرائى الجديدة خيلة من شجرات مورقة ، ونخيل متشكل ، قائمة فى منبسط عند مقطع أكمة من جبل قائم فى مواجهة شمس الصباح ، كانت الناقة تسايره قرابة الساعة . ولقد كانت الأكمة قبل أن يدنو منها غبراء وفى بعض الاحيان سوداء داكنة كغيرها من الاحقاف التى مرّ بها ، فاذا هى الآن تتألق بما كان ينحدر عليها من ماء لم يره من قبل . فتعجب كيف لم يره والناقة قادمة عليه ، ولكنه عزا ذلك إلى التواء فى صفحة الاكمة رد أشعة الشمس إلى غير جهته ، وإن كان الواقع غير ذلك . وبهذا التعليل سار حتى دخل الخيلة واحتواه الشجر شاكراً للناقة فعلها . هناك رأى الماء يسقط متراخياً عن يساره على صفحة الجبل ، وإذا هذه الصفحة قائمة أوتكاد . كاللوح المنصوب أوالجدار القائم والماء ينصب من بين صخرتين رابضتين على ناصية الجبل كما يربض الوحش أو يرخم العقاب ، ثم يتدلى مستعرضاً على جبهة الجبل كأنه غلالة منشورة ثم ينزل عنه متجمعاً فى مسارب منحدرة إلى وقيعة بل نقرة يخرج منها فلج يسير فيه مايفيض من الماء .

ولكن كل شىء فى هذا المكان كان غريباً ، فليس على الماحى ولا

أثارة من حيّ ، والماء داعية الانسان والحيوان إلى التعمير إلا ما كان من أثافى قليلة . و بعرات متناثرة ، و بقية من عظـام كانت كأنها بقايا سفر نزل به من قبل .

على أن هذه الوقيعة لم تكن كغيرها من المستنقعات ، فهي لم تكن مبللة الجوانب ، بل كان ثراها ترابا جافا ، وكان الفلج أشبه بالاخدود لجفافه ، كأن لم يكن لهذا ولا لذاك عهد بالماء إلا الآن ، و إن لاح بالفلج أثر قديم منه ولـكنه لم يعر ذلك التفاتا ومضى ، فما كاد يتوسط الخميـلة على صغرها حتى رأى نفسه يكاد يصطدم بعوارض من أعجاز النخـل علقت بين الأشجار على قامة من الارض أو بعض ذلك فسرعان مالوى عنان راحلته ليقيها و يقى نفسه أثر الصدمة وكذلك نجا . ثم أوقفها ليتبين طريقاً يمر منه ، ولـكنه وجد أن الحائل ممتد إلى اليمين ومنعطف و إلى اليسار ومتصل بجدار الجبل ، فقدر أنها حظيرة صنعتها قافلة سابقة ثم تركتها ومضت وحمد الله على أنه رأى الحائل قبل أن تصطدم به الناقة . وفيما هو يلوى عنانها ليخرج من حيث أتى و يلتمس الطريق اخترق سكون المكان صوت أجش مزعج يقول له فى إنذار ووعيد :

قف : إنك في رحاب النسر فلا تمل و إلا هلـكت . أنخ واعقل

ذعر ورقة لهذا الصوت ذعرا شديدا ، لانه جاء فجـأة وزاده ذعرا أنه لم يعرف من أين أتى . ولا كيف يتبينه ، وشعر أنه وقع فى أحبولة لص من قطاع الطرق ، ولـكنه لم يكن يملك إلا أن يقف ، فوقف متهيباً وأخذ

يتأمل المكان ليرى من أين ينصب عليه الأذى ، وقد زعم أن صاحب الصوت مختبيء بين أغصان ما كان تحته من الاشجار فتطلع وتمعن ولكنه لم ير أحداً . وحدثته نفسه أن يعود من حيث أتى ، ولكنه وجد من العبث أن يخرج لأنه لو حاول ذلك ، وكان صاحب الصوت يريد به سوءاً ، فما كانت محاولته الخروج بمنجية له من الموت ، إذ يرديه بسهامه وهو مكشوف فبقى على حاله ولم يشأ أن ينيخ كما أراد الصوت . وكان صاحب الصوت فى أثناء ذلك يراقبه ويراقب الناقة ويعجب بها ، فلما استبطأه ناداه : أنخ واعقلها وتوكل .

فتوجس ورقة من ذلك خيفة ورد مستنكراً وقد ارتد إليه شيء من الجراءة على إثر ما تملكه إذ ذاك من القنوط :

— أنيخ ، وأعقلها ، وأتوكل ! ! على من أتوكل ؟

— على النسر الاعلى ، أخى يغوث [1] ويعوق [2] وأبى اللات [3] والعزى ومناة[4]

أوجس ورقة أن القائل من اللصوص الذين يحتالون على الناس برطازات الكهان فى بلاد العرب ، وإذ كان العرب يعبدون أوثانا متعددة فقد حشرها فى صعيد واحد ليحدث جواً أغبر يتصيد فيه فريسته ، وجعل بينهم لحمة ونسباً ليكون حديثه أشمل ، وتأثيره بهم أبلغ . ولكن ورقة

---

(١) صنم فى الحجاز عند يثرب (٢) صنم فوق أكمة فى اليمن بالقرب من خيوان
(٣) صنم فى الطائف (٤) صنم بقرب يثرب

لم يأبه لحديثه لانه لم يعبد الاصنام فى حياته ، بل ولد فى كنف الحنفاء الذين نهضوا فى مكة ليصرفوا الناس عنها ثم ثبته الاسلام على ذلك ، ولكنه كان فى خوف من اللص . و زاده خوفا أنه لايدرى أين مكانه ليتدبّر . وكان عليه أن يجيب فلم يجد مايجيب به فى هذا الظرف مما ينفى السوء ، فأجاب على سجيته :

— ياعجبا ! أتوكل على صخرات لاتشمر ولا تمى .

— ويحك يا كافر ، إنى أنا النسر الآله الاعلى — هلم إلىّ فى العراء واجث على ركبتيك ضارعاً ومنيباً .

عقل ورقة راحلته على عجل . و إذ علم أن صاحب الصوت خارج الخميلة عمد إلى الرحل فانتزع قوسه وسهامه فى خفة وعجل ، ووقف وراء جذوع النخل يتأمل الجبل لعله يرى صاحب الصوت فيرميه حيث يكون . ولكنه لم يشهد شيئا غير صخر أسود قبيح المنظر ، ليس فيه من مظاهر الحياة الا ما يبدو للعين من الصخرتين ، فقد كانت إحداهما قائمة على ناصية الجبل كقتب البعير ، صوّرها لنفسه طيرا ، على أثر ما ذكر الصوت عن النسر الآله الأعلى ، ولكنها كانت صورة شوهاء لا جمال لها ، ولا روعة ، ولولا تقاسيم عارضة ميزت أعلاها عن أسفلها ، وما فصل بينهما من شبه عنق أحدثته الاعاصير أو حاولته اليد ما خطر على القلب أنها صورة شىء ، ولكن إيعاز الصوت صوّرها كذلك لورقة . وكذلك كانت آلهة الوثنية الأولى فى كل أرض وكل زمان على مثل هذا من دلائل طفولة الانسان فى

عقله وفى يده ولعل هذا النقص والتشوه ، ومايجده الناظر اليها من الحيرة فى محاولة اكتناهها، ومن الجبن فى الشك فيما يروى الشيوخ والعجائز من أمرها — كان من أوسع موارد الخيال والتدليس والتلبيس والاذعار التى حكمت الدنيا ألوفا تلو ألوف من السنين ولا يزال أثرها كامنا حتى اليوم فى النفوس

ولقد كان ورقة من مكة بلد النصب والأصنام ، وملتقى الرطازات والأوهام ، ومستقر ثلثمائة وستين من هذه الأحجار الشوهاء ، وكم سمع صلاة القبائل العربية من حولها ، وسمع العجائز والشيوخ يعزون اليها الصمدانية والقدرة العليا ، ويروون عن شياطينها الاعاجيب وإن لم يكن يصدقها قط منذ سمع سميّه ورقة بن نوفل يقول : إنها أضاليل بهتان وأحابيل شيطان وجد فيها أقوياء العقول غنية عن قوة الذراع فى التسلط على الناس فتمسكوا بها ، وحملوا الناس على تصديقها ، والنزول على حكمها . ولكنه الآن يسمع صوتا ولا يرى صائتا ، ويرى نسرا أيضا يتكلم بلسان الآلهة فى مكان قصىّ خلقت من حوله جنة لم يروعنها الركبان شيئا ، فغلبته غريزته القديمة التى توارثها من ألوف من سنين قضاها آباؤه فى تصديق الأوهام . فقال فى نفسه الحائرة : لعل شياطين تلك الأصنام تحدثنى اليوم حقا ، وهى مطمئنة فى هذه الفلاة الموحشة . ألم يقل ورقة نفسه إن فى الدنيا جناً وشياطين نرى أفعالهم ، ولا نرى ذواتهم . ولكنه تذكر أن نسرا قد ذهب بنهاب حمير من اليمن وأنهم هدموه يوم تهوّدوا ، ولم يبق له من أثر . فقال يرد على الصوت :

— لقد طوّفت فى بلاد حمير جميعاً ، فلم أجد للنسر إلا أثرا دارسا وشعفة مهشمة تسلح عليها بغاث الطير فى أرض بلخع (٥) . فأجابه الصوت مرعدا :

— ويحك يا كافر بالآله الاعلى ! تقدم إلىّ ، واملأ عينك فى العراء منه . ها هوذا جاثم على شعفة الجبل ينظر اليك مكذبا

ولكن ورقة لم يطاوعه فيخرج الى العراء ، فقد كان فى نفسه أنه انسان وأن هذا الانسان يريد أن يخرجه من وراء الشجر ليكون هدفا ظاهراً لسهم يخترق فؤاده ، ولذلك استمر يحادث صاحب الصوت ، ويطاوله عسى أن يجد له بالحديث مخرجا — فقال :

لا أجرؤ أن أقف فى حضرة الاله الاعلى من غير حجاب ، وأنا فتى من مكة أعرف حق الآلهة علىّ ، وان كنت قد استغضبتها منذ سنين فقال الصوت :لا بأس عليك. أجب واقترب، وانحر دابتك قرباناً لى، وإن شئت فاتركها لى وتوكل . وليكن عملك هذا كفارة عما سلف من أمرك . افعل كما تؤمر ، وإلا لحقت بك فى الطريق فأنشبت فيك مخالبى ، وطرت بك فى أجواز السماء ، حتى ألقى بك فى أجمة الأساود تلهو بك وتنهشك در على عقبيك ، وامش فى طريقك مغمض العين ، حتى تزول هذه الخميلة عن الأرض ، وإذ أنك فى سبيلك الى نجران فستجد نفسك على أبوابها

(٥) بلوغ الأرب

قبل الظهيرة . وهأنذا أبدأ بالماء فأوقفه عن الجريان . قف أيها الماء بأمرى، وعد إلى معينك

لم يعجب ورقة إذ علم أنه يقصد نجران ، فقد كان الطريق طريقها ، ولكنه مع ذلك ظل مشدوها مذعورا ، وزاد ذعره أنه رأى الماء قد وقف فعلا ، وانقطع سيله عن الجبل . وكاد يهم بالمضىّ فيما أراد الشيطان ، لولا أنه سمع صوت لطمة جسم صلب يأتى اليه من أعلى الجبل ، فتنبّه والتفت فإذا هو يتبين شبح إنسان يخطو عجلا نحو الصخرة ويطل من بين منحدر الماء بوجه ملفف فى خرقة سوداء بلون الصخر لم يفت ورقة أنه وجه رجل . فزال شكله كله ، وأدرك أنه كيد يكاد له . ولكنه لم يجرؤ أن يبينه قبل أن يتخذ له عدته ، فقال وهو يتراجع فى مسار النيل محتمياً فى جذوع النخل وقد حرص أن يجعلها بينه وبين صخرة النسر لتقيه أذى الرجل . وقال متظاهرا بالامتثال :

السمع والطاعة لك يا إله الآلهة ، والمتاب إليك . ولكنى لم أعد أريدها . سأنحرها لك لتغفرلى ما مضى من ذنبى وترضى عنى. أمهلنى حتى أعقرها . ثم وضع يده على خاصرته متظاهرا أنه يخرج السكين حين كان فى الواقع يخرج سهماً من كنانته المعلقة على كتفه ليرمى به الرجل وقد استهدف له فى منحدر الماء من بين الصخرتين . . ولكن الرجل كان قد سئم الانتظار وأذعره أن يهم الفتى بنحر هذه النجيبة الغالية ، فتحوّل عن مكانه متراجعاً ، وصرخ من جانب الصخرة يقول :

أبق عليها ، ولا تمسها . أنى رادها إليك فى الطريق لتحملك فى بوادى العرب ، ترفع اسمى ، وتشيد بذكرى . اتركها واذهب فى طريقك مظاهراً.

تظاهر ورقة بالامتثال لأمر هـذا الإله ، وقال : لبيك ربى . هأنذا ذاهب ونازل على حكمك ، ولـكن ائذن لى أن آخذ عن الناقة زادى وثوبى

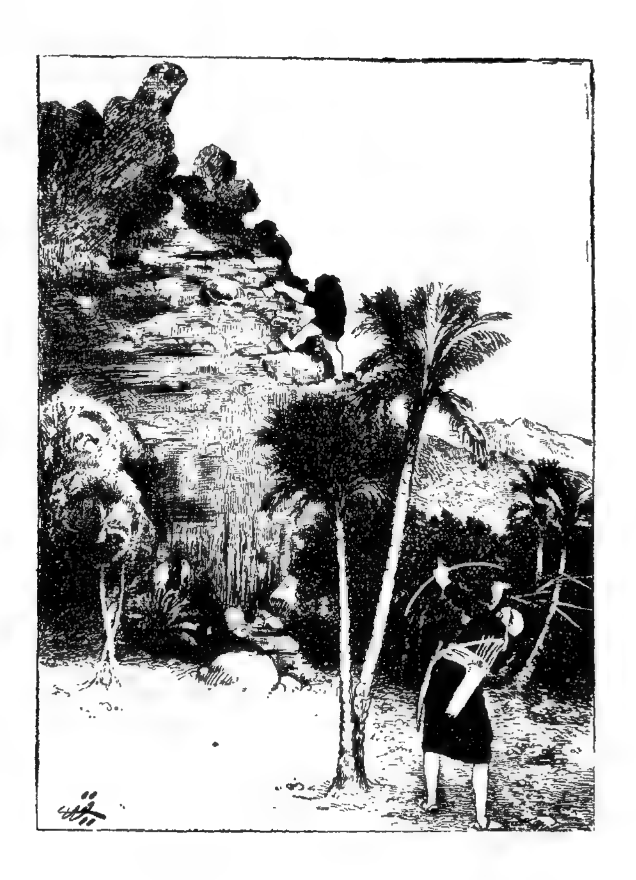
فأجابه الرجل : لا تفعل ، ولا تثقل كاهلك بغير سيفك،فانى مدركك بهما فى الطريق قبل أن تعلو محجة نجران .

قال الفتى : لبيك إلهى طائعا ومنيباً .

وانصرف ورقة يمشى قدما فى استقامة محتميا بجذوع الشجر فيما بينه وبين الصخرتين كما كان ليوهم الرجل أنه ماض فى سبيله حتى يطمئن فينزل من وكره الذى اعتصم فيه . ولـكن الرجل لم يكن بالحدث الغر ،وقد رأى فى حديث ورقة واحتمائه بالنخل ما رابه من أمره، وإن كان قد شاهده يعود إلى محجة المسافر بقدم ثابتة . فخطر على باله ألا يستهدف لأذاه بنزوله من مكانه ، وقد رآه يحمل سيفا . وقوساً ، وخنجراً كذلك . ورأى فى الفتى شدة الرجال ، وجراءة الشجعان . ورأى من الخير أن يريح نفسه منه بقتله . فما أن لاح له جانب من ورقة حتى صوب اليه السهم تلو السهم ، ورمى عليه.ولـكن السهام مرت من فوق رأسه ترن رنينا ثم تخفت ساقطة فى الرمال . فوجد ورقة فى ذلك الفرصة المشتهاة . فما سمع الرنين حتى صرخ

صرخة عالية لم يدر أن صحبتها صرخة أخرى صادقة واردة من مكان بعيد. ولكن هذه ذهبت أو اشتجرت مع صرخته فكان الصوت بالغا . وحرص ورقة أن يتظاهر بالموت ، على أن يكون موتا يدنيه من الحياة ، فلم يقع على وجهه أو جنبه ، بل ارتمى على ظهره ، وأخذ يزيح الرمل برأسه ليزيغ لرأسه حفرة يستقر فيها اليافوخ متدليا ، و يستطيع وهو على هذه الحالة أن يرى الرجل وهو على الجبل . هناك تأوه ورقة مرتين ، وصرخ صرختين ، ليوهم القرضاب أنه مات ، وليرى ما وراء ذلك من فعله ، فما كان يشك فى أنه نازل من الجبل ليظفر بغنيمته . وصدق حدسه وصح تدبيره ، فقد زعم اللص أنه قتل ورقة وأمن شره ، فنهض حيث كان ، وظاهر العراء ليتدلى من الشق الذى كان ينزل منه الماء ، وأخذ يضع أقدامه على ما أبقت المياه والأعاصير من نوانىء .حتى إذا توسط صفحة الجبل ، وأصبح لا يملك إلا أن ينزل أو يصعد فى طريقه . نهض ورقة فى خفة النمر ، وشد قوسه، وأخذ يرميه بنباله رميا متداركا حتى رأى اللص قد خارت يداه وقدماه وسقط يلتطم ببقية المهوى الى أن تلقفته وقيعة الماء ، فصب فيها بقية ما كان فى جسمه من الدماء ، واستقر فيها بلا حراك .

لم يدر ورقة ماذا يفعل بعد ذلك . ولكنه وجد أن من الخير أن يركب و يمضى . فذهب فى فرحه إلى الناقة ، وكانت فى هذه الأثناء ترزم حنيناً اليه ، وهو يقول لها . إيه يا أخيّة . هأنذا . أ كنت ترين أن أخاك فى خطر ؟ لا . هأنذا فاحمدى الله معى .



ود أن يحل عقالها ويركب ، ولكنه كره أن يغادر المكان قبل أن يتأمل غريمه ، فذهب إلى حيث كان ، ووقف ينظر اليه فاذاهو أمام رجل كأنه الضبع العرفاء ، طويل شعر الرأس والشاربين مسوده ، وإن كان قد وخطه الشيب ، ذورقبة مرتصعة غليظة ، وفكين كفكى القرد الكبير ، وذراعين كالاسطوانتين وساقين كذلك. وملأ ورقة عينه من الرجل فهابه فى موته ، بل تملكه الذعر ، ثم تذكر أن الله وحده هو الذى أراد له النجاة والا فما كان يستطيع ان يغالب مثل هذا الوحش لو جادله ، ولا أن يقاتله وهو فى معتصمه بين الصخرتين. فلم يطق أن يطيل الوقوف عنده ، وعزم على الانصراف عنه قبل أن يهديه خياله إلى سبب ترتاح اليه نفسه فى مسيل الماء من بين الصخرتين وانقطاعه . ولكن هيبة الرجل كانت أعمق أثرا فى نفسه من عجبه ، فسار عنه وهو ينظر اليه ، ثم لكزه برجله لكزة ينتقم بها منه لما أنزل به من الذعر وهو واقف حياله . ولكن رجله لم تضرب فى رقارق بطن الرجل بل التطمت بجسم صلب ارتدت عنه قدمه . فسرعان ما جرد ورقة خنجره وشق ثوب القتيل ، وإذا هو يكشف عن منطقة عريضة من الجلد ، رأى من ظاهرها أنها مكتظة بالنقود فحلها عن وسط الرجل وانتزعها ، وسار على عجل إلى الناقة فركبها وأنهضها ، وعاد من حيث دخل الخيلة يلتمس محجة الطريق . ولكنه لم يتمهل حتى ينصرف عن المكان ليرى ما تحتويه المنطقة ، بل حل أربطتها وأفرغ فى حجره ما كان فيها فاذا هى تحوى من مسكوكات الذهب والفضة شيئا كثيرا دراهم فارسية بغلية ،

وأخرى رومية طبرية ، ودنانير كذلك من أوزان مختلفة . كان منها ذو العشرة القراريط ، وذو الاثنى عشر ، بل وجد من بينها نوادر الدنانير الذهبية ذات العشرين قيراطا ، وعجائب الدنانير الفضية التى كانت بقدر راحة الغلام[٦] عدّ الذهب على عجل فبلغت عدته ثلاثين ومائتى دينار ففرح بها فرحا كبيرا وأعادها إلى جرابها على عجل فاكتظ بها ولم يسعها كلها فوضع بقيتها فى جيبه واحتال حتى تمنطق به تحت ثوبه ، وسار فى خفة الظافر الموفق السعيد يلتمس المحجة وهو غارق فيما هو فيه من الاغتباط

وفيما هو يسير متجها نحو الشرق عسى أن يعثر بالطريق الذى حادت عنه ناقته باختيارها أيقظه من غيبوبته السعيدة أنين وارد من جانب الطريق فتأثره فاذا هو ينبعث من غلام فى الثانية عشرة من العمر منطرح على الأرض والدم يسيل من خده وفمه . فوقف عليه ناقته وأخذ يتأمله . ثم سأله: مابك يا غلام ؟ فلم يحر الغلام جوابا لشدة ما كان فيه من الجرح . ولكنه شرّع اليه جفنيه وبكى ثم أغمضهما على الفور . وإذ لم يجد ورقة فى الغلام ما يريبه أناخ بجواره ونزل ففحص عنه فوجد أنه مصاب فى شدقه وفكه ،وقدّر أنه أحد السهام الطائشة قد أصابه . وتذكر أنه سمع صوته صارخا عندما صرخ هو أيضا مدعيا أنه المصاب . ولكنه تعجب أن يسير الغلام وحده فى هذه الناحية ، وهى على ما رأى من مخاوفها ، وود أن يسأله ، ولكن الغلام لم يكن يستطيع الكلام . فانصرف إلى إسعافه

(٦) عن بلوغ الأرب

بقدر ما يملك . وعمد إلى سقاء الماء وأجلس الغلام وغسل الدم عن فمه ووجهه . وتحسسه فلم يجد كسرا فاطمأن وطمأنه وهون الأمر عليه فتنشط الغلام واستطاع أن ينطق ، وكانت أولى كلماته شكراً بالغا . ثم قدّ ورقة من عمامته شقة لثم بها الفلاح . وفيما يده تمر بفمه مال عليها الغلام وقبلها شكرا واعترافا بالجميل . ثم طلب اليه شربة ماء فأعطاه زقه وتمضمض ولفظ ثم شرب ولم يكثر . وعاد إلى شكر ورقة وهو يقول له : الحمد لله الذى نجاك من القرضاب ، ولكنى أنصح لك أن تبعد عن هذا المكان على الفور . وإنى أخشى أن يدركك

دهش ورقة لهذا النبأ ، فسأله : أتعرفه ؟ . قال : نعم . أنا غلامه ، قتل أبى منذ ثلاث سنوات وأخذنى سبيا لأنى كنت معه . ولقد وقع فى فخاخه كثيرون وشهدت ما حاق بهم . قتلهم ، واستلب أموالهم من نقود ومطايا كما فعل بأبى . بالله خبرنى كيف نجوت ؟ إنه يحسن الرماية فاذا كان السهم الأول قد طاش فما كان يطيش الثانى . قال ورقة ولم يرد أن يشرح ما جرى قبل أن يعرف ما عجز عن معرفته : أما كيف نجوت فبفضل لله ، ولكن قل لى ما سر هذا الماء الذى يسير منحدرا عن الجبل تراه العين من مدى بعيد ، ثم لا تجد له الآن أثرا ؟

قال الغلام : هذا ما خدع به كل من جاءوا قبلك . كان بعضهم يلتمس مقيلا فى تلك الخميلة ، أوماء لراحلته ان كانت قد أوشكت أن تموت عطشا فيأتى الى الجبل . فان كان غرا صدّق حكاية النسر ، ومضى تاركا راحلته بما عليها للآله ، فنزل وأخذها ودار بها حول الجبل حتى يصعد بها . ثم

ينحدر بها إلى الأسواق ويأخذنى معه فيبيعها ويعود على راحلتى وأنا أرادفه . وان لم يكن غرا رماه بالقوس فقتله . ولكنى رأيتك تسير وحدك وقد تركت راحلتك ، فلماذا رماك ؟

قال ورقة : لأنه رأى أنى لم أكن غرا وإن كنت قد تركت له هذه الشملالة . ثم ضحك والتفت اليها . لا . لم أكن لأفارقك حتى أموت . ثم عاد إلى الغلام يقول . ولكنك لم تخبرنى عن الماء . ما اسمك ياغلام ؟

قال : معذرة اليك . اسمى رؤبة . لقد ألهانى ذعرى من فعله عن إجابتك : هذا ماء محوّل . وأنت ما اسمك ؟ . فقال : اسمى ورقة . قال رؤبة : إنى أحب هذا الاسم لأن أبى كان يقول : إن ورقة هذا نبى ظهر فى الحجاز كان يقول للناس إن عبادة الأصنام حمق وجهالة ، وأنا على رأيه منذ رأيت هذا الرجل وإلهه الكاذب ، ورأيت الناس يتركون أموالهم قربانا لصخور وهم يتوهمون أنهم يتقربون إلى الله . إن الله فى السماء . ألست على رأيى يا ورقة ؟ قال : بلى . بلى . ولكنك لم تخبرنى عن هذا الماء المحوّل. عجبى لك إنك تنصحنى أن أعجل بالرحيل عن هذا المكان، ثم تطيل حديثك فيما لا أريد . كفانى ما قلت عن الماء . دعنى أركب . ثم هم يمتطى فقال رؤبة : امتط امتط . سأسير معك وأنا أحدثك

فامتطى ورقة ناقته ولكنه لم ينهضها لأنه لم يكن يخشى شيئا بعد أن قتل الرجل . وظل على ظهر الناقة والغلام مستمر فى حديثه قال : إن لديه فوق الجبل عيناً يسيل منها ماء قليل . وإذ أن له بيتا من الناحية الأخرى من الرابية فسيلها نحوه . ولكنه قد احتفر بجوارها حفرة عميقة

وراء الصخرتين اللتين رأيت ليملأها من ماء العين . ثم خد بين الصخرتين أخدودا ليسيل منه الماء إذا أراد أن يحدره على هذا الجانب . وذلك بأن يسد مجراها من ناحية بيته . وهو يسد هذا الشق كل ليلة بركام من التراب والحصا ، فاذا طلع الصبح نهض وأطل من بين الصخرتين ، أو اطلات له ليرقب الطريق. فإذا لاح له راكب منفرد مثلك فى أى وقت من أوقات النهار ، أزاح حشو الشق وأذن للماء أن يسيل على جدار الجبل رقراقا ، إذا واجهته أشعة الشمس تألق وشامه الراحل من بعيد فاما ورد إليه أو إلى ما دونه من الشجر . وكم للانسان من حاجة بين الماء والشجر . وهنا يقع . ولكنه عمد منذ ليلتين الى ربط أعجاز من النخل بجذوع الخيلة ليعرقل السائرين ويوقفهم أو يتلف مطاياهم . وكدت تتعرقل لولا أن لويت عنانك . أنت ذاهب الى نجران ؟ قال ورقة نعم قال رؤبة ان هنا طريقا يقرب مسافة ما بيننا وبين نجران نصف مرحلة آه . ليتنى أستطيع أن أدلك عليها ! قال وما يمنعك ؟ قال : خوفى منه إنه الآن يراقبنى ، وسأقول له إننى كنت أستمهلك حتى يعود اليك . ولكنى أعرف أنه لا يجرؤ أن يلقى أحداً وهو بعيد عن الجبل لأنه يقول ان الطريق للناس كلهم اما الرابية فله وحده فضحك ورقة وقال ألا تشعر أنك عوقتنى كثيرا ؟ قال : بلى وربى ، يا لشديد جرمى ، ولكنى لا أطيق فراقك . أما وهو لم يأت فسر على بركة الله ألم أقل لك سر وأنا أتابعك ! قال ورقة : لم يعد يملك سيمك أن يلقانى ولو صعدت اليه . عند الآن

إلى بيته نخذ لنفسك ما فيه . إنى قتلته ، وهو الآن مسجّى فى دمائه عند مسقط الماء

صات الغلام لدن سماعه هذا الكلام صوت مفجوء ثم قال: قتلته ياسيدى! حقا . قال ورقة : نعم . فعاد رؤبة يسأله : أصبح جامدا كهذه الارض؟ ودب عليها بقدمه قال ورقة : نعم ميتا قال رؤبة : كما مات أبى ! قال ورقة وكما كنت سأموت . فاستمر الغلام فى دهشته وفرحه وهو لا يكاد يصدق ، وتقدم بيديه ضارعاً الى ورقة يقول:

بحق اللات والعزّى إلا ما أخذتنى معك إننى من خولان [٦] ولئن رددتنى إليها لأنحرن ليعوق كل عام هديا ليبقيك ويقيك ويحميك فقال ورقة : لقد عدت إلى ضلالك القديم يا صاحبى . ألم تقل لى إنك تنكر الأصنام؟ فكيف تقسم باللات والعزى ثم تترضانى بنحرك ليعوق ما تنوى نحره ! لا يا رؤبة لا . ما هكذا يكون الوفاء لابن نوفل . فلطم رؤبة وجهه خجلا من نفسه وقال : لا أدرى وحقك ماذا أصابنى ، ولكنى أجد لنفسى فى بعض أحوال اضطرابى ما أكرهه منها وأنا هادىء . ولقد ذكرت أمى وما هى فيه من الشقاء لفقدها الزوج والولد معا ولم يكن لها سوانا . فاعذرنى يا أخىّ

فقال ورقة : وكيف تيسّر لك اليوم أن تترك الاكة ولم تهرب . قال إنه يرسلنى فى الصباح لارد عليه النوق الجامحة من أثر عراكه مع فرائسه

(٦) ناحية من بلاد اليمن بعد نجران

ويأخذ يراقبنى ، فاذا جمحت أنا أو شردت ، أو خرجت فيما وراء هذه الشجرة بغير ماسبب ، فالسهم فى أثرى يعلمنى برأيه فىّ. إنه لايحادثنى إلا بلغة القوس والوتر. ولقد أصابنى اليوم سهمه إلا أنه ما كان يعنينى. ولكنى قدّرت أنه راميك بغيره وغيره حتى يصيبك فيرديك . أماهو فهيهات ان يصاب . إنه معتصم وراء العقاب وما عجبت لشىء قدر عجبى لأنك قتلته . أقتلته حقا ياسيدى ومات! واصبح لايستطيع أن يدركنى! قال ورقة وهو يضحك : نعم . نعم . وربى قتلته بحيلة جازت عليه وسأخبرك ماذا فعلت حتى أنزلته من معتصمه فرميته وقتلته . تعال اركب رديفا . قال رؤبة وهو يركب: حييت يابطل حييت . وإذ أصبح الطريق مأمونا قفل بنا من وراء الخميلة لنسير فى الدرب القصير

فلوى ورقة عنان الشملالة نحو الشمال ليعطف وراء الخميلة ، ويسير فى رفقة الغلام .

الفصل السادس

الشمطاء

انعطف الطريق نحو اليسار وراء تلك الخميلة فلاح دربان : أحدهما يلتوى إلى اليمين ذاهبا فى الجبال ، والآخر إلى اليسار صاعداً إلى أكمة القرضاب . فأشار رؤبة بيده وقال حين أوشكا أن يبلغا مفترق الدربين : من هنا كان القرضاب يصعد بغنيمته إلى بيته ، ولولا أنى أكره أن تقع عينى مرة أخرى على مكان شقائى بعد مانجوت لسألتك أن تصعد لأريك مافى داره ، وأحمله لك فهو اليوم من حقك . قال ورقة : وماذا عسى أن يكون فيها مما يهمنى ؟ قال : ثلاث قسىّ نادرة من العتل الفارسية وسبعة سيوف عجيبة هندية ومشرفية بله بعيره وازواده وماعون الدار . قال ورقة وقد استحدث فيه كلام رؤبة عن القسىّ والسيوف رغبة فى حيازتها : إنك ياغلام لتغرينى بأحب الأشياء إلىّ ، ولكن أليس فى الدار ديّار ؟ قال : بلى . عجوز شمطاء ليس إلا ، وسيسرها أن تعلم بمقتل الرجل ونجاتها منه هى أيضا . يالله ماأشد مقتها له ! لقد كان يدعوها خالته . ولكنها فى الحقيقة خالة امرأة كانت له قتلها فى بعض غضباته على مرأى منى ومن خالتها . ويالهول ذلك المشهد ! أخذ يضربها بالسيف دراكا حتى تقطعت

أشلاء ، وأنا والعجوز نصرخ من الفزع . ولولا أننا جرينا واختبأنا فى الدار للقينا حتفنا بنفس السيف الذى لقيت به المسكينة حتفها . ولكن الخالة فقدت وعيها من شدة جزعها فقد رقدت ثلاثة أيام لا تتكلم ولا تعى كنت فيها أقوم على طعامه ، وأعنى بالخالة المسكينة حتى أفاقت وردت العافية إليها . إلا أنها انقطعت عن الكلام معه ومعى بعدئذ حتى حسبتها خرست ولكنها كانت تتمتم فى وحدتها بكلمات المقت للرجل . وكم مرة دخلت عليها فوجدتها تتضرع إلى « يعوق » وتستنزل على الرجل غضبه ولعنته . آه . لو أننى أذهب إليها وأخبرها وأعود من فورى أن « يعوق » قد استجاب لها ! لقد كانت تحسن إلىّ وترعانى . ثم أليس من حقها على أن أودعها وأخبرها بما جرى لتتدبر أمرها ؟ ستظن إذ لم يعد إليها ولم أعد أنا أيضا أننا خرجنا وراء طريدة فتنتظر وتنتظر على غير جدوى وحيدة بين مراتع الوحوش .

قال ورقة : ويحك يا رؤبة . إنك لتغرينى بالصعود إليها بكل وسيلة ، وتلقى على تبعة ما تلقى المرأة فى وحدتها . هلم . وسارا نحو مصعد الجبل . فقال رؤبة : ما أشد مروءتك يا سيّدى . فأجاب ورقة : قد أكون كما تقول ، ولكنى أخشى أن أضيع المروءة من شرعة أخرى . إنى قاصد نجران كما تعرف فى مهمة ، ولا بد لى أن أدرك قافلة مكة . إنها ترحل فى بكرة الغد ونحن الآن فى الضحى . قال رؤبة ضاحكا : وستجهد الشملالة لتبلغها فى حينها ! أراك يا سيدى تجهل الطريق ! إنك الآن على مرحلة واحدة من نجران ،

ومن الميسور أن تبلغ مكان القافلة فى العشىّ مادمت على ظهر هذه العصوف وما دمت معك أريك درب الهارب

وفيما هما يميلان إلى الصعود انخرط عليهما من منعطف الطريق بعير محمل عليه رجل قليل الجسم ، صغير الوجه ، مغضّنة ، جعل على رأسه عصابة تستر قذالة وتغطى فمه ، وإلى جانبه سيفا ، وعلى كتفه اليسرى قوسا وكنانة .



لم يكن الدرب واسعا حتى يمر بعيران ، ولا كان الصاعد يتوجس ورود هابط من أعلى الجبل ، وهو فيما علم قد خلا من صاحبه . ولذلك فزع ورقة ، وزعم على الفور أن الغلام كان يستدرجه إلى موقف لا مفر من الهلاك فيه . فسرعان ماجرد سيفه واستعد للقتال . ولكن الراكب لم لم يذعر ولم يأبه لشىء إلا لما أصاب بعيره من الذعر لدن هذه المفاجأة . فقد زلت خفافه واندفع متزلجا على الدرب حتى اصطدم بالشملالة . ولولا ذلك لرمى عنه راكبه وما حمل . وكان ورقة يتأمل هذا الراكب فى أثناء

ذلك ، فوجده شيخا ضئيل الجسم كأنه غلام لم يشب عن الطوق ، فأغمد سيفه على الفور . وقال الراكب : لابأس عليك يافتى . عم صباحا ، وعش دهرا طويلا . فما كاد رؤبة يسمع الصوت حتى صاح من فرحه : أهو أنت ياخالة ! ثم ضحك سروراً وقال مازحا : ماأشبهك بفوارس كسرى ! سيف وقوس ولثام . ماعهدى بك تحسنين التدليس ! ولكن يعوزك الدرع . ألم تجدى درعا ؟ أعرفت مالقى عدوك ؟ لقد قتله هذا البطل وتركه عندالوقيمة طعاما للذئاب ! قالت : أعرف ذلك . لاشلت يمينك يابنى . ذهبت إلى الحوض أغترف لطعامه وسمعت وحيه فأدركت أن هناك فريسة يتصيدها فأطلت فى حذر . رأيتك تخرقت لشبابك ، وتذكرت شرور الرجل فهممت أن أرميه بحجر لاقتله قبل أن يصيبك أذاه . ولكنى لم أقو . فعدت إلى الماء أملأ الماعون ، وأنا أصلى ليعوق أن ينقذك ، وتمتمت بكلمات الدعاء فرمانى بحجر وقع على الماعون وصات فغضب لما جرى ونظر الىّ نظرة وعيد عرفت مابعدها . فأخذت الماء وانصرفت . ولكنى غافلته وانتحيت بعيداً وأخذت أراقب مايجرى ، وأنا لاأفتر عن الدعاء إلى يعوق أن ينقذك . وقد أنقذك ! رأيت كل شىء ، وسمعت كل شىء . رأيت رؤبة وقد أصابه السهم ووددت لو ألقى بنفسى من الجبل لاسعفه ، ثم رأيتك ترتمى على الارض وتصرخ فما شككت فى أنك قضيت . وكم كان عجبى وفرحتى عظيمين حين رأيتك تنهض لترمى الرجل وهو معلق بالصخر وترديه . عندئذ سقطت أنا كذلك لفرط مانالنى من الفرح بنجاتك ، ولم أفق من غشيتى حتى رأيتك

تحادث رؤبة وتحمله معك رديفا ، فأيقنت أنك ذهبت به ، وأنى أصبحت في هذه الارض وحيدة . فحملت مافى الدار لارحل إلى يعوق ، أنحر له وأهدى شكرا له على استجابته دعائى . على أن لى فى جواره أهلا وخؤولة أرجو أن تكون الايام قد أبقت لى على بعضهم لأعيش فى كنفهم . ولكنى لاأدرى لماذا تصعد الجبل ؟ تراك ملتمسا مقيلا أو منزلا إلى غدك فأعود معك لأقوم على خدمتك ؟ قال ورقة شكراً لك . إنى وحقك طالب نجران وما أملك للتلوّم وقتا ،ولكن رؤبة لم يطاوعه قلبه فيرحل قبل أن يودعك قال رؤبة حملته على الصعود لاخبرك بمصرع الباغى فقد زعمت أنك كنت فى الدار على عادتك فلم تسمعى شيئا . أردت أن أنزل فى قلبك المسرة وأكون لك فيما تدبرين ثم أودعك. ولقد أغريته بما ترك من السلاح إذ هى مطمع الفارس ولكنه لم يهتم لانه فى مهمة ، فذكرتك له وذكرت ما كنت تلقين من الرجل وما كان من برّك بى فى إسارى ، فلم يسعه إلا أن ينزل على رجائى و إن لم أعلنه له ليمكننى من أداء حقك . ورضى أن يتعوّق .قالت الشمطاء وقد أخذت عروة ورقة : إنك لسيف الله ونقمته أيها الفتى. لك شكرى وشكر الله على مافعلت . أما السيوف والقسىّ فاليكها . هاهى ذى على جانب الرحل . انقلها يارؤبة. لقد زعمت أن رؤبة حاملك على الرحيل فحملتها. لاحاجة بى اليها، ولا هى من حقى . أما الزاد والبعير فما أنت فى حاجة اليهما كما أرى . إنى راحلة إلى خيوان (١) بلاد يعوق كما ذكرت ،

(١) جهة فى اليمن شمالى صنعاء على مسيرة يوم

ولا بد لى منهما فيها . قال ورقه : صدقت . هى لك ومالى بها من شأن . فى سلامة الله ياخالة . لوكان طريقك معنا لصحبتك ، ولـكنى ذاهب الى نجران . قالت : فى سلامة الله وبركته . هنا المفترق إذن . سأدعولك دائما . وكان رُؤْبَة قد تناول منها لفافة السلاح ووضعها فى جوالق الناقه ، و ودعها ودعالها ، وقبلته وقبلها ودعت له.وفيما هى تهم بالمسير تناول ورقة من جيبه قبضة من المال الذى كان قد فاض عن وعائه حين كان يرده إليه ومدّ بها يده وهو يقول : إليك هذا ياخالة زاداً لبعض أيامك فى خيوان . فترددت المرأة فى قبوله ولـكن ورقة ألح وتدخل رؤبة مغريا على عادته ، فقبلته شاكرة . وإذ مدت كفيها لتأخذه أخذت تتأمله فوجدت فى النقود قطعاً ذهبية لم ترها فى حياتهافقالت : أهذه الصفراء دنانير؟ قال : نعم . قالت : لا يابنى لا . خذ الدنانير . مالىحاجة بها . قال : بل أبقيها فماهى بكثير ، ولعلك تحتاجين إليها . قالت : وددت لو أردّلك جميلا ، ولـكنى لاأملك إلا الدعاء . قال: فى وديعة الله ياخالة قالت: وفى وديعةالله أنت يابنى وأنت يارؤبة أستودعك الله . وما كاد يلتفت عنها ورؤبة يدعو لها حتى تذكرت أن معهاخرزات كانت تعتزّ بها ، وترىأنهاعصمتها من كل شر فيما مضى،ولا بأس أن تنزل له عنها الآن. قالت: مهلا يابنىّ. خذهذه الخَصَمَة للدخول على ذى السلطان والخصومـة . اجعلها تحت فص الخاتم أو زرا لقميصك، أوفى حميلة سيفك فانها عاصمتك من الاذى ، ومنيلتك غاية المشتهى.فتناولهامنها مبتسماوشاكراوقالت:وأنت يارؤبة، خذ هذه الوجيهة

هذه العقيقة الحمراء ،[٢] لرضى الناس عنك. إنها من أندر خرزات اليمن فهى مما يلفظه يعوق يوم عيده ، فيلتقطه السدنة ويغالون به . إنها مما ورثته عن أمى وجدتى .

تقبل الفتيان منها هديتها باغتباط وشكر ارتاحت نفسها اليه ، لأنها كانت تود أن يكون لها شبه يد فى مقابل أياديه عليها . وعلى هذا مضت تلتمس الطريق وهى لا ينقطع لها دعاء

كانت الشمس قد علت وأضحت فقال ورقة لرؤبة وهو يعود إلى الدرب بناقته : إياك أن تغرينى بشىء بعد هذا ، إنك ان تفعل فلن أستمع لك . فضحك رؤبة وقال : لم يبق ما أغريك به إلا المسير . خذ إلى يمينك

لم يكن ورقة فى حاجه إلى أن يوجه الناقة ، فقد كانت قلقة طول مدة التقائهما بالشمطاء . وما إن لوى عنانها نحو الدرب حتى انصرفت اليه جارية كأنما هى أرقم يلتمس وكره ، لأنها كانت تعرفه من قبل ، وكانت الخيلة طريقها فيما ضربت لولا أنها لم ترها من قبل مقطوعة بأعجاز النخل

سارت فى طريق الجبل ، وكانت تسبق رؤبة الى الدرب قبل أن يدل عليه بالقول أو بالاشارة فتعجب لها ، وأدركه شىء من الخجل إذ لم يعد يرى نفسه فى منزل الدليل العظيم الفائدة لرفيقه . فقال لصاحبه وهو خجل من نفسه : لا أرانى والله أستحق أن تحملنى الناقة على ظهرها ، فإن معك دليلا أبصر منى بالطريق وأعجل. لكأنى بالناقة .... فضحك ورقة لهذا

---

(٢) بلوغ الأرب

ضحكا لم يسبق أن امتلأ بمثله صدره منذ ماغادر مكة يطلب العقاقير والطب فى اليمن . ضحك لصراحة الغلام فيما استشعر وطيّب خاطره فقال له : بل ان حديثك معى أيمن من كل شىء

وإذ وجد رؤية من رفيقه ارتياحا إلى الكلام المزهر ترك للناقة أمر الطريق ، ولم ينقطع عن مؤانسته بما لديه من أخبار اللص ، ومشاحناته مع الشمطاء خالة امرأته وكيف أنه حملها وهى كما رأى من الضعف على تعلّم الرمى بالقوس لتكون له عونا عند الحاجة . وكيف كان ينحها إذا هى أخطأت المرمى ويضربها على إضاعة السهام سدى،و يحملهاعلى تدلى الجبل للبحث عن النشّاب الطائش حتى لم تجد المرأة بداً من أن تتعلم صناعة السهام من خشب الغضا (٣) ، لتعوّضه مما يضيع ، وكيف أنها وقفت دونه مرة لتطلق عليه الوتر إثر ماضربها فصاح فى وجهها وسقطت هى والقوس ذعراً وورقة يضحك من رواياته ويعجب لاختياراته إلى أن صعدت بهما الناقة تبة عالية لاحت نجران من أمامها تحت نخيلها وأشجارها ناصعة فى شمس المغيب كأنها ملاءة بيضاء مبسوطة فى عرصة الدار . ولاحت قافلة مكة فى مكانها من سفح الجبل على كبرها وكثرة حمولها وعددها ، كأنما هى رقش يزيّن حواف هذه الملاءة

طرب ورقة لرؤيتها وأمّل أن يجد فيها الجيرة والاصدقاء لانها قافلة مكة بيد أنه قدّر أنه غير بالغ نجران قبل أن ينقضى المزيع الأول من الليل

---

(٣) شجر شديد الصلابة

ولـكن رؤبةاستمسك برأيه ، لانه كان يرىالناقة تطوى الطريق طيا فهى لابد أن تدركها قبل انقضاء العشية

ولقد صدق حدس رؤبة وتقديره،فقد بلغا نجران فىالعشيّة مع غيرهم من ركبان تأخروا فى الورود مثلهم إلى نجران وكانوا راحلين فى القافلة الى ديار مذحج(٤)فانصرفوا الى مستقرها . أما ورقة فلم يذهب معهم بل التمس الطريق إلىالـكنيسة فى ذراها ، وخاض غمار الناس إذ كانوا عائدين من سهرتهم مع القافلين

---

(٤) بعد نجران فى طريق عكاظ

الفصل السابع

حراس الباب

اخترقت الناقة براكبيها بلدة نجران حتى انقطعت دورها ، ولم يبق من مبانيها إلا الكنيسة قائمة فى ذراها . فمضى اليها مصعدا . وكان القمر فى تلك الساعة قد بزغ ، ولكنه كان قمرا منقوصا لأنه كان فى الثلث الأخير من الشهر ، فلم تستفد منه إلا ناحية الشرق من نجران . أما ناحية الغرب فظلت فى عتمتها حتى علا قبيل نهوض القافلة . على أن الكنيسة وقفت فى ضوء القمر إذ ذاك وباتت تلقى ظلها الأدهم على ما جاورها . ولولا قنديل باخ ضياؤه كان معلقا على بابها ما عرف ورقة أين هى ، وإن كان قد سبق له أن قصدها ودخلها وقضى زمناً بها حين نزل مع أستاذه الحارث ابن كلدة الثقفى الطبيب وولده النضر ضيوفا على الأسقف يوم جاء الأستاذ بامرأته الرومية هرميون وابنته لمياء مهاجرا إلى نجران . على أنه استعد للقاء الأسقف ، فاخرج رسالة اسحاق من رحله ، وأوصى رؤبة بانتظاره حيث ينيخ حتى يعود اليه

بلغ ساحة الكنيسة فأناخ ، وذهب من فوره إلى الباب . وكان بابا عريضا لا يفتح إلا فى المواسم الكبيرة . أما فى الأيام العادية فكان دخول الكنيسة من خوخة فيه . على أن هذه كانت مقفلة أيضا ، ولكنه

كان يعلم أن للاسقف فى جانب من فنــاء الـكنيسة من داخلها منزلا ذا طبقتين ، سفلاهما تشتمل فيما تشتمل على حجر لبعض الشمامسة ليكونوا فى حراسته وخدمته . فاذا هو قرع فلا شك أن يسمعه أحد هؤلاء الحراس و يفتح له. ولذلك قرع الخوخة فى انتظار من يفتح له . ولـكن لم يجبه مجيب وعاد إلى القرع مرة بعد أخرى فلم يتنبه له أحد من أهلها . فحار ورقة ماذا يفعل ، وعاد إلى مبرك الناقة يستأنس برأى رؤ ية وإن لم يؤمل أن يهديه إلى صواب . على أنه ما خطا نحوه بضع خطوات حتى خيِّل اليه أنه يسمع بعضهم من داخل الـكنيسة ينادى بصوت ضعيف ، يا جريس ، يا حنا . فعاد أدراجه فى انتظار أن يجيبه جريس هذا أو حنا ، أو المنادى نفسه ولـكن لم يأته أحد . فاخذ هو ينادى عليهما من ناحيته و يطرق الباب علهما يسمعان . ومع ذلك لم يجبه أحد فسكت وسكت الصوت الذى كان ينادى من الداخل ، وعاد ورقة إلى ما كان فيه من الضيق . ولـكنه خشى أن ينحب أثر ذلك النداء سدى بطول سكوته ، فاخذ ينادى الأسقف نفسه: يا مولانا الأسقف ! رسالة اليك ! رسالة ! ولـكنه لم يوقظ بندائه هذا اهتماما من أحد . إلا أنه سمع صوت يد تعالج مزلاج باب الخوخة وتحاول جرهمن عضادته فافرخ . ولـكن الباب لم يفتح ، فقد كان المزلاج مستعصيا على صاحبه حتى لقد يئس هذا من مطاوعته له فتركه وأخذ يسأل بصوت مبهم: من الطارق ؟ ولـكنه كان سؤالا لا يراد به جواب ، سؤال مخمور تشتهى نفسه أن يترك لينام . ولذلك لم يجبه ورقة ، وإنما أمره بشدة أن

يفتح الباب ، وشتمه ، فتنبه المخمور وجمع قواه وجرّ المزلاج فانفتح الباب وسقط القائم وراءه

تنفس ورقة الصعداء ، وأخذ يتأمل القائم ، فاذا هو رجل بادن شحم فى الأربعين من العمر ، عارى الرأس ، مدلى الشعر طويله ، مثقل الجفنين مقفلهما ، مفتوح الفم ، مدلى الشفتين ، غليظهما ، حافى القدمين قذرهما قد ارتدى جلبابا أسود مشقوق القبة إلى مدى بعيد لاح من ورائه صدار كأنه نام ولم يخلعه . وكانت تفوح ريح الخمر من كل نواحيه . وإذ اعتاد من يفتح الباب ولا سيما فى الليل أن يسأل : من الطارق ؟ فقد سأل هو كذلك : من الطارق ؟ وما كاد يبين . وإذ لم يكن يهمه الجواب استند إلى عضادة الباب ، وانحنى على ذراعه وغاب عن الوعى نائما . ولكن ورقة لم يتركه يهنأ بهذه اللحظة فناداه ليوقظه : هيا جريس ! أفق . جريس ! أفق !! لعن الله الخمر وشاربها . يا جريس ! قل لمولاك الأسقف إنى آت اليه برسالة من أمير صنعاء . فلم يهتم الرجل لهذا الكلام . وإن كان قد فتح فاه للجواب . ولكنه ما تهيأ له إلا ليصحح اسمه فقد استطاع حسه فى أول تنبّهه أن يدرك أنه سماه جريس ، وليس هذا اسمه . فاشتغلت نفسه بذلك وهو وسنان فرد يقول : أنا حنا . وأشار بيده إلى حيث ظن أنه ساحة القافلة وقال : جريس . . . . ثم عاد إلى سباته.

وكان فى عرصة الكنيسة شخص آخر يسمع هذا ويرى . امرأة مسنة من أهل بيت الأسقف كانت قد استيقظت على القرع ، وأدركت

أن الحراس لم يتنبهوا فنزلت لتوقظهم . وإذ رأت حنا مخمورا لم يسعها إلا أن تتقدم إلى الباب لتنوب عنه فى لقاء الطارق . ورآها ورقة قادمة عليه فعرف أنها بربارة قهرمانة بيت الأسقف ، فلم يمهلها حتى تلقاه وقال : معذرة يا خالة وعفوا . إنى أنا غلام الحارث بن كلدة إن كنت تذكرين . كيف حالك وحال مولانا الأسقف . قالت : مرحبا بورقة وأهلا . ثم قال: ما كان لى أن أزعجكم بطروقى فى هذه الساعة من الليل لولا أنى رسول من صنعاء ، جئت لمولانا الأسقف برسالة من أحد الامراء ولا بد أن يطلع عليها الآن وإلا ذهب ما لقيته من المتاعب من أجله سدى. وهاهى ذى. أرجو أن تقرئى مولاى الأسقف تحيتى وسلامى وتسلميها اليه على الفور . ثم قدّم الرسالة اليها . فتناولتها منه وقالت : حبّا وكرامة. ولكنها لم تجد من حقها أن تدعوه للدخول حتى تعلن سيّدها بامره . فاكتفت بان كررت قولها حبّا وكرامة . انتظر حتى القى سيّدى وآتيك بجواب . ثم التفتت إلى الحارس فوجدته قد قعد ونام فتناولت يده لتنهضه وساعدها ورقة على إنهاضه وأخذت تنبهه وتقول له : تعال يا حنا ، تعال. عد إلى مرقدك ، ونم ملء جفنك . ما أصلح مثلك للحراسة والخفارة ! ثم أخذت تسانده وسارت وسار معها فى ثقل النائم مجانبا ، مندفعا ونا كصا حتى إذا بلغت به باب غرفته أمرته أن يدخل وينام . فتنبه لهذا ودخل ، وارتمى ، وسمع ورقة لسقطته عجيجاً فضحك فى نفسه وأسف ألا يتعظ الناس بمثل ذلك فيتجنبوا الخمر

وفيما هو ينتظر عودة القهرمانة سمع من ورائه وقع أقدام تتخبط فى الطريق على غير هدى.وسمع معها وعيدا خائرا . فالتفت فاذا هو يرى رجلا يتقدم نحو الباب و يسير متجانفا . فخطر على باله أنه جريس الذى كانت القهرمانة تناديه هو وحنا . وكان الرجل جريسا حقا ، ولكنه لم يكن كصاحبه متفضلا عارى الرأس حافيا ولا مخمورا مثله و إن كان على ملابسه أثر من السقطات واللطمات ورقع من الروث والأوحال . فلقد استطاع حسه أن يدرك أن بالباب رجلا وأن هذا الرجل يحمل سيفا وأنه متجه اليه . وزاد تنبهه حين رأى ورقة أن يلهو به قليلا و ينبهه و يقول له : مرحبا بجريس الهمام ! وأن يتراجع جريس الهمام ، ثم يفزع ، و ينظر إلى وجهه متأملاً ثم يرتد جاريا صوب الزريبة خوفاً منه وهو يقول :

وحق القديسين جميعاً ما أنا الذى سرق السقاء بل هو حنا والراقصة. ولذلك سكر وحمله الناس على حمارى ليعود إلى الكنيسة . قال ورقة وقد استطاب أن يستمر فى عبثه معه : تعال لا توجل ، هنيئا لك ولهم ماشربوا. ولكن خبرنى لماذا لا أجد أثرا للحمار معك . ألم يعودوا به اليك ؟قال وهو متنفخ متغيظ : اللعين ميكال ! قال ما خطبه ؟ قال :

لم يرد أن يحرم نفسه شهود سامر القافلة ، فما كاد أصحاب حنا يلقونه فى مرقده حتى أفاق وركب الحمار وجاء إلينا ليأخذ نصيبه من هذه الليلة النادرة . قال ورقة : أراه أحسن صنعاً ولكنى أراك عدت ماشياً. لماذا لم تعد على حمارك ؟ بعد ماعاد به اليك ميكال؟

قال : لأن ميكال اللعين غافلنى وترك السامر قبل أن أتركه ليظفر بركوب الحمار دونى و يعود . قال ورقة : كان حقا عليك أن تجرى وراءه وتأخذ حمارك منه بالقوّه . قال : لقد فعلت ولـكنه أبى . واجتمع الناس علينا فقال لهم إنه أخذ الحمار من باب الـكنيسة ولا يدرى حمار من هو ، فإذا تركه لى كان مفرطا فى حق الناس .وأصرّ ألا يفارقه إلا هناك. فحـكموا له ألا يسلم الحمار إلاّ عند باب الـكنيسة عيناً .

قال ورقة : وأنت رأيت العدل فيما قال وما حكموا !قال حنا :نعم . إنها لحجة بالغة و إن كان الحمار حمارى . قال ورقه : لان الحمير تتشابه . قال : صدقت ، هذا ما احتج بهميكال ، وقد أقرّه الجمع على ذلك . فضحك ورقة ملء شدقيه ، وقال : يعجبنى من الرجل أن ينزل على الحق و إجماع الناس، ولا سيما إذا كان أتاناً مثلك .

كان هذا الحديث يجرى ورؤبة يستمع ، فما أن بلغه قول ورقة فى جريس أنه «أتان» حتى ضحك ضحكة عالية رنت فى ساحة الـكنيسة فضحك ورقة وضحك جريس كذلك ، ورأى ذلك وقتاً مناسباً للدخول. ولـكنه تعجّل فعثرت قدمه بعتبة البـاب وهى عالية ، وكاد يسقط على ماوراءها من الصخر لولاأن القهرمانة كانت عائدة إلى ورقة بجواب الأسقف، فدفعته بذراعيها وحمته أن يقع . ولـكنه ما كاد يتبين أنها بربارة قهرمانة الأسقف وصاحبة القول الأعلى فى البيت ، حتى أخذ يتضرّع إليها أن تستر أمره فلا تبلغه إلى مولاها . فوعدته خيرا وانصرفت للحديث مع ورقة ، وانصرف هو إلى مرقده .

والواقع أن الحرّاس الثلاثة لم يطيقوا أن يحرموا أنفسهم الاشتراك فى مسرات القافلة وطيباتهامن مأكول ومشروب وملموس. وكان حنا وجريس أشد رغبة فى ذلك من ثالثهم ميكال ، أو أجرأ منه فى مخالفة الواجب فاشتريا منه تبكيرهما فى الذهاب بدرهمين على أن يلحق بهما إذا شاء بعد أن ينام الاسقف وعلى أن يترك الباب مفتوحا . وقد أغراهما رقص القيان وغناء الغلمان بالإغراق فى الشراب فكان ما كان . ولكن ميكال كان أشد حرصاً من صاحبيه وأشد مكرا ، فقد ترك ساحة الركب ساعة أن رأى جريسا يتهيأ للعودة ليسبقه إلى ركوب الحمار و يعود مرتاحاً كما جاء مرتاحاً. ولكنه لما بلغ الكنيسة وجد الخوخة مقفلة ، إذ كان حنا قد وضع المزلاج وراءها على العادة ، لأنه لم يكن فى تمام وعيه ، فلم يتنبه إلى أن له زميلا



بل زميلين لا بد لهما أن يعودا إلى مرقدهما مثله . ولذلك اضطر ميكال أن أن يستضيف الحمار فعاد إلى الاسطبل ، ورقد فى منودمل‌ء جنبيه !

أجابت القهرمانه ورقة بأن مولاها الاسقف اهتم للرسالة وعزم أن يوقف القافلة إجابة لرجاء الأمير ، ولكنه لما كان مشغولا بالصلاة فسيدعوه إليه أثر انتهائها فلم يبق إلا أن يدخل حموله و يريح مطيته و ينتظر. ولكنها لم تجد بدا من أن تتولى هى العناية بشأن ورقة ومطيته ، بعد ما رأت من حال الحراس. واستعانت على ذلك بورقة نفسه معتذرة إليه بما رأى وما سمع. فرجت منه أن ينقل حموله إلى فناء الكنيسة لتكون فى صونها ، وأن يسير براحلته إلى حظيرة الدواب

فعل ورقة كما رأت القهرمانة شاكرا فضل الأسقف وبرها . وفيما هو يسألها عن مكان يرقد فيه تابعه رؤبة ، ويشير إلى مصطبة هناك بجوار الباب ويستحسنها مرقدا للغلام سمع صوتا يناديه ويحييه من كوة فى علّية : عم صباحا يا ورقة . اصعد إلىّ . ولقد كان الصوت ضعيفا فيه شىء من أنين المرضى فلم يتبينه ورقة ، ولم يعلم أنه الأسقف يناديه ويحييه ، لولا أن نبّهته القهرمانة إلى ذلك فجهر برد التحية معاجلا ليستدرك لحظات تأخره عن الرد على الأسقف الكبير. وتقدمته القهرمانة إلى السلم لتصعد به . ولكنها سمعت الأسقف يقول لها : ارسلى الشمامسة إلىّ . قالت سمعاً يا سيّدى . ثم التفتت إلى ورقة وأشارت إلى غرفة الأسقف وقالت اصعد أنت وحدك . ها هى ذى غرفته . لعلك لم تنسها . قال : أهى على عهدها منذ زرته فيها أنا والحارث وأهله ؟

قالت : نعم ، وهو على عهده ، ثم استأذنت منه فى أن ترسل الغلام رؤبة ليوقظ ميكال من مرقده فى مذود الحمار . ولكن رؤبة لم يمهلها حتى يطلبا إليه ذلك ، فقد كان مرهف الأذن بما عودته صحراء القرضاب ، وكان عند باب الكنيسةساعة نطقت باسمه واسم ميكال . فقال : سأنهضه على الفور وآتيكما به من غير عنان ! ثم اختفى ذاهبا إليه .

صعد ورقة للقاء الأسقف ، وعادت القهرمانة لتوقظ السكارى ، وهى لا تدرى كيف توقظ أمواتا . ولكنها استطاعت على كل حال أن تأتى بجريس وحنا ليقفا تحت الكوة حين كان رؤبة قد آتى بميكال من الأسطبل مبلل الوجه واللحية من أثر ما صب على رأسه من الماء لينعشه . ولكنهم كانوا متعبين فارتكن حنا إلى جدار البيت تحت الكوة وارتكن جريس عليه . أما ميكال فوقف فاتحا رجلية بغير سبب . فلما رأتهم بربارة على هذه الصورة لم تمالك نفسها من الضحك . وعلا صوتها فتنبه الأسقف لها وقال : ما خطبك يا بربارة ؟ قالت : حضر الشمامسة يا مولاى . فقال لهم فى صوته الضعيف إذهبوا إلى سلمان فادعوه إلىَّ على الفور وأوصوا أبناءنا من حداة الكنيسة وجمالتها أن يؤجلوا الرحيل بالقافلة الى الغد . قال الاسقف ما قال ولكن الشمامسة لم يسمعوا منه شيئا كثيرا وان كانوا قد أرهفوا سمعهم وحولوا آذانهم نحو الكوة . وإذ كانوا قد فهموا جملة الغرض من ايقاظهم ولم يستطيعوا أن يستعيدوه أجابوا الأسقف بالسمع والطاعة ومالوا للخروج إلى القافلة وهم كارهون . وكان حنا أشدهم امتعاضا لأنه كان

أشدهم سكراً ، فقال لرفيقيه ، وقد تحولوا نحو الباب بجوار مرقد الغلام : لماذا نذهب كلنا فى أمر كهذا ؟ دعونى هنا للحراسة واذهبا أنتما . قال ميكال : بل أبقى أنا وتذهب أنت لأنى يقظ أما أنت فسكران والمشى نافع لك والهواء ينعشك . وإذ أخذ جريس يقترح أن يكون هو الذى يبقى دونهما ولا يبدى سببا لذلك ، تدخل رؤبة بينهم فقال : أما ورب يعوق لئن لم تنتهوا وتدعوا هذا الكلام الفارغ لأعلمنّ مولاكم بسكركم ورقصكم ومرقتكم سقاه سيّدى ، وحديث الجارية التى كانت مع أحدكم ، و .... فلم يمهلوه حتى يتم وعيده وخرجوا يقفزون عن عتبة الباب قفز التيوس فى سبيلهم إلى القافلة ، ليبلغوا سلمان ما بقى فى آذانهم من كلام القهرمانة .

الفصل الثامن

ابن العفيفه

نترك ورقة يصعد الى الأسقف ويلقاه ، ونتركهما يتحادثان حتى يعود الشمامسة بسلمان . فلن يستطيع القارىء تتبعهما ولا تبيّن ماهما بصدده ، ولا معرفة من سيأتى ذكره فى الحديث من رجال ونساء ، وحوادث وشئون ، حتى يكون قد سبق له العلم بهؤلاء الناس ، والوقوف على تلك الحوادث ، وما كان لورقة بن صليح ، بل ورقة ابن العفيفة بكل منهم ومنهن من صلة وعلاقة

من أجل ذلك نستميح القارىء عذراً من انصرافنا به من نجران ودار الاسقف فى ليلة الربيع من سنة ٦١٦ هـ ، إلى مكة ودار خديجة بنت خويلد قبل أن يسعدها الله بتزوج خير الخلق محمد بن عبد الله ، لنعرض عليه حوادث عشرين سنة أو حوالى ذلك ، كان لها أثر فى ورقة حتى جاءت به إلى نجران وغير نجران من بلاد العرب السعيدة

سنعرضها عرض الحافظة مخترنها على المخيلة فى المنام ، فاذا عدنا به إلى نجران ، وأدخلناه على الأسقف يسمع حديثه مع ورقة ، تفهم الحديث بلا عناء ، وتعرّف إلى الناس بلا استئذان

•••

كان ورقة مكياً ولـكنه لم يكن قرشيا . لم يولد من أشراف العرب ولـكنه كان عنوان الشرف . نشأ فى ظلمـة الفقر ولـكنه عاش فى نور العلم والفضل. كانت أمه سبيّة تدعى تماضر من سبايا رجل من أعيان مكة يدعى عبد الله بن جدعان (١) ، جيء بها اليه من تخوم بني لحيان (٢) ، وهى طفلة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وإذ كان هذا الرجل على عظم شأنه نخاسا له جوار يساعين فى مكة كما كان كثير غيره من عظماء قريش (٣) ، إذ كانت هذه التجارة السافلة مباحة فيها قبل أن يجيء بتحريمها الاسلام فقد دفع بالفتاة إلى الفحشاء ، وأمر عبده أن يخصص لهـا بيتا ويعلق عليـه الراية البيضاء التى اعتادوا أن يعلّموا بها بيوت هؤلاء الجوارى الشقيات

نفذ العبد إرادة سيده ، فأخذها إلى بيت كانت قد أخلته صاحبته بموتها وأنزلها فيه . والفتاة لاتعلم مايراد بها ولـكن فسّاق مكة كانوا قد سمعوا فى أنديتهم بفريستهم الجديدة ، فأجمع نفر منهم على غشيان دارها،

---

(١) كان من أجواد العرب كحاتم . ولـكنه كان عنيداً فلم يسلم خشية المعرة من قريش .وهو تيمى كأبى بكر ومن غريب أمره ماذكره الالوسى صاحب بلوغ الارب من أنه ابن عم السيده عائشة رضى الله عنها كما قالت هى لرسول الله . ولعلها انما نعتته بذلك لانها تيمية مثله

(٢) كانت منازلها شرقى مكة الشمالى

(٣) ومنهم زمعة بن الاسود وربيعة بن حبيب وصفوان بن أمية والعاص بن وائل ومالك ابن عميله بن عبد الدار وهلال بن أنس

وأخذوا لليلتهم الأيلاء حاجتها من غبوق وصبوح ، ومزاهر وأعواد وذهبوا ليقضوا سهرتهم مع هذه الطفلة المسكينة يهديهم العبد متهللاو يدعوها إليهم متبسطا ، و يعرضها عليهم مزهوّا ومفاخراً . والفتاة لاتكاد تصدق ماترى ، ولكنها لم تجرؤ أن تفصح عما ساورها من الشك فى مآربهم أو تبين عما تملكها بعد ذلك من الذعر من اجتماع رجال ذوى لحى وشوارب فى غرفة لها . حتى إذا دنا منها أبو سفيان (١) وكان أحد هؤلاء الفساق ، وأخذ يداعبها أسفل مداعبة ، رأت كفيها تتعاورانه باللطم على عنقه و وجهه من حيث لاتدرى . ثم هبت من مكانها صارخة صراخ من أصابته جنة ، ومرقت من بين الجمع مروق المرة من النار ، خارجة من دارها فى حلكة الليل ، حتى إذا لمست رجلاها أرض الطريق ركضت فى الظلام على غير هدى ، تلتمس مهربا وحمى ، والعبد يتابعها راكضا وراءها ولكن المسكينة لم تجد أمامها إلا بيوت أمثالها من الجوارى . وانعطف بها الدرب فدخلت فى طرقات الشعاب المجاورة لبيت الله ولكنها لم تجد فيها بابا مفتوحا ولا

---

(١) كان أبو سفيان بن حرب بن أمية أبو سيدنا معاوية زعيم مناهضى الرسول عليه السلام وأشد الناس عليه وحارب الرسول في غير مرة فى بدر وأحد وغيرهما وكان من المغرمين بالخمر وغشيان النساء فى الجاهلية وامرأته هند أم معاوية هى التى أكلت كبد أسد الله حمزة يوم قتل فى واقعة أحد غيلة وكانت من أشد العرب تحريضا على القتال . وقد أهدر النبى دمها يوم فتح مكة ، ولكنها بايعت منتقبة فنجت وأسلم أبو سفيان قبل دخول الرسول مكة فاتحا إذ رأى أن الدائرة ستدور عليه وعلى قومه فتخلى عن قومه وذهب الى الرسول عليه السلام وحسن اسلامه فيما يقال بعد ذلك

مصباحاً منيرا ، إذ كان الناس نياما فى أول الهزيع الثانى من الليل .وكانت تخشى إذا هى وقفت تطرق أحد الابواب أن يدركها العبد فيمسك بها و يضربها و يعيدها فاستمرت تجرى وتختبىء حتى لمحت فى الحلكة نورا قد انبعث على غير انتظار من منعطف باب وخرج من هذا الباب شبح. فقصدت اليه وهى على آخر رمق . فلما دخلته ألفت فى ردهة الدار سيدة وقورة دون الار بعين من العمر يدل مطلعها على عظيم الخير الذى ضمت عليه جوانحها . فلم تملك الفتاة إلا أن تلقى بنفسها على الارض أمامها ضارعة بغير كلام إذ كانت قد استنفدت نفسها فى الجرى. ولكن السيدة لم يسعها وقد رأت علائم الذعر الشديد على وجه الطفلة إلا أن تتقدم إليها فاتحة ذراعيها وتأخذها فى صدرها قبل أن تسقط على الأرض أخذ الام ولدها . وهى تقول لها : لابأس عليك اطمئنى . والطفلة غائبة عن الوعى والسيدة لاتدرى سبب ذعرها ولا تجد فائدة من أن تسألها وهى على هذا الحال. و إذا بالعبد يدخل الدار لاهثا من شدة الجرى و يضع يده على الفتاة ليأخذها قسراً وهو لايدرى من السيدة ، ولا هى تدرى من العبد . وكاد يغلب السيدة على الفتاة لولا أنها صرخت فى وجهه صرخة عرف عزة الكرام من نبراتها ، فكف يده عنها وتراجع ، واذا هو أمام خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش. تراجع العبد مرة أخرى فى خشوع ، ووقف ينظر ماوراء ذلك فلما هدأ نفسه سألته سيدة قريش : من أنت ياغلام ؟ فقال : أنا غلام عبد الله ابن جدعان ، وهذه الفتاة جاريته . قالت : ومانخطبها ؟ قال :

أرسلها مولاى لتحل محل جاريته « سريفة » التى قضت نحبها منذ أيام ولكنها لطمت أبا سفيان وصرخت فى وجوه المحادثين، ومرقت فى الشعاب آبقة . قالت : ألا ساء ماتفعلون . لامَّ إن هذا منكر لايرضيك ! اذهب إلى مولاك فادعه إلىَّ . قال : لاأجرؤ ياسيدتى. قالت : ولا أنا أردها اليك. الله أرسلها إلى لاعيدها منكم ،ولقد أجرتها فاذهب أنى شئت .

أفاقت تماضر عند ذلك من غشيتها ، ووجدت نفسها فى صدر كصدر أمها ، وسمعت حديث السيدة فأخذت تبكى وتنشج فى البكاء ، والسيدة خديجة تطمئنها ، وتمسح بيدها على رأسها لتسرّى عنها ، وإذا بغلامها ميسرة قد عاد إذ هو الذى كان قد فتح الباب وخرج فى حاجة عرضت لها ، فأمرته أن يسير بها إلى حيث يرقدها بجوار فراشها و يعود اليها. فقال العبد: ماذا تريدين من مولاى ياسيدتى ؟ قالت أحادثه فى شأنها وأبتاعها منه . قال العبد : حبا وكرامة ياسيدتى ، لقد أذن لى مولاى من قبل أن أبيعها بأربعين طبريا إذا رغب فيها راغب . قالت وانى لراغبة . هات ياميسرة مما لديك أربعين دينارا وزدها واحداً لغلام ابن جدعان

فأتى ميسرة بالمال وعده للعبد ، ثم زاده الفضل الذى أمرت به سيدته فاخذه العبد وخرج شاكر مطمئنا

وظلت تماضر فى خدمة سيدتها ثلاث سنوات كانت محل الرعاية والاكرام من سيدتها إلى أن حدث ذات يوم أن احتاجت سيدتها إلى

سقيفة تقي تجارتها الشمس والاعاصير ، فجىء لها بنجار كانت تعرفه وترتاح إلى عمله وكلفته عمل هذه السقيفة .

كان هذا النجار قد استقدمه أبو ربيعة المغيرة من مصر ليصنع له نجر بيوت أقامها لأولاده فى بساتينهم فى أرباض مكة . فلما أتم عمله وأصاب من ورائه رزقا طيباً آثر الاقامة فى مكة ارتياحا إلى العمل فى بلد تقل فيه مهرة الصناع، وإجابة لاشارة سراتها . وكذلك عاش بين ظهرانيهم عشر سنين يصنع لهم ما يريدون من النجر فاذا لم يكن لديه ما يشغله من حاجة الناس عكف يصنع من خشب الساج الأسود تماثيل لهبل (٥) ومن خشب السدر أو العرعر لغير هبل من آلهة الجاهلية ما بين صغيرة وكبيرة ، بغير ماتقيد بصورة ، ولا تمحل لاتقان ويبيعها للأعراب مغاليا أيام مواسم الحج والاعتمار . وزاد فى اقبالهم عليه أنه كان يحفر على كل نحيته اسمها بالقبطية

كان هذا النجار عربياً يدعى صليحا القبطى ، إذ كانت كلمة قبطى نسبة تطلق على كل من يرد من مصر من سكانها عربيا كان أو فارسيا أو اثيوبيا . فما كلمة قبطى التى أطلقها العرب إلا تحريف لسانهم لكلمة جبت الرومية التى يعنون بها ما نعنى الآن بكلمة مصر العبرية ، ويطلقها أهل أوربة جميعاً على بلاد وادى النيل ما بين أسوان وبحر الروم . وما أهل مصر فى الحقيقة إلا أبناء العرب الرحل الذين وردوا إليها من قديم الزمان

---

(٥) صنم من حجر أسود كان فيما يذكرون داخل الكعبة قبل الاسلام

قبل مصرايم و بعده ، وفى عهد الرعاة و بعده ، ولا سيا من شمالى الجزيرة العربية ، كلما أجدبت بهم الأرض ، أو اضطرهم الغالب إلى النزوح : أولئك استوطنوها ، ثم لم ينقطع سيلهم عنها كما لم ينقطع عن وادى دجلة والفرات . وكان القديم منهم يعد نفسه أصيلاً حتى يتقادم العهد على الجديد فيندمج فى القديم ويشترك فى تسميته الاجد دخيلا حتى يندمج هو أيضا وهكذا الى وقتنا هذا . وكانت لهم وفدة كبرى فى أيام الاسكندر اذجاء العرب النبطيون الى مصر ففتحوها له واستقروا بها وكذلك فى الايام القريبة من البحرين والقدس أيام غلب العرب الغساسنة على بلاد بنى سليح الضجاعمة فى الشام و بلاد القدس فهاجروا منها إلى مصر ، كما فعل إخوانهم من قبل ، وملأوا الوادى من شماله إلى سيوط حين ملأ بنو أعمامهم السابقون والراحلون إلى مصر من أثيوبيا والنوبة ما بين أسوان وسيوط من بلاد الوادى الخصيب . و إذ كان من عادة هؤلاء الاعراب أن يدخلوا فى دين مصر ، فى الوثنيــة والنصرانية ، وجرى بينهم ما يجرى بين أهل الدين الواحد من الاختلاط بالتزاوج وتوحدت مصلحتهم و وطنيتهم بازاء سادتهم الروم الذين حرموهم بحق الفتح والغلبة حقوقهم الوطنية ، فقد أطلق عليهم الروم كلمة النسبة إلى جبت[٧] أى مصر حين أحتفظ لهم العرب بالنسبة إلى رومة ، حتى بعدما انتقلت الامبراطورية إلى بيزانطه . ولم يهم الروم

---

(٧) بل لقد جرى المسلمون الأول أنفسهم على تسمية اخوانهم الذين نزحوا الى مصر أيام فتوحها وبعده مصريين ، للدلالة على سكانها منهم مع أنهم عرب كانت لا تزال أمهاتهم فى بلاد اليمن والحجاز

أن يفرقوا بين الأثيوبى والعربى ، لاختلاطهم من ناحيه ، وتقارب سحنتهم من ناحية أخرى ، واتفاقهم فى الدين من ناحية ثالثة ، وهو أهم شىء .

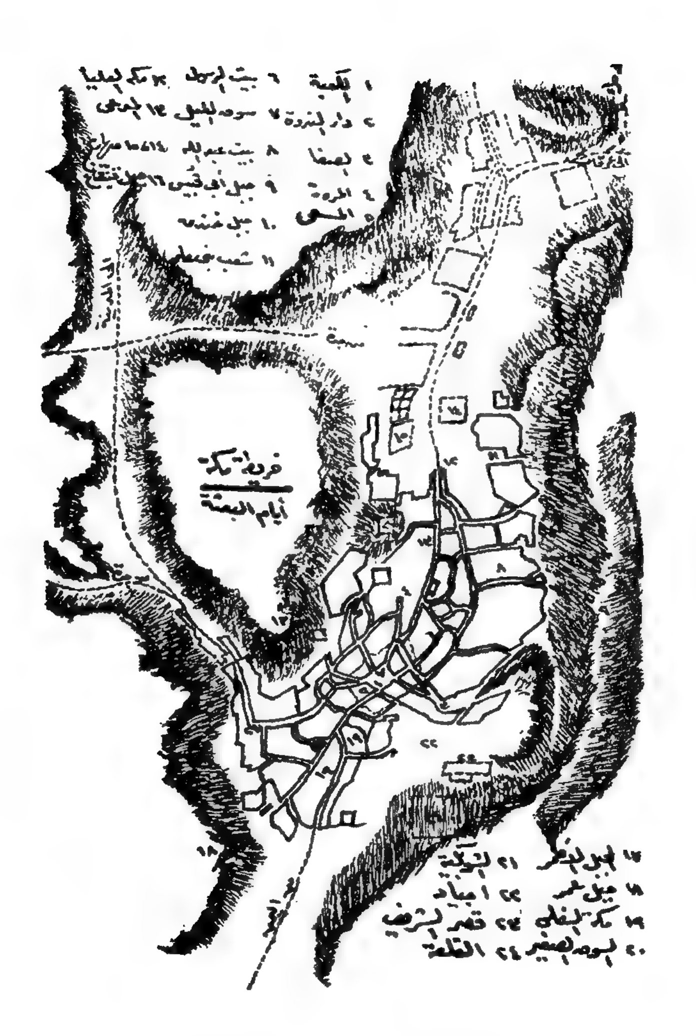
فكلمة قبطى معناها مصرى أى ساكن مصر وليس لها أى معنى آخر لولا أن بقيت للدلالة على اتباع الملة اليعقوبية فى مصر ولو كان روميا أو زنجيا أو ابن أمة . لا للدلالة على جنس خاص

كان صليح يعرف ذلك ويعتز به ، ولكنه كان فى الواقع عربيا خالصا ، قريب العهد بديار العرب ومثابتهم ولكنه إذ كان مسيحيا أطلق عليه لفظ النسبة الى جبتفسى القبطى .

كان أبوه غواصا ورد إلى الاسكندرية من سواحل بلاد البحرين ، ليبيع فيها بعض لآلىء جاد بها عليه بحر الفرس . وكان روم الاسكندرية أهل ثراء ورفاهيــة ، فاشتروها منه بثمن كريم . ثم حلا له المقام فيها ، فاستوطنها واشتغل بصيد السمك فيها. وتزوج من أعراب حى رقودة فى الاسكندرية(٨) ، وكان صليح يقول إن له إخوة برقودة ،وأن له فى مريوط خؤولة كثيرة ، وأن أهل أبيه لم ينقطعوا عن الورود إليهم من الحيرة وهم

---

(٨) حى رقودة هو أصل الاسكندرية : فقد كانت رقودة حلة بنتها القوافل العربيــة النبطية على طريقها من الحيرة والشام وبطرة الى أفريقيه ومراكش ومحلها الآن حى محرم بك وكوم الشقافة . ولما فتح الاسكندر مصر فى سنة ٣٣٠ ق . الميلاد أقام بجوارها على البحر معسكره وبقيت هذه الحلة قديمها وحديثها تعرف باسم رقودة حتى بعد فتح العرب مصر عند المصريين وغير المصريين من العرب حين كانت تعرف باسم الاسكندرية عند الروم



خريطة مكة
أيام البعثة
١ الكعبة ٦ بيت الرسول ١٣ مكة العليا
٢ دار الندوة ٧ سوق الليل ١٤ الحجون
٣ الصفا ٨ بيت عبد الله
٤ المروة ٩ جبل أبي قبيس
٥ المسعى ١٠ جبل خندمة
١٧ جبل الكعبة ٢١ البركة
١٨ جبل عمر ٢٢ أجياد
١٩ مكة السفلى ٢٣ قصر الشريف
٢٤ القلعة

فى سبيلهم فى قوافل برقة وطرابلس أو قوافل القدس والحيرة

وكان ميسرة غلام السيدة خديجة رضوان الله عليها يعرف هذا النجار ويحبه ، وكلما مرّ به فى سوق حزورة قضى معه بعض الوقت يتحدث ويسائله عن مصر والاسكندرية ويتعجب لرواياته . ومن ثم عرفته السيدة خديجة ! فقد كانت كلما جدت لها حاجة إلى نجر ذكره لها ميسرة وجاء به اليها فأتم لها العمل على أحسن وجه وأكرمته فوق حقه. ولذلك جاء به ميسرة اليها هذه المرة أيضا . كان صليح أعزب فى الثلاثين من عمره يوم جاء الى مكة . ولكنه لم يكن يفكر فى الزواج انتظاراً ليوم عودته الى بلاده . فلما استقر رأيه على البقاء فى مكة خطر له أن يتزوّج . ولكنه لم يكن يدرى كيف يحقق رغبته فى مكة ، وليس فيها الاقرشيون لا يزوجون مثله ، والا فتيات من جواريهم ليس من كرامته أن يخطب احداهن لتكون أما لأولاده . وما كان يعرف فيما وراء مكة أحداً ممن يمكن أن توجد بينهن انسانة تليق أن تعاشره وهو ابن الاسكندرية المتحضر . فلما جاء يصنع السقيفة لسيّدة قريش خطر له أن يبدى حاجته اليهـا على لسان ميسرة ، ويلتمس منها العون فى ذلك واثقا انها ستهديه الى الزوجة الصالحة . ولكنه رأى فى منزل السيدة خديجة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها فتاة حسنة الطلعة ، على وجهها كرامة لم يعهدها فى كثيرات. فمال اليها قلبه . واحتال فى سؤال ميسرة عنها . فلما علم انها جارية مولاته تعلق بميسرة يرجو منه أن يفاتح عنه السيدة العاليه فى شأنها لأنه لا يجرؤ أن يتكلم بحاجته

وأوصاه أن يذكر لها أنه عزم أن يستوطن مكة ، فلا خوف من رحيله بجاريتها التى علم من ميسرة انها تؤثرها على سائر جواريها . على أن السيدة رضيت بزواجها منه بلا شرط . ولكنها رأت أن تستأنس برأى الفتاة وتستشير ابن عمها وعظيم أسرتها ورقة بن نوفل فى هذا الزواج . فوافق . ولكنه اشترط أن يكون الزواج على سنة قريش وأن يجرى بدار قصى بن كلاب[٢] لا على سنة أهل مصر المسيحية . واشترط كذلك أن يقلع عن صناعة الأوثان ويعيش من النجر وحده كذلك جرى الزواج وزفت تماضر إلى صليح فى إعزاز وإكرام فى دار وهبها لها سيدها ورقة بن نوفل ولما ولدت أول غلام سمته باسمه إذ كانت تحبه وتجله لفرط بره بها ، لأنه كان رجلا بعيداً عن الدنايا التى انغمس فيها أهل مكة وتزعم لتقواه انه نبى أرسله الله لهداية العرب . وذلك لأنها كانت تسمعه يدعو الناس الى عبادة الله واتباع ملة ابراهيم ، ويعيب عليهم اتخاذ الأوثان آلهة من دون الله . ويعيب على قريش تمسكهم بهذه الاحجار واستغلالهم مكانتهم فى ابتزار الاعراب الذين يردون من كل الجهات ليطوّفوا ببيت أبيهم ابراهيم فى مواسم الحج والاعتمار

---

(٩) هى دار الندوة التى بناها قصى بن كلاب وجعل بابها الى مسجد الكعبة وفيها كانت قريش تقضى أمورها تيمنا بأمر قصى فما يتزوج أحد من قريش ولا يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الا فيها .. يعقده لهم بعض ولد قصى . وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع الا فى داره يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه وينطلق بها إلى أهلها وكان لا يعذر غلام الا فيها ولا تفصل خصومة الا هناك
(عن بلوغ الارب للألوسى)

ولما تزوّج عليه السلام بسيدة قريش بعد ذلك بعام أخال انه لما عرف قصة الفتاة ونفورها من الخنى عزّها وأكرمها وأخال أنه نعتها بالعفيفه تكريما لها وانه لما رزقت بولدها كان يداعب ولدها ويحسن اليه . واخال كذلك أنه عليه السلام كان إذا ناداه قال له يا ابن العفيفة(١٠)

ومن ذلك الحين سقطت عنه النسبة الى صليح وصار يدعى ابن العفيفة وأكرم به اسما ولقبا

(١٠) هنا لسان الحال فى السياق لا الواقع فليتنبه القارىء.

الفصل التاسع

الامين

ظل الغلام فى بنى هاشم ونوفل مرعى الجانب محبوبا ، لحبهم لأمه ، ولأنه كان على شىء ظاهر من الذكاء ،وعفةالنفس. كما أنه كان حلو الحديث سريعا إلى اجابة سادته إلى ما يطلبونه اليه من المهام . بيد أن ابن نوفل كان أشدهم تعلقا به وأرعاهم له إذ لم يكن له عقب ، حتى لقد شغل نفسه بتعليمه القراءة والكتابة ، وكان العارفون بها فى مكة قليلين [(١)]، ولذلك صار لابن العفيفة مقام فى مكة على صغر سنه ، وصار يقرأ للناس ويكتب . وأخال أن منهم سيدته أم المؤمنين ، وان كانت ممن تعلموا القراءة والكتابة

كان عمر الغلام فى ذلك الوقت عشر سنين . وكان قد حدث سيل فى مكة انحدر اليها من شعابها ووديانها فصدّع بناء الكعبة لقدمه وأذاب فى تياره كثيرا من بيوتها[(٢)] ، وأغرق عديدا من أهلها ، وكاد يذهب بورقة وأهله لولا أنهم اعتصموا ببعض الجبال . وإذ كان لا بد لقريش

(١) لم يكن أهل مكة يعرفون الكتابة حتى جاءهم بشر بن عبد الملك أحد أمراء دومة الجندل (ناحية العراق) صحبة حرب ابن امية والد أبى سفيان — فعلم جماعة من أهل الطائف ومكة خط الجزم الذى سمى بعد ذلك الكوفى لان الكوفة لم تكن قد انشئت يومئذ وهذا الخط مقتطع من الخط الحميرى الذى يسمونه المسند

(٢) كتب السيرة

أن تعيد بناء هذا البيت المقدّس ، بيت أبيهم ابرهيم وأمهم هاجر أم إسماعيل ، الذى يطوّفون به ، وينسل اليه جميع القبائل العربية من أصقاع جزيرتهم المترامية الأطراف ، والذى يجعل لهم من سدانته وحجابته وسقاية حجيجه ورفادة أهله شأنا أى شأن — فقد أجمعوا على بنائها فى أحسن تقويم ، وأن يسقفوها حتى لا تبدو كما كانت فى كل عهودها الماضية عارية معرضة للاعاصير . وإذ لم يكن يوجد من مكة بنّاء يحسن البناء بالحجر ولا فى أسواقها ما يحتاج اليه من أدوات العمارة ، اللهم إلا أحجارها المقدسة فكروا فى إرسال وفد منهم إلى مصر لشراء حاجتهم من الخشب وليستقدموا معهم بناء خبيرا بعمارة بيوت الله . ولكن حاجتهم إلى البنّاء الماهر وأدوات البناء الصالحة لم تطل فقد حدث أن دفعت الريح إلى شاطىء جدة (٣) سفينة كبيرة كانت محملة بالأخشاب والرخام والحديد وسائرة فى طريقها إلى الحبشة لبناء كنيسة هناك . اصطدمت السفينة بصخور المرفأ صدمة شديدة أتلفتها حتى لم تعد تصلح للمسير وكان لابد من تفريغ شحنتها ، و إلا تناولها البحر . يومئذ تكاتف أهل جدة على إنقاذ شحنتها وحملها فى قوارب صغيرة سالمة إلى البر ، حتى يعدّوا سفينة أخرى أو سفنا صالحة لتحملها إلى بلاد النجاشى .

ولكن القوم تسامعوا فى مكة بخبرها ، فجاء وفد أعيانها ليأخذوا حاجة البيت من أخشابها ، ويدفعوا ثمنه سواء رضى صاحبها بالبيع أو لم يرض . غير أنهم

(٣) كتب السيرة

لم يضطروا إلى ذلك فقد أجاب صاحب السفينة طلبهم على الفور ، وإذ عرف مقصدهم عاد معهم إلى مكة : ليرى ما هم بصدد بنائه

كان الرجل روميا من أهل بيزنطة يدعى باقوم [٣] ، وكان رجلا وديعا طيب الخلق فى الخمسين من عمره . بدأ حياته بناء فى القسطنطينية ، فلما تولى الامبراطور موريقس [٤] ود أن يستغنى عن مسترزقة الجند من الصقالبة والأرمن والعرب بجنود من أبناء الروم أنفسهم ، فكان باقوم أحد هؤلاء

وبقى باقوم عشرين سنة فى الجندية لم يرفيها خيرا ولم يتزوج ولم يستقر بمكان إلا يوم أسعده القدر فكان من حرس أحد قصور الامبراطور. ولكن هذه السعادة لم تطل ، فقد قتل الأمبراطور بعد تعيينه فى الحراسة بقليل ، ودارت الدائرة على أقرب الجند اليه . وإذ كان باقوم أحد هؤلاء الأقربين فى نظر الثوار فقد كان أوشك أن يذهب ضحية هذه الأوهام لولا أنه اختبأ وفر قبل أن يكشفوا مكمنه

فر إلى الاسكندرية ، وهناك عاد إلى صنعته الأولى فكان بناء ثم كان متعهد بناء . ومن ثم اتصل ببناة الكنائس والبيع ومنهم أنستاسيوس بطريق اليعاقبة الذى عهد اليه فى بناء الكنيسة التى كان ذاهبا إلى الحبشة بالأدوات اللازمة لاقامتها

وعاد الوفد به إلى مكة وأروه الكعبة التى يريدون هدمها بعد ما

---

(٣) كتب السيرة (٤) ٥٨٢ — ٦٠٢م

تصدّعت ، و بناءها من جديد . وطلبوا اليه أن يدبرهم فى أمرها و يستقدم لهم بناء من مصر مع الخشب الذى سيرسل فى طلبه بدل ما أخذوه منه وعرضوا عليه أجراً كريما لهذا البناء

لم يكن باقوم قد أخبرهم من أمره إلا بانه متعهدأعمال،فلما رأى العرض وجيها وأن مدة انتظار مجىء سفينة اليه من مصر تكفى لبناء الكعبة أعلن أمره اليهم واستعداده لبناء الكعبة لهم

على أن الكعبة لم تكن تتطلب من الرجل فى بنائها خبرة ممتازة بالبناء ولا فنا دقيقا ، لأنها لم تكن إلا بيتا من غرفة واحدة أبعادها عشرة أمتار فى عشرة تقريبا . ولعل أصعب ما كان فيها هو تعريش كل تلك المساحة بسقف من الخشب . ولذلك استأذنهم فى أن يقيم فى باحتها أعمدة ستة تحمل ذلك السقف . فلما وافقوا على بناء الأعمدة وحدد يوما للشروع فى البناء أهدوا ونحروا ، ودعوا وصلوا ، ورتّبوا للخدمة فيها أبناء قريش الأكرمين ، إذهم أحق بهذا الشرف من سائر قبائل العرب . ولذلك كنت ترى بينهم من بنى هاشم أصحاب السقاية أبا طالب والعباس وحمزة ومحمدا عليه السلام و بنى أعمامه ، ومن بنى أمية أصحاب الراية ، أبا سفيان بن حرب وأولاده ، ومن بنى نوفل أصحاب الرفادة الحارث بن عامر وأهل بيته ، ومن بنى عبد الدار أصحاب السدانة والحجابة ودار الندوة عثمان بن طلحة وعشيرته ، ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود صاحب رياسة الشورى ، ومن بنى تيم أصحاب الأشناق والديات والمغارم

أبا بكر صديق عليه الرضوان، وعبد الله بن جدعان ومن بنى مخزوم أصحاب القبة والأعنه الوليد بن ربيعة وابنه خالد وعمر و بن هشام (أبا جهل) ومن بنى عـدى أصحاب السفارة الخطـاب وابنه عمر وسعيد بن زيد بن نفيل ، ومن جمح أصحاب الأزلام والقداح صفوان بن أمية وإخوته ، ومن بنى سهم ولاة الاموال المحجرة لآلهة قريش الحارث بن قيس وعشيرته

فلما بلغ البناء قامة الرجل وأرادوا وضع الحجر الاسود فى الركن الشرقى من الـكعبة كما كان اختلفت قريش فيمن يكون لهذا الشرف الاعظم (٥) برفعه و وضعه فى مكانه لتعنو الجباه عنده لرب الـكعبة . وادعى كل فريق أنه أحق بهذا الشرف من سواه فاحتدم الجدل واللجاج ، وتنافرت القلوب التى كانت مجتمعة على بيت الله وظل الجدل خمس ليال بيّت كل قبيل مناهضه وقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما (٥) ثم تعاقدوا هم و بنو عدى وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ، ثم اجتمعوا فى المسجـد الحرام للفصل فيما اختلفوا فيه بحد السيف . ولـكن الله ألهمهم الصواب فانهم ما كادوا يهمون بالشر حتى رُئىَ أسن قريش يومئذ أبو أمية حذيفه بن المغيرة (٥) يعتلى كومة مما كان هناك من الانقاض وينادى فى القوم : « يامعشر قريش كلـكم فى السؤدد سواء والغالب منكم فى هذا اللجاج مغلوب . ثوبوا إلى أنفسكم ، ودعوا الفصل فيما اختلفتم فيه لاول قرشى يدخل علينا من باب الصفا

«٥» كتب السيرة

فاما رفعه هو بيديه ، أو قضى لنا بمن يرفعه [٥] ، ولا تعقيب لحكمه »



وادخلوا أيديهم فى ذلك الدم

فلما سمعت قريش هذا الرأى قبله البعض حقنا للدماء وعقب سائر الجمع بالرضاء . وعلى ذلك اتجهوا بأنظارهم نحو باب الصفا ليروا أول قادم ، فاذا نور ينبعث من مدخل الباب يتقدم صاحبه كأنه نور القمر يسبق مطلعه، وإذا محمد بن عبد الله يشق فضاءه، ويطلع عليهم من ذلك الباب . فلما

(٥) كتب السيرة

شامنه الاعين الشاخصة سرّت بمرآه، وصاحت ألوف الأفواه من فرحها بأنه هو القادم تقول : الامين ! الامين ! إذ هكذا كان يدعى فى قريش . ادن منا أيها الامين واحكم بيننا . ثم خبروه خبرهم وما اتفقوا عليه. قال: «لا بأس عليكم . هلموا الىّ بثوب » فأتى به فأخذا الحجر الأسود فوضعه فيه (٥) ثم قال : « لتأخذ كل قبيله بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا » ففعلوا . فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده فى مكانه و بنى عليه بين تهليل الناس فرحا وثنائهم على الأمين . وكأنهم بأصوات عالية تعلو أصوات التهليل تتجاوب من حول المطاف فى جهاته الاربع يلقى بها أربعه رجال بعضهم تلو بعضه ، وهم يقولون : الله أكبر . الله أكبر . مكررين ! يامعشر قريش ، و ياأبناء إبراهيم جميعا ، ليكن هذا اليوم فاصلا بين أمسكم وغدكم طهرّوا هذا البيت مما طهرّه منه إبراهيم من قبل ، واعبدوا الله وحده لا تشركوا به أحداً وكسروا هذه الأصنام الصماء التى تعدّون هذا البيت ليتحملها فقد كسرها قبلكم أبوكم إبراهيم .(٦)

يامعشر قريش ، لقد أظلكم زمان يظهر فيه نبىٌّ من أنفسكم وردذكره فى التوراة والانجيل ، وله علامات ومخائل . ولقد قضينا ماقضينا نتفحّص الناس ، ونستهدى الأحبار والرهبان حتى عينوه باسمه وأرومته فعرفناه واطمأنت إليه نفوسنا . وقد جئنا نشهدكم علينا قبل مبعثه بخمس سنين(٧)

---

(٥) كتب السيرة (٦) هذه دعوة الحنفاء قبل الرسول عليه السلام وزعيمهم زيد ابن عمر بن نفيل الذى ورد فى الاثر انه يبعث يوم القيامة نبياً وحده ويتلوه ورقة بن نوفل. (٧) كان بناء الكعبة قبل البعثة بخمس سنين

أتنا به مؤمنون و بدعوته مقرّون . فلا ندرى أنحيا حتى نلقاه ونشدّ ازره أم يقبضنا الله اليه فى الصدّيقين . يامعشر قريش ستكون لكم به الدنيا فارقبوه . وستكون لكم الآخرة فاتبعوه . انظروا فيما حولكم وتأمّلوا : ان الذى وضع لكم الحجر بيديه هو نبى هذه الأمة وهاديها إلى الصراط المستقيم . ذلك هو محمد بن عبد الله الأمين .

وكان الناس قد التفتوا يتعرفون القائلين فاذا هم شيوخ أولو وقار وكرامة فى قريش زيد بن عمر بن نفيل [٨] ، وورقة بن نوفل [٩] ، وعثمان بن الحارث [١٠] وعبيد بن جحش [١١] ، وكانوا معروفين فى مكة و بلاد العرب بأجمعها بأنهم أعيان الحنفاء [١٢] الذين يدينون بدين أبيهم إبراهيم خالصا من عبادة الاوثان ، و يحرمون على أنفسهم الخمر والميسر والانصاب والأزلام ، و يفتدون الموءودة و يدعون إلى عبادة الواحد الأحد القهار

ولكن القوم كانوا لاهين بما هم فيه مغتبطين بأن يعبدوا آلهتهم حيث كانت من الكعبة و إن كان لهم أن يغيّروا دينهم فلن يكونوا هم البادئين إنما عليهم أن يثبتوا على دينهم و يجاهدوا فى سبيله غير متسائلين ، و يسفهوا كل ماعداه بغير نظر ولا بحث ، ولذلك صمّوا عن هذا النداء ، بل انبرى بعضهم بزعامة الخطاب أبى عمر الفاروق يسبون هؤلاء الشيوخ الأجلاء ،

---

(٨) عم عمر بن الخطاب (٩) ابن عم السيدة خديجه ام المؤمنين (١٠) احد اقربائها (١١) احد اقرباء الرسول عليه السلام (١٢) كتب السيرة

ويطعنون عليهم بكل لسان ويرمونهم بالأحجار . ومازالوا بهم يرجمونهم ويطاردونهم جزاء سبهم آلهتهم ، حتى أخرجوهم إلى ماوراء مكة فى طريق غار حراء . وكان قد أصاب الاعياء كبيرهم زيد بن عمرو بن نفيل وبرحت به جراح الرجم ، فقضى فى ذمة ربه من ذلك اليوم . وكان الأمين عليه السلام عاد إلى بيته فى شعب بنى عامر يتعجب لما روى عنه الشيوخ الأجلاء وكانوا أعلم من فى قريش بما فى كتب الله ، يقص على أهله ما رأى وما سمع .

وإذ أتم باقوم بناء الكعبة وكان قد تعرّف إلى أهل الفن من الصناع بمكة ، وعرف من بينهم أبا ورقة صليحا ، وتوثقت بينهما الصداقة بالمحبة والاخاء ، فقد نصح لقريش أن يصنع لهم نجرا البيت الكريم . وأثبت لهم اقتداره فى ذلك بما صنعه من قبل . وإذ كانوا يعرفونه ويعرفون دقة صنعه ، وكان أبو الوليد بن المغيرة ، مستقدمه إلى مكة صاحب الرأى الأعلى فى شئون البناء شهد له بالنبوغ ، عهدوا إليه فى تسقيف الكعبة وصنع بابها (١٣) فأقام السقف على أحسن وضع وصقله بنوب من الشمع ، وصنع بابها على نحو ما كان يصنع فى مصر ، فطربت قريش لصنعه وجزته على ذلك جزاء كريما

ولكنه ما حمل أدوات العمل بعد انتهائه وعاد إلى منزله حتى ملكته

---

(١٣) كتب السيرة

حمى شديدة من أثر ماخلفته السيول ، ومرض بضعة أيام ثم قضى نحبه تاركا ورقة وأمه فى كنف الله

حزن بنو عبد المطلب ونوفل لما أصاب العفيفة فى زوجها ، وتباروا فى مؤاساتها ، و بالغت سيدتها فى تعزيتها ، وكانت تودأن تنقلها إلى دارها لولا أن باقوم كان قد مرض هو أيضا ولجأ إلى دار صديقه صليح ، ومات صليح وباقوم فى منزله يفيق و ينتكس ، والعفيفة وابنها يقومان بخدمته فى مرضه حتى شفاه الله.ولـكنه كان هزيلا فبقى فى رعايتها بضعة أشهر حتى أبل ، و إذذاك لم يجد من المروءة أن يرحل عن البيت بعدما دخله وهو عامر.وأخذته شفقة على الغلام وأمه ففكر فى أن يقضى أيامه الباقية فى مكة ليكون أبا للغلام يرعاه كما كان يرعاه أبوه . و إذ كان الرجل أعزب فقدخطر له أن يبنى بالعفيفة إذا رضيت به بعلا ليعيشوا كلهم معا ، واستأذن سيدتها فى ذلك ، فأذنت وباركت هذا الزواج

ظل ورقة منذ ذلك الحين إلى أن بلغ من العمر ست عشرة سنة فى كنف باقوم ، و باقوم يتولى بناء دور السراة فى مكة وغير مكة من بلاد الحجاز . وكان يود أن يعلم الغلام صنعة البناء ولـكنه وجده يصلح لما هو أفضل من هذا وأعود عليه بالخير . فأخذ يعده لما توسمه فيه . وكان لا يفارق الغلام لحبه له . و إذ لم يكن يحسن العربية فقد تعلم ورقة منه الرومية وقراءتها وصار لا يكلمه فى خصائصه إلا بها . وتزكى بما كان يقصه عليه باقوم من أخبار مصر ونيلها العجيب ، والاسكندرية وما فيها من الدور والقصور

والكنائس والمدارس، و بلاد الشام والروم وما جرى فيهامن الأحداث، وكيف أنهم إنما غضبوا على امبراطورهم موريقس الطيب وانحازوا إلى قاتله فوقاس بدعوى أنه أذل الروم بدفع جزية لبرابرة من الشرق يعرفون بالتركان .(١٤)

وكان إذا عاد إلى مكة فى انتظار عمل جديد يخرج بالفتى إلى ماوراء الدور ليعلمه الرماية والمسايفة على نحو ما كان يقاتل وهو جندى، ويقول له : إنك لا شيء مالم تحسنهما ، والولد يزداد كل يوم تعلقا به ، وهيامابالبلاد التى كان يصفها وباقوم يعده أن يسافر به إلى الاسكندرية ليريه الدنيا وأنواع الحياة ، إلى أن كانا ذات يوم يسيران فى بعض شعاب مكة عائدين إلى دارهما ، و بعير شارد يرقل بجوارهما وعثر وانحل تحت خفه حجر صغير تلاه حجر كبير نال قدم باقوم فهشمها وانحدر وكاد يقضى عليه. وسرعان ماحمله ورقة إلى داره ثم ارتد من فوره إلى بيت سيده ورقة بن نوفل ليخبره خبره ويستفتيه فيما يعمل لابيه هذا وصديقه المحبوب .

---

(١٤) ذكر بطلر فى فتح مصر والاسكندرية ان الروم كانوا يدفعون للتركان جزية سنوية.

الفصل العاشر

الحارث بن كلدة الثقفى

كان الحارث بن كلدة الثقفى أشهر أطباء العرب يومئذ ، ملأ صيته العراقين واليمن وما بينهما [١] ، وجاوزها إلى مدائن كسرى والاسكندرية وكثيرا مادعاه عواهل تلك الاقطار لتطبيبهم مما كان يعجز عنه حذاقهم على أنه كان بفطرته نزاعا الى النقل ، شديد السأم من الاقامة مدة طويلة بمكان واحد ، فما أن ينزل بناحية حتى يعاجله التفكير فى الرحلة إلى ناحية أخرى فى طلب العلم والصحة ، والانس بالأصدقاء والخلان . وما كان يجىء إلى مكة إلا ليزور قبر امرأته الوهبية أم أولاده :النضر الطبيب وقتيلة الشاعرة [٢] ، وأولاد أختها الكبرى ، وليتفقد أحوالهم وينفحهم بهداياه الغالية وشيء من فيض ماله الكثير . من هناك يرحل إلى اليمن مارا بنجران فيقضى بها شطرا من العام فى زيارة صديقه ابى الحارث الأسقف الوقور وبقية من أقارب بنى الحارث ظلوا فى ربوعها بعد انتقال دولتهم إلى بنى الدّيان ومن هناك يرحل إلى صعدة وصنعاء ليجتمع فيها بأحبار اليهود

---

(١) تاريخ الاطباء (٢) كتب الادب : ولهذه الشاعرة قصيدة بليغة تخاطب بها رسول الله لما أمر بقتل أخيها النضر اذ اسر فى واقعة بدر وقيل انه لما سمعها الرسول قال ما معناه لو انها بلغته قبل ان يأذن بقتله لعفا عنه

وعلمائهم الذين كانوا أول من أخذ العلم بالطب عنهم . ومن هنـاك يكر عائدا إلى مكة ، ليرحل منها إلى الحيرة ، ومدائن كسرى ودمشق والقدس والاسكندرية ، وهكذا دواليك

ولـكنه كان فى سنواته الاخيرة يطيل مكثه فى الاسكندرية على غير عادته و إذا جاء إلى مكة لم يذهب بعدها إلا إلى اليمن متعجلا ، ومنها يعود بطريق البحر إلى عيذاب فى سواحل مصر ، ومنها إلى قفط وقوص ، ثم ينحدر مع النيل إلى منف والاسكندرية . ذلك لانه كان قد اتصل فيها بالعالم قوزمان الطبيب وتزوج ابنته هرميون ، وأعقب منها ابنة سماها لمياء اجتمعت فيها محاسن العرب والروم من الخلق والخلق معا ، وتكشفت يوما بعد يوم عن زهرة فاتنة لـكل من رآها ، فـكانت متعة أبيها ، وبهجة قلبه ، وقرة عينه ، حتى لم يعد يفكر فى مكة ولا من له فيهـا من البنين والبنات . وكان كلما أرسل إليه ولده النضر رسالة شوق وعتاب ، أرسل اليه يعتذر بكثرة مشاغله ، وما كانت مشاغله إلا بفاتنته لمياء الصغيرة .

على أنه كان فى مكة يوم أصيب باقوم فى قدمه . ذلك لانه لم يشأ أن يبقى فى الاسكندرية بعد ما ترا كمت عليه أسباب الذعر مما يحيق بها ؛ وألقى نفسه وامرأته وابنته فى أنياب العطب غير مرة

كان فيها يوم ورد إليها نبأ ثورة رهيبة قام بها فى بيزنطة جندى سوقى مشوه الخلقة يدعى فوقاس أفسد الجيش بأكاذيبه ووعوده ، وتمكن بذلك من قتل الامبراطور الطيب الخيّر موريقوس وقتل كل أولاده و بناته وأمراء

بيته واعتلاء العرش مكانه [٣]، وكذلك فى سنة ٩٠٩ يوم جاء النبأ بأن هرقل ابن أمير إفريقية (تونس) —وكان قد غضب لهذه الجريمة — دعى إلى القسطنطينية لطرد الامبراطور المغتصب فوقاس ، فخرج بجيشين أحدهما سار به فى البحر إلى بيزنطه ليطرد منها هذا الامبراطور المغتصب المكروه، والثانى سار بالبر بقيادة صديقه نيقتاس مارا بطرابلس وبرقة قاصدا الاسكندرية، وكانت عاصمة الإمبراطورية الثانية ، ليستولى عليها ويطرد الوالى الفوقاسى منها . وكان الحارث يود أن يغادرها لولا أن امرأته كانت مريضة. فلما أبلت كان نيقتاس قد حاصرها فأقفلت أبوابها ، وأصبحت جميع الطرق غير آمنة ، بل انتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق فى جميع نواحى القطر ، حتى أصبح البقاء فى الحصاد آمن وأكرم [٤]

فلما انتهى الحصار بانتصار نيقتاس ولاح الأمن كأنما استتب فى الديار عزم على الرحيل بزوجته وابنته إلى مكة من طريق الصحراء ، ولكنه علم أن الامبراطور فوقاس أرسل أمير الشرق بونوسوس أغلظ قواده كبدا [٤] وأسفلهم نفسا ليسترد الاسكندرية من نيقتاس ، وليعفى أثر حى اليعاقبة خاصة من الاسكندرية ، وهو حى رقوده وذلك انتقاما منهم لقتلهم تيودور [٤] بطريق الروم ، ولفرحهم بزوال دولته من مصر وأن بونوسوس هذا قد نشر جيوشه فى العامرة والغامرة وأباح لناسر اللصوص أن يسرقوا ويقتلوا ويفضحوا الأعراض . فآثر الحارث ويل الحصار

(٣) سنة ٦٠٢ (٤) بطلر وجيبون

وانتظار العاقبة على أن يغامر بنفسه وزوجته وابنته فى طريق الصحراء وغير الصحراء ، والحال على ما علم . وبقى فى الاسكندرية على مضض شديد إلى أن اضطر بونوسوس الى ترك الحصاد والعودة على عجل الى أنطاكية مقر إمارته فى الشام قبل أن يقطع عليه الطريق. فقد بلغه أن كسرى أبرويز بلغ بجيوشه أرمينية وحدود الشام ليأخذ بثأر الإمبراطور موريقوس الذى قتله فوقاس . وكان لموريقوس على ابرويز فضلان : الأول أنه ردّه إلى عرش فارس لما اغتصبه منه وزيره بهرام (٥) والثانى أنه أكرمه فزوّجه من ابنته مارية ابتغاء حقن دماء شعبين عظيمين لم يهدأ لهما سيف فى قراب منذ كانا متجاورين.

عندئذ أراد الحارث أن يرحل عن الاسكندرية ذات الثورات والبلايا ويعود إلى البلاد التى جعل الله بينها وبين مطامع الشعوب فلاة لا مطمع فيها لطامع ، فعاشت لقاحا لا يملكها مالك . ولكنه لم يستطع أن يحمل زوجته على قبول السفر ، حتى رأى قوزمان نفسه والد امرأته أن من الخير لهم أن يبعدوا عن مصر كلها . ولكنه نصح لهم أن يأخذوا طريق النيل إلى قفط ، ومنها بالجمال إلى عيذاب على شاطىء البحر لينتقلوا فى سفينة إلى جدة فمكة . وكتب بذلك إلى أصدقائه فى مصر العليا فسهّلوا نقلة الحارث وكذلك كان . واستطاع أن يبلغ مكة دار الأمن والسلام ويسرى عن نفسه سحابة الذعر الذى تملكه أربعة عشر عاما فى الاسكندريه

---

(٥) بطلر

ولما جاء ورقة يخبر سيده ابن نوفل بما نزل بعمة باقوم نهض ابن نوفل من فوره إلى دار الحارث، ورجا منه أن يسير معه إلى باقوم وأخبره خبره. فنهض الحارث واحتمل ورقة حقيبة أدواته ولوازمه وسارا إلى حيث رقد باقوم

فحص الحارث عما أصاب باقوم فوجد أن مشط القدم قد تهشمت عظامه ولا يجدى فيها تجبير ولا مروخ ، وأنه إن تركها على أمل أن تلتئم ويزول ما تحدثه من الالم فلن ينتفع بها . على أنه كان يرجح أن يصيبها العفن ويمتد وراءها ويموت الرجل . ولذلك أشار ببتر هذا الجزء المهشم على الفور قبل أن يسرى القيح منه إلى سائر البدن

لم يكن لأحد بعد هذا الإيضاح أن يتردد فى النزول على رأى الحارث ، ومن ذا الذى كان يشك فى صواب حكمه ، وهو أشهر طبيب فى الجزيرة العربية بأجمعها . ولذلك أقرّه ابن نوفل وباقوم نفسه ، ورضى بقضاء الله . ورجا من الطبيب أن يشرع فى بتره على الفور ، وقال : إنه يرغب أن يعيش من أجل تماضر وولدها ورقة الذى يحبّه حبّاً شديداً ويخشى عليه نكبات الأيام . ثم مدّ رجله مستسلما ، وأغمض عينيه حتى لا يرى دموعا كانت تتراءى بها عيون تماضر وورقة وسيده ابن نوفل نفسه

استعد الحارث لعمله فأخرج مشرطه من جرابه وغسله وأحرقه ، ثم طلب إلى نوفل وورقة أن يمسكا بساق الرجل وأعلى قدمه حتى لا تتحرك

تحت المشرط ، ففعلا . وشرع الحارث فى عمله فجرح وقطع ، وهم جميعا معجبون بتجلد الرجل وصبره ، لأنه لم يصرخ إلا مرة ثم مرة وسكت . على أنه كان قد أغمى عليه من شدة الألم ولم يفق إلا وقد ضمد الجرح وأزالت تماضر آثار الدماء من الغرفة وأعادتها كما كانت



الحارث يبتر أصابع باقوم

أفاق باقوم من غشيته شيئا فشيئا ، فهنأه الجمع بسلامته . و إذ علم أنه لم يبق شىء شكر للحارث فضله ، ولمولاه برّه . و إذ انحنى ورقة عليه يسأله عن حاله تناوله فقبله ودعا لامرأته بكل خير .

ارتاح الحارث لما رأى من همة الرجل وشكره وأحبه . وأخذ يتردد عليه كل يوم ليراقب حالة الجرح حتى التأم . ونجا باقوم من موت كان

محققا . ولكنه لم يعد صالحا لاعتلاء النصب للبناء . فعول على أن يتاجر فى مواد العمارة يستقدمها من مصر ، ويستعمل ورقة فى هذا العمل ليخلفه فيه . وكان قراره هذا مريحا لقلبه ، مهوّنا عليه ما أصابه فى قدمه

كثر التقاء ابن نوفل بالحارث بعد ذلك إذ كان هذا الحادث سببا فى تجديد مودتهما القديمة ، وإحياء ذكريات ماضية . وأنس كل منهما بصاحبه . وكان ورقة ابن العفيفة يصحب ابن نوفل فى كل اجتماع لهما ، ويحضر مجالسهما مع الأبناء . بل كان إذا عاقه عائق عن الحضور معه افتقده الحارث وتساءل عنه وأرسل فى طلبه . وابن نوفل فخور به لأنه أستاذه . والحارث معجب به لأنه وجده غلاما فرها حسن الطلعة ، شديد الذكاء ، ولأنه خبره فى أمور كثيرة فوجده صائب الرأى يحسن أداء ما كان يعهد إليه من المهام . ذلك بأنه كان إذا غمّ عليه الأمر لم يتركه ليستفتى صاحبه ، بل كان يمضى فيه برأى من عنده يكون فيه الصواب والسداد

وإذ كان الحارث قد انتوى فى نفسه الرحيل إلى اليمن أخذ يحبّب إلى زوجته هذه البلاد السعيدة . ويذكر لها وللعلياء ما فيها من الخيرات والبساتين والقصور والميادين ، حتى حنّت نفسها مثله إلى النقلة إليها . ولا سيما لأنهما كانتا قد بلغتا مكة فى الربيع ، وأخذتا تتذوقان حرارة السموم التى تتقدم الصيف . ولذلك أبدت هرميون استعدادها للسفر على الفور التماسا لطيب الهواء فى غياض صنعاء ورياضها . ولكن الحارث لم

يكن يملك ذلك على شدة رغبته فيه ، إذ كان معتزما أن يزف ابنته «قتيلة» إلى ابن عم لها فى الطائف . وكان لا بد له من المكث فى مكه شهرا لاتمام هذا الغرض

فى ذلك الشهر أخذ يفكر فى مشاق السفر ، ولا سيما بعد ما أصبح عليه أن يرعى فى حموله زوجة وابنة . ورأى أنه لم يعد يستطيع أن يأخذ ابنه النضر ليعينه على عمله فى التطبيب إذا عالج ، وفى التحصيل إذا درس ويهوّن عليه مشقة النقل . لأن النضر كان قد تزوج وأعقب . ولذلك نزعت نفسه إلى ضم ورقة بن العفيفة إليه لما رأى فيه من الرجولة والذكاء ، ولأنه كان فوق هذا يعرف الرومية عن باقوم فهو لهذا أصلح الناس ، إذ يكون كذلك عونا لامرأته على التفاهم مع الناس وجلب حاجتها من الأسواق . ولكنه وجد أمامه عقبتين : أولاهما أن أبويه فى حاجة إليه ، وثانيتهما أن ابن نوفل يستعين به فى شئونه ودرسه . ويكرم أهله من أجل ذلك . فأخذه إذا تيسر يضر بابن نوفل وأهل ورقة معا . كما أنه كان يعلم أن ابن نوفل بلا عقب ، وأنه يحب الغلام ويكرمه بعاطفة أبوة لا يكبحها فيه إلا الوقار . فاذا هو طلب الغلام إليه ، فاما أن يعتذر بحاجته إليه فيخجله ، واذا سمح له به كان هذا تورطا منه فى اجابته رجاء الحارث فيكون كالمغتصب ، ولذلك آثر ألا يكلمه فى هذا الشأن . وأخذ يفكر فى سواه .

على أن ابن نوفل كان فى الحقيقة يشتهى لو تيسر للفتى سبيل الحياة

بما هو أحسن وأمثل . ولا يرى خيرا له وهو يعرف القراءة والكتابة بالعربية والرومية فى بلد قلما وجد فيه من يعرف أن يخط حرفا أو يعرف غير لغة الحديث ، إلا أن يلحق بالحارث الطبيب الذى نبغ فى بلاد العربية كشجرة مورقة ، ليتعلم عليه ويأخذ عنه . ولكنه استحيا أن يفاتحه فى الأمر لأنه كان يعلم أن الحارث كثير الأسفار وفى تنقل ورقة معه كبير نفقة . ولذلك آثر ألا يكلمه هو أيضا .

ولكن حدث ذات يوم أن جرى ذكر ورقة فى غيبته ، وكانت نفس الحارث مأزومة بحيرتها ومشتغلة برغبتها فى أن يكون ورقة معه . فقال الحارث لابن نوفل : ولدك هذا يا ابن نوفل على تمام الاستعداد بفطرته . ولقد أصبح لمعرفته القراءة والكتابة بالعربية مهيأ للعلم والعلا لو وجد المعلّم البار .

فانتهز ابن نوفل فرصة عطفه وتقديره الفتى وأجابه : هل فى بلاد العرب من هو خير منك معلما أو أبر أبا ! ولكنى أشفقت أن يثقل عليك ، فان رأيت أن تسبغ عليه فضلك فهو ولدك وولدى معا وعلىّ تدبير أمر أبويه إن شئت به خيرا ، وهو وحقك يستحقه : تأخذه وتعلمه علم العقاقير ، وعرّفه خواصها ودلّه على منابتها ومظانّها فلعله إذا بلغ سن الفتوة مستطيع أن يتجر فيها فى مكة ، أو يكون طبيبا ينفع الناس بطبه

ولشد ما كان فرح الحارث لهذا الغرض وارتياحه إذ لم يكن هو البادىء به ، وإن لم يكن فيه إجازة بأخذه معه حيث ينتقل . ولكن

الحارث ترك هذا إلى مابعد وأمّل خيرا فأجاب سؤل ابن نوفل من فورد شاكراً . وأبدى أنه لايجد فى أخذ الغلام كلفة لأ نهسينتفع به بقدر انتفاع الغلام منه. وهون الامر على أبوى ورقة أن الحارث كان يوم عودته إلى مكة قد ذكر لسيّدة قريش أنه لن يرحل عنها وعرفت العفيفة وباقوم ذلك ، فكان سرورهما بما جرى الاتفاق عليه عظيما

بقى الغلام يتردد كل يوم على بيت الحارث تردد التلميذ على معهد العلم ثم يعود إلى أبويه فى المسا. وظل يرافقه فى زياراته وعياداته ويشتغل معه فى بيته وغير بيته باعداد العقاقير لمختلف الأدواء ، وكانا إذاوجدا بينها نوعا ناقصا خرجا إلى أودية مكة ومرابضها ليبحثا عنه بين عشبها ، ويأتيا به ، أو يكتبا فى طلبه من منابته . وقد يتغيبان عن مكة ليلة أو ليالى فى سبيل ذلك ، حتى ضرى أبواه بغيابه ، وهما سعيدان بما كان يحدثهما الفتى عن سعادته فى حياته الجديدة ، إذ كان محل الرعاية من أستاذه والمحبة من امرأته هرميون وابنته لمياء ، لانه كان لسانهما الذى تكلمان به الناس ، وعينهما وأذنهما اللتين تريان بهما وتسمعان . إذ لم تكن هرميون تعرف من العربية إلا ألفاظا قليلة لاتنفع ، ولم يزد علم لمياء وهى عربية الادب عن بعض جمل لاتسعف . ولذلك لم تكونا لتملكا صبرا على غيبته عنهما ساعة واحدة ولو كان فى عمله. على أن ورقة كان صبيّا صبوح الوجه سعيد الطالع ، يقبل على سائله بأدب ومحبة ورغبة فى إرضائه من غير ماتكلف لذلك ، بل نضوحا عن بر ، وشعورا بمسرة فى أن ينفع الناس . وكان على هذا عف

اليد والعين والضمير. فلم تملك هرميون ولا لمياء إلا الشكر لله عليه ؛ واختصاصه برعايتهما ومحبتهما اختصاص الابن البار والأخ الرحيم. ولم تكن لمياء لتكتم تعلقها به لأنه كان سلوتها الوحيدة فى معشر كان كل من يزورها من بناته ونسائه يضحك من لحنها فى النطق ، وعجزها عن أداء المراد ، وينصرفن عنها للزراية بها فى بيوتهن مدفوعات إلى ذلك بعاطفة حسد لها وغيرة منها لما خصها الله به من نعمة الجمال ، ورقى الحس ، وما ميزها به من الثقافة ودماثة الخلق ، ولما اكتسبته فى الاسكندرية من خصائص الحضارة فى ملبسها ومظهرها ، وإن لم تزد يومئذ على الثالثة عشرة من عمرها . وكان بر هرميون بورقة يزيد فى تعلق لمياء ، وتعلق لمياء به يزيد فى حب هرميون ، وحبهما معا ينضح على الحارث فيزيد فى إكرام ورقة وتألفه . وكانتا تقولان للحارث : إنه لمن نعم الله عليهما أن تجدا فى مكة من يكلمهما بلغتهما الرومية ، ويؤنس وحشتهما فى بلد لا تدريان كيف استطاع الانسان أن يستعمرها ، وهى قطعة من واد غير ذى زرع (١) ، لم يخلق الله فيه ماء (٢) ولم يرد أن يرسل عليه سماء وأنه لولا البيت الكريم ، لم يكن يصلح إلا مدفنا لمن يهلكه السفر فى القوافل

وكان الحارث يضحك لحديث امرأته مداريا هواجس نفسه من أن

---

(١) القرآن الكريم (٢) لم يكن فى مكة يومئذ ماء يصلح للشرب فلم يكن فيها من الآبار الا زمزم فى الحرم وماؤها غضيض . ولكنهم كانوا يستقون من بعض آبار فيها وراءها ومنها بئر الحمام المشهورة

ينقلب تعجبها كرها لمكة وإصرارا على مغادرتها هى والبلاد التى لم تجد فيها أنيسا إلا الصبى ورقة لتعود به الى الاسكندرية بلد الثورات والدماء ولذلك كان يرى لورقة عليه فضلا أكبر فى أنها لم تكن حين تذم مكة تذكر له الاسكندرية أو النيل ، ولا مافى مصر من الخصب والنماء ، وطيب الهواء وعذوبة الماء . ولكن كان يعكر عليه صفوه من ذلك ولده النضر . فانه لم يكن راضيا عما يلقى الغلام من الرعاية فى بيت أبيه وكان يحادثه فى ذلك لائما . وإذا لقى ورقة لقيه متجهما ، وإن لم يجد فى سلوكه مايعاب وإذا وجده سائرا فى حاجة لسيدته الرومية نبهه إلى التزام عمله فى العقاقير ورده عن أداء هذه الحاجة ، ثم انصرف إلى امرأة أبيه ينبهها الى خطأ ماتفعل ، ويطلب إليها الاقلاع عن ذلك ، حتى أصبحت هرميون تكره رؤيته ، وتود لو تملك أن تفارقه . ولكنها كانت تخشى اذا هى أيقظت فى نفس زوجها الرغبة فى النقلة إلى اليمن كما حدثها أن يأخذ ابن نوفل ولده ، أو ترى سيدة قريش أن أمه أحق به ، وفى ذلك شقاؤها هى وابنتها . ولذلك لم تعد تطالب الحارث بشىء مما وعدها من بساتين اليمن ، ولا قصورها ومياهها . ورضيت أن تعيش فى أجدب بقاع الله حتى ترى لها رأيا ، أو تتبدل الامور من تلقاء نفسها فتواتيها بما هو خير

استمر الأمر على هذا الحال شهرين أو يزيدان زفت فيهما قتيلة ابنة الحارث إلى زوجها فى الطائف ، وذهبت هرميون ولمياء فيمن ذهب معها لشهود حفلة العرس . فأعجبت هرميون بالطائف أيما إعجاب ودهشت

إذ رأتها فى صحراء العرب بلداً أشبه بغياض الشام وقرى جباله فى زرعه وضرعه ، وعيونه و بساتينه ، بل وفى برده وثلوجه على ماروى لها الناس من أمرها ليلتئذ . وعجبت لزوجها وهو ثقفى من أهل الطائف وأعيان أهلها كيف لايجعلها مستقرا له ، ويؤثر عليها مكة الجرداء . ولم تستطع أن تخفى دهشتها عن زوجها لما عادت إلى مكة لأنه لم يذهب معهما إلى الطائف ، ولا عجبها من أنه لم يذكرها لها من قبل على حقيقتها ، يوم كان يغريها بترك الدنيا فى مصر والمجىء معه إلى الصحراء . فقال لها مازحا : إنه لايحب المبالغة ولا الفخر بمسقط رأسه مثلها ، وأنه اكتفى من الأمر بما ذكره لها النضر عنها وأهل النضر . قالت : إنك لتعلم أنى لم أعد أصدق حديث أحد فى هذه البلاد بعد مارأيت من مبالغاتهم وأخذهم باليقين فيما يجدون شبهة للحق فيه . ولقد كنت تقول لى عن هذه البلاد أشياء ظهر .... فضحك الحارث ولم يدعها الحارث تتم جملتها لما يعرف فيها ، وقبلها شاكراً فضلها فى رضائها بالمجىء معه إلى بلاده ، وأبدى لها أنه ما كان يستطيع أن يتركها فى بلاد لم يهدأ السيف فيها فى قرابه يوما ولم تنقطع الحرائق منها وما كان يقوى على أن يعيش بعيداً عنها ، ولو فى الجنة . ولكن الواقع من أمر سكوته عن الحديث عن الطائف أنه كان قد غاضب إخوته وأهله فيها وهو فتى ، فأقسم ليترحن عنها مفارقا ويهجرها هجر الغريب عنها ، حتى لايعود إلى عشرتهم ولا إلى الاجتماع بهم . فباع كل ما كان له فيها ، واتخذ مكة مستقرا لولده . وكان هذا سببا فى أنه لم يذهب مع الذاهبين بابنته

إلى الطائف . ولم يضره هذا القسم لأنه كان قلما يبقى فى مكة حين يأتى إليها إلا أشهراً ثم يرحل إلى بلاد الحضارة التى أنسته الطائف وغير الطائف .

ولم تكن هرميون لترى صوابا أن تطلب إليه النقلة إلى الطائف لالأنه مقسم بل لأنها كانت تخشى ماخشيته من قبل من الوحدة فيها . بقعودورقة عن الانتقال معهم ، وقد أصبح من ضرورات حياتها . فقد كانت الطائف على مرحلة من مكه ، فهى دار غربة للصبيان . فلم تفاتحه فى ذلك ، ولكن الحارث عرف ماوراء هذه السكتة فجاءها ذات يوم يقول : لعلك ياهرميون كنت تودين النقلة إلى الطائف لولا ما علمت من قسمى . قالت : لاوربى بل لأنى إذا انتقلت إليها فسأكون فيها وحيدة أنا وابنتى . أما قسمك فقد بررت به ثلاثين عاما ، وحسب آلهتك منك هذا . قال الحارث : لا وحقك ماعنتنى آلهتى بشىء وإنما عنتنى نفسى . أقسمت أى عزمت وعاهدت نفسى . فاذا أنا حنثت فقد ذللت واتضعت . بيد أن ليس لى إلا إله واحد ياهرميون ، هو ربُّ إبرهيم ، ذو المجد والعلا . ولكنى أعلنك بخبر تسرين له كل السرور . نادى لمياء لتسمعه . فلما جاءت قال لهما : لقد رأيتكما أغرمتما بما رأيتما فى الطائف من ثلوج تذوب ، وأنهار تجرى ، وبساتين وغياض ، وفاكهة وأعناب ، وثمرات ورياض . قالتا : أجل إنها والله لجنة ، أما مكة . . . . قال : وفى ظنى أن ليس لكما فى الطائف بعينها مأرب خاص . قالت هرميون : كيف يكون لنا مارب فيهله

ونحن لم نعرفها إلا منذ حملنا ولدك إليها . قال : إن على مسافة ساعتين من مكة قرية ألطف من الطائف هواء ، وأكثر غياضا . جنة صغيرة فيها ما تشتهيان وما لا تؤملان أن تجداه فى صحراء العرب . جنة فوق جبل يكاد ينطح السحب . تلك هى قرية الهدى فوق جبال كرا التى تريانها من هنا . بيد أن الثلج يدوم على شعافها نصف العالم . وهى بلدة يجتمع فيها أحيانا بعض عباد اللات والعزى ، ينحرون و يتقربون ، ولقد اتفقت مع سيّدة قريش وابن عمها على أن يصحبنا إليها ورقة ، ويكون معى فى الحل والترحال . ورضيت العفيفة وزوجها بذلك ، على أن يزورهما إذا اكتمل البدر مرة ، وإذا هل أخرى ، ليقضى عندهما ليلة فى كل زورة ، وأن يمر بهما كلما دعتنى الضرورة إلى نزول مكة وصحبنى إليها ، وهى كما قلت قرية يبلغها الراكب المجد فى ساعتين . فاذا رضيتما بذلك فليكن الغد يوم النقلة

لم يكن أطيب من حديث الحارث حديث ، ولا أدعى إلى المسرة والرضا . ولذلك تهافتت عليه هرميون ولمياء ، فقبّلتاه وشكرتاه . ثم نهضتا من فورهما تجمعان الأمتعة ، وإذا بورقة يدخل عليهما متهللا ، لأنه كان مع أبويه ساعة جاء ابن نوفل ليستأذنهما فيما أعلنه به الحارث من عزمه على الاصطياف فى قرية هَدَى ، ورغبته فى أن ينتقل معهما ورقة ، ويذكر لهما ما اشترطه عليه من زيارتهما وأنه (أى ابن نوفل) قد أهدى ورقة فرسا ليحمله بين الهدى ومكة ، وأنه نزل على كل هذه الشروط ووعد بأكثر منها .

فلما رأتاه كذلك هلأتا ، ودعتاه إلى التعجيل بجمع الامتعة ، لينصرفا عن هذه النيران التى تتأجج فى جحيم هُبَل فى مكه حتى سودت جسمانه . فضحك ورقة لهذا الكلام ، لأنه كان يعلم أنهما لا تؤمنان بهبل ولا غير هبل ، ولكنهما أرادتا المزح معه والتهكم من آلهة قريش ، فقد كان هبل فى الكعبة ، وكان من حجر أسود . ولكن هرميون لم تشأ أن تقرّ بأنه كذلك ، بل أن حر مكة قد أحرقه وسوّده ، كما تسوّد النيران أثافى القدور . ولكن ورقة لم ينصرف إلى ما دعتاه إليه ، بل ذهب من فوره إلى الحارث فقبّل يده شكرا على برّه به ، فقبّله الحارث فى جبينه وأثنى عليه ثم كلفه أن يستعد للنقلة فى الغد



الفصل الحادى عشر

مصيف خالد بن الوليد

كان الوليد بن المغيرة المخزومى من ذوى الثروة الواسعة فى مكة . وكان يملك كل ما كان من البساتين فيما بين مكة والطائف[1] . وكان قد سأله ولده خالد أن يقيم له بيتا يصطاف فيه فى هدى . فأقامه على جبل تلوح الطائف منه كأنها فى بطحاء . وكان صليح أبو ورقة صانع حجره كغيره من بيوت إخوته. ثم أصلح ماجاوره من الأرض وأعدها بستانا لزراعة الخضر وأشجار الفاكهة فيه ، وأجرى إليه الماء من عين مهملة كانت تسيل فى الوادى ضياعا ، وجعل فى الدار أحواضا تجتمع فيها المياه لينتفع بها فى مصالح الدار ، ثم يطلق الزائد منها فى البستان

ولكن خالدا لم يكن يصيف فيه كل عام ، ولا إن صاف ليقضى فيه كل الصيف . فكانت زوجته لهذا تؤثر عليه بيتهم فى الوادى ، لأن مطاليب العيش كانت لقربه من سوق مجنّة ومدارج التجار والناس أوفر وأيسر . وفى العام الذى عاد فيه الحارث إلى مكة ، كان خالد قد ذهب على عادته هو ونفر من فرسان بنى مخزوم ولاة القبة والأعنة فى قريش — أى زعماء الجيش فيهم — وغيرهم من فتيان بنى عدى وأمية إلى مدائن كسرى للنزهة فى بلاد العراق ، وللوقوف على طرائق الفرس فى تنظيم

(١) عن الألوسى فى بلوغ الارب

الجيوش وسوقهم إلى ميادين القتال ، إذ كانوا قد أوغلوا فى بلاد الروم فاستولوا على أرمينيه ، وقصدوا إلى القسطنطينية ليثأروا من عاهلها السفاح فوقاس جزاء قتله موريقوس أبا مارية المحبوبة زوجة سيدهم العظيم كسرى أبرويز حتى لقد تطوّع خالد هو وإخوانه من قريش فى بعض تلك الغزوات ، كما تطوعت الألوف الكثيرة من الحيرة وشمالى يثرب فى هذا القتال مسترزقين . وإنما انضم خالد وإخوانه إلى جيش الفرس ليقفوا على طريقة تنظيم القتال . فأبلوا وأحسنوا ، وغنموا فى الغنائم . وعرفوا الشيء الكثير من فنون الحرب . ولم يعودوا إلى بلادهم حتى اشتد الشتاء فى جبال أرمينية وطرسوس

وإذ كان بيته خاليا فى الوقت الذى زف الحارث فيه ابنته إلى ابن عمها فى الطائف ، حين لامته هرميون على إنزالها فى مكة ، وجرى ذكر هذا البيت فى مجلس له مع الوليد بن المغيرة ، فقد رغب إليه أن يستأجره أبد الصيف ، أو يبيعه إياه . ولكن الوليد لم يجد إلى ذلك سبيلا لأنه إذ بناه لخالد كان البيت بيته . ولكنه رضى أن يشغله الحارث بلا أجر حتى يرى فيه رأيا

وقد سر الحارث لحيازة المنزل سرورا بالغا إذ أنه يحقق أمنية الزوجة التى أشقاها بنقلها إلى الصحراء بعدما كانت فى الاسكندرية عروس المدائن . وذهب من فوره واتفق مع ابن نوفل فى أمر ورقة . وكان ما كان من اغتباط هرميون ولمياء وإعدادهما حول الانتقال إلى مَدى

بلغوا هدى ونزلوا البيت وفرشوه على هواهم . وأعدوا لورقة غرفة كانت فى جانب البستان . وأخذوا معهم بعض عبيد الدار وجواريها فى مكه للخدمة فى هدى . وانصرفوا إلى التمتع بالحياة فى هذا المعزل المنيف على الجبال والبطاح معا بعيدين عما يكدر الصفو من أهل مكة الساخرين منهم والساخرات واللائمين منهم واللائمات . وهم كل صباح يقضون أحسن الأوقات فى بستان الدار . يعملون فى أرضه . أو يتفيأون ظلال أشجاره . أو يتجولون فى جبل هدى ثم يعودون . وخطر لهم مرة أن يذهبوا إلى معبد هناك للعزى ليروا صنما لتلك الآلهة المكرمة عند أهل مكه . فلم يجدوا إلا صخرة كبيرة بارزة من الجبل جزؤها الأعلى كرأس الانسان ثم ينحدر على الجانبين متصاغرا حتى يتصل بالجزء الأسفل . وعجبوا للناس كيف سوّلت لهم أنفسهم أن يعزوا الألوهية الى مثل تلك الصخور وليس فيها ما يروع ولا يفتن أضعف العقول . ورأوا إلى جانبها شجرة كبيرة قيل لهم إنها الشجرة التى تسكنها شيطانة العزى فى بعض أيامها يوم تترك سدرتها العليا شمالى مكه ، وأنها لا تبدو إلا فى بعض الاوقات على صورة امرأة شعثة ذات شعر كثيف يتدلى على الا كتاف[٢] ورأوا بجوارها معبدا صغيرا يتولى السدانة فيه أربعة من شياطين الانس ضريون بأساليب التدليس ومراسيم العبادة المفتعلة التى توارثوها عن أسلافهم فى هذه الحرفة الدرّارة . ووجدوا حول المعبد مرابد تلقى فيها

---

(٢) جاء فى بعض كتب السيرة وصف هذه الشيطانة كذلك .

لحوم الأضاحي من البدن(٣) التي كان يأتي بها أصحاب النذور لهذه العزى بين آن وآن ليذبحوها لدن صنمها أو شجرتها إذا برىء مريض أو عاد غائب أو ردّت مطلقة أو وضعت أنثى أو تحققت أمنية من أماني النساء وأشباه النساء من الرجال . وإذ لم يكن في مقدور بطون السدنة أن توارى كل لحوم تلك الجمال كان لا بد لهم أن يتركوا بقيتها في العراء هي وروثها فتنتن ويملأ نتنها الجوّ حتى تأتي وحوش الجبال والفلوات المحيطة بهدى فتريح الناس منها بما تحمل منها بطونها الساغبة . ومع ذلك لم يكن لها انقطاع ولولا أنها كانت تحت الريح الغالبة لما ترك وباؤها في ديار هدى ديّارا . ورأوا غير تلك الاضاحيّ جمالا أخرى سائمة لا يعترضها معترض ، ولا يمنعها عن رعي الكلأ مانع يسمونها البحيرة والسائبه والوصيلة والحامي تبعا للمقصد من إهدائها إلى الآلهة

وكثيرا ما كانوا يذهبون إلى نهر هناك صافي الماء عذب المذاق كالسلسبيل يسمونه المُعَسَّل لحلاوته وطيبه(٤)، حتى ليقولون : إن حلاوته تنتقل إلى شاربه . ومن ثم كان أهل هدى أولى بشرة نقية ، ووجوه مليحة وكان نساؤهم مضرب المثل في جمال الخلقة في بلاد العرب كلها . من أجل هذه الخاصة فيه لم يكن شاطئه ليخلو من بعض نساء مكة يقصدنه ليغسلن وجوههن بمائه الطيب ويشربن منه ، ويحملن على ظهور الجمال ركوات من

(٣) هي الجمال التي يضحى بها -
(٤) الرحلة الحجازية للبتانونى

سلسبيله الساحر الذى جعل وجوه الساكنين على شاطئيه من أهل هدى على ما امتازت به من صفاء البشرة وحلاوة الطلعة .

والواقع أن لنقاوة الماء أثرا مباشرا فى هذا المجال ، أو بالأحرى إن ملوحة الماء أو غضاضته ، أو احتواءه ما ليس من طبيعته من الأجسام الغريبة والجراثيم من شأنه أن يؤثر فى المعدة والكبد والبشرة والدم ، وسائر جوارح الانسان ، فيحدث فيها ما يحدث من الاضطراب والأمراض ظاهرها وخفيها . ومن ثم لا يكون شاربها معتدل المزاج صحيح البدن حىّ الطلعة مشرق الوجه . أما نقاؤه من كل تلك الآفات فمن شأنه سير أعضاء الجسم ظاهرها و باطنها فيما أراد لها مبدعها من السلامة ، ما لم يعبث بها الفساد من ناحية أخرى . ومن ثم كان أهل هدى أصحاء البدن والمزاج وكانت بشرتهم نقية ووجوههم مليحة ، ونفوسهم صافية ، وكانت نساؤهم فتنة للعين .

كانوا يذهبون جميعا : الحارث و ورقة وهرميون ولمياء سيرا على الأقدام فى بكرة الصباح أو مطلع الشمس ، ولا يعودون إلا فى الضحى فيتناولون طعام فطورهم ثم ينصرفون إلى شئونهم . فكان الحارث وورقة ينهبان للمطالعة ، أو للنقل والمراجعة . وكان ورقة قد شرع يدوّن ما كان يحدثه به الحارث عن عقاقير بلاد العرب وفوائدها ، واشترى لذلك رقاعا من مكة يكتب عليها و يعرضها على أستاذه فيصححها له . ولكن الحارث رأى أخيرا أن يتولى املاءه حتى لا يضيع عليهما الزمن . فكانا يقضيان

أيام وجودهما فى هدى فى تأليف هذا الكتاب(٤) : الحارث يملى وورقة يكتب . وكلما نفدت الرقاق انتهزا فرصة وجودهما فى مكة إذا هما هبطاها لعيادة مريض فاشتريا منها حاجتهما وعادا بها ليملآها تحبيرا

والواقع أنهم قضوا شطرا كبيرا من أيام الصيف فى متعة وهناءة على هذا المنوال ، لا يكدر صفوهم مكدر ، ولا يشعرون بالحاجة إلى أنيس ، ولم ينقطع ابن نوفل عن زيارتهم وقضاء أيام فى جوارهم كما أن العفيفة أم ورقة وزوجها باقوم زاراهم وقضيا معهم بضعة أيام كانا فيها على أحسن ما يكون الضيف فى منزل مضيف . فقد بالغت هرميون ولمياء والحارث فى إكرامهما . وكان باقوم محل الاكرام الخاص من هرميون ، لأنه رومى مثلها ، ولأنه كان يعرف أباها حق المعرفة وكان يحدثها عن الاسكندرية ويذكرها بامورها وأحداثها ، وما رأى فيها بعينه من أعمال القتل والنهب وتخريب المعابد ، وقيام أهل المسيحية الملكية على أهل اليعقوبية وأخذ هؤلاء بالثار ، وانتهاز اليهود الفرصة للايقاع بهؤلاء وهؤلاء ، وارتداد الفريقين عليهما . ويحمد الله على أن هيأ له الفرصة للبعد عن مواطن هذه الجهالات . وكان سرور الحارث عظيما عند ما سمع زوجته تحمد الله هى أيضا على ذلك ، فقال : وأنا أحمده أيضا على أن أسمعنى باذنى اعتراف أم لمياء بما صنعت إذ نقلتها إلى بلاد لا يسمع فيها صخب ولا لغب ، ولا

(٤) كان أهل مكة يكتبون على رقاق من الجلد أو من العسب والجريد أما القرطاس المعروف اليوم فهذا ظهر عند العرب بعد أن اتصلوا بمصر والشام

يرى فيها حريق ولا بريق . قالت هرميون: صدقت ، وإنى لسعيدة بمقامى هنا وأرجو الله أن يديم طمأنينتى على أبى الشيخ الأرمل وأختى هيلانه

عاد ياقوم وأمرأته مشيعين بكل محبة وإكرام . وظل الحال كذلك فترة من الزمن . وهل هلال فذهب ورقة إلى أهله للزيارة على عادته وانتظروه صبيحة الغد فلم يجيء فساورت نفوس أهل البيت وساوس. ولكنهم لم يروا أن يتعجلوا سوء الظن فظلوا يرقبون الطريق . وكانت لمياء عينهم عليه . فقد ظلت طول اليوم فوق سطح المنزل عالقة العين بطريق مكة تمر الأشباح أمامها تلو الاشباح وتنفيها واحداً بعد آخر ، لأنها لم تكن تمثله . كان له شبح واحد تعرفه حق المعرفة ، وتميزه بين الوف من أشباح أخرى ولو اجتمعت . حتى إذا غربت الشمس نزلت وهى كمدة تعلن أنه لم يلح . وكان الحارث قد ساوره الخوف من أن يكون الفتى قد أصابته حمى من أثر نتن الأضاحى الذى كان يهب عليهم إذا دارت الريح دورتها فدخلت عليهم من الجنوب بعد إذا كانت تدخل من الشمال من ناحية الشام ، فعزم على أن يذهب فى الغد إلى مكة ليرى ماذا جرى لورقة

جاء الغد ولكن الحارث لم يستطع النهوض من فراشه لأنه أصيب بشيء من الفتور فى جسمه ألزمه الفراش . ومضت ضحوة اليوم الثانى على ورقة والحارث فى فراشه . فاضطرب الأمر فى البيت اضطرابا عظيما ، وساورت المخاوف هرميون ولمياء من كل جانب . ولم يخطر لهما ببال أن يرسلا أحد العبيد إلى النضر ليخبره بمرض أبيه . ولعلهما كانتا تكرهان

التقاء النضر وورقة فى البيت لئلا يعود إلى سابق كلامه المرّ ، فاستقر رأى كل منهما على أن يسقطه من ديوان الفكر ، ولذلك لم يكن له أثر فى فى ذهنهما حتى فى تلك الساعة التى لم يكن ورقة فيها فى البيت. ولكن عبدهم زيادا الذى أحضروه معهم من مكة لم يسعه إلا أن يسأل سيدته لماذا لا ترسله إلى مكة ليستدعى مولاه النضر وهو طبيب لا يشق له غبار (٥) ، ليرى أباه و يصف له الدواء الشافى . فتنبهت هرميون عندئذ إلى أنه يجب عليها أن تستدعى النضر لزيارة أبيه ولعيادته ما دام طبيباً عظيما فأرسلته إلى مكة على الفور ، وكلفته كذلك أن يذهب إلى بيت باقوم ليسأل عن ورقة . ولم تزد على ذلك فيما يختص به ، لأنها كانت تعلم أن هذا العبد يحب ورقة كثيرا ويسعى فى خدمته كأنه ابن سيّده بل أكثر من ذلك ولا بد أن يتعرّف الأسباب التى حملته على هذا الغياب الذى لم يعتادوه منه فقد كان ورقة يعمل على ألا يغيب عنهم إلا ساعات قليلة لا يشعرون بها . ذلك أنه كان إذا جاء يوم مبيته عند أبويه ركب فرسه فى العشىّ فبلغ مكة فى أول العشية . وقضى الليل معهما . وركب فى بكرة الصباح فبلغ هدى مبكرا ليجتمع بلمياء وهرميون وينعم بجوارهما قبل أن ينصرف إلى عمله مع أستاذه .

---

(٥) كان النضر ابن الحارث بن كلدة من أعظم أطباء العرب كثرت سياحاته فى بلاد الفرس والروم واليمن وكان فوق علمه بذلك واسع العلم بالتاريخ ومن المؤرخين من يجعله اعلم من ابيه وكان مع مشركى قريش فى أذى الرسول عليه السلام وتكذيبه وصرف الناس عنه وحارب فى بدر فأسر وقتل بعد القبض عليه بيومين .

والواقع أن ورقة كان يشعر بدبيب الغرام فى قلبه لمياء ، ولكنه لحبه لأستاذه وأهل بيته كان يحسب أنه الهزة التى تعترى القلب إذا استشعر ولاء ، أو الروح التى تتخلل جوارح الإنسان إذا أحس لأحد ودا ووفاء . ولكنه كان يرى هذه الهزة تشتد فى أوقات خاصة ، هى أوقات وحدته فى مخدعه فى هدى ، أو فى بيت أمه فى مكة . هنالك يتمثل لمياء فى ظلام الليل فيتمثل كل محاسن الدنيا فيها وحدها ، ويتمثل نظرات عينها الخفرة يشع منها فى الحديث معه أو الانصات إليه ذلك الضياء البهيج الساحر الذى يهز نفسه كلما شامه . وتتراءى له من ثغرها الألعث العجيب الصنع تلك البسمات التى تغمره بعواطف بر كثير لا يرى أنه جزاء له عن فضل . ويتذكر أنسها به ، واقترابها من مجلسه وهم جالسون، ومجانبته وهم سائرون وأن ذلك البر لم يكن مقصورا على ساعات حضوره مجالسهم فى الدار ، واجتماعه بهم تحت الكرم فى البستان ، أو مرافقته لهم إلى المعسل والبطيحة. فقد خبره صديقه زياد غلام البيت أنها لا تنقطع عن ذكره فى ساعات غيبته عند أمه،وتسائل والدتها وزيادا وجاريتها سودة : ألا تشعرون بفراغ لغيبة ورقة ؟ فيقرها المسئولون على ما تشعر وينسون أنه ليس ولدهم ولا أخاهم . وذكر له أنها تظل تشيعه بالنظرات من فوق سطح الدار حتى يغيب عن العين . ولعلها لا تنام من الليل إلا أقله ، ثم تنهض مبكرة فى الصباح لتتعجل رؤيته وهو عائد . وذكر له زياد كذلك أن لمياء رأت فتيات المعسل الفاتنات يترددن على سودة فى البستان ويتألفنها

ويهدينها تعاويذ مما يصنع السدنة وحليا مما اشترين فى بعض الاعياد . وعلمت منها فيما علمت أنهن يكثرن من الحديث عن ورقة وأهله ومكانه من الطبيب ، فأوجست شرا وغضبت فأمرت سودة ألا تلقاهن وان ترد عليهن هداياهن مع زياد ، كما أمرته أن يحرّم عليهن الحضور لزيارتها فى البستان



تمثل ورقة كل ذلك وذكره فأحس فى نفسه حنوا شديدا عرف أنه الحب الذى يلهج به الشعراء . وتمنى لو يستطيع أن يراها الآن ليضمها إلى صدره ويقبّلها ويصارحها بما يجد لها فى قلبه من الحب . ولكنه تنبّه إلى نفسه وأمنيته المنكرة وعزاها إلى الشيطان الذى يلقى فسادا فى القلوب

التى تتجه إلى الله ليفتنها عن الرشد ويغريها بما لا يحمد . ما أشد جرمه لأستاذه وامرأته الطيبة وابنته المطهرة إذا هو عقهم وخان أمانتهم ! إن من السيئات الكبر أن يضرم فى قلب فتاة مطهّرة كلمياء التى تحبه حب الأخت أخاها حبا لا ينتهى إلى خير . فما هو بكفء لها ولا ضريب ! ما هو إلا ابن نجار عاش فقيرا ومات فقيرا ، من سبية وجارية لا وزن لها فى الحياة ولا قيمة ! أما هى فابنة الحارث بن كلدة الثقفى قريع كسرى وجليس الملوك ، وإن كان متواضعا حلو النفس ، وهرميون ابنة قوزمان أعلم علماء الاسكندرية وبلاد الروم بأجمعها ! ان كانت تحبه وتكرمه فلأنه نزيلها ، ولأنه أمين لها ووفىّ . واذا عطفت عليه فهو عطف إحسان وبر بيتيم لم يدر حتى اليوم كيف يحصّل رزقه ، لا لترفعه إلى مقام العزة التى هى فيها ! بله انها لا ترضى لابنتها بعلا لا تكون فى حماه سيدة عظيمة ، ذات جاه واسع ! ألم تقل فى بعض حديثها مع زوجها على مسمع منه وتقل لجماعة من زوارها فى مكة : إنها لن تزوجها لأحد من أهل هذه البلاد ، بل لا بد أن تعود بها إلى الاسكندرية يوم تكبر لتزوّجها من بيت نيقتاس حاكم الاسكندرية كخالتها هيلانة .

لا حق له إذن فى أن يعلن لمياء بحبه لها . وليس من تقوى الله ولا الامانة ولا من الخير أن ينمّى فى قلبها الطاهر غير ماله فيه من حب الأخت أخاها ! ولا من الشرف وعرفان الجميل أن يبدى من أمره إلا ما يبدو حتى الآن من عواطف الولاء والشكر ! بل ربما كان خيرا أن

يرتد قليلا ويلتزم الاجلال والتوقير للحارث وزوجته ، ويعمل على رد لمياء الى ما صدرت عنه من البرّ والمودة

هذا ما استقر عليه رأيه في مكة ليلة ذهب لزيارة أمه . ولكنه تمثل البرح الذى سيعانيه قلبها الفطير لما سترى منه من الازورار عنها والتزام الحد الفاصل بينه و بينها . وخطر على قلبه أنه سيسىء الى من أحسنت اليه ، وأنه إذ انتوى ذلك كان كالذى يضمر الشر لانسان برىء آمن . ورأى أنها كالحمل الوديع الذى عزم صاحبه على ذبحه في الصباح ، ولم تشفع فيه وداعة الأمس ولا براءته . فضاق صدره وقعدفى فراشه مأزوما يتأوّه ، حتى غلبه الهم فهوى على فراشه يبكى وجداً وحسرة ، وأسفا لما سيلحقه بالفتاة باختياره من الآلام وخجله من نفسه يوم تراه على غير ما كانت ترى منه . ولكنه أسلم أمره الى الله ، وأخذه الرقاد وهو يناجى ربه ويلتمس منه العفو والقوة والرضاء

الفصل الثانى عشر

نعـاء ! نعـاء

نهض ورقة ليركب جواده عائدا إلى هدى ولم يكن حاديه اليوم على ذلك هوى نفسه للاجتماع بأحبابه بل حبه لسيده وأستاذه الأول ورقة بن نوفل فقد كانت والدته خبرته فى العشية انه مريض منذ عشرة أيام وان العلة اشتدت به ولا يعرفون له دواءا. ولذلك رأى أن يبكر فى العودة الى هدى ليستدعى استاذه الحارث ليعوده عسى أن يكون شفاؤه على يديه . ولكنه ما كاد يذهب ليخرج جواده حتى تنبهت اذنه إلى صوت غريب . صوت أجش رتيب يسير به صاحبه متئدا وان كان يتجلى شيئا فشيئا كلما تقدم نحو الدار . ولم يتبين منه ورقة الآ صورة قوله : نعاء . نعاء ! واذ لم يكن ينعى على هذه الصورة الآ العظيم القدر فى الناس[1] فقد اشفق أن يكون المنعىّ سيده ابن نوفل فترك جواده وجرى نحو الباب ليتبين الحق حين كان ناعى الكرام على مقربة من باب الدار وهو يكرر قوله : نعاء ! نعاء ثم يعقبها بقوله : يا آل مكة عوّضكم الله خيرا فى أخيكم ورقة بن نوفل لا يبعد له مزار ولا يلمم بجدثه بوار .

---

(١) بلوغ الارب للالوسى .

دارت بورقة الارض دورتها بمن تصميه النوائب ، فانهد وجلس على عتبة الدار يفكر ولا فكر وينظر ولا يرى ثم لطف الله به فبكى وزاد



وجده فنشج وكانت والدته قد سمعت النعىّ الفاجع فاعولت فى الدار وولولت وتجاوبت أصداء النحيب والعويل من ديار بنى نوفل والحى المجاور وكان صياحا أليما . وكان باقوم على فرط وجده لما فقد قد سمع بكاء الغلام ورثى لحاله وخشى أن يبرّح به الهم فنهض يتوكأ على عكازته إلى حيث جلس وأخذ يحاول لفته عن وجده بكلام كان يعلم انه لا يطفىء أهون شرارة من نار حزنه ولكنه جعله وسيلة ليأخذ بضبعه لينهضه ويدخله بهو الدار عسى أن يتمكن من تخفيف ما أصابه . فنهض ورقة مطاوعة

للشيخ الحنون وسار حتى لمحت عينه فى البهو مكتلا فجلس عليه يبكى كما كان وجلس الشيخ الى جواره يعزيه ولكنه كان يبكى هو أيضا ويندب سوء حاله من بعده . أما العفيفة فلم تتئد بل خرجت من فورها وهى على حالها من الهلع وسارت كذلك حتى بلغت دار الفقيد وكان نسوة بنى نوفل قد اجتمعن فيها وخديجة أم المؤمنين بينهن تبكى فى صمت ووقار وابن عمها مسجى أمامها فى سريره . وكان العليّات من بنى عبد مناف يقبلن عليها مولولات نائحات ليشتركن معها فى الفاجعة ، إذ كانت السيدة خديجة أقرب أهله اليه وكانت منه على تعادل مفترعهما بمنزلة الابنة كما أن الرجل مات بغير عقب (٢)

فلما رأتهن السيدة خديجة على هذه الحال أوعزت الى فاطمة ابنة الخطاب وكانت جالسة فى جوارها أن تنهى تماضر العفيفة أم ورقة عن ذلك العويل لتنتهى عنه غيرها . وكانت فاطمة ابنة الخطاب حنيفية كزوجها سعيد بن زيد بن نفيل ومن أوائل من آمن بسيد الحنفاء محمد بن عبدالله فانبرت تلقى على المعولات عظة مما وعظها به الاسلام ولكنها كانت توجه الخطاب الى تماضر أم ورقة حتى لا تتأذى سواها . قالت : عفا الله عنك ياتماضر ! انك لتعقين سيدك الراحل بما تفعلين . أما تعلمين أن الميت يعذب ببكاء أهله . ولعمر الحق ما كنت من برّة الآ كما تكون الابنة ! قالت صدقت ياسيدتى فكيف أملك صبرا على مصيبتى فيه! وانه

---

(٢) كتب السيرة

لغافرلى عجزى. قالت فاطمة: لقد كان ينهى عن العويل والنياحة. قالت واسوأتاه ان له على كبدى لحقا يجزيه الآن حرقة والتياعا! قالت: فهلا انتهيت بما نهى عنه مولاك رسول الله! انه ليبرى ممن الصالقة والحالقة والشاقة جيبها. قالت: سلام على أبى القاسم! سمعت يامولاتى وأنبت. وليلطف بى الله! على دينه أحيا وعلى دينه أموت. ثم جلست وراء الجالسات تبكى كسيدتها وقد انقطع العويل والنياحة حتى إذا جاء وقت الغسل توارت النسوة فغسل على العادة وكفن ثم حمله الرجال فى سريره على الاعناق وخرجوا به ليدفن فى المعلاة شمالى مكة. وكان قد اجتمعت قبائل مكة فى الطريق لتسير فى جنازته. فلم تشهد أم القرى له جنازة اجتمع فيها اشراف القوم وكأن على رءوسهم الطير كجنازة ابن نوفل وانه ليخيل الىّ من عظم الراحل وقرابته من سيدة قريش ان النبى ﷺ أكرمه وان أكبر الظن انه عليه السلام مشى فيها هو وخليفته الصديق أبو بكر وصحبه ممن سعدوا بنعمة الاسلام فى أوائل أيامه: عثمان بن عفان وسعد بن أبى وقاص وسعيد ابن زيد وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وطليب بن عمير بن وهب ومن كان فى مكه يومئذ من المسلمين وعدتهم إذ ذاك قرابة الاربعين منهم أبو ذر و بلال و زيد بن حارثه وعمرو بن عبيسة السلمى وخالد بن سعيد بن العاص وعثمان بن مظعون. ولم يكن العباس ولا حمزه ولا بعض أخوة على بن أبى طالب قد أسلموا بعد ولكنهم لم يكونوا فى فريق المشركين بل انحازوا الى مصاف رسول الله هم وأبو طالب وكنت

ترى من مشركى مكه يومئذ أبا عمر و بن هشام وأبا لهب وعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص قبل اسلامهما وأبا زمعة الأسود بن عبد يغوث وعقبة بن معيط وعتبه بن ربيعة وأبا سفيان بن عبد الحارث بن عبد المطلب . وأبا سفيان بن حرب بن اميه والحكم بن أبى العاص وسعيد بن العاص والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث ولبيد بن ربيعه ومئات غيرهم من أعلام مكة يومئذ . وكان يحمل النعش منهم سادة القبائل وزعماء البيوت فتعاوره أبو طالب وأبو بكر وعمر وأبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وامية بن خلف الجمحى وغيرهم .

فلما بلغوا المعلاة وأرادوا دفنه فيه ظهر لهم من تحت النعش غلام لم يبلغ العشرين بعد وقال بصوت محزون مكبود: رويدكم يا قوم. وصية أبلغها وأمنية للراحل أعلنها ! فالتفت الجمع ليروا من القائل فاذا به ورقة بن العفيفة. فقالوا له : ما خطبك يا غلام ؟ قال : لقد كان ابن نوفل يقول لى انه أوصى أن يدفن بجوار صاحبه زيد بن عمرو بن نفيل فى حراء وما حراء من هنا ببعيد . أليس فيكم يا قوم من سمع وصاته غيرى ؟ لقد كنت منه كولده وكان كأبى . وانى وحق الله لصادق . فبرز سعيد بن زيد يقول : بلى لقد سمعته بأذنى يقول هذا . ورأيت أبى وابن نوفل يتواصيان بهذا . ولقد كان النضر بن الحارث معى فى مجلسه ساعة قال هذا . قال النضر : حقا تقول يا ابن زيد هو عهد تواصيا عليه فى حراء يوم الحجر الأسود . وقال

عثمان بن مظعون : هو والله ما قال ابن العفيفة لقد كان ابن نفيل يئن من جراحه يومئذ ويطلب الى ابن نوفل الا يفارقه فاقسم هذا لن يفارقه وأوصى ان هو استؤخر عنه أن يدفن الى جواره . فسيروا بنا الى حراء . ندفنه حيث دفن الخطاب ابن أخيه يوم قتلته غلمانه رمياً بالأحجار من أجل قوله الحق فى محمد رسول الله . هذان رجلان ملآ الدنيا سماحة وهدى والقيا فى ظلمات العقول نورا . كانا فى الدنيا صديقين ولهداية الناس الى الحق متحالفين فليرقدا اليوم بالقبر متجاورين !

لم يجد المشيعون بدا بعد هذا من تحقيق وصاة الرجل بدفنه فى حراء . فساروا به الى حيث دفن ابن نفيل وشقوا له فى جواره لحدا وواروه التراب ثم قام الخطباء فأبنوه وعادوا الى بيوتهم فى العشى ثم إلى أنديتهم حول الكعبة يتذاكرون .

أما ورقة فلم يعد فى العائدين وبقى على القبر يبكى سيده ويندبه حتى إذا افتقدته سيدته أم المؤمنين وعلمت بنبأه ارسلت اليه زيد بن حارثة وكان غلامها الذى وهبته لرسول الله ، وأوصته أن يأخذه الى داره مترفقا وبرحله فى الغد إلى هدى ليصرف همه بعيدا عن موارده من مكة . وإذ خشيت ان هو سار الى هدى من طريق حراء ان يعرج على قبر سيده أمرت زيدا ان يخرج به من طريق أجياد (٣) ولو بعد وان يصحبه الى ماوراء مكه عائدا الى مصيف أستاذه .

---

(٣) جنوبى مكة

ففعل زيد كما أمرت سيدته وقضى الليلة معه فى بيته يسليه بالاحاديث ولم يجد زيد أنفى للهم الحاضر من هم جديد فأخذ يذكر له ماجرى فى مكة من الاحداث فى غيبته إذ صدع رسول الله بامر ربه بين عشيرته الاقربين فتبعه خلق كثيرون. وذكر له من أحداث تلك الأيام مافعل المشركون بمستضعفى المسلمين إذ جعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة ليفتنوهم عن دينهم ولكنهم كانوا يتصلبون فيه ويعصمهم الله من الافتتان والرجعى إلى عبادة الاوثان . ذكر أمية بن خلف الجمحى اذ علم باسلام غلامه بلال بن رباح فكان اذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فلا يقول الا قولة المسلم : احد . أحد . وهو صابر لا يفتنه البلاء وكان فقيد اليوم يمرّ به وهو يعذب ويقول قولته هذه: أحد . أحد . والله يابلال.(٤) ثم يقول لامية: احلف بالله لان قتلتموه على هذا لاتخذن قبره منسكا وحنانا فرآه مولاي أبو بكر الصديق وهو على هذا الحال فقال لامية : ألا تتق الله فى هذا المسكين! فقال انك أفسدته أنت وصاحبك فابعدته عن الحق . فقال له الصديق : أى حق هذا الذى أبعدناه عنه ! عبادة الاصنام ! ارحمه يرحمك الله . واذا شئت فعندى غلام على دينك أسود اجلد هذا اعطيكه. قال قبلت . فاعطاه ابو بكر الغلام واخذ بلالا فاعتقه (٤) وكذلك فعل ابو

---

(٤) السيرة الحلبية عند ذكر تعذيب المستضعفين.

جهل بعماز بن ياسرو بابيه وامه سمية فقد أمر بهم ان يجروا على وجوههم فوق رمضاء الابطح حتى مات ياسر من العذاب فلما اغلظت له امرأته الـكلام طعنها ابو جهل بحربة كانت فى يديه فقتلها (٤).

ظهر الغضب على وجه ورقةوقلق واخذ ينفثولا يتكلم. ولـكن زيدا استمر يروى له من أخبار غيرهم ما زادهحنقا وثورة فذكر له ما لقى صاحبه خباب بن الارتّ اذ كانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالحجارة المحماة بالنار ويلوون رأسه وهو متصبر وذكر له عمر بن الخطاب اذ كان يعذب صديقتى امه لبينه وزنيره وكانتا من فتيات بنى عدى ، ويضربهما ضرب غرائب الابل (٤)

كان زيد يذكر هذه الوقائع فيزيد ألم الفتى ويغضب ولـكنه لم يكن يتكلم لانه كره ان يشغل قلبه ولسانه بغير ما كان يشغله من الحزن على سيده. ولـكن ما كاد زيد يذكر ما فعلوا بالنساء حتى هب و رقة وانطلق لسانه يقول : امسك يازيد امسك ! والله ما يحزننى من الامر تعذيب هؤلاء الحنفاء بقدر مايحزننى من أن مكة قد خلت ممن يغيث هؤلاء المستضعفين أو ينصفهم من سادتهم غلاظ الاكباد ! أيعذب المرء ان يقول ربى الله ! قال : أنما المنصفون قليلون ولم يؤمن نبى الله بعد بشىء مما ترى وانما أمر النبى عليه السلام اتباعه ان يفتدوا كل عبد مسلم . فاشترى أبو بكر أكثرهم وأعتقهم واشترى غيره من اشترى . ولـكن المشركين فطنوا الى ذلك فكفوا عن بيع عبيدهم — واستمروا فى أيذائهم .

لم يكن في قصد زيد أن يوغر صدر الفتى على المشركين أو يستفزه لشيء ولكنه أراد أن يدفع هما في قلبه بهم فانساق إلى هذا وهاج غضب الفتى رثاء لهؤلاء فتململ في مجلسه وهو يقول: أما ورب ابراهيم ومحمد! لو رأيت الجمحي وهو يعذب بلالا أو رأيت عمرو بن هشام وهو يطعن سمية حيث طعن أو عمر وهو يضرب زنيرة لقتلته ولو تناولتني السيوف من بعدها حتى لم تدع مني قطعة تحدث عن مكانها من جسدي. قال زيد : مرحى لك يا ورقة! هل آمنت بمحمد ودينه ! ... فبهت الفتى ثم قال : ويحي يا زيد ألا تعرف ذلك . قال : أنى لي أن أعرف ولم أجدك بايعته ولا أسلمت بين يديه . قال ورقة : واسوأتاه ما حاجتي بمبايعته واسلامي بين يديه وأنا حنيفي مثله أومن بالله ونبيه ابراهيم كما كان أمامي ابن نوفل وصاحبه ابن نفيل . قال زيد : ما زدت عن المشركين في كثير فهم في الحق على دين ابراهيم لولا أنهم ضلوا السبيل فجعلوا الأصنام وشياطينها شفعاء لهم من دون الله . أرفع أصنامهم كما رفعها ابراهيم تجدهم على ما كان عليه ابن نفيل وكما كان ابن نوفل . قال ورقة : لعمري لم يدعهم مولاي محمد الى أكثر من هذا . وما غضبه إلا لله ولدين ابراهيم. وما يكره من قومه إلا عبادة هذه الاصنام التي أبطلها ابراهيم. وما غضب المشركين عليه إلا لأنه يسفه أحلامهم فيما يعبدون. فهو اليوم أمام الحنفاء وسيد الموحدين ومحيي دعوة ابراهيم وخليفته في أبنائه من اسماعيل . قال زيد : هو ذلك ورسول رب العالمين إلى أمة لم يأتها النذير . قال ورقة: ويحي يا زيد! وما اسماعيل وأبوه! أليسا في المنذرين

ألم يقل إبراهيم الله ربي الواحد الأحد الذى لاشريك له ولا وزير ولا معين ولا ظهير الذى اليه الرجعى واليه النشور ؟ وما كلمات ابراهيم التى ابتلى بها ؟ تلك الكلمات العشر التى نحن عليها أجمعين . حنفاء ومشركين ؟ الخمس التى فى الرأس : وهى المضمضة والاستنشاق وقص الشارب وفرق الشعر والسواك . والخمس التى فى الجسد : وهى الاستبراء وتقليم الأظافر ونتف الأبط وحلق العانة والختان ؟ وما الغسل من الجنابة وغسل الموتى وتكفينهم ؟ وما الحج والاعتمار والاحرام والتلبية ؟ وما الهدى ورمى الجمار وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وكراهة الخمر ؟ أليست كلها من دين ابراهيم ؟ وهل جاء مولاى محمد بغير ذلك أو نقضه ؟ قال زيد : كلا بل قره الرسول عليه السلام. قال ورقة : فإلى أى شىء تدعونى اذن؟ ان كان لترك الاصنام فقد تركتها قبل أن أكلف عبادتها وأنا غلام فى العاشرة من سنى وان كان لترك دين التثليب — دين المسيحيين الذى كان عليه أبى — فقد تركه أبى منذ تزوج من أمى كما تركها صاحبه باقوم من بعده واتبع ابن نوفل . قال زيد : هذا كلام كبير يا بنى وعليه مسحة من الصواب . ولكن فاتك أن تتبين صوابا أكبر . قال : ما هذا ؟ قال: لا تعجب يا بنى ان أحدثك عنه . انى كما تعلم متنقل فى تجارة مولاتى وقد حضرت مجالس الأحبار والرهبان وتعلمت الشىء الكثير . بل أنا أقرأ وأكتب مثلك . ما الدين يا بنى مقصور على النظافة والغسل وكلمات تحفظها عن الناس وترددها . الدين نور من عند الله من استضاء به اهتدى

وأرضى ومن أبى الا أن يسير فيما تزينه أهواؤه لنفسه من النؤور ضل واعتدى . ولقد اندرس دين اسماعيل وتاه كتابة فتاه الناس من بعده حتى انقلب الحال بهم فاذا أولاده وابر الناس به و ببيته قد عادوا إلى جاهليتهم الأولى التى أخرجهم أبوه منها . عادوا إلى عبادة النصب والأصنام التى كان قد هدمها بيديه . ومن حق العباد على ربهم بعد هذا الضلال البعيد أن يرسل اليهم نذيراً آخر . نذيراً جديدا يبسط لهم أوامره ونواهيه زيادة عما تقتضيه العقول من واجباتها والزاما لما جوّزته من مباحاتها لأن الناس بنظرهم وحدهم لا ينكرون مصالحهم لأنفسهم فهم ميالون بفطرتهم إلى البغى والعدوان ، ولا يشعرون بعواقب أمورهم لغرائزهم ولا ينزجرون إلا أن يرسل الله اليهم أدبه فيلتزموه .

يومئذ تكون شرعة الله فيهم مستعملة وحدوده فيهم متبعة وأوامره فيهم ممتثلة ووعده ووعيده فيهم زاجرا. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض كما فسدت فى هذه الأيام وحلت الفوضى على الناس كما هى حالة اليوم . فليس عن بعثة الرسل يا بنىّ معدل ولا منهم لانتظام المصالح بدل . والا فلو ترك الناس على سجيتهم لبغوا فى الدنيا بغى الذئاب واستأثروا بالخير لأنفسهم ولمن يحبون دون خلق الله جميعا . وهذا غاية الفساد . قال ورقة : هذا حق يا زيد وربى ، ومن أجل ذلك ينهض المصلحون بدعوة الناس إلى طريق الهدى حتى لا يضلوا ولا يبغوا . قال زيد : لا يابنى ليست النبوة نهضة ناهض بملكه واختياره مهما كان خيّرا

أو رشيدا والآ كثرت المذاهب فلا يدرى الناس بأى هذه المذاهب يهتدون . واذا ضل طالب الهدى فما صنعت شيئا . قال ورقة : فما هى اذن؟ قال : هى بعثة وتكليف من لدن رب الخلق وأمر منه لمن يختار . فالنبى رسول يبلغ رسالة الله و يتكلم بما يوحى به الله اليه . لا ينطق عن هوى إن هو إلا وحى يوحى . وللرسل صفات ربانية فى خلقهم وعلامات جسمانية فى خلقهم يخصهم الله بها ليتعرفهم المستعرف ويطمئن اليهم المستهدى كيلا تجوز دعوى المدعى على الناس فيقع فى ضلال جديد . قال ورقة : صدقت يا زيد صدقت . زدنى بالله مما تقول فقد خبرنى مولاى ابن نوفل أنه هو وصاحبه قد وجدا كل ذلك فى سيدنا وانه آمن به قبل أن يبعث وعزم على شد أزره يوم يؤمر بالدعوة . ولكنى ولا أكذبك لم أكن قبل هذا أجد لهذه البعثة حاجة ولا إلى هذا الايمان من ابن نوفل ضرورة وأما اليوم فانى أرى نورا ينبعث من فلك فيجلو جهالتى كما يجلو نور الصباح ركام الظلام ... يا لله ! أإذا كان فى الناس صلحاء أخيار أوفياء للحق فصدروا عن طبيعة الخير التى فى أنفسهم مخلصين فى القول والعمل لم يؤمن أن يضلوا ! قال زيد : نعم سيكون لكل منهم فى الخير مذهب قائم يأمر به ويدعو اليه ويتعصب له وقد يؤذى الناس فى سبيله . فاذا وجد كل ذى مذهب أنصارا وجدت الناس كلهم مختلفين متنافرين متباغضين . وأى خير فى هذا ؟ قال ورقة : صدقت. صدقت . قال زيد : لابد اذن من دين واحد يأتى به نذير واحد من عند الله الواحد، ليجتمع الناس عليه متحدين ويعملوا به متناصرين

و يسيروا تحت لوائه مجاهدين . بأمره يأتمرون و بنهيه ينتهون فلا ضلال ولا فساد ولا فرقة ولا عناد . دين يرتضيه العقل والقلب حتى لا يكره الناس عليه اكراها ولا تتورط فيه الابناء رعيا للآباء والاسلاف . وهذا يا بنى دين الاسلام! دين محمد بن عبد الله ! قال ورقة : رباه ! رباه ! انى لأجد نورك يملأ قلبى، فاغفرلى عنادى وجهلى وزدنى اللهم نورا . ومضى زيد فى كلامه يقول : ولقد خلت أمة العرب من عهد أبيهم اسماعيل من المرشد والنذير حقا . أليست ثلاثة آلاف من السنين بكافية لتخلو دنيا الماضى من كل خير ! بلى . لقد اختلت أفعالهم وفسدت أحوالهم واتضع بين الامم شأنهم ولم ينفعهم ما بقى فيهم من سنن ابراهيم وشرائعه وعباداته التى ذكرت ما هى الآ انقاض بيت تهدم وما يؤوى الخراب الا الهوامّ والذئاب فاقتضت رحمة الله العادل الذى لا يعذب حتى ينذر أن يرسل فيهم نبيا من أنفسهم لينذرهم بدين الحق الذى نزل على آدم والنبيين و يردهم إلى دين ابراهيم حنيفا ومطهرا وكاملا ومصونا ليدركوا به السابقين و يضووا اليهم اللاحقين وليجعل لهم فى الدنيا شأنا كما جعل لغيرهم فى الغابرين. ذلك هو سيدنا محمد بن عبد الله النبي الأمى الذى بشرت بنبوته الأحبار والرهبان لما ورد عنه فى التوراة والانجيل، ففيهما اسمه ونسبه وصفاته . و بشر به ابن نفيل وابن نوفل وصاحباه بما علموا يوم احتشد الناس فى بيت الله، وآمنوا به قبل أن يأتيه وحى ربه بسنين . ذلك لصفاته الربانية وعلاماته الجسدية، فقد عرفوها واطمأنوا اليها فاعلنوها واحتملوا الأذى فى سبيلها

حتى مات مقدمهم من جرائها . قال ورقة : أجل . أجل . انها لنعمة ولله أن يموت الانسان فى سبيل الله . قال زيد : ولقد بعث الله محمدا اليوم بالحق مصدقا لما بين يديه ونزّل القرآن ليعصم الناس من بعده عن الضلال مرة أخرى . وامره أن يعلن الدعوة للناس كافة بعد ما تحنث لها ثلاث سنين وما كان ليعلن الا أن يؤمر. وقد أمره الله من أيام أن يصدع بأمره . أو يرضيك يا بنى أن يظل العرب ثلاثة آلاف أخرى من السنين وهم على نبلهم وذكائهم وتمام رجولتهم ومروءتهم وسلامة ابدانهم وعقولهم وكمال سجاياهم ونقاء طبائعهم فيما هم فيه من خمول الشأن بين الأمم؟ يأخذون عنهم ولا يعطون ؟ وتعولهم القرون ولا يعولون أحدا ؟ قال ورقة : لا وربى لا يرضينى هذا . قال زيد : وانما أرسله الله اليهم كما أرسل موسى وعيسى إلى بنى اسرائيل فاخرجوهم من الظلمات إلى النور الى أن عقهما الخلف وصدفوا عن طريق الله . ابتدع كل فريق لنفسه بدعة وقاموا يروّجونها بكل لسان، واختلق كل قوم لانفسهم فى الدين مذهبا عجبا وجعل السيف له عضدا من دون العقل . وهل بعد ما يجرى فى الشام و بلاد القدس من الأحداث فساد ! الا ترى انهم لعداوتهم بعضهم لبعض قد هللوا لعبدة النار وحكموهم فى دينهم وأعراضهم . هل بعد هذا بوار ؟

قال ورقة : لا والله لقد حدثنى عنهم الحارث العجب العجاب . قال زيد : من أجل هذا كانت رسالة محمد بن عبد الله اليهم هم أيضاً فقد أرسل للناس عامة لينير لهم و يهديهم سواء السبيل ويجمع الامم على دين

يربع العقل و يسايره و يأبى أن يلحق به ماليس من طبيعته. ولن يضل من بعده أحد ، فسيبقى الذكر فى صون الله لايعتوره تغيير ولا تبديل ولا عبث كما عبث السالفون. وسيكون لأتباع رسول الله ملك كسرى وهرقل فما وراءهما. هكذا وعد الله رسوله ولن يخلف الله وعده

فلما سمع ورقة هذا الكلام نهض وقال : اللهم أشهد انى مؤمن بك و برسولك ومهتد بهديك فيما هدى ومنته بنواهيك فيما نهى وان له قلبي ولسانى و يدى . فنهض زيد يقبله و يبكى فرحا به و بهدايته الى الاسلام على يديه .وقال له: وددت لو أخذتك الآن إلى رسول الله فى دار ابن الأرقم لتعلن اسلامك بين يديه ! ولكننا الآن فى الليل وأنت راحل فى الغد فأبقها حتى تعود . قال ورقة : وهل يجمل بى وأنا فتى أن أضع يدى فى يد رسول الله ! من أنا فى الناس يازيد ! أنا عبده وخادمه ! قال : ان أكثر المسلمين اليوم عبيد وأماء وأكثر من آمن بدعوته من السراة شباب. قل لى ، أنت أسن أم عثمان بن عفان؟ أم سعد بن أبى وقاص ؟ أم عبد الرحمن ابن عوف؟ أم خالد بن سعيد ابن العاص ؟ قال : انى أنفت على العشرين قال . وما منهم من بلغها يوم أسلم وان من فضائل الاسلام ان جعل المسلمين أخوة. فبلال اليوم أخ لأبى بكر و زنيرة أخت لخديجة. ولا بد لك يافتى أن تصلى بصلاة الرسول وتعرف كيف يتوضأ للقاء ربه فى الصلاة، وتحفظ ما نزل حتى اليوم من كتاب الله. بيد انى سأعلمك ذلك واصلى معك ركعتين لله ـ فانهض بنا إلى سقاء الماء نتوضأ ونصلى وندعو الله أن ينصرنا على القوم الكافرين

نهضا للوضوء فما خرجا من الباب حتى رأيا أمامهما فى الظلام شبح باقوم يتمشى الى السقاء معتمدا على عكازته حتى إذا بلغه ألقى العكازة بجواره وتناول السقاء وقال بصوت غير جهير : نويت الوضوء لله تعالى. فتعجب زيد وورقة لأمره ولم يكونا يعلمان باسلامه فكلمه زيد: رويدك يا باقوم من علمك هذا؟ قال : بلال أيام كان الجمحى يعذبه . قال زيد : هذا يوم بعيد . قال باقوم : وأنا على الاسلام منذ ذلك اليوم . فقال ورقة : ثم لا تخبرنى يا أبتى . وتهدينى كما اهتديت ! قال خفت يا بنى أن تحاجنى كما كنت تحاج الليلة زيدا فيرتج علىّ فى الحوار فتزيد فى ضلالك . فضحك ورقة متعجبا وقال ضلالى يا أبتى! ما كنت ضالا ولكنى كنت احسبنى على ما عليه رسول الله فلم أجد بى حاجة إلى أن اعلن ماهو معروف حتى بصرنى زيد بأمر جلل لا أحسب أن فى المؤمنين انفسهم من يعرف صدقه وصوابه وضرورته عرفانى . وهل أنت وحدك فى هذا يا أبى أم معك أمى ؟ قال باقوم : بل امك اليه اسبق . قال زيد : ألا تخبرنا كيف لقيت بلالا أم انه جاء اليك فى من يجىء اليهم ؟ قال : والله ماجاءنى ولا جئته ، ولكن الله أراد لى الهدى فاخرجنى اليه . شعرت وأنا جالس هنا ذات يوم ان بى شيئا يحفزنى الى النهوض والخروج وخيل الىّ انى إن لم أخرج فسأختنق. ولم أجد غير المطاف فرجة فذهبت الى البيت الكريم. وفيما أنا اتسلل اليه رأيت بلالا ملقى على الرمضاء فى الهجير لا يملك قوة على النهوض، فقد كان الجمحى ضربه وأوجعه وهده وتركه على هذا الحال ومضى. ورأيته ينظر إلىّ نظرة مستغيث من آلامه فأخذتنى رقة عليه

وانحدر الدمع من عيني لأني كنت أعلم انه يعذب هكذا كل يوم. فرأيتني أجرى اليه كأنما انا غلام فى مثل سن ورقة بالرغم من عرجى ، فحملته على كتفى وسرت به الى دارى هنموأنا اتوكأ على عكازتى. فما أحسست لجسمه على عاتقى من ثقل، بل قوانى الله حتى لكأنه هو الذى كان يحملنى . فلما حططته عند هذا السقاء لاسقيه وأنشطه ، إذ كان فى شدة من العطش ، تناول السقاء وهزه فوجد أن ما فيه من الماء قليل. فظل على ظمئه وآثر ان يتوضأ به. ثم قام يصلى لربه ويتعبدُ ويبكى وهو يقول كلاماً مما نزل على محمد فملكتنى رقة وبكيت حتى اخضلت لحيتى . ولما سلم توسلت اليه بحق الله عليه أن يعلمنى كيف أفعل مثله لأتجه الى ربى واحادثه كما كان يحادثه لانى كنت أرى السكينة تنزل على قلبى حين كانت تنزل على قلبه وترقأ دمعه ودمعى فقال : قرّب فتوضأ . قلت : ليس فى السقاء ماء . أما القيته بيدك .قال : ان مافيه يكفى فقد أمرنا رسول الله بالاقتصاد فى الماء . وقال : امدد راحتيك تحت السقاء . فمددتهما طوعا له . قال : اتل ورائى القول . قل نويت الوضوء لله تعالى . فقلتها فقال : اغسل يديك فغسلتهما وما زال يقول افعل كذا وافعل كذا والماء يتدفق حتى اتممت وضوئى كله والقى السقاء على الارض كما كان . ثم علمنى الصلاة فصليت كما صلَّى . وأنا عاكف عليها من ذلك الحين، وسعيد باعتناقى هذا الدين فهو دين النظافتين فى القلب والبدن. أتأذن لى يازيد ان أعلم أنا ولدى انى أحق به منك. ففرح زيد بما سمع ورضى أن يتولى باقوم تعليم ربيبه الوضوء وهو يشهد ليرى .

وما زال باقوم يتوضأ أمام ورقة ويراعى الترتيب فى التطهر ويفعل ورقة مثله حتى أتى على آخره وزيد يتعجب لدقته وعنايته . فقال لورقة : ما كنت أستطيع وربك ان ابصرك بما هو أدق من هذا . هكذا يتوضأ سيد الخلق غانج نحوه فى كل وضوء

ثم توضأ زيد بعدهما وقاموا كلهم يصلون لله وزيد بينهم يتلو من كتاب الله ماوعى صدره حتى انتهت الصلاة وسلموا وحمدوا الله وذهبوا الى المضاجع ليناموا ، وقد سرى الله عن ورقة شدة حزنه وملأ قلبه بنور الاسلام



الفصل الثالث عشر

أم قتال

لم يستطع ورقة أن يرحل إلى هدى فيما اعتزم من غده . ذلك لأن « أم قتال » أخت مولاه ورقة بن نوفل أرسلت فى طلبه ، فلم يكن له بد من أن يجيب . كان منزلها إذ ذاك فى طريق الصفا جنوبى مكة ، فذهب إليها من فوره ، بعد أن حلف لصاحبه ألا يعود إلى حراء فى يومه ، ورجا منه أن ينصرف إلى سيدة قريش بتحية منه وسلام ، قائلا إنه سيسير من الصفا إلى هدى نزولا على إرادة البر التى أرادتها

دخل ورقة على أم قتال ، وكانت امرأة فوق الستين من العمر بكثير ، أكلت السنون من شحمها ولحمها ، وإن لم تأكل من بريق نظرها ، ولا حياة عصبها . ولذلك كانت فى نشاط الشباب والقوة ، وإن لم يكن لها من ظاهرها ما يلائم ذلك . كانت إذ ذاك فى فراشها لغير مرض ، ولكنها حضرت يوم وفاة أخيها ورأته ميتا ، وسمعت نوح النائحات عليه ، فذعرت من الموت حتى لم تعد تستطيع أن تبقى فى بيت أخيها إلى أن يحملوه ، بل خرجت إلى دارها فارة بنفسها من هول ما كانت ترى وتسمع ، وقد ألقت على عتبة داره كل ما كان فى قلبها من الحزن

والأسف لموته قائلة : إن فى حمله أو التظاهر به أذى لها ، وربما عجل بموتها هى أيضا .

أشفقت أن يصيبها ما أصابه فهلعت ولزمت فراشها ، ودعت إليها النضر بن الحارث ، وكان عالما بالطب كأبيه ، فوصف لها ما عنّ له من العقاقير ، وأكد لها الشفاء العاجل على أثر تعاطيه ، وإن لم يتبين عليها شيئا . وإنما فعل ذلك مسايرة لوهمها لتهدأ حتى يزايلها الوهم كله . ولكنها لم تكتف به وهو أكبر طبيب مقيم فى مكة ، بل أرسلت فى طلب كل حجامى البلدة وباعة عطورها لتستشيرهم وتصرفهم ، وارسلت فى طلب ورقة بن العفيفه ، وقد علمت أنه عاد عرضا إلى مكة ، لا لأنه طبيب ، بل لأنه متصل بأشياء الطب والاطباء . وماذا عليها لو سألته هو أيضا حتى لا تدع فى مكة أحدا له اتصال بالداء والدواء دون أن تعرض عليه أمرها . لعله يرى ما لا يرى غيره ، ولو كان غير بصير . فقد يكون فى علم الجاهل شىء يجهله العالم . وكان عندها إذ ذاك أبو طالب عم رسول الله ، دعته لأنه كان أكبر من يبيع العطر فى مكة ، وأبو طيبة ميسرة الحجام الذى كان يحجم زوج ابنة عمها — محمد بن عبد الله — عند الحاجة . على أن أبا طالب لم يلب دعوتها ليبيعها عطرا ، بل جاء على أثر ما خبّر من دعواها المرض ليعودها ويعزيها فى أخيها ، ويقضى معها وقتا يتسلى فيه ، فقد كانت من معارفه ، وإن شئت فقل من أهله ، لأنها ابنة عم السيدة خديجة ، ولأنها أخت ورقة بن نوفل ، ومن سيدات قريش ، وكانت

معروفة فيهم بالجراءة والصراحة وبالخفة وكثرة المزاح بلا تورّع ، ولا سيما بعد ما أسنت ، وبأنها أخذت بشيء جديد فى أيامها الأخيرة ، ذلك هو الخوف من الموت ، وادعاء المرض لأهون سبب ، ونفورها من مجامع الأحزان ، وشهود الباكين والباكيات . ولذلك سرها أن سمعت السيدة فاطمة ابنة الخطاب تنهى النسوة ضحى الامس عن العويل على أخيها ، بل زادت على ذلك قولها بصوت خافت : بل كان أخى رحمه الله يكره أن يحزن عليه أحد ، وأوصانى بذلك خاصة . فلم يتمالك من سمعنها من الضحك ، لأنهن كن يعرفن شدة بغضها للأحزان ، وخوفها على نفسها من الشجو . ولو لا أن جاء الرجال وقتئذ فأخذوا الميت ليغسلوه لانقلب المأتم مضحكة

كان أبو طالب إذ ذاك واقفا بجوار سريرها ، ومنحنيا عليها قليلا يمسح جبينها بشيء مما كان معه من عطر اليمن الجيد ، وهو يكتم ضحكة فى صدره ، لأنه لم يجد بها شيئا غير عادى . وإنما كان هو أيضا يحب التبسط . وكأنها أدركت أنه يضحك منها إذ رأت اضطراب بطنه ، فأخذت ترمقه وهو مشغول عنها بالنظر فى الفضاء . وأحس بريق عينيها تحت لحيته فالتفت صوبها ، وأغمضت عينيها على الفور ، كأنها لا تريد أن يعرف أنها كانت تتفحصه ، أو أنها لا تريد أن تراه . فانفجر ضاحكا وهو يقول: والله ما بك شيء يا ابنة عم ، وإنما هو بعض وهمك الذى اعتدناه ، وستعيشين فى هذه الدنيا حتى تحضرى مآتم قريش جميعا . فاستمرت فى

إغماضها ، ولـكنها ردت عليه تقول : لا لن أحضر مأتم أحد بعد يومى .
سأبكيكم كلـكم إن شاء الله وأنا هنا فى دارى . إن حضور المآتم يؤذى
القلب . قال : أجل ويغضن الوجه ، ويسوّد البشرة، ويقفل العين ، وإن
ترك اللسان يلعب كالأفعوان . قال ذلك وتذكر كيف كانت هـذه المرأة
الشوهاء اليوم فتنة للعيون والأبصار فى شبابها ولـكنه أراد أن يثأر لنفسه
من إرادة السوء التى أرادتها له ولغيره من قريش وهى مطمئنة مبتهجة .
كأن موتهم وحياتها من بعدهم أمر واقع . وقد أرادت أن تنتقم منه على
تذكيرها بما هى فيه الآن فقالت : وددت لو كان أخوك عبد الله هو
الواقف أمامى الآن لا أنت وأن محمدا ولدى . ولـكنه تعفف لا رده الله .
فضحك أبو طالب ملء شـدقيه لامتلاء قلبها بالحقد على أخيه حتى بعد
ما مضى على وفاته أربعون عاما وتزيد وتذكر قصتها معه وهيامها به ، وكيف
أن عبد الله خيّب أملها منه . فقال لها : بربك يا أم قتال ، إلا ما خبرتنى
قصتك مع أخى ! فلم ترد لأنها كانت تفكر فى عبد الله أخر إذ ذاك ،
فأعاد عليها الرجاء . فقالت : إن النضر بن الحارث أمرنى ألا أتـكلم
كثيرا . قال : لعله إنما أراد أن يريح الناس من نقيقك يوما أو بعض
يوم . قالت : هو ذاك وربى . إنك لتقول حقا يا أبا عقيل فهو كما علمت
ابن الوهبيّة أخت ضرتى آمنة . قال أبو طالب ! ضرتك ! بالله حدثينا
لماذا تريتها ضرتك وما تزوجت من أخى عليك؟ قالت : هو حديث طويل.
قال : لا عليك . هاتيه . فانى والله أشـتاق أن أسمعه من فمك أنت ،

وأعرف ما لم يكن فى مقدور أحد أن يعرفه لأنه خاص بك . قالت : هو ذاك فاجلس ، ولكن حذار أن تعيبنى ، أو تجمد بعد سماعه كما جمدت لابنه محمد . قال : هاتيه ، ولا تتهميني بما لا تعلمين . حسبي من إقرارى بمحمد أننى أحميه وأمنعه ، وأغضب كل الدنيا فى إرضائه ، وأرضى أن يتبعه ولدى ، وهو فلذة كبدى . ولكن للشيوخ حكمة لا يعرفها الفتيان ولا النساء . قالت : أريد أن أعرف هذه الحكمة قبل أن أتكلم وإلا سكت . قال ألا تمضين فى حديث أبدا إنك لمغرمة بالمداورة . قالت : هات حكمتك وإلا لعنتك . قال : اعلمى يا بنية أنى أمنع محمدا من أذى قريش وكفرها ، بفضل ما يزعمون من أنى لا أزال كافرا مثلهم ، فلى عندهم اليوم حق ، ولى عليهم كرامة . أما إذا علموا أنى انضويت تحت لواء محمد فانهم يسقطون حقى ، ويمنعون كرامتى ، وعندئذ ينالون من ابن أخى ومنى معا ما لا قبل لأحدنا بدفعه . قالت : لست شيخا يا أبا طالب . أنت شيطان . فهذه حكمة الشياطين . فقهقه أبو طالب وقهقه الحجام وابتسم ورقة ، وقال أبو طالب : وفيت لك بما أردت فحدثينا . فقالت : إنك لتعلم أن أباك كان قد نذر لله إن رزقه أولادا وتمت عدتهم عشرة يعيشون حتى يحموه ، أن يذبح واحدا منهم . قال : نعم . قالت : وتعلم أنه أحضركم جميعا إلى الكعبة وأدخلكم إلى هبل عند البئر التى يجمع فيها ما يهدى إلى الكعبة ، وأعلن نذره لصاحب القداح ليضربها عليكم فأيكم خرج عليه القدح كان ذبيحه . قال نعم ، فخرج القدح على

عبد الله . قالت : نعم ، وكنت أحب عبد الله لجماله وبهجته وأشتهى أن يكون زوجى . ولـكن لا حيلة للمرأة فى ذلك فهى فى شرعكم — سلعة تبقى فى الحـانوت ساكنة حتى يأتى الشارى يقلبها ، فاما اشـتراها أو ألقاها . قال أبو طالب : ولنعم الشرع شرعنا إذ يقينا شهوات النساء وتقليبهن لنا . ثم ماذا حدث لك . قالت : بكيت حزنا على شبابه لأنى كنت أعلم أن أباك على دينه وتقواه أحمق أبله . قال أبو طالب : لماذا ؟ قالت : إنه أراد أن يقلد أباه إبراهيم صاحب البيت ، ولـكن إبراهيم كان يتلقى وحى ربه بالرؤيا ، إذ أمره أن يذبح إسماعيل ، أما أبوك فيتلقى الوحى من قداح يلقيها رجل مثله . وماذا عليه لو استغفر ربه واعتذر إليه من ترك نذره وقال له إنه لا يطيق قتل أحد من أولاده ؟ أربه قاسى القلب مثله ؟ قال : دعينا من هذا الـكلام وأتمى الحديث قالت : أما وربى لو كنت أعطيته الف وعد فى ذلك لـكذبته وأنا مطمئنة ! فقهقه الجمع قهقهة جمعت عليهم أهل الدار ، ولـكن أم قتال انتهرتهم فانصرفوا ليسمعوا من وراء الجدران . قال أبو طالب : يا للجراءة ! قالت: فلما حزنت قريش لما اعتزم واستفتوا صاحب هبل هل يقبل الدية ، وخرجت القداح بقبول الإله مئة من الإبل ، واستعد أبوك بالمئة ، عزمت على أن أخرج لأراه يسوقها لتنحر عند منحر آساف (١) ، وأشهد هذا المشهد الرائع المروّع . يالله ! يُسيلون

---

(١) صنم كان فى الجاهلية مكان الصفا يقابله « نائلة » مـكان المروة والطريق بينها هو المسعى . وكان السعى بينهما من لوازم الحج فى الجاهلية .

دماء مائة من الابل فى ساعة واحدة ، من أجل وهم من أوهام الشيوخ المجانين ! ما أشد حمق الناس وظلمهم للحيوان ! قال أبو طالب : سألتك بالله أن تتمى الحديث . أأنتم كلكم صخابون خارجون على الناس فى كل شىء ! قالت : لعن الله السفهاء ! عزمت أن أخرج لأرى ذلك المشهد ، ولأشهد عبد الله ، فقد كان من الحتم أن يكون فى الذاهبين . وكان أخى وصاحبه ابن نفيل قد اجتمعا فى بيتنا صباح ذلك اليوم ، وجرى بينهما ذكر هذه الامة ، وتنكرها لأبيها ابراهيم ، إذ أعادوا الأوثان التى هدمها وجعلوها فوق بيته ويعجبان لماذا لا يعجل الله بارسال نبيه الذى ورد ذكره فى التوراة والإنجيل ، وما عرف من الأحبار والرهبان أنه كائن فى قريش ، ومن بنى هاشم عينا .

فلما سمعت هذا الكلام لم أتورع من الدخول عليهما . وكنت قد عرضت كل بنى هاشم فلم أجد فيكم أجمل ولا أبهج من أخيك عبد الله وخيل إلىّ حتى له أنه هو النبى المنتظر ، فانشأت أخبرهما خبره ، ودللت عليه بما أرى فى وجهه من النور وما أعرف من أدبه وحيائه . فما سمعا منى هذا الكلام حتى رأيت ابن نفيل ينهض ويقول لى : واغوثاه ! إن كان ما تقولين حقا يا بنية ، فهو أبو النبى لا النبى نفسه ، وما هذا النور الذى ترين إلا ولده امتلأ به دمه ، فهو نور حتى يقر فى أحشاء من يسعدها الله بامومته ويولد نورا للعالمين . واحسرتاه أأعيش حتى أراه وأومن به ، وأظفر

بشفاعته يوم القيامه! من لى بأن أعيش ما عشت ؟ تعالى معنا يا بنية أريني إياه ، فلا عهد لى به من قبل

أخذني هو وأخى ، وسرنا لنشهد نحر الإبل فشاهدنا أخاك ، وهو يسير بينكم كالبدر ، يلقى نوره عليكم فتنكسفون جميعاً به وهذا من فضل الله عليكم ذلك اليوم ، لأن وجوهكم لم تكن مما يشرف أباولا أما وإن كان أبوكم زهرة فى الشيوخ. وإذ شاهد ابن نفيل نور جبينه هو وأخى، أقرا أنه هو ولا مراء . وقالا هذا نور النبوّة ! هذا أحمد الذى وعد الله ببعثه ! وإذ علمت أنهما قد مالا إلى العودة إلى الدار ، وما كنت أريد ذلك ، انسللت من موقفهما ، وجست خلال المجتمعين واختفيت ، لأنى كنت أريد أن أملأ عينى من أخيك وأتمتع بالنظر إلى نور محياه

كنت يومئذ فى العشرين من عمرى أو أزيد قليلا ، وهو فى الثالثة أو الرابعة والعشرين ، وكنت قد سمعت من حولى من نساء مكة يقلن إن أباه ذاهب به بعد النحر إلى حىّ بنى زهرة ليخطب عليه آمنة بنت وهب فملكتنى غيرة ما أظن فى النساء من ملكتها مثلها . كنت أحبه وأشتهيه زوجا وهو الآن يذهب إلى غيرى . وكنت أشتهى أن يكون نبى الأمة منى ، وها هو ذا ذاهب يحدوه أمر الله ليكون نبى هذه الأمة من غيرى ، فاستبحت لهذا الفوز الأعظم أن اعترض طريقه وأدعوه لنفسى . ولم يكن يخطرلى أن لن يكون نبية من نحو ما خيّل إلىّ . ولكنى لقيته على كل حال ، ولا أدرى كيف لقيته ، إذ كنا فى جوار البيت الحرام ، فقلت له : هل

لك يا فتى فى أن القاك ، ولك منى مثل ما نحر أبوك(٢) .قال وقد رأى ذلة نفسى ، وما علانى من الخجل للحديث معه فى مثل هذا الريب ، ولم يشأ أن يقتلنى برفضه : إن أبى معى لا أستطيع فراقه ولا خلافه . عودى إلى دارك وليلطف بك ربك

ولـكنى لم أعد ، بل ذهبت إلى حى بنى زهرة فى بعض نسوة أعرفهن ووقفت لأراه عائدا من عندهم بعد الخطبة ، حتى يكون وحده فاغريه مرة أخرى قبل أن يدخل بآمنه وينتقل اليها نوره . ولـكنى استحييت من نفسى فعدت إلى الدار

وفيما أنا ذات يوم بباب دارى وقد دخل بآمنه ، رأيته ماراً فى الطريق وقد زال عنه ذلك النور الوضاء الذى كان يشع من مسام وجهه . ولحظ أنى أتأمله متعجبة لحاله ، فابتسم لى وقال مازحا : أنعمى صباحا يا أخية . قلت متجهمة له : نعمت ! فادرك غضبى وضحك وقال : مالك لا تعرضين علىّ اليوم ما كنت عرضته بالأمس ؟ قلت : استجاب الله دعاك فلطف بى لأنى أرى وجهك قد فارقه النور الذى دعانى اليك ، وإنى لأراك اليوم قبيح الوجه كأخيك أبى طالب

فقهقه الجمع لهذه الخاتمة وهذا الانتقام ، وكان أبو طالب أعلاهم فى الضحك صوتا، ولما هدأ قال لها: الحمد لله على نجاة أخى منك . كل وليد يكون

(٢) ابن الاسير

منك ينطفىء نوره فى رحمك ياشيطانة ! ثم التفت إلى ميسرة وقال : عجل واحجمها وأوغل بمبضعك فى فؤادها وأرح الدنيا من أم قتال

فنهضت من فراشها إذ ذاك وتناولت هراوة كانت تعدها بجوار سريرها وجرت وراء الحاضرين جرى السعلاة حتى أخرجتهم من باب الدار وعادت تشتم وتسب .



الفصل الرابع عشر

فتنة

خرج ورقة بن العفيفه فى الخارجين فرارا من هراوة أم قتال . وكان الضحى قد آذن فقال : ماعلىّ لو التمست دار الأرقم التى قال ابن حارثة أن رسول الله يستخفى فيها هو وأصحابه لأبلغه اسلامى وأصلى معه صلاة الضحى ثم انصرف من بعدها على بركة الله الى هدى ! وكان يعلم أن دار الأرقم قريبة من حيث خرج فلم يمتط جواده بل سار آخذا بعنانه وهو مطرق يفكر كيف يلقى رسول الله وماذا يقول له، واذا هو يسمع فيما أمامه بابا يفتح وتطل منه جارية كان فى فمها بقية من غنوة تغنيها . فلما عرضت وجهها تنظر هنا وهناك عرف أنها فتنة جارية عبد الله بن جدعان التيمى ابن عم أبى بكر الصديق وعرفته هى أيضا فعجلت له، التحية قبل أن يمر ببابها.ولكنه لم يرد تحيتها وأغمض عنها عينيه لأنه كان يكره تجارتهن و يمقت رؤيتهن و يعجب لسادة فى قريش أن يرتزقوا من المساعاة فى البغى والخنى. فلما صدمها بسكوته نزلت عن عتبة دارها واستوقفته اذ قبضت على لجام جواده وقالت له : أحييك تحية المسلمين ولا تردها؟ قال: لاأردها على غير مسلم ولا على باغية ولو كانت مسلمة ! قالت : ان الأسلام والبغى لايجتمعان قال :سمعت قالت : بل ارتددت يا ابن العفيفة قال : انما يرتد من كان فى فؤاده مرض ، وما كنت اذ أسلمت مقلدا أو مجاملا وان

كنت من موالى بيت الرسول . ولكن من أين لك أنى اسلمت؟ قالت : صباح اليوم من ابن حارثة. فاتسعت عينا الفتى دهشة لما سمع اذ يكون لزيد بها علاقة قالت: لاتدهش ما كان ابن محمد(١) ليلقانى وانما أنا لقيته اليوم فى بيت سيدة قريش أم المؤمنين . فزادت دهشته ولكنها عجلت فقالت : وعرفت منه ما كان منك بالأمس . قال : أو تذهبين الى بيت رسول الله ! قالت : انما ذهبت لأنيب الى الله واستغفر واعلن أيمانى بالله ونبيه ولو أمر ابن جدعان بجدع أنفى . هنئت ياورقة بما ظفرت . قال : وهنيئا لك التوبة يافتنة قالت: والله أنى لأجد الهناءة اليوم فى قلبى واشعر كأنما صب الله فى فؤادى نهلا أبديا ينعشنى ويحبب الىّ الحياة بعد اذ كنت كرهتها وكرهت نفسى معها. وكأنى بعثت اليوم بعثة أخرى . وما فتحت الباب وربك لحاجة ولا لمأرب ولكنى لم استطع أن أهدأ منذ عدت . أجهدت نفسى فى كنس البيت وتنظيفه وملأته شدوا وغناء فلما لم يبق به شىء يشغلنى. ورأيته ضاق فى عينى ففتحت الباب لأملأ الدنيا بما يفيض على القلب من السرور . قال ورقة وماذا هداك الى الاسلام ؟ قالت : والله ماهدانى الا الضلال البعيد. قال، وقدا بتسم تعجبا : كيف كان هذا ؟ خبرينى بربك قالت: أعدانى أولئك المشركون بفرط عداوتهم لأحلم خلق الله وصاحبه أبى بكر والمسلمين جميعا فكرهتهم من غير ما سبب أعرفه كرها شديدا الا اعتيادى سماع ذمهم فى رسول الله وسبهم اياه وافترائهم عليه أ كذب

---

(١) كان النبي عليه السلام قد تبنى زيداً فعرف بذلك

الفرى. ولقد حفظونى كما حفظوا غيرى من الجوارى شعرا ورجزا تتغنى به فى ذم أشرف خلق الله وصحبه. وكنت أغنيهم هذا الشعر فيطربون ويوصوننى أن أذيعه فى الناس وأن أطلقه فى وجه محمد وصحبه كلما رأيته مارا من هنا. فأجبت ولكنى لم أفعل ذلك وربى الا مرة واحدة حين مر على عبدالله بن مسعود لأنى كنت أجد الاغنية تفارقنى حين كنت أرى الرسول أو صاحبه الصديق مارين من هنا فى طريقهما إلى حيث يستخفيان للصلاة. فكنت أهم بان أستعيض عنها بقولى لهما: ياصابئين يا كفرة. أنا أعرف أين تختبئون ولكنى كنت استحى من نفسى لهيبتهما ووقارهما فما قلتها بتاتا. لأنى كنت أرى عليهما نورا وجلالا يتضع فى جوارهما كل مايعرض لى من حال اعداء الله الذين يغشون دارى: عقبة بن أبى معيط وأبى سفيان وعتبة ابن ربيعة والعاص بن وائل وعشرات من يردون على بيتى ويفخرون بأنهم سادة قريش. فأخذت اسائل نفسى وأقول: محال أن يكون هذان الرجلان على ضلال وما عرفت عنهما الا الخير والعفة والوفاء والكبر عن الدنايا ويكون أولئك الغلاظ الاكباد الحمق المغرمون بالخمر والفسوق على هدى. ولكنى كتمت عجبى وبقيت على حالتى متظاهرة بمشايعتهم لئلا يوغروا على صدر مولاى ابن جدعان، فاذا جاء الى أحد أولئك السفهاء تظاهرت بوده وحييته بكلمة تهكم مفتعل من المؤمنين، وسألته متظاهرة بالزراية عليهم: كيف حال أبناء الله! فيقول: شر حال، انهم قد اختفوا عن العيون والابصار. ومالى وحقك رغبة فى أن أسمع عنهم الا الخير. ولقد روى لى عقبة بن ربيعة ماصنع بأبى

بكر فى المسجد الحرام اذ قام يخطب الناس والنبى جالس وقريش تتسمع فتواثبوا عليه واختص عتبة نفسه بضر به بالنعل محرفا الى وجهه حتى أدماه واختلط به أنفه (٢) . روى لى عتبة فعله هذا مزدهيا فغضبت لذلك غضبا شديدا وأخذت أقبح فعله وأذكر أبا بكر وصاحبه وأتباعه بكلام لاأدرى أين كان معينه من نفسى ثم رأيتنى أ بكى أن يهان الصديق وهو على ماأعلم تقى أسيف اذ ينهض ليهدى الناس وهو يقول: الله ربى وأنا عبده. وأقسمت لأزورنه فى بيته وأعلن مقتى لشانئه باعلان اسلامى بين يديه. ففعلت ذلك ليلة أمس فدعا لى وذهبت اليوم فى الصباح الى سيدتى خديجة أم المؤمنين فاستتبت مما أنا فيه وان كان عرفا فى القوم لايشعرون بعاره . وتاب الله علىّ . ولقد عدت الآن الى دارى فلم أطق لفرحى بما أنا فيه من نعمة الاسلام أن أبقى بها ففتحت البـاب لأكون فى سعة الدنيا فاذا أنت أول من ألقى. ما أسعدنى برؤيتك وفرحى باسلامك! ألا تدخل ؟قال ورقة : لا وانما ادع جوادى فى حراستك حتى أعود اليك فآخذه وأمضى الى هدى . إنى ذاهب الآن الى رسول الله فى دار ابن الارقم المخزومى لأصلى معه صلاة الضحى قالت : حبا وكرامة ولـكن هل تعرفها ؟ قال : أجل دلنى عليها زيد ليلة الامس قالت : انها بجوار الصفا عن يسارك ولعلك اذا سرت فى هذا الدرب بلغتها بلا عناء .قال : كذلك. شكرا لك هاهو ذا جوادى فاربطيه ان شئت هنا أو فانظرى فى أمره. ثم ناولها

(٢) كتب السيرة

عنانه فأخذته منه وأنصرف إلى دار ابن الارقم منعطفا فى الدرب الذى أشارت اليه .

وفيما هى تميل بالجواد لتدخله دارها رأت رسول الله قادما يسير نحو الدرب الذى مر منه ورقة وهو يمشى متقلما فى مشيته ومجدا فى سيره على عادته كأنما ينحط عن منحدر وكان عليه السلام متفضلا فى ملبسه على عادته فما عليه الا ثوب أبيض قصير مشقوق القبة الى رأس الفؤاد قصير الذيل حتى ليعلو عن قدميه الى مادون الركبة بقبضة وتحزم عليه بحزام من كتان وفوق الثوب رداء واسع مسبل على كتفيه الى مافوق عقبية . وعلى رأسه عمامة كثيرة الالفاف وشعره مدلى على قذاله يستره من لفح الشمس وفى رجليه نعل بقبالين .(٣)

وكان رسول الله اذ ذاك فى السادسة والاربعين من عمره ، « من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، ولم يكن رسول الله بالطويل الممغط (المفرط فى الطول) ولا بالقصير المتردد (المتناهى فى القصر) وكان ربعة من القوم ولم يكن بالجعد ولا السبط ولم يكن بالمطهم (الكثير السمنة) ولا بالمكلثم (المدور الوجه فى سمن) أبيض مشربا بحمرة أدعج العينين (فى سواد واتساع) أهدب الاشفار (طويل الهدب) جليل المشاش (عظيم رؤس العظام) والكتد أتلع العنق ذا لحية سوداء كثة وشارب مقصوص شثن الكفين والقدمين »(٣)

---

(٣) كتب السيرة

فلما دنا من حيث كانت فتنــة وكان فيما اخال قد سمع بحديثهــا ، لم تمهله حتى يحييها بل وقفت الى جانب الجواد تقول بصوت جهير ممتلىء حبا له وإيمانا : يارسول الله ! اسمع الخافقين شهادتى أنه لا إله إلا الله الواحد الاحد الذى لاشريك له ولا والد ولا ولد ، وانك يا ابن عبد الله وآمنة عبده ونبيه ورسوله وشفيعنا يوم القيامة من النار ! ثم غلبها البــكاء فبــكت رقة وحنانا وايمانا . فدعا لها رسول الله وحمده على ماسمع ثم انعطف فى سبيله إلى دار الأرقم .

ولــكنه ما كاد يخطو فى الدرب خطوتين حتى كان أبو الحــكم عمرو بن هشام المخزومى (أبو جهل) عدوه وحاسده وشانئه الألد قد أدركه اذ كان آتيا من الجبل ونظر إليه من ورائه نظرة استخفاف لم يأبه لها رسول الله ولم يعرها التفاتا ومضى فى طريقه يدعو الله له بالهداية (٤) ولــكن الوغد أخذ يشتمه ويسبّه وينعته شر النعوت، والنبى يسمع ولا يجيب . حتى إذا لم يعد يسمع صوته وغاظه من رسول الله أنه أعرض عن سفهه انحنى وتناول قبضة من ثرى الارض وحصبائها وروثها والقى بها على رسول الله. فسقطت على رأسه عليه السلام وعلى عاتقه ، ولــكنه مع ذلك لم يلتفت اليه فازداد غيظ أبى جهل وصار يشتم بغير حساب ولا وعى وكأنه استشعر قبح موقفه فتلفت فاذا هو يرى الجارية تتأمّله ورآها مغيظة منه محنقة عليه فقال لها

---

٤) كان الرسول يرجو الله أن يعزز الاسلام باحب الرجلين اليه بعمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام هذا

متهكما : لابأس عليك يافتنة! مالى آراك محنقة علىّ وعهدى بك لطيفة ظريفة ! وحقك ماخطر على بالى أن لك فيه هوى (٥) قالت : قبّحت ! وحق الله أنه لهو التقىّ النقىّ العفيف البار الذى لم يهمم بريبة . انه لاطهر خلق الله جميعا وانزههم نفسا وأعفهم عينا وأ كرمهم عند الله . ولتراب نعليه أشرف من هامتك ولهو سيد أهل الجنة ولأنت أحقر من فى النار .



فلما سمع منها هذا الشتم المقذع كاد يتميز من الغيظ وطار لها ينتقم منها ولـكنها وقفت له والشرر يتطاير من عينيها فيحرقه كما تقف اللبؤة تدفع عن نفسها. حتى اذا دنا منها دنت منه وهبشت وجهه فخمشته بأظافرها وصرخت فى وجهه فارتد مذعوراً ألى حيث كان ومضى فى طريقه .

(٥) كان أبو جهل من أقبح الناس مقالة وأقذرهم لسانا

وفيما هى تلهث مضطربة من أثر العراك والغضب وقد جلست على عتبة بابها مستعيرة سمعت وقع أقدام آتية من حيثما أتى أبو جهل : من جبل أبى قبيس . فالتفتت فاذا هو رجل ربعة أسود العينين عريض ما بين المنكبين ذو هيبة ووقار ، قد تقلد سيفا وتوشح قوسا واستظهر كنانتين،وقد أغبر وجهه كأنما هو آت من سفر . فادركت على الفور أنه أسد قريش حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله كان عائدا من الصيد وذاهبا إلى البيت ليطوّف به على عادته قبل أن يلتمس داره ، وليحى إخوانه من عظماء قريش فى أنديتهم هناك . فلما دنا منها استوقفته تقول له : واضيعة النجدة فيكم اليوم يا أبا عمارة ! قال وقد وقف : قبح القول وصاحبته اما خطبك يا أمة ابن جدعان؟ قالت : أئذا خالفتم أخاكم فيما أراد من هدايتكم والاحتفاظ بكرامتكم أنكرتموه ! ورضيتم له الأذى حتى من سفهاء بنى مخزوم ! قال: ويحك ماذا حدث ؟ قالت : لو رأيت ما لقى محمد ابن أخيك من أبى الحكم بن هشام وهو مار من هنا . . آذاه وسبه وشتمه وهو ماض فى هذا الدرب ورمى عليه التراب والروث(٦) فقال لها حمزه : أنت رأيت هذا الذى تقولين؟ قالت: نعم وسمعته والله على ما أقول شهيد .فاحتمل حمزة الغضب(٦) وسار حتى دخل المسجد يطوف على عادته فرأى أبا الحكم جالسا فى القوم فأقلع عن طوافه وأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس وضربه بها فشجه شجة منكرة سالت على أثرها الدماء حتى خضبت وجهة ثم قال له : أتشتم ابن أخى إذ يعف عنك لسانه، وتؤذيه أذيرجولك الخير !(٦) قبحت من فدم دميم !

قال أبو جهل وقد ملكته الجبانة : لقد سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا وحمل صبياننا وغلماننا وجوارينا على اتباعه . فقال حمزة : ومن أسفه منكم إذ تعبدون الحجارة من دون الله ! ألا بعدا لكم ولما تعبدون ! ثم التفت إلى الكعبة وصاح : أيها البيت الأقدس الذى نطوف به وندعو الله عنده أشهد أنى من اليوم مع ابن أخى محمد ! على دينه أحيا وعلى دينه أموت ! فقام رجال من بنى مخزوم،عشيرة أبى جهل،الى حمزة لينصروا أخاهم ويلوموا حمزة على ما فعل من أذى أبى الحكم وقالوا :ما نراك الا قد صبأت. فقال حمزه : وما يمنعنى وقد استبان لى منه الحق . أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذى يقوله حق.والله لا أنزع فامنعونى ان كنتم صادقين (٦) .

وكان حمزة مهيبا حتى لتخافه النطف ان غضب وخشى أبو جهل وراء وعيده أن تندلع النار فى مكة فتأتى عليه وعلى رهطه ، فقال : دعوا حمزة كفانى أنى أسمعت ابن أخيه شيئا قبيحا (٦)

وعلى هذا انصرف حمزة — وقد انتقم لابن أخيه .

(٦) ابن الاسير وكتب السيرة

الفصل الخامس عشر

فى دار ابن الارقم

بلغ ورقة باب دار ابن الأرقم وكانت على يسار الصاعد إلى الصفا كما[1] وصفت فتنة . ولكنه تهيّب أن يقرعه ، فوقف حائرا لا يدرى ما ذا يفعل. وإذا به يفتح ويطل منة بلال بن رباح وزيد ابن حارثة ، وكأنهما كانا فى انتظار مقدم رسول الله ففتحاه لاستقباله ، ولكنهما لم يجدا إلا ورقة بن العفيفة . فلما رآه زيد هلل وكبّر ، وتعانقا ودعاه إلى الدخول ، وعرّفه إلى بلال . فكبر بلال وحمد الله ، ومال على رأس ورقة يقبله ويعانقه ، فعانقه ورقة كذلك ، وحمد الله على الاسلام

مشى زيد بورقة فى فسحه سماويتطولها نحو عشر خطوات فى خمس ، على يسارها إيوان مسقوف بجذوع النخل على عرض أربع خطوات وعلى يمينها حائط فى وسطه باب يدخل منه لى غرفة طولها طول الفسحة وعرضها عرضها مفروشة بحصير من سعف النخل

دخلها فاذا هو يرى فيها من رأى فى أمسه ممن كانوا يحيطون برسول الله فى جنازة ابن نوفل . فسلم عليهم بتحية المسلمين ، وتقدم من أبى بكر وكان فى الحاضرين لصلاة الضحى ، وقبل يده فهنأه باسلامه ودعا له وإذا برسول الله يشرق عليهم متهلل الوجه كأن لم يحدث له حادث فنهض

---

(١) الرحلة الحجازية للبتانونى

الجمع للقائم فحياهم بتحية الاسلام . وأسرع ابن حارثة فيما إخال فقدم إليه ورقة فقال : مرحبا بابن العفيفة (٢) . قال الفتى : الحمد لله الذى هدانى إلى الاسلام، ومتعنى برضا الله ! أشهد أن لا إله إلا الله الحى القيوم الواحد الأحد ، وأنك يا محمد عبده ونبيه ورسوله . فدعا له النبى فيما إخال وقبله فى جبينه ( )

وفيما هم فى ذلك ويستعدون للصلاة فتح الباب ودخل عليهم حمزة يجأر بالشهادة ويقول لرسول الله (٢) : هذا سيفى يا ابن أخى ، ضعه حيث تريد . لقد أجرتك فأجرنى من عذاب النار ، وكن شفيعى يوم القيامة . فسر به رسول الله سرورا عظيما (٣) لأنه كان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة . فكبر لله وكبر المسلمون معه ، وشعروا أنهم قد عزوا بعد ضعف ، وأن الله شاء للاسلام أن يظهر على الشرك فيطمسه . وقد كان حدسهم صوابا ، فقد كانت الأرض فى تلك الساعة تهتز لتلقى عنها ما كان يثقل كاهلها من أوزار العقول . تداعت إذ ذاك أركان الشرك فى مكة ، كما تداعت دعائم الاستبداد والجهل والظلم فى ملك كسرى وهرقل . واستجاب الله دعاء نبيه على أثر ما رأى من إعزازه إياه باسلام عبد الله حمزة قال عليه السلام وقد عفا قلبه عن أبى جهل أملا فى هدايته «اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بعمرو ابن هشام (وهو أبو جهل)» فأمنوا على دعاء رسول الله . وبعد هذا بما شاء الله من الزمن (٤) قرع الباب قرعا شديدا . فقيل من الطارق ؟ قال : أنا ابن الخطاب . فلما عرفوه ذكروا

(٢) هذا لسان الحال فى القصة وهو خيال محض فليتنبه القارى . (٣) ابن الاسير (٤) قيل بيوم وقيل يومها وقيل بعدها بأشهر وقيل بسنة

شدته على رسول الله ، ولم يكونوا قد عرفوا بعد بإسلامه فى بيت أخته إذ كان قد دخل عليها وضربها لإيمانها بمحمد ولمدافعتها إياه عن صحيفة كتبت عليها آيات من صورة طه كانت سببا فى إسلامه . ذلك أنه وعدها ألا يتلفها فأعطته إياها فقرأها حتى بلغ قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر والخفى . الله لا إله إلا هو له الاسماء الحسنى » فعظمت فى صدره وقال: من هذا فرت قريش ! فلما بلغ « فلا يصدنّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » تشهد وقال : لا ينبغى لمثل هذا أن يعبد معه غيره . دلونى على محمـد ! فدلوه عليه فى بيت ابن الأرقم ، وكان أن طرق بها كما سمعناه (٥)

لم يجترىء أحد أن يفتح الباب . فقال رسول الله : « افتحوا له فان يرد الله به خـيرا يهده » . وقال حمزة : وإن يرد غير ذلك كان قتله علينا هينا .

ونهض بلال ليفتح له الباب ، وذهب حمزة والزبير وراءه ليأخـذا بعضدى عمر حين يدخل . ودعا رسول الله ربه فقال : « اللهم أخرج مافى صدر عمر من غل وأبدله إيمانا . أطلقوا سراحه »(٥) فأطلقوه ودخل عمر خاشعا ليلقى رسول الله . فلما رآه قال له الرسول : « والله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . فيم جئت يا ابن الخطاب » (٥) فقال جئت أشهد

---

(٥) كتب السيرة

أنلا إله إلا الله وأنك رسول الله . فلما سمع المسلمون منه الشهادة من عمر ، وكان عمر ما كان من الشدة والعداوة للنبي والمسلمين — كبّروا على أثر ذلك تكبيرة واحدة ارتجت منها أركان الدار وسمعت فى طرقات مكة فأتبعها بقوله (٦) : يا رسول ، ألسنا على الحق إن متنا و إن حيينا (٦) قال: « بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم و إن حييتم » قال : ففيم الخفاء يا رسول الله ؟ علام نخفى ديننا ونحن عل الحق وهم على الباطل؟ فقال : « يا عمر . إنا قليل وقد رأيت ما لقينا » فقال عمر : والذى بعثك بالحق نبياً لا يبقى مجلس جلستُ فيه بالكفر إلا جلستُ فيه بالايمان . فكان ذلك سببا فى أن خرجوا (٦) فى صفين : فى أحدهما عمر ، وفى الآخر حمزة مخترقين طرقات مكة حتى بلغوا المسجد الحرام وطرقوا حصباءه فكانهم كديد ككديد الطحين (٦) ورأتهم قريش فيما هم فيه من المنعة والعزة ، فاصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها من قبل .

هنالك صلوا لله ، وجهروا فى المسجد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله

فكان هذا أذانا للدنيا بدينها الجديد

---

(٦) كتب السيرة

الفصل السادس عشر

دار طويف

عاد ورقة إلى بيت فتنة بعد ارفضاض المسلمين من المسجد ليأخذ جواده ويسير إلى هدى ، ولكن فتنة لم تمكنه من ذلك لان الحر كان شديدا جدا ، فالشمس تلفح الوجوه وتشويها ، وسموم شهر تموز على حالها كأنها نفثات الجحيم . وأقسمت عليه إلا أن يقضى ساعات الهجير عندها ليتبلغ ثم يرحل على بركة الله إلى هدى فى العصر

أجاب ورقة دعوة فتنة ودخل الدار وفتنة تتقدمه فرحة به وصلفة أن يدخل دارها مسلم ، وهى تقول : الحمد لله الذى طهّر بيتى وطهّرنى وجعل من فضله علىّ أن يدخل المسلمون بيتى ، ويجعلنى فيمن يشفع لهم النبىّ الامين . قال ورقة : دعاء كريم يافتنة ، أرجو أن يتقبّله الله منك . ولكنى أخشى ألا يتقبله يا أختاه حتى تنزلى هذا عن مكانه : وأشار إلى نصب أغبر مشوه موضوع على ناصية الباب ، كالتاج من الرءوس . فلما تبينت قصده قالت : صدقت ياورقة ، لاأدخلك غرفتى حتى أنزعه بيدى . انتظر قليلا، والله ما كان له عندى من قبل كرامة حتى يكون له اليوم ، بل لعله كان أدعى إلى الشر منه إلى الخير . كم كنت أقسم به للناس فيما لم يكن من نيتى

الوفاء به أو قصد الصدق فيه . فضحك ورقة لهذا الاعتراف ، وأخذ يتأمل صنع النصب فلم يجده إلا قطعة من طين مجفف ومجصص ، ذا رأس خليط فوق كتفين ويدين ، لاتناسب بينها ، ولا معنى لها . فابتسم وقال : مسكين هذا الانسان : إنه يحب الله ويريد أن يلقاه ، ويدفعه فرط الحب إلى تقريبه ، ويرضيه لخالق الزهرة ، والعين والانسان والحيوان مثل هذه الصورة ! إنه والله لكنود . قالت : لم يعد للكنود ولا لله من صورة عندنا إلا فى جمال الحق . ثم أهوت على الصنم بهراوة أتت بها فتكسر وهوى وقالت لورقة : أدخل. أمتقبل ربى الآن دعائى ؟ قال : أجل فيما أعتقد ، وقبله كذلك ، ولكنى شئت أن ألفتك إلى مالم يخطر ببالك وجوده . قالت : شكرا لك . ادخل حتى أعود إليك

وجد ورقة فى الغرفة حصيراً من سعف النخل مفروشا بها ، وبعض حشايا من جلد موضوعة إلى أحد أركانها . والغرفة على فرط الحر فى الخارج رطبة طيبة ، فانتعشت نفسه . وإذ جلس واتكأ أخذ يعرض حوادث يومه ، فاذا هى جسام جسام . ذكر لمياء وحبه إياها وعزمه على أن يقف به عند حد الأخوة الخالصة وذكر الناعى فى الصباح وهول مانعى ، وسيده وما لقى وألقى فى قلبه من الحزن عليه ، ثم ذكر حراء وسيدته خديجه وما كان له مع زيد من حديث انتهى باسلامه إذ كان بينه وبين الحق خطوة لم تستبن له حتى كشف له عنها زيد بن حارثة بما عرفه من رسول الله . ثم ما كان من إسلام حمزة وعمر ، وخروجه فى المسلمين أول يوم أعلن فيه

الاسلام فى مكه . ثم عاد فذكر لمياء وما تلقى الآن لفراقه ، ومايجد لها من الشوق فى قلبه ، فاستوى قلقا ، وحدثته النفس أن ينهض من فوره إلى هدى ليلقاها ، ويبترد بمرآها . وكاد يهم بذلك معتذرا بما يحضره لولا أن دخلت عليه فتنة وفى يمناها جرة ماء صغيرة ، وفى يسراها جفنة فيها لبن ، وخرقة من ثوب علقتها بخنصرها ، وفوق رأسها أقراص رقيقة من الخبز . فتلقاها ورقة بالشكر ، وعاونها على تخلية يديها منها .

فرشت فتنة الثوب سفرة وضعت عليها الطعام. وتناول ورقة جرة الماء فغسل أصابعه وجففها فى الخرقة وفعلت فتنة مثله . وقالت : بسم الله . فانصرفا إلى الطعام وهى مغتبطة به سعيدة بأن تضيفه. وتذاكرا فيما كان من حوادث اليوم ، وما جرى من عمرو المخزومى إذ لقى رسول الله ، وما فعلت هى به ، وسألته عما جرى بعدئذ فخبرها بما كان فانتعشت وسرّت ، وانتقل الحديث إلى شئونه الخاصة فأخبرها بأمره ، وأنه بمثابة تلميذ للحارث بن كلدة ، وأن الحارث يعيش بين أهله فى هدى فرارا من حر مكة ، إذ كانت زوجته رومية من أهل الاسكندرية ، ولها ابنة جميلة ترعاه وتخصه بمحبتها. قالت : وهذا ما كان يدعوك أن تستهدف لنيران الهجير . قال : قد يكون ذلك حقا ، ولكنى غبت عنهم كثيرا وهم يأتنسون فى وحدتهم بى. وأستاذى ابن كلدة رجل كثير المطالب وليس من يقضيها له سواى. قالت : لا تجمع على نفسك نارين : شوقك والهجير . وإذا رشدت فلا ترحل إلا فى العشىّ . فضحك ورقة وقال : وإذا جاء العشى قلت الليل آمن فانهض فى السحر .

قالت : هو مايجب و ربى . ولـكنك لاترضى أن تبيت عندى . قال : لم يعد علىّ فى أن أبيت عندك جناح بعد إذ طهرك الله، ولـكن لى بيتا ،ولى أمنًا فى مكة كما تعلمين ، ولن يقول الناس إلا سوءا . على أنى عزمت على المسير فى العصر . قالت : كذلك . لقد أطعمت جوادك وسقيته منذ ساعة وأراه أصبح صديقا لعنز تى ، فقد تركتهما الآن يتداعبان . فضحك ورقة لمزاحها وشكرها ، ودعا الله أن يهيء له رد مكارمها . وفيما هما كذلك سمعا الباب يقرع فتأذت لذلك وأجفلت لأنها كانت تتوقع شرا من أبى الحـكم المخزومى جزاء مالقى منها . وحدثت ورقة فى ذلك . قال: لابأس عليك ، ولـكن خير لك ألا تفتحى ولا تردى قالت : كذلك . واستمر القارع يقرع فلما تعب ناداها باسمها ، فعرفته ، إذ كان من عبيد سيدها ابن جدعان ، وأخبرت بذلك ورقة همسا . قال : لاتفتحى ولا تتكلمى . .. فكرر العبد نداءه وقرعه،و إذ يئس قال: محال أن تكون فى البيت ولو نائمة ،ماذا علىّ لو عدت إليه أخبره بذلك ؟ وانصرف فعلا

أفرخ بال فتنة لانصرافه ، ولـكنها كانت تعرف ماوراء ذلك . كانت تعلم أن سيدها سيعذبها أسوأ العذاب لجريمتها إذ أسلمت وهو لايريد أن يخرج عن القوم لابنفسه ولا بأحد من اتباعه ، ولجريمتها إذ سبت وشتمت كبير بنى مخزوم وخمشته . وكانت قد علمت ماأصاب ياسر وأباه وأمه ، إذ شدوا وثاقهم وروهم فى الرمضاء حتى مات الوالد دنفا ، وماتت أمه بطعنة فى أحشائها من أبى الحـكم المخزومى نفسه . وذكرت

ذلك لورقة قائلة : سأستمرئ هذا العذاب فى سبيل الله . قال : هذا إذا لم يكن لك منه مهرب ولا مفر . قالت وهل من ابن جدعان مهرب أو مفر والناس فى مكة عبيده سادتهم وسراتهم ! فصمت ورقة مفكرا ، وخطر له أن يأخذها معه إلى سيده الحارث بن كلدة ليشفع لها ، وقدر أنه لن يخيب رجاءه فى هذا . فقال لها : نعم إن هناك مهربا وحمى فى هدى ، فى كنف الحارث بن كلدة، وتذهبين معى. فاعتدلت المرأة فى جلستها وأبرقت عيناها وصاحت من فرحها ، ثم سجدت لله شكرا ، وبكت بكاء مرا ، وورقة يهدئها قائلا : إنك إن استمررت فى هذا جمعت عليك أعداءك فلم تستطيعي الهرب . قالت : صدقت . هلم . قال : هلم . ثم ذهبت فجمعت حاجتها حين ذهب ورقة ليحضر جواده ، والتقت به عند المنود . فقال لها : وهذه العنزة قالت : سأتركها فى الطريق ترعى ما تجد على عادتها ، فإذا دخل الليل عادت فى العائدات مع معيز جاراتي . قال : إن لم يكن فى ذلك بأس فيها . قالت : لا بأس فى ذلك . ليست هذه أول مرة تضل فأجدها عندهن . اخرج بجوادك وانتظرنى عند ثنية ذى المجاز ، وخذ هذا الجوالق معك على الجواد . ثم ناولته إياه فرحاه عليه . وقالت : اخرج من باب الدار سأقفله من ورائك أما أنا فسأعتلى جدار جارتى لأخرج من بيتها ، ولن تشعر بى لأنها بعيدة

---

(١) سوق قريبة من مكة فى طريق الطائف من أسواق العرب تتلو عكاظا فى عظم شأنه اذ كانت تجتمع فيه القبائل فى مواسم الحج فتبيع وتشترى وتناظر وتتناشد عار وهى أشبه شيء بالموالد عندنا إلا ما تمتاز به من كرامة الأدب والشعراء

عنه . قال : أضلني ما بدا لك ، ولكن القيني عند الثنية

هناك في الثنية لقيته وركبت وراءه وسار في غير ما اعتاد من الطرق إلى هدى . ولكن فتنة كانت تعرف الطريق حق العلم فما زالت به تقول من هنا ومن هناك حتى اعتدل في طريق هدى الذي يعرف

كانت فتنة تظن أنه إنما اتخذ هذا الطريق فرارا من عيون أهل مكة ، لو أنه عاد إلى المروة(٢) محترقا شعاب بني هاشم وتيم إلى منى ، فلم تسأله في ذلك ، ولكنها إذ كانت تشكره لما يتجشم من أجلها من المشاق ذكرت أنه ارتضى السير على غير هدى . قال : بل أراد الله ما ذكرت ولم أرده : أرسل فضله على لسان سيدة المؤمنين خديجة حين أشفقت أن أعود إلى حراء أودع سيدي ابن نوفل فأمرت الا آخذ طريق منى ، ولم تكن تدرى أنها تعمل للنجاة بك من عذاب ابن جدعان

بلغا هدى قبل العصر ، ولكنه لم يشأ أن يذهب بصاحبته على الفور إلى بيت الحارث حتى يلقى زوجته هرميون ويعرض أمرها عليها فيها فإن عطفت عليها فيها وتكلم مع الحارث في شأنها ، وإلا تدبر في شأنها .

وكان ورقة يعرف بدءا الا تقفيا في هدى يدعى طويف يجيء هدى كل عام في الربيع ويبقى فيها إلى ما بعد الصيف ليبيع المصطافين حاجتهم من مؤونة الحياة . وكان يسكن هو وأخت له أرملة تدعى سعدى في بيت لهما

---

(٢) صخرة في آخر المسعى من الشمال كان ينحر عندها الهدى في الجاهلية لصنم هناك يسمى نائلة وتقابلها الصفا في الجنوب وكان عليها صنم يسمى آساف .

وراء ضفة النهر فى طريق الهابط الى مكة . وكان سبب معرفته بهما أنه كان يبيع لبيت الحارث ما قد يحتاجون إليه . كما أنه زاره ذات يوم هو والحارث إذ كانت أخته مريضة وكان يتردد عليها بأمر الحارث ليراقب حالتها ويصنع لها الدواء وفاق أمره . ثم صار يقف على دكانته يحييه ويستأنس به وهو فى طريقه رائحا إلى مكة أو غاديا منها ، وربما جلس معهم بعض الوقت إذ كان الرجل وأخته يمين فى حديثهما ولقائهما ومن ثم توثقت بينهما مودة كانت سببا فى رواج حاله ، إذ علمت فتيات المسل أن ورقة يتردد عليه ، فكن يقصدن إلى دكانته ليشترين منها ما يكن فى حاجة إليه ، ثم يقضين فى بيته مع أخته بعضا من الوقت يتحادثن فيما يشغل نفوسهن من شئون حياتهن ، ومنها ورقة الفتى السمح الذى يركب الجواد . فاذا وجدنه هناك ، أو جاء وهن عندها ، أخذت كل منهن من وجوده نهلة لنفسها بالحديث معه ، وعدت نفسها أسعد من رفيقتها إذا هو اختصها بدقائق فى الحديث أكثر من سواها . وإذا ظفرت إحداهن منه بابتسامة أو سمعت منه على إثر حديثها معه مزحة معها أو مع الثقفية أخت البدال عدت ذلك مزية . ولذلك لم يتردد البدال فى أن يرجو منه الاكثار من زيارته وإن لم يبد له من علة هذا الرجاء إلا رغبته فى الائتناس به ، وشعوره بعظيم المحبة له . وكان أبين مايجتمع الفتيات عند البدال عشى ليلة البدر وصباح يومه ، وعشى الهلال وصباحه . وقد فعلن ذلك هذه المرة أيضا ، ولكن ورقة ذهب عشى الهلال ورأينه وحادثنه وملأن عيونهن الجميلة منه ولم يعد فى

صباحه ، فصبين فرحتهن حيث نهلن . وإذ علا النهار ولم يعد من مكة عدن إلى دورهن آسيات لذلك . ولم تخف هذه العاطفة على الثقفية إذ انطفأ ما كان يعلو عذارى المعسل من نور الابتهاج ، فلم تتردد لانعاشهن فى أن تذكر لهن ذلك مباسطة ومتألفة ومغرية لهن بالحديث عنه بلا تنكر . ولكنه لم يجيء صباح اليوم الثانى ، وعلا النهار كذلك فعدن إلى دورهن كما عدن فى ضحى الأمس

جاء ورقة مبكرا قبل العصر ، ولم يكن يرجى أن يخرج أحد من مكة فى الهجير ليبلغ هدى فى مثل هذا الوقت ، ولذلك كان بيت الثقفى خاليا من زوّاره .

هناك ترجل وترجلت فتنة ، وأنزل جوالقها عن الجواد . ورآه الثقفى وأخته فخرجا للقائه مرحبين ، وهما مشغولان باكتناه من معه . ورأيا على فتنة شيئا غير عادى فيمن يعرفن من النساء كان سببا فى عجزهما عن الحكم من هى : لا يمكن أن تكون أمة لأنها أصغر من أن تكون أمه ، ولا يمكن أن تكون من جوارى بيت الحارث فى مكة لأنهن يرتدين غير هذا الملبس ولهن سحنة أخرى . هذه قوية النظرة كالصقر ، عليها مسحة من قوة الاعتزاز بنفسها وأولئك لا يكن كذلك . فتركا الأمر حتى يبين من نفسه

دخلوا الدار بين ترحيب الثقفى وأخته . فقال ورقة للثقفى : هذه أخت لى يا طويف اسمها ناجية . أدعها عندك حتى أجىء فآخذها . لن يطول

مقامها عندكم فيما أرجو . ولكنى أرجو منكما ألا تذكرا من أمرها لأحد شيئا ، حتى ولا بعد أن أجىء لآخذها . وها أنذا أقول لكما شيئا من حقيقتها لتعرفا أنه إذا ظهر من أمرها شىء كان فى ظهوره أذى لى ولها . هذه الاخت كانت فى براثن الشر ، فأنقذتها منه فى غفلة من صاحبه . فاذا عرف أين هى الآن عرف من غلبه عليها . وما ترضيان لنا هذا . قولى إن شئت ياسعدى فلن يسألكما إلا النسوة ، إنها إبنة خالتك جاءت فى زيارة ولا تزيدا على ذلك

قال طويف . حبا وكرامة ، وطمأنته الأرملة على ما أراد ، وأظهرت استعدادها لان تكون معه على الدنيا إذا هو شاء ، وقالت : ستكون ناجية فى صون الله وستره ما دامت معنا ، فاطمئن

شكر ورقة لها برها وللثقفى فضله ، واستأذن فى الانصراف على أن يعود إليهما فى العشية ، وامتطى جواده ليقطع بقية الطريق إلى بيت أستاذه



الفصل السابع عشر

فراق الدار

صعد ورقة بقية المرتقى واستقام فى طريقه إلى بيت الحارث وهو يفكر فى فتنة بعد ما أسلمت وطهرت . لقد أنقذها من عذاب دائم . ولكن ما ذا يكون من أمرها حتى ولو استطاع مولاه الحارث أن يحمل ابن جدعان على العفو عنها ؟ أتعود إلى مكة ؟ وماذا تصنع فيها ؟ لا يمكن أن تعود إلى حياتها الماضية التى أجبرها عليها ابن جدعان لأنها أسلمت والاسلام عدو البغاء ولكن ابن جدعان لن يدع الاسلام يحرمه حقه عليها إذ هى جاريته وملك يمينه ، وإذا أمكن ابتياعها منه فأين تنزل ؟ وهل يستطيع أن يحمل والدته على قبولها لديها ؟ نعم هذا يستطيعه . ولكن ماذا تفعل فتنة هناك ؟ ليس أشق على الانسان الحى المتنشط من أن يعيش بلا عمل . ولأهون عليه أن يقضى يومه ينقل كومة من الحجر من مكان الى مكان بغير ما قصد ، من أن يبقى بلا حراك . إنها لا تزال على شىء من الملاحة ، فهى فى الثلاثين من العمر أو أقل قليلا . وهى ذكية وقوية وفيها شىء من سعة الحيلة ، فهى صالحة للزواج . ولكن أين الكفء الذى ترتضيه بعلا ؟ ويرضاها زوجة ؟ إن حالتها لتحير اللب ! من ذا يستشيره فى أمرها ! لو كان ابن نوفل حيا لكان قد ابتسم لورقة ابتسامة الحب وأجابه على

الفور إلى ابتياعها من ابن جدعان ، ولنظر فى إصلاح حالها بما لا يدع مجالا لمطلب . ولكنه قضى وخلفه بلا معين، وحرمه تلك الابتسامة الحلوة التى تدل على معانى الخير الذى تنطوى عليه نفسه المباركة . يا لله ! أى خير زال من الدنيا بفقد ابن نوفل ، وأى فراغ تركه فى حياة ورقة ، وأى شقاء سيستشعره لموته وأى يتم . ثم هلت دموع عينيه ، وتساقطت على خديه ، وامتلأت نفسه بالكآبة ، حين وقف به الجواد عند باب الحارث

رأته سودة قادما من بعيد وهى فى البستان ، فذهبت عجلة إلى سيدتها الصغيرة تنبئها بذلك ، فانتعشت نفسها وسرت فى بدنها هزة السرور ولكنها لم تشأ أن تنهض للقائه على الرغم منها لتشعره أنها مغضبة ، وتعاتبه على غيابه عنها كل تلك المدة فانه يعلم أو يجب أن يكون عالما بأنه يشق عليها فراقه : نعم إنها لم تقل له إنها واجدة به ، ولن تقول، ولكن ألم تخبره عيناها بهذا الوجد،أو يسمعه قلبها دقات شغفها به؟ إن كان قد رأى وقد سمع، ثم تركها تعانى البرح فى غيبته فقد أساء ، ومن حقها أن تجزيه غضبا وإن لم يكن قد رأى ولا سمع فواخيبة أملها و واضيعة هواها . ولكنه قد رأى كل شىء واطلع على كل شىء ، فما من مرة نظرت إليه وهو يحادثها ، أو نظر إليها وهو منصت لحديثها إلا وحملت إليه عيناها آيات من الحب البرىء آمن بها ، ورأت أناجيل من المحبة تتراءى بها عيناه فتقرؤها صفحة تلو صفحة وتقنعها أنه يحبها كما تحبه محبة خالصة .وما من مرة سمعت صوته

إلا وسمعت من وراء حديثه حديثاً آخر خفيا لا تدركه غير أذينات قلبها حديثا شبه المزامير يرتلها القلب فى حضرتها . فما سر هذه الغيبة إذن إلا أن يكون قد صبأ ونسى هذا كله ! أو أن يكون قد ذهب به هوى آخر احتواه فى مكة ، فان فى بيت ابن نوفل فتيات يحببنه كثيرا وقد خطن له ثيابا وأهدينه إياها . وعلمت من سودة أن فى الحيّ الذى تسكنه أمه أمهات يحببنه كثيرا وقد عرضت إحداهن عليها أن تزوجه من ابنتها وتتنزل لها عن المهر ، ولكن العفيفة قالت : إن زواجه موكول إلى سيّده ابن نوفل ، ألم يكن هذا الرد مريبا ؟ ألم يوح إليها به أنها تعتقد أن ابن نوفل سيزوجه من إحدى تلك ....

هنا دخل ورقة فقطع عليها سلسلة تلك الاوهام ، فلما رأته شهقت شهقة صامتة تبينها ورقة وانتفت كل تلك الاوهام كما تنتفى رقائق البخار فى هبة الريح . وغمرت قوامه المعتدل ، ووجهه الحسن ، الذى يدل كل مافيه على رجولة وكمال ، بفيض حبها وحنوها وشوقها إليه. وابتسمت لمرآه ، ولكنه لم يبتسم لمرآها على عادته . ولم يتجه إليها بقلبه ، بل اتجه الى هرميون ليحييها . ورأت لمياء ازوراره عنها ، وضنه عليها ساعة اللقاء بكلمة من كلماته السعيدة التى يخصها بها فى كل لقاء ، ولم يكن ذلك ليمنعه عن أن يؤدى التحية لأمها قبلها . ورأت على وجهه فترة لاأثر فيها لمشرق الشوق أو الرعاية لها ، فضاق صدرها ، ولم تقو على احتمال الموقف فنهضت غاضبة ودخلت الى الغرفة المجاورة . أما الام فرأت شحوبا فى وجههوغئورا

فى عينه ، وكذا يملك عليه نفسه ، فهالها الامر . و إذ كان ورقة ينحنى ليقبل يدها أخذت تسائله معاتبة ، وأرجأت السؤال عما رأته عليه إلى اللحظة التالية ، إذ العتاب برّ وتحية واجبة . قالت : ما هذا يا ورقة ؟ما هذه الغيبة الطويلة ؟ إنك لم تعوّدنا أن نفتقدك ، لا بد أن يكون قد شغلك عنا أمر ذو بال فعسى أن يكون خيرا . . . ولكننا ولا نخفى عنك . . . . ثم قطع عليها الحديث أن رأت نبعا من الدمع فى عينيه فنهضت اليه مذعورة . وتخيلت فى صمته أخيلة متضاربة ، كان أبينها أن يكون النضر بن الحارث آذاه على عادته ، أو يكون بالقوم قد قضى نحبه. فعاجلته بالسؤال : مابك يا ورقة؟ماذا يبكيك يابنى ؟ . لم يكن ورقة يستطيع الكلام حتى غاض دمعه وهدأ قليلا فقال لها : معذرة يا سيدتى . لقد اضطررت أن ابقى فى مكة لأودع سيدى ابن نوفل فقد قضى أمس فى ذمة الله . ثم هلّ الدمع فى عينيه وفاض ، ولم تدر هرميون كيف تعزى الفتى ، وهى نفسها قد أهلمها النبأ الفاجع فى صديقهم الكبير ، والرجل الذى يعلو عن جميع من رأت من الرجال فى مكة علوا كبيرا . وتمثلت ورقة إذ كان ابن نوفل يعزه ويحبه حتى نزل عنه باختياره للحارث رغبة فى أن يتعلم منه ، وهو ما كان ليفارقه على أكبر عوض ، فرثت لورقة ، وحزنت لحزنه ، ولم تجد لتعزيته على هذه الكارثة إلا أن تقبّله على غير عادتها ، فى جبينه. ولكنها أشفقت عليه إشفاق الأم فقبلته قبلة الأم وقالت له . لا تحزن يا ورقة إنك لتعلم أن الله كان يعدّلك فى الحارث أبا كريما حين انتوى أن يقبض اليه ابن نوفل ، وجعل إلى

جواره لك أما تحبك كما تحب ولدها ، وجعل لك فوق هذا أختا

كانت لمياء قد سمعت حديثها فعادت لترى ، وإذ رأت دموع عينيه وعرفت ما حدث سرّى عنها ، ووقفت تنتظر دورها فى تعزيته ،حتى إذا لقنته أمها اليها وهى واقفة فى الباب تتأمله راثية لحزنه ، وإن كان شعورها بما زال من أوهامها جعل لسانها أسعى إلى الترفيه بنضح ما فى قلبها من المسرة قالت : من فى الدنيا مثلك يا ورقة ؟ إنك لتجد الدنيا تواتيك بكل خير حتى فى أحزانك . لك اليوم أبوان وأمان ، بل ثلاث أمهات ، أم ترانى صغيرة

ابتسم ورقه لحديثها ، وتذكر أمره وما استقر عليه رأيه ليلة المبيت فى مكة فاغمض عينيه حياء منها ومن نفسه ، ثم تناول فضل كمها فقبّله ، وشكرها وشكر هرميون ، وحمد الله عليهما ، وقال : ليلطف بى الله ، وليجعلنى فداءكم جميعا من كل مكروه .

وكان ورقة فى كل ذلك الوقت حتى مع امتلاء قلبه بحزنه ، واشتغال نفسه بهمه ، والاستماع لهرميون ولمياء — يفكر فى استاذه و يود أن يسألهما عنه ولكنه ما ملك لذلك سانحة فما إن وجدها الآن حتى قال : أين سيدى؟ أهو مشغول ؟ فلم تشأ هرميون أن تعاجله بنبأ مرضه ، ولذلك اكتفت بأن قالت : كان فى عزمه أن يهبط اليوم مكة ليرى ما بك ، فقد خفنا أن تكون مريضا ، ولكنه وجد نفسه لايقوى على النهوض فلزم فراشه ، وقد أرسلنا زيادا للسؤال عنك . قال : شكرا لكم. قالت: كيف! ألم تلق

فى الطريق زيادا؟ أجاب ورقة : أنه جاء هدى من غير طريقه المعتاد . ولـكنه كان مشغول القلب بما حدثته هرميون من مرض سيده ، وأخذه الوجد عليه ، قالت قدمه ، وبه شىء من الذهول، حيث اعتاد سيده أن يرقد ، وكان مباحا له أن يدخل عليه حيث كان بلا استئذان ، بل كان هذا ما أمره به الحارث . واستشعرت السيدة قصده فنبهته إلى أنها تركته نائما وربما كان من الخير أن يظل كذلك حتى يفيق . فعاد ورقة وجلس على مقعد فى الغرفة يفـكر فى علة سيده ، واعتورته الأوهام والاخيلة المقلقة ، فقد كان الحارث رقيقا ، وإذا كانت حمى فربما لم يقو عليها فيقضى كما قضى ابن نوفل. ولـكنه أخفى وساوسه وسألها: أبه دفء ياسيّدتى؟ قالت : كلا ، ليس مابه ! إلا فتور وألم فى المفاصل ، وقد بات ليلة أمس يقلب ساقيه، لايكاد يقرهما فى مكان من فراشه حتى ينقلهما إلى آخر ويطلب الىّ تدليك مفاصله ، وهو لاينقطع عن الشـكوى كالطفل المدلل ، ولـكنه بخير إن شاء الله . هل لديك من دواء ؟ قال : الأمر هين ياسيدتى، ودواؤه فيما أعتقد التزام الفراش ، وقليل من الخمر ندفئه له قبل أن يتعاطاه . هكذا رأيته يفعل حين عاد ابن المغيرة فى مكة ، وكان مريضاً بمثل ما تصفين فأبل على الفور

وفيما هما فى الحديث كان الحارث قد أفاق وتنبه لما كانوا فيه وسمع صوت ورقة فصفق وناداه باسمه . فنهض ورقة جاريا يقول . لبيك : ودخل الغرفة والسيدتان وراءه . فلما رآه فى فراشـه جثا على ركبتيه وأخذ يده يقبلها

ويقول : نفسى فداؤك ياسيدى من كل مكروه ! وغلبه الوجد فبكى . قال الحارث إنه بخير ، وإن الامر أهون من أن يشغل باله . ولكن ورقة لم يستطع أن يجمع شتيت قواه ، لانه إذ رأى الشيخ مريضا أسى لحاله وفرق ، فانكشف ذلك الغشاء الرقيق الذى كان يغطى مرجل نفسه الآسية لوفاة ابن نوفل ، فزايله الوقار حتى أنهضته هرميون ولمياء وتعجلت هرميون فقالت لزوجها : إنه محزون ياحارث ، وقد تجدد وجده إذ رآك فى الفراش . قال الحارث وقد قعد : ما فاتنى ذلك . فقد عرفت من حديثكم معه ماجرى ولكن ليس فى الارض خالد إنما نحن ضيوف فى هذه الدنيا حتى تمجنا فتشردنا عنها بما لديها من وسائل التنكر لنا والاذى ، وهى تبلوالناس : فمن كان جمد الحس صادقته وأسعدته بجموده ، ومن كان رقيقا مثلك أنت وورقة نافرته وأشقته برقته . وكنت أحب ان يكون ورقة . . . قالت هرميون مقاطعة : جامد الحس! قال: اريد لحبى إياه لو كان كذلك. قالت لو كان كذلك ما احببته لانه يكون قاسى القلب ، وهو ليس كذلك . قالت لمياء : بل قاسى القلب ياأماه ، ألم يغب عنا يومين كاملين . فضحك الحارث وهرميون واشترك بالابتسامة معهما ورقة ، وقالت هرميون لزوجها : ولماذا لاترجو لنفسك السعادة التى تريدها لمن تحب ؟ قال : لايعرفها إلا المحروم . قال ورقة : مولاى ، إنك لتعبث بفؤادى كما عبثت بكسرى [1] اما وربى لنظرة من عينيك بالعطف على سيدتى هرميون

---

(١) ورد فى تاريخ الحارث أنه خطب كسرى فى فضل العرب على غيرهم حتى ألزمه الحجة .

وسيدتى لمياء ، ونظرة الحب منهما إليك لأرجح فى لمحها على كل تلك السعادة المستمدة من جمود الحس ، ولألم تستشعره نفسك فى العطف على الناس ، املأ للقلب بالسعادة من استقلالك عن الناس وآلامهم . ولولا هذه اللذة القدسية لذة الألم ، ما سارعت إلى التضحية والهداية والذود عن الناس وتطبيب المرضى والانتصاف لهم من نفسك ومن غيرك ، واحسانك إليهم — وأما وربى ماهو إلا ألمك لى قد حملك على ان تقول ما قلت لتروّح عنى . هذا بعض برك ياسيّدى. جعلت فداءك من كل سوء . قال الحارث: شكرا لك ياورقة . انت ولدنا وعلينا ان نكون لك. والآن فاذهب وهات نبيذك الذى وصفت سخينا انه لهو الدواء حقا ، وإن كنت لا اجد بى الآن شيئا

فنهض ورقة يحضر النبيذ سخينا لمولاه ، وبقى الحارث مع السيدتين يذكر ورقة متعجبا لحاله . قال : ياهرميون ، ما كنت أريد ان يأتى ذكر ابيك على لسانى فى حضرتك لئلا يتيقظ فيك الشوق إليه ، ولكنى لأحبس عنك الآن بعض ماعلمت منه . قالت : وما ذاك؟ قال: لقد كان يقول : ان الهجين خير من الأبوين . قالت : ما معنى ذلك ؟ قال : إنه يرى ان نتاج ابوين مختلفين جنسا يجمع خير مافى الجنسين. فهذا ورقة ابوه مصرى وامه عربية فهو ينطوى على احسن مافى المصرى والعربى معا من صفات . اراه اذكى واكرم واعف واشجع . ولكأنى وربك حين احادثه انظر الى فتى من سادة بيزنطة إلا انه اعف عينا وقلبا . قالت : صدقت يا حارث ، ولكنه يقول ! إن اباه عربى من الحيرة . قال:

إن الصنوف تختلف : فعرب الحيرة غير عرب بنى لحيان . لكل منهما صفات احدثتها فيه البيئة والمناخ والحياة التى يحياها قالت : كذلك ، وأرى أنه أصبح من حقه علينا وقد مات موئله أن نكون له موئلا . ولا نكتفى من أمره بأن نعوله ويتعلم من علمك . فهل فكرت فى ذلك ؟ قال : نعم فكرت من يوم أن جئنا إلى هدى . قالت : وماذاك ؟ قال : فكرت فى ان اجعل له عندى دينارين كل شهر لا يعطاهما حتى ينقضى العام ليكون المال عدة له . وقد استودعنى ابن نوفل عشرين أخرى أعطيه اياها عندما أرى أنه أصبح صالحا للاتجار فى العقاقير . وأراه اليوم أصبح بصيرا بها كولدى النضر . ولكنى لن أخبره بذلك لئلا يرى الغلام أنه أصبح أجيرا فيتأذى ويلتزم حد الأجير وهذا مالا أطيقه . بل انى وحقك لأخشى أن يحمله الامر على تركنا . قالت : صدقت ياحارث . بورك لنا فيك . إنه لفتى نبيل . قال الحارث : فاذا أذنت لنا أن نرحل إلى اليمن شهرين كان فى هذا كل ما ترجينه له من الخير . قالت : يسوءنى ان ارفض ولكنى أخشى الا أجد فى اليمن مكانا كهذا . قال : لن يكون هذا المكان طيبا بعد شهر فسيدخل الشتاء ، وسيكون هذا الجبل العالى أجمع لثلوج الشتاء من جبال لبنان ، وما تطيقين فتح هذه النوافذ يومئذ ، ويبقى الجبل قاعا باردا صفصفا قالت : فلنبق إذن حتى نرى هذا ، ويتنادى كل منا : الرحيل . الرحيل . أما مكة فأقسم لن أسكنها . قالت لمياء : ولا أنا . إنى لأوثر أن أتنقل فى الجبال والوديان على أن نستقر حيث كنا . قال الحارث :

نرحل إلى نجران . إنها كبعض هدى ، لولا أن الثلوج لاتغشاها ، ففيها شعاب وفيها وهاد . وفيها ظهور وفيها بطون . فلنسكن فى الوادى . قالت: كذلك

وكان ورقة قد عاد لسيده بكأس فيها نبيذ قليل . فقال الحارث : شكراً ياورقة . إنى وحقك أكره الخمر مهما بالغ السفهاء فى امتداحها. أأنت تشربها ياورقة . قال : والله ماذقتها منذ رأيت سيّدى ابن نوفل يحرّمها على نفسه . ولكم سمعت مولاى محمد بن عبد الله يقول إنها « رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه». ولكن هناك ماهو أشد منها فى الرجس والأذى يأمر به الطب والدواء ، فلا يكون إذ ذاك رجسا بل دواء ، على أن يكون ذلك طوعا لأمر طبيب كريم . قال الحارث ممازحا : وأنت اليوم طبيب كريم؟ قال : ما أعطيتك هذا الدواء فأكونه ، وإنما أعطيتك ماوصفت أنت نفسك . ألم تعطها للوليد بن المغيرة فى مثل حالتك ؟فضحك الحارث ازدهاء بكلام الفتى

وفيما هو يشرب النبيذ كان زياد واقفا يتراءى فى طرقة الغرفة ، ولمحته هرميون من حيث كانت جالسة ، فنادته ، فدخل وفى يده شيء منبسط قد كسى بخرقة ور بط بخيط . قالت : ما هذا ؟ قال : رسالة من سيدى النضر. فتناولتها ، ثم استمر يقول . مررت بالدار قبل أن أعود لأرى عسى أن تكون لهم حاجة عند مولاى ، فاستمهلنى مولاى النضر حتى يكتب هذه الرسالة فكت هرميون خيوطها وعرضتها فاذا هى مكتوبة على رق من الجلد

بالعربية فقدمتها على الفور إلى الحارث حين قدم الكوب إلى لمياء إذ كانت أقرب إليه من ورقة. ثم أخذ يقرؤها صامتا. ولاحت على وجهه سحابة لم يستطع أحد فهم سببها. ولكنه لم يتركهم فى حيرتهم طويلا، فقد اعطى الرسالة إلى ورقة وهو يقول: الامور متداركة ياهرميون. قالت: كيف ذلك قال: إن الوليد بن المغيرة زار والدى ليخبره بأن ولده خالدا ورفقته عائدون من ديار الشام قبل أن ينتصف الشهر، وأنه أرسل إليه ليرسل أهله إلى بيته هذا فى هدى فى انتظار مقدمه لأنه سيقضى بقية الصيف فى بيته

قالت هرميون: لم يبق علينا إلا أن نستعد للرحيل. قالت لمياء: إلى أين نرحل؟ إنى لا أعود إلى مكة، وخير لنا أن نرحل من الآن إلى نجران إن كنا فاعلين. قالت هرميون. مضى اليوم من الشهر ثلاثة أيام، ويجب أن نترك البيت لزوجة خالد قبل مقدمه بما يكفى لإعداده. قال الحارث أمامنا إذن أربعة أيام او مثل ذلك. إنا راحلون إلى اليمن ياورقة فماذا ترى! لقد قررنا ذلك الآن قبل ان تأتينا رسالة النضر. قال: كل مكان أكون معكم فيه طيب، وإنى لاشتهى أن أرى اليمن السعيدة فهى ديار الرخاء والعلم، ومرابع الأخيار. اليس اهل يثرب والحيرة والعراق والشام من اليمن؟ حمير وكندة وأزد والأوس والخزرج وغيرها؟ قال الحارث: إذن فاستعدوا لذلك. إنى ذاهب فى الغد الى مكة لتدبير أمر هذه السفرة فدبروا أنتم لها من هنا

على هذا اتفقوا، ورأوا أن يتركوا الحارث ليستريح وينصرفوا هم للعشاء واعداد مايليق أن يعطاه الحارث من الطعام لليلته.

الفصل الثامن عشر

من أجل عين

لم يشأ ورقة أن يتعجل الكلام مع مولاه فى شأن فتنة تلك الليلة ، وإنما اكتفى بأن انتهز فرصة اجتماعه بهرميون فذكر لها أمرها كله ، ورجا منها أن تتلطف فتخبر الحارث فى وقت آخر ، فإن وجدته مستعدا للشفاعة لفتنة عند سيدها ابن جدعان — أذنت له أن يصحب سيده إلى دار طويف ليجمعه بالفتاة التعسة عسى أن يكون من وراء رؤيته إياها مايعطفه عليها ، ويحمله على التفكير لها فى وسيلة للنجاة . قالت هرميون . وأى وسيلة يابنى لانقاذ فتاة فى مثل سنها إلا أن تعيش فى كنف رجل يتزوجها ويحميها . لا وسيلة سواها إلا أن تكون وسيلة عرجاء . ولقد أحزننى حالها يابنىّ ، ولا أدرى بم أشير على زوجى . لقد كان فى نيتى أن أتكلم معه فى شأن تزويج زياد من سودة ، وأظن أن سودة عرفت ذلك من سيدتها لمياء ، فلم يبق لنا ......

قال : لم يبق شئ ، ولذلك أرى أن نكتفى من الامر بشفاعة مولاى لها عند ابن جدعان وعساه يعتقها وإلا أباعها على أن يشتريها باقوم ، وتبقى مع أمى حتى اعود ، لعل الله يحدث بعد هذا الضيق فرجا . قالت هرميون : وهل لدى باقوم نقود ؟ قال : أجل . إنه لم ينفق من ثمن ما كان

معه فى السفينة التى تكسرت فى جدة منذ عشر سنين شيئا كثيرا . بل لقد زاد ماله ياسيدتى . فقد استودع العباس ابن عبد المطلب أكثر ماله ليقرضه للناس فى مكة والطائف كما يفعل اليهود . وهو يعيش على هذا الربا ولقد ذكر لى غير مرة أنه يدخر لى أصل هذا المال . فان كان كذلك فلعله لايبخل علىّ بشىء منه فيما يرى أنه من واجبه نحو فتاة غريبة عن مكة مثله أسلمت هى أيضا كما أسلم . قالت : كذلك ، سأتكلم مع الحارث فى هذا الشأن ، و عله مستطيع أن يحمل ابن جدعان على عتقها ليبقى عليك مالك . لن يضير ابن جدعان وهو صاحب الجفنة التى يطعم منها مئة رجل كل ليلة (١)— أن يعتق لوجه الله فتاة لم يعد ينتفع بها فى شئ . على أنى أريد التعجيل بزواجها ، وسأنظر فى الامر . لن أسمح أن تنتقل الفتاة إليكم فقد تغار أمك منها ، أو تحملك الرأفة على زواجها

انتبه ورقة لهذه الملاحظة المفاجئة وقال : أنا ياسيدتى أتزوج ! قالت : ألا يمكن أن يحدث ذلك ! قال : محال أن أتزوج لا بها ولا بغيرها . فضحكت هرميون لهذا وقالت : هذا ماتستشعره الآن ، ولكن تنكرك للزواج يدل على أنك لاتعرف قيمة للزواج . ومثلك ، لهذا ، يرى النساء سواء ، ولذلك أخشى عليك الخطأ عندما يمتلئ قلبك بالرحمة

قال ورقة : افعلى ما بدالك يا سيدتى ، ما كنت لأعترضك فى أمر كريم كالذى تتطوعين له بمحض إرادتك الطيبة ، ولكنى يا سيدتى أرجو

---

(١) كتب السيرة

أن تثق أنى استخرت الله فى أن أعيش فى هذه الدنيا راهبا. قالت هرميون: إنما تهون حياة الرهبنة على الراهب لأنه يحبس نفسه فى صومعة فلا يرى شيئا من الدنيا ولا يستشعر مايستشعره من كانت الدنيا بين عينيه سوقا ينغمس فيها . كيف تملك أن تعيش راهبا ؟ أيكون فى فؤادك اليوم ما يؤلمك ؟ مطمع ترى تحقيقه محالا ، فأنت ليأسك منه تعيش فى مثل رهبنة ، وتظن أنك لن تتغلب على يأسك ، أو أن يأسك لن يزايلك ، فأنت مترهب ؟.

أوشكت هرميون أن تقرع باب السر الخفى من نفسه ، بل قرعته فعلا وهى لا تدرى .ولكنه لم يجرؤ أن يرد على الطارق . فأمسك ورقة لسانه ، ونظر إليها نظرة يستشف بها مصدر سؤالها ، وأدركت هى هذه النظرة ، ورأت أنها تطرق حمى ليس من حقها طروقه . فقالت : ليس لى أن أسأل هذا السؤال ، ولكنك حملتنى عليه . عش ما شئت ، ولكنى سأحاول تدبير أمر هذه الفتاة من أجلك أولا ، ومن أجلها ثانيا . هذا حقك على أمك يا ورقة .

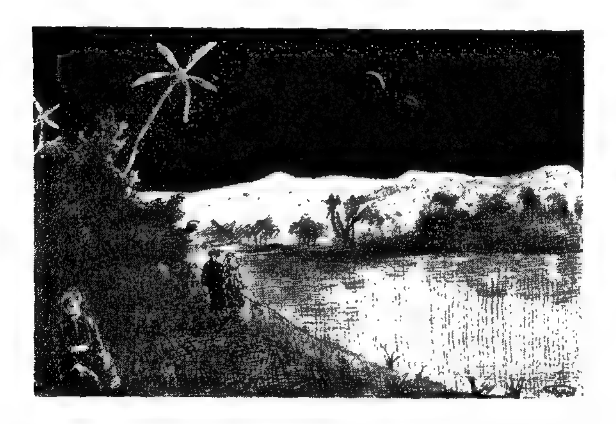
كانت نفس ورقة قد تزعزعت فى هذه اللحظات الاخيرة . تذكر حاله من لمياء وأدرك أن ما ملكه من الرغبة فى العيش مترهبا إنما هو أثر من آثار ما اعتزمه من أن يقطع تلك الخيوط الحريرية التى تختلط بما يربطه بلمياء من الخيوط الاخرى: خيوط المودة الأخويه ، فمال على يد سيدته هرميون وقبلها شكرا ،وأسقط عليها بغير اختياره دمعة حارة انتطلت

من قلبه المحترق . فشدهت هرميون لذلك ؛ ولكنها لم تشأ أن تتقصى الحقيقة ، أو كأنها توهمتها فلم تشأ ان تتحقق منها . لانها تواجه إن عرفتها امرا عصيباً . ورضيت من الامر بحاضره ، فعزت تلك الدمعة إلى فرط بر الفتى بالجارية ، وثبتها فيما ارتضت انه استعطفها عليها من جديد . قالت : دع لى الامر كله ، وانصرف أنت الآن

انصرف ورقة إلى غرفته مفكرا فى حديث هرميون وفى نفسه — أى فى لمياء . وكأنما أطارت لها هرميون طائرا كان فى صدره ، فلم يستقر فى فراشه ، فجلس فى فراشه يفكر . ولكنه لم يهتد إلى شىء . وأحس أن غرفته تحبس عنه موارد السلوى ، فنهض وانتعل ثانيا وارتدى ، وخرج يستنشق نسيم الجبل سائرا على غير هدى ، حتى وجد نفسه عند نهر المعسل ، فوقف ينظر إلى مائه وهو ينحدر متموجا متألقا فيما أبقت ساعات العشاء من الهلال. ثم خطر له أنه لم يصل العصر، فخلع نعليه واقترب من الماء يتوضأ ، حتى إذا أتم وضوءه نهض متجها نحو الكعبة قبلة ابراهيم يصلى لله كما علمه زيد ، وكما رأى رسول الله فى الحرم . ولكنه لم ينهض بعد ركعتيه بل استمر جاثيا يدعو الله ان يثبته ، ويقويه على احتمال ما فى قلبه . ولم يطاوعه هذا القلب فيدعو ربه ان يزيل ما فيه من الحب للمياء . لانه كان يرى ان هذا الحب من حقها : هو جزاء حبها له . بل هى التى استودعت قلبه الحب فلا يملك ان يزيله منه . ولا من المروءة أن يطلب إلى الله إزالته . وإن هذا الالم الذى يعانيه هو ما بقى له من الصلة

بها . فإذا هو ازاله — والفرض لا حد له — حرم نفسه الخيط الوحيد الذى يربطه بحياة روحه لمياء .

لو كان ورقة غير مشغول اللب بما هو فيه لسمع من حيث جثا حديثا يجرى بين رجل وامرأة فى ظلام العشية بعد أن هبط الهلال قادمين نحوه على غير قصد . كانا يتكلمان عن ورقة وفتنة بالرومية وهما لا يشعران



أنهما على مقربة منه يسمعهما ويعرفهما وإن لم يكن يتبينهما . كان هذان بالطبع أستاذه الحارث وزوجته هرميون خرجا بعد العشاء ليستريضا . فقد شعر الحارث أنه عوفى ، وأنه يود أن يستنشق الهواء ، فخرج هو وامرأته ليسيرا قليلا ثم يعودا . لم يدر ورقة ماذا يفعل ؟ أيترك المكان لهما متسللا

فى جهة أخرى ليتما الحديث ؟ وفى هذا الترك مايلفتهما اليه و يقطع عليهما الحديث ! إذ يشتغلان بالنظر إلى الشبح والتفكير فيه ؟ أم يتنكو ويبقى ليتسمع و يعرف ما استقر عليه الرأى فى شأن فتنة ، و يكون فى هذامسترقا متجسسا فهو غير كريم ؟ الواقع أنه كان فى مأزق لم يدر كيف يكون خروجه منه . فظل فى مكانه حائرا وهو خجل من نفسه مضطرب . وكلما تنبهت نفسه لما هو فيه تنبهت أذنه لما كان يجرى بينهما من الحديث بالرغم منه . ولـكن الله أخرجه من ذلك المأزق ، فقد وقف الحارث وامرأته على بعد يتحادثان . فلما انتهيا مما كانا فيه مالا عن طريق النهر وانحدرا نحو البيت . قال الحارث : أرى وجه الحق فى إبعاد فتنة عنه . نعم إن حالها تغير ، وقد لا تطمع أن تتزوج منه لأنها أسن منه كما قلت بعشر سنين ، ولـكن لا أمان لها . ما فى الدنيا امرأة ترى نفسها أكبر من أصغر رجل أو تتورع أن تشتهى الزواج ممن هو أعلى منها ولو كان ملكا . ولـكن اليأس يحبس لسانها عن الـكلام ، وقلبها عن الرجاء ، فى أن تسنح سانحة أو يمر بذهنها وهم ، حتى يفك اللسان من عقاله ، والقلب من إساره . وورقة فى حالته هذه سانحة ، وعمله معها مما يوقظ فى نفسها الأمل قويا ، ولا غرو أن تعمل على تحقيقه . كما أنى لا أرى أن نزوّجها من زياد . سترى زيادا دونها . لقد طالما اجتمعت بأعاظم رجال مكة ، وسمعت كلمات الثناء والتغزل القبيح منهم فيها ، فلن يكون زياد شيئا . كما انى أكره أن أراها فى بيتى ولو كانت حياتها قد تغيرت . ستبقى سمعتها عليها ولو أصبحت قديسة .

قالت هرميون : أنا معك في هذا ، ولكني وعدت الفتى — من أجله هو — أن أنظر في أمرها . أليس لك حيلة ؟ . قال : سأكلم ابن جدعان في أمرها . ولعلي أستطيع أن أحمله على عتقها ، فان أبى فسأشتريها وأعتقها . أما الباقي فليس في مقدوري حله . قالت : نحن على وشك الرحيل عن هدى ومكة وفتنة ، والواجب — إن كان ثمت واجب — أن نعجل برأي حاسم

وكان الحارث وزوجته قد انعطفا نحو دارهما ، فبعدا وبعد الصوت معهما ، فلم يستطع ورقة أن يسمع شيئا . فلما أمن أن يرياه نهض في خفة وسار نحو طويف ليزوره كما وعد ، ويطمئن على فتنة .

كانوا في انتظاره . فلما دخل عليهم نهضوا لاستقباله فرحين ، ودنت منه الأرملة مرحة طروباً واحتضنته وقبلته على غير انتظار منه قبلات بعضها عن شوق وبعضها تقليد وهي تقول : كل عذارى المسيل يشتهين هذه القبلات ولكنهن لا يظفرن بها ، فرأيت أن آخذها لأفرقها عليهن عند ما يزرنني في الغد ، وربما بعتها بثمن كبير . قال طويف : ويحك يا سعدى ، إنك لجريئة . أو تفعلين هذا أمام أخيك ؟ قالت : خل عنك هذا . ألم تقل لي أنت نفسك إنك تحب ورقة ، فكيف بي ؟ قال ورقة : بورك فيكم جميعا . كيف حالك يا ناجية ؟ قالت : خير حال . ما رأيت سعادة كالتي أنا فيها الآن . إن طويفا وسعدى يملأان النسيم مسرة . قالت سعدى : بل أنت مصدر هذا ، ولعمري لا أدري كيف يكون حالنا إذا أنت فارقتنا .

قالت: وددت ألا أفارقكم أبدا ، ولكن هل أملك ذلك ؟ ثم نظرت إلى ورقة كأنما تستفسر قال : الغد فصل الخطاب ، وسأجىء إليك فى مثل هذه الساعة أو قبلها ان استطعت . سيذهب أستاذى الحارث إلى صاحبك فى الغد . قال طويف : ثم يكون من وراء ذلك أن تأخذها منا ؟ قال : والله لا أدرى بماذا أجيب ، ولكن الامور مرهونة بظروفها . قال طويف: اسمع يا ورقة ، إنك لم تشأ أن تصارحنا عنها بشىء . ليست ناجية أختك إلا فى الإسلام ، وما تدعى ناجية بل فتنة . هكذا عرفنا منها وهى فارة من ابن جدعان . انها وثقت بنا وأخبرتنا . فاذا استطاع الحارث أن يحمل سيدها على عتقها فبها ، وإلا فاعمل أنت على ذلك ، وإليك هذا . ثم وضع يده فى جيبه وأخرج منه كيسا فيه نقود ورماه إلى ورقة . هذا عتقها أو مهرها . أو ما شئت فسمه . إن يكن قد حملك إسلامك على البر بها ، فانما يحملنى على ما أفعل ما نحس لها من الحب أنا وأختى . قالت سعدى : فان لم يكف هذا فاقرضنا الباقى

نظر ورقة إلى فتنة مبتسما ومستفهما . قالت : لا رأى لى فى ذلك . لقد علقت رضاى على رضاك . فان استحسنت الأمر فهو فيما أظن تدبير الله : قال: جل جلال الله . ليس وراء ذلك من رجاء يرجى إلا أن يهدى ابن جدعان إلى الخير . وسيكون ذلك إن شاء الله . إنه لن يرفض شفاعة الحارث ابن كلدة . ثم التفت الى طويف وأخته وقال : لقد كنت عزمت أن أفك رقبتها بمالى ثم أسألكم إيواءها حتى حين فاذا أنتم تسارعون إلى الخير .

شكرا لك يا سعدى . شكرا جزيلا . قالت : تشكرنى أنا ! إن كان هناك شكر فهو لعينيها اللتين أيقظتا فى هذا الفتى الأرمل المتشايخ قلبه النائم . قال : ومن حمله على التشايخ سواك ؟ أما حرمت عليه أن يتزوج حتى تتزوجى ؟ أما وقد أذنت فأنا أقبّلك الآن عن نفسى لا عن عذارى المعسل ولا رجاله . ثم قبلها بين ضحك الجمع وسرورهم وقال : أستميحكم الآن عذرا فى الانصراف . عموا مساء جميعا ، حتى ألقاكم فى العشية غدا أو قبلها ان استطعت

فودعوه أحسن وداع وانصرف إلى داره خفيف القلب سعيدا .



الفصل التاسع عشر

سجية ابن جدعان

قصد الحارث إلى دار ابن جدعان ليعالج معه أمر فتنة ، وذهب ورقة إلى سيدته أم المؤمنين يستأذنها فى السفر مع الحارث ، فلم تمانع فى ذلك ، لأنها كانت قد اتفقت حين رضيت بلحوقه إلى أستاذه أن يذهب معه إلى اليمن إذا شاء ليتم تعلم العقاقير — على أن يستقر بمكة بعد ذلك للتجارة فيها ، ووصفها للمستوصف لمرضه إذا أذنه بذلك أستاذه كبير أطباء العرب . وكان ورقة يرجو أن يلقى رسول الله فى داره ليتزوّد الخير والرضا ولكنه كان عليه السلام قد ذهب يعود سعد بن أبى وقاص فى مرض أصابه . فقصد ورقة الى دار سعد فرأى النبى عليه السلام وهو خارج منها هو والحارث بن كلدة ، اذ كان الناس قد رأوه عند ابن جدعان وعلم عليه السلام بذلك فأوصى باستدعائه ليكشف عن علة سعد [1] . فلما انتهى الحارث خرجا معا [2] وإخاله الحارث قد حدّث رسول الله عما اعتزم من الرحلة بورقة الى اليمن فى طلب العلم ، فارتاح الى ذلك . كما إخاله ذكر له حديث فتنة اذ أنقذها ورقة من عذاب الرمضاء وأحضرها الى هدى ، وأرسله فى شفاعة الى ابن جدعان ليعتقها أو يبيعها ليشتريها بأقوم ، وأن

---

(١) كتب السيرة

ابن جدعان قبل شفاعته فاعتقها بالرغم من اعتراض أشقياء قريش وأخاله عليه السلام قد ارتاح الى الحديث ، وأن ورقه لما وصل اليهما والتقى بهما ، دعا له رسول الله بالسلامة والتوفيق . فقال الفتى وقد قبّل يده عليه السلام : اللهم وفقنى لمرضاة رسولك فهى مرضاتك ، وألهمنى الصواب والهدى فى كل طريق فأمن رسول الله على دعائه ، وأوصاه بأستاذه وأوصى أستاذه به خيرا وانصرف (٢) الى داره

فلما خلا الحارث بورقة قال والله يا ورقة لا يمنعنى من أن أعلن إسلامى إلا ما يمنع أبا طالب والعباس . فابو طالب بائع عطر ، وبرّ أحيانا (٣) رزقه فيما يبيع للمشركين والعباس . صيرفى (٣) ، مورده فيما يقرض أهل الطائف ومكة . وكرامتهما فى مكه — إذ هما ابنا عبد المطلب حارس بيت الله — ما داما مع قريش وأوثانها ولو فى الظاهر كما أرى . وإنى لأخشى أن تقاطع قريش بنى هاشم بما مالوا عنهم إلى أخيهم محمد بن عبد الله . انى سمعتهم يتحدثون الليله فى هذا ولكنهم لم ينتهوا بعد إلى اقراره . فادع الله فى صلاتك أن يصدّهم عن هذا . والآن نخذتم أخرج من جيبه رقا وناوله إياه . قال ورقة وهو يقرؤه : ما هذا ؟ عتق فتنة ! قال : أجل كانت لنا فى مجلسه مع ذئاب قريش جولة وصولة ، قبّحهم الله جميعا . ليس فيهم رجل رشيد حتى ولدى النضر ، بل كان أشدهم معارضة لى . . . وأنا أبوه ! ولكن ابن جدعان مضى على سجيته من الكرم

(٢) هذا الموقف من أوله الى آخره خيال القصة فليتنبه القارى .(٣) الالوسى

وأعتقها إكراما لى . وكان عمرو — الذى تسمونه أبا جهل — أشدهم كرها لما فعل ابن جدعان . نهاه أولا ، ثم عرض أن يشتريها ليعذبها ويقتلها كما عذب وقتل سُمية . فلما رفض ابن جدعان هذا الطلب طلب اليه عقابها قبل عتقها. فقال ابن جدعان :لا تكن يا عمرو فيمن يستعدى على النساء .لو قتلتها أنت بالأمس ما عاتبتك . أما الآن فقد أعتقتها وإنى مع العتق أحميها . قال : تركتها رعياً لك . قال : بل لجروح وجهك فيما أرى ! وكان وجهه مخموشا خمشا ثقيلا ، فغضب ونهض من مجلسه يزمجر . قال ورقة : مالى على شكرك يدان ياسيّدى. قال: لا شكر على ذلك.كان حقا علىّ أن أنقذ هذه الفتاة بعد ما علمت من أمرها من أم لمياء ومنك . والآن فانصرف إلى أهلك فودعهم وتلطف ، ثم اذهب من فورك إلى هدى . إنى مقيم هذه الليلة فى مكة لأستعد لهذه السفرة . وسترى دنيا غير هذه الدنيا يا ورقة . ليس فى بلاد هذه الجزيرة ما هو أطيب منها ولا أسعد . وإذا جاء الصبح فأعدوا حمولتنا للرحيل والقنى فى مصعد هدى فى الضحى على طريق اليمن . لا حاجة بنا للمقام بعد اليوم فى هدى . ولكن حذار أن تمر بحراء . كن رجلا . سلم على القبر إذا بلغت طريقه . عدنى بذلك . فانحنى ورقة وقبّل يد استاذه وقال : عهد الله يا سيدى ما تريد . قال : كذلك ثم انصرف فى طريقه وانصرف ورقة إلى دار أبويه

لقيهما وقت الغداء وكان معهما بلال ، فهللوا لرؤيته فرحا إذ لم يكونوا فى انتظاره ، ودعوه للغداء فجلس ، وكان أشدهم اغتباطا به بلال رضى الله

عنه — فقد علم حديثه . فلما أتى على ذكر عتق فتنة لم يتمالك بلال أن يكبّر ، على عادته عند ما يرى للاسلام علامة نصر ، تكبيرة سمعت فى الطريق ، ثم وقف وسجد لله شكرا ، وأخذ يبكى لشدة فرحه ، ويدعو لورقة وللحارث وشكرته أمه وباقوم على بره ، وانتهز ورقعهما الظرف فقال ، وقد رأى الحارث أن يبعدنى الآن عن مكة وأبى جهل ، فاعتزم سفرة قصيرة إلى اليمن ليقتنى فيها على العقاقير اليمنية وما توصف له ثم نعوده على أن آتجر فى مكة واستقر . قال باقوم : حسن ما يفعل . أليس كذلك يا تماضر ؟ فلم ترد . ولكنه ردعنها فقال : بلى . بلى . ادعى له بالسلامة . ثم نهض باقوم وسار إلى غرفة مجاورة حين كانت تماضر تقول : كتب الله له السلامة . فى أى عير تذهبون ؟ أم تنحبون عيراً بأنفسكم ؟ لم يكن الحارث قد أفتاه فى ذلك ، ولكنه قال : إن مولاى الحارث كان يريد أن يرحل بعد ثلاثة أيام ، ولكنه بعد لقاء أبى جهل فى بيت ابن جدعان رأى أن نرحل فى الغد . وأوصانى أن أذهب بعد رؤيتكم إلى هدى لأعد الحمول ، فلعله سمع فى بيت ابن جدعان بقيام عير إلى اليمن قالت : ليس فى ذلك دليل . قال بلال : بل هناك عير راحلون فى الغد . هكذا علمت إذ كنت فى السوق عند مولاى أبى بكر . قالت : على بركة الله يا بنى . وكان باقوم قد عاد بعد مدة قصيرة فلما سمع دعاءها قال : إن دعاء الأم أبلغ الدعاء وأحقه بالاجابة . خذ يا بنى هذه الدنانير . إذا احتجت إلى النفقة فانفق منها ، وإن لم تحتج إلى شىء فاشتر بها كلها عقاقير من اليمن تجعلها فى متجرك يوم تعود . هى خمسة وعشرون دينارا ، ولا أوصيك فى

توديعك بشيء . حسبك من دينك أنه يعصمك من كل سوء . اجعل تقوى الله فى عينك وفى قلبك . «قال بلال الزم اقامة الصلاة : إنها كما قال رسول الله» تنهى عن الفحشاء والمنكر . قال ورقة : اللهم أوزعنى أن أشكر نعمتك على كل من يحيطون بى ، وفيما استودعت قلبى من النور والهدى .



وكان العصر قد آذن فنهضوا جميعاً للوضوء والصلاة ، واستعد ورقة للرحيل ، ولكنه ما كاد يهمّ بتوديعهم حتى قرع عليهم الباب ففتحوه ، وإذا زيد بن حارثة قادم بعشرين دينارا من سيدته أم المؤمنين هبة منها لورقة على أن يشترى بها عقاقير لتجارته . فلهجت ألسنة أهل الدار بالدعاء

لها والشكر لله على نعمته. ولم يشأ زيد أن يترك ولده فى الاسلام بغير تذكار فنزع عنه حسامه وحميلته وقلّده ورقة وقال : خذ هذا ياورقة . هذا من سيوف رسول الله فهو أثمن من كل معدن . واعلم أن شرفك فى حده ، وكرامتك فى ظباه ، ما إن عرفت متى تجرده من قرابه . قال ورقة : إن لله عينا علينا نحن المؤمنين يازيد وله فى قلوبنا إلهاما إلى الرشد والخير معا . وإنى والله لأرجو أن أعتصم بالدين من نفسى ، وبنفسى من بغى الناس والأذى ، فادعوا الله جميعاً أن يفرغ على هداه. فدعوا كلهم له بالسداد. وإذا بالقوم ينادى : يازيد ، لقد كنت أشعر وأنا أعلمه المسايفة والرماية فى شعاب الجبل أن الله يدفعنى إلى ذلك دفعا. وما هوّن قطع قدمى على شىء كاعتقادى أنى أكملت تعليمه ضرب السيف ورمى القوس وأنه لم يعد فى حاجة أن أخرج معه إلى الجبل . وإنه والله ليعرف متى يجرد السيف من قرابه ومتى يغمده . بل لعمرى إن له من خلقه وما يتبين الناس فيه من الشهامة والاعتزاز بالكرامة مالا يطمعهم فيه . أستودعك الله ياورقة . سر على بركة الرحمن. فودع ورقة عمه ووالدته وداع الابن البار ، وودع بلالا ، وخرج مع زيد متجلدا إلى حيث استودع جواده

* * *

بلغ هدى وبلغ دار طريف فى مغرب الشمس فوجدهم جميعا فى انتظاره خارج البيت ، ووجد معهم بعضا من أهل هدى كانوا قد جاءوا ليشتروا



من دكانة طويف أو يقضوا بجوارها بعض الوقت على عادة الناس إذ يرون الدكاكين أجمع لشتيت الناس فيلتمسون الفرجة بالحديث معهم . فلما لمحت فتنة رأس جواده يطل من المرتقى صاحت : هاهو ذا ورقة . فاتجهت العيون صوبه كأنما تسائله. فحياهم من بعد بالاشارة تحية الفرح الظافر. وأخرج من جيبه الصرة التى كان قد أعطاه طويف إياها فى العشية ثمنا لفتنة أو مهراً لها ، وقال : خذى يافتنة . أصبح الآن هذا المال مهرك . لقد أعتقها ابن جدعان فهى حرة تمهر . وهذه شهادة العتق ! ثم أخرج الرق من جيبه وناولها إياه وترجل . فصاح الجمع مهللين مكبرين ، وانهالت فتنة على يده تقبلها وتبكى ، وتبعها طويف وسعدى فى ذلك داعين شاكرين.فقال لهما : لقد صح منكما العزم على الزواج وتراضيتما، فعلى دين من تتزوجان؟على دين الجاهلية والأوثان ؟ أم على دين الرشد الحنيف ؟ قال طويف : بعدا لدين الاوثان ومقتا للمشركين . إنما نتزوج على دين من أنقذ هذه الفتاة من الضلال ، وجعل

لنا فى الدنيا أهلا و إخوانا ، دين الطهر والعفة والرأفة وسعادة الدارين .
قالت فتنة فأنا لك ياطويف الزوجة الشاكرة البارة ، ولاختك الاخت
الوفية المقرة بالجميل . فقالت سعدى : واشهدوا ياقوم أنى خلعت دين اللات
والعزى ، واعتنقت منذ لقيت فتنة دين من يحمى العرض ويرعى النساء ،
ويحفظهن من غواية الشيطان . قال الجمع الحاضرون : دين من هذا ؟
لقد شوقتمونا أيها السعداء . قالوا جميعا : هذا دين محمد بن عبد الله .
اشهدوا معنا أيها الناس إن أردتم لانفسكم النجاة ، أو فاشهدوا علينا .
قالوا : بل نشهد معكم وعليكم واشهدوا علينا كذلك . قال ورقة : اشهدوا
أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده و رسوله إلى الخلق أجمعين ! فردد الجمع
الشهادة صائحين ، حتى كانت لصيحتهم رجة فى أرجاء الجبل توارد
عليها أهل هدى ليروا هذا الحادث العظيم .

وسرعان مادخلت سعدى إلى الدار فصبت فى جفنة عسلا وماء وعطرا
من الورد وأتت به تسقى الحاضرين احتفاء بهذه الساعة المباركة . فلما
شرب ورقة حمد الله وأثنى على رسوله . ثم سلم عليهم مودعا ومباركا على أمل
اللقاء فى صباح الغد ، وتوارد الناس يهنئون طويفا وفتنة بالزواج ويشربون
ذوب العسل اللطيف المزاج

الفصل العشرون

أراقم الثنية

فى الساعة التى كان يجرى فيها هذا الاحتفال الجلى العظيم ، كان الحارث يزور أندية قريش فى الحجر عند الكعبة ليودعهم ، ولكنه لم يعدهم يستحقون هذا الاكرام ، فاكتفى من الأمر بالمرور محييا وكأنه لم يحترم شيئا ، ولا كان قد غاب عنهم . ذلك بأنه لم يسمع فى مجلس من مجالسهم إلا لغوا ، وإلا سبا وذما لرسول الله المبرأ من كل ذام . علم منهم أنهم يبعثون كل يوم بسفهائهم وصبيتهم وغلمانهم الى رسول الله وأتباعه يسبونه فى وجهه ، ويلقون عليه وعلى المسلمين الأحجار والروث ، ويوعزون إلى جواريهم أن يتغنين فى الطرقات وفى المواخير التى كانوا يغشونها أراجيز مقذعة سافلة فى حق أطهر خلق الله وأكرم عبيده عليه[1] بل رأى من أقرب الناس الى رسول الله نفسه من يسبقون سائر قريش فى أذاه . فغما كان الحارث يزور أحد المجالس جاءه أبو لهب مستطبا من حشرجة فى صدره أثر ما كان يلقى من القول المقذع فى ذم ابن أخيه . فقال له الحارث : لو تركت هذا لرد إليك صوتك ! قال : لا أتركه ولو أصبحت لا أطيق الكلام بتاتا . ان من يسب آلهتى ويسفه حلمى وحلم قريش — أسبه هو وإلهه حقا قال : إنما إلهك إلهه ، وإنما أنت تتوسل اليه بحجر مما تستبرىء بمثله .

---

(١) كتب السيرة

قال: قبحت. كيف تقول هذا ؟ قال: اذهب لا طب لك عندي إلا ما ذكرت، وسمع الحارث من أحدهم أن عتيبة بن أبي لهب، قبل رحيله إلى الشام في في تجارة لأبيه، وكان قد صاهر رسول الله في ابنته رقية رضوان الله عليها — أتى إلى حميه في بعض المجالس وقبض على لحيته ورد عليه ابنته مطلقا وبصق في وجهه ﷺ، فدعا عليه النبي بما فعل. فقال: « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » فأكله الأسد بعد حين في الشام. (١)

وسمع أن ولده النضر، وهو ابن خالته عليه السلام — يرتاد أندية قريش ليكذبه ويسفه رأيه ويغري به، وهو يقول: تعالوا إليّ أنا أحدثكم عن أخبار الفرس والروم، وما يفعلون اليوم، فهذا أمس بكم من حديث محمد عن ذي النون وذي القرنين ممن لا تعرفون. إني أنا العالم البصير، وما هو إلا الامي الجاهل(١) فحزن الحارث لهذا حزنا شديدا وسار إلى منزله مغضبا، ليؤنب ولده على غروره وقبح حديثه، وسفاهته. وكان الليل قد اشتدت حلكته فما كان يتبين الانسان فيه إلا الأشباح، وإلا ما تحمل الريح إلى الآذان من لغط اللاغطين. فسمع على مقربة من بيته رنين أعواد وطنين مزاهر ونقر دفوف ثم غناء يعقبه ضحك وسباب. ورأى نوراً ينبعث من كوة بعيدة في بناء الدار، فدخل وقصد الى الغرفة المضاءة فاذا هو يجد فيها جماعة من أصحاب الحول والسيادة في مكة ممن عرف الحارث عداوتهم للأمين، جالسين مع ولده النضر، وولده ممسك بينهم عودا يغني عليه. وبين أيدي الجمع أكواب مترعة من الخمر يتناولونها، منهم الوليد

ابن المغيرة أبو خالد وصاحب الدار التي يسكنها الحارث في هدى ، ومنهم الاسود بن عبد المطلب بن هاشم والأسود بن عبد يغوث من خؤولة رسول الله ، والعاص بن وائل أبو عمرو ، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم من صناديد قريش . زعم للحارث أنهم في زيارة له أو لولده ، فلما حيّاهم وجلس بينهم انقطعوا عن الدق وسكت النضر عن الغناء إذ كان قد نظم أبياتا مقذعة في حق أطهر خلق الله نفسا وأعفهم لسانا . فقال لهم الحارث : لم سكتم ياصحاب ؟ إني عوّاد مثلكم وأحب أن أستمع ، قالوا : زعمنا أنك نسيت العود وألحانه . قال : إن العود في الذهن لافي اليد . قالوا : فأسمعنا إذن . قال : ماجئت لهذا ، أما أنتم فكنتم في بحاره . فتناول النضر عوده وقال ولكنها بحار مرة لاتستسيغها يا أبتي . قال : هات . قال : فاسمع . ثم انصرف المشرك يغني أبيات الذم في رسول الله . فأسكته الحارث على الفور ووضع يداً على الأوتار وأخرى على فم ابنه ، والكل يضحكون . وقال الحارث : على رسلكم ياسادة . أمحمد بن عبدالله عظيم الخطر في مكة حتى لتشغلون أنفسكم بأمره ! قال ابن أبي معيط: إنه أفسد علينا هو وصاحبه أولادنا ونساءنا ببدعته . قال متجاهلا : لم أعرف من أمر ابن عبد الله شيئا فلقد كنت في أسفاري كما تعلمون ، فهل لكم أن تذكروا لي شيئا مما يقول ؟ قال الوليد بن المغيرة وكان أفصحهم مقولا وأقذعهم سبا : هذا المجنون يريدنا على أن نترك آلهتنا ونعبد مالانرى ولانسمع . وجاءنا بأقوال من سجع الكهان يسميها قرآنا حفظه لغلمان قريش وسفهائها ، فصاروا به

يسبون الناس ، بل يسبون أهله. و إليك بعضه ،حفظناه من كثرة ماسمعناه « تبت يدا أبى لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. فى جيدها حبل من مسد » . أيرضيك هـذا ياحارث ؟قال : عجبى لكم ! وهل يرضيكم أن تذهب إليه امرأة عمه أبى لهب هذا بحجر تريد أن تشج به رأسه ، لأنه يقول الله ربى ؟ و يسير زوجها فى الطرقات يسبّ عرض أبن أخيه من أجل مايقول ؟ و يغرى به الاطفال والاماء والغلمان يرمون عليه الحصى والرماد والفرث ؟ و يتبع خطواته فى كل مكان حتى إذا وجده يدعو بكلمة ربه سفهه وكذبه وصرف الناس عنه؟ وأن يذهب أولاده إليه فيطلقوا له بناته أزراء به و إخناء عليه؟ و يشتموه و يسبوه بأعلى الأصوات ؟ و يؤذوه ؟ دعونا من هذا السباب ، واذكروا لنا شيئا من دينه . قال العاص بن وائل وكان حكما فى مكة : إنه يريد أن يكون خليفة زيد بن عمرو بن نفيل فيما كان يدعى من العلم بدين ابراهيم . فهو يقول : إن الله أمره أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قال : وهذا ما تعيبونه عليه ؟ قال : أجل ، هـذه صبأة ياحارث ، كيف يعيب ديننا حسنا كان أو قبيحا . نحن على هذا منذ ألوف من السنين ، ولنا بدين اللات والعزى ومناة أكرم منزلة فى العرب . وما مكة وقريش إلا أثر من فضل هذه الآلهة علينا . ألا ترى الأعراب ينسلون إلينا من كل حدب ابتغاء الحج فلا تأذن لهم أن يطوفوا بالبيت إلا فى ملابس من تجارتنا ، والا يأكلوا الا من طعام مما نبيعه ، ولا يشربوا الا مما نجيء لهم

به من الماء، ثم هم يشترون مما تتاجر فيه ؟ قال الحارث : أنتم إذن تتجرون بالدين ، وتحاربون محمدا وتسفهون رأيه لانه إذا ظهر عليكم دينه اختفى ربحكم وما تكسبون ! تعيشون على جهالة الناس وتجهيلهم ! دعونا من هذا وخبرونا ماذا جاء لـكم به من الدين ؟ قال عقبة بن أبى معيط وكان قد التقى على الرسول فى أمسه فرث بعير أهلّ لنائله : عجبي لهذا الأمى كيف يدعى النبوّة ، ولم يقدر أن يدعيها زيد بن نفيل نفسه . إنه يقول إن وحيا يجيئه من عند الله يحادثه ويكلمه ويلقى عليه كلمات من عند ربه . وقال له ورقة بن نوفل الصابىء : إن هذا هو الناموس الذى نزل على موسى وعيسى. وأخذته امرأته خديجة الى عدّاس الراهب على أثر هذه الدعوى فقال لها : هذا هو النبي المذكور فى التوراة والانجيل .هذا نبي آخر الزمان.ففتن الرجل بما سمع وجنّ ، وأخذ يهذى بكلمات يسميها قرآنا .قال الحارث:ألا تذكرون لى شيئا مما يهذى به فى قرآنه ! قال عقبة :لا أعرف.. الهذيان هذيان . من يستطيع أن يحفظ هذيانا ! أتستطيع انت؟قال عتبة بن ربيعة : أنا أحفظ بعضه . سمعته يصلى ذات يوم وهو يقول : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » قال الحارث : وتسمون هذا هذيانا! فما الرشد إذن يامداره العرب ! هل تحفظون شيئا غير هذا ؟ خبرنى أنت يانضر. أنا أعلم أنك تتعقبه وتحول بينه وبين دعوة الناس الى دينه قال لا تقل دينه بل قل سحره. انى اعتقد أنه يعرف شيئا من السحر. قال فما سمعت من سحره ؟ قال سمعته يصلّى فى بعض الشعاب ويقول كلاما من سجع

الكهان لا بأس به ولا أدرى من حفظه اياه . ولكنه الصبأة كلها عن دينها . سمعته يتلو « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، أياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ثم يؤمن

قال الحارث : يا أولادى . لا أقول لكم اتبعوا محمدا ، إن الهدى من الله ، ولا تدخل فى شئونكم ، ولكنى أرجو ألا يكون الرجل منكم مكابرا . فان المكابرة لا تدحض رأيا وانما هى أعود على صاحبها بالقلة ، وأشد فى اظهار الحجة . وخير للرجل اذا لم يكن يهمه وجه الصواب من الامر أن يسكت وينزوى ، لا أن ينهض ويجأر بتكذيبه . فانه ان يجأر أعلن صدق خصمه متطوعا ، كالذى يرى نوراً ثم ينهض ويستشهد بالناس على أنه لا نور . لن يلقى منهم الا تكذيبا لقوله ، وتعجبا له ، وربما اتهموه فى أنفسهم بالجنون هذا اذا كانت له كرامة عندهم ، فان لم تكن له كرامة ، فسيكذبونه فى وجهه وينضمون الى خصمه . من أجل هذا أرى من الحكمة ألا تضاروا الرجل ولا تؤذوه ولا تعيبوه ، فان الأذى والعيب أعود عليكم . ولقد رأيت من طبيعة محمد ما يجعل هذا الاذى وهذا العيب أفعل فى جمع القلوب حوله : انه لا يرد سفاهة سفيه ، ولا يستعدى عليه بل يدعو له الله ان يبصره ويهديه . فما ان يسمع بذلك سامع حتى يحب الرجل ويكره شانئه ويؤمن به ويخلع أعاديه . ولكم فى قصة فتنة مثل قريب . لقد سمعتموها فى دار ابن جدعان .

قال النضر: إننا أن سكتنا عنه أصبح سيدنا وسيد العرب، ولم يصبح لنا فى الدنيا شأن. وقال ابن أبى معيط: ومن هو فى الناس؟ أليس هو اليتيم الذى عاش عالة على أهله، ولم يكن يمتلك شيئا حتى ملكته بنت خويلد بعيرين حين استأجرته كما تستأجر الغلمان. وقال العاص بن وائل: أتريد ياحارث أن يتملك الحكم فى مكة وبلاد العربية رجل كهذا؟ قال: ماطلب الرجل هذا. على أنه إن فعل فمن يرالله أن يكون فى يده هدايتكم. أليس محمد حفيد عبد المطلب ابن هاشم الذى حمى الكعبة برأيه وكان سيد قريش. قال عقبة: وأين هذا من ذاك؟. قال: إنما أنتم فى هذا مكابرون. أنتم ترون المجد فى المكاثرة بالأموال وهذا غاية الضلال. لعمرى إن فى صنعاء زعانف أغنى منكم أجمعين. إنى راحل فى الغد إلى صنعاء، فقد سئمت المقام فى جواركم، ولكنى أريد أن أسألكم قبل الرحيل سؤالا، فاما رشدتم، وإما فاتهمكم على أنفسكم. قالوا: سل ماتريد. قال ألستم ياقريش أبناء إبرهيم؟ قالوا: بلى. قال: ألستم لهذا أحق الناس باتباع ملة إبراهيم وإعلاء شأنها؟ قالوا: بلى، ولكن من يأتينا بملة إبرهيم؟. قال هى معكم ولكنكم تنكرون. وقد علمت أن محمداً لم يأتكم حتى اليوم بجديد. قالوا: فما خطبنا إذن؟ قال الحارث: كنتم عليها، ولكنكم صبأتم فى الزمان مرة. ملتم عن طريقها خطوة واحدة وسرتم فيما ملتم فانفرج الطريقان أحدهما عن الآخر، فاذا نهاية هذا شرقا، وإذا نهاية ذاك غربا. ذلك يوم أتى لكم عمرو بن لحى(٢) بصنم من الشام

يستحق به . يومئذ صبأتم عن ملة أبيكم الذى كسر الأصنام وألقى بها فى النار . و إذا كان محمد بن عبد الله يريد أن يردكم إلى الصراط المستقيم الذى شرد عنه ابن لحى وشرد الناس معه ، لتعبدوا الله موحدين ، منزهين له عن الشرك ، الواحد الأحد الذى كنتم تعبدون . فأى جرم لمحمد عندكم يستوجب أن تظهروا صغاركم للناس فى معاداته ؟ إن كان محمد يدعوكم أن تكونوا حنفاء وأن تزيلوا هذه الاحجار الصماء التى أثقلتم بها كاهل البيت : بيت أبيكم ابرهيم ، فقد والله صدق وأنا به أول المؤمنين . أين هو يانضر ؟ إنى أريد أن أعلن إيمانى به قبل رحلتى إلى اليمن . أين هو ؟ . قال النضر : لماذا تسألنى يا أبى ؟ إنى لا أعرف . أأنا من غلمانه ؟ قال : لا ، ولكنى أعلم أنكم وضعتم عليه العيون والأرصاد وشددتم عليه المراقبة هذه الايام . قال : تريد أن تلقاه ؟ قال : نعم . قال : أدركنى إنه فى أسفل ثنية الحجون . ثم نهض مغضبا حانقا وهو يقول : أما وحق إبراهيمك لأخلين الأرض منه الساعة . لقد كنا نأتمر به قبل أن تدخل علينا بحكمة لحيتك الشمطاء ، وكنت مترددا فى أن أكون أنا أول ضارب لأنه ابن خالتى . أما الآن فلا . سآتيك برأسه قبل أن ينفض هذا المجلس....

ثم مرق الأحمق من البيت كالسهم قاصدا ثنية الحجون .(٣)

لم يضطرب مجلس المشركين لهذا إلا بقدر ماراوا من جزع الحارث

---

(٢) الاصنام للكلبي وغيره

(٣) كتب السيرة

وقيامه ليدرك ولده ويرده عن هذا المنكر ، لولا أن النضر كان قد فر كالأفعوان ، وأخفاه الظلام فى الطرقات . ولكن الحارث لم تفتر همته ، بل قصد إلى ثنية الحجون يجرى فى حلكة الليل متعثرا ، يهديه سابق علمه بمكان الثنية عسى أن يلقى ولده هناك فيصرفه ، أو يلقى رسول الله فيحميه ، ويحول دون جريمة لا يعرف عاقبتها فى قريش إلا علام الغيوب .



ولكنه ما كاد يصل إلى الثنية حتى وجد ابنه عائدا يجرى خائفا وهو يلهث ، وإذ وقعت عينه على أبيه ألقى بنفسه عليه فزعا ، وهو يقول من فرط ذعره : امسح بيدك على صدرى يا أبى ، إن بى ذعرا شديدا . قال الحارث وقد أخذه الى صدره : إن كنت قتلت ابن خالتك فوالله لأسلمنّك بيدى إلى أخوالك الآن فى بنى زهرة ليمثلوا بك . قال : لم أقتله . لم أستطع يا أبتى . قال :

أرنى سيفك. فأعطاه إياه، فجرده الحارث من غمده، وتحسسه ليرى هل به من دماء فلما وجده جافا أملس. قال: نبّئني ماذا جرى ؟ قال : دخلت الثنية ، وسمعته يصلى و يتلو من قرآنه وهو مختف فى شق من الجبل ، فقصدت الى الشق ، ورأيته ساجدا ، فما جردت سيفى و رفعته لأهوى على رقبته حتى رأيت على جانبى الشق أساود وأراقم ذات أذناب عقداء تضربنى على وجهى وعنقى وعاتقى ضربا أشد وقعا من السياط على الأذن . ومع ذلك أقدمت . فرأيت حياله شيطانا فاغرا فاه ليلتهمنى . ولولا أن تراجعت لـكان فى الثنيـة حينى . أرأيت يا أبتى قدر سحره ؟ حقا إنه لساحر . قال الرجل : خل عنك هذا الهذر يا بنىّ واتعظ ، واتق الله فى نفسك وفى محمد . و إذا لم ترد أن تؤمن بدعوته وهى حق كما أرى ، و يكون لك ثواب مؤازرته — فدع الرجل يبلغ رسالته و يهد العالمين . فوحق الله إنه لنبيـه الذى ورد ذكره فى التوراة والانجيل . تعال . تعال . إرفق بابن خالتك و بنفسك ولا تحسده على أن آثره الله بالرسالة . قال النضر : هذا الأمىّ يكون رسولا لله . لن أدعه وحقك حتى يدع باطله وكهانته وسحره قال الحارث : إذن فوحق الله لا تبيتنّ بمكة بعد ليلتك ولا أبيت . إذا جاء الغد فنى العير إلى نجران

عادا إلى الدار، ولم يكن النضر ليملك بعد هذا القسم من أبيه أن يخالفه والا لعنه عند البيت ، وفضحه فى قريش . ولذلك عادا الى الدار صامتين لا يتكلمان . ولما جاء الغد كانا فى عيرهما الى أسفل هدى فالتقيا بهر ميون ولمياء وورقة ، وسارا فى عير التجر الى اليمن

الفصل الحادى والعشرون

فى كنف الأسقف

كان بين الحارث بن كلده و بين أسقف نجران الشيخ البصير بالدنيا موده قديمه وثقها فيما يقول الناس، العلم. فهذا عالم بدينه وذاك بطبه . ولكن طبيعتى العلمين مختلفتان كل الاختلاف فهما حريتان أن تفرقا بين صاحبيهما تفريقا جوهريا لا ان تسمحا بلقاء أو تحدثا مودة . علم الدين كان فى ذلك الزمان رطازات وأساطير و بعض حقائق هينة الامر يتوارثها الخلف عن السلف و يذيعها ، وأشكالا وصورا من العبادات يجرون عليها ، ويجرى غيرهم على غيرها. فما هو إذن بعلم وانما هو طقوس وحركات وأدعية وتراتيل وأوهام وأراجيف مادتها الجهل المطبق واسقاط المنطق. وكلما أغرق الانسان فيها وبالغ وأفتى فى أمرها عن هوى وتشيّع وتوفر على الجهل كان العالم العلامة والحبر الفهامة ، ولا علم فى ذاك ولا فهامة . وأما علم الطب فصناعة من الصناعات التى توارث الخلف فنونها عن السلف وذاعت حقائقها بين الجمهور وتنقلت فى البيوت والمصانع وأعمال الناس كالزراعة والتجارة والحدادة والناس لايدرون أنها تنطوى على حقائق ثابتة اهتدت اليها القرون من غير سوء قصد ولا تعمّل. حقائق لاتحتمل باطلا ولا وهما، و إلا لظهر عيبها فيما تنتج فماتت بدأنها . صناعة أساسها المشاهدة والتجربة والمقارنة والقياس . كلما

أوغلت فيه باحثا خلصت من إيغالك إلى حقيقة تلو حقيقه ، ونفيت عما تصل إليه مايكون قد تسرّب اليه من خطأ المقارنة ، لاسوء القصد ولا تعمد الايهام . نعم كان أساسه السحر ، ولكن هذا لم يكن الا فى عصور جهالة الانسان العميقة. على أن هذا السحر كان أساسه العلم : أى الحقائق الطبيعية التى اهتدى اليها الانسان لنفسه ولم يدعها الا عرضا: فالبخور الذي كان يطلقه الساحر عند ما كان يدعى ليطرد الشيطان عن مريض بالتشنج مثلا انما كان دواء يهدّئ العصب و يردّ الانسان الى رخاوة . والرقى التى كان يشفى بها بعض المرضى انما كانت نوعا من الايعاز يتقوّى به الموعز اليه على ضعفه وليست التعاويذ التى كانوا يحملونها للدخول على الحاكم أو لخوض غمار الحروب إلا نوعا من الاستقواء الذاتى يوقظ فى النفس شيئا من الطمأنينة والشجاعة ينفع إلى مدى . أما أنواع السحر الاخرى التى تواردت الينا أنباؤها فيما بقى من تاريخ الامم البائدة فكثير منها له تعليله اليوم فيما أعطانا العلم من أسراره . فان بقى معظمها بلا تعليل ، فما يعجز العلم عن تقديم سببه لانه سحر ، بل لأنه لم يحصل فعلا. و إنما هى أكاذيب رواها الناس وهما أو كذبا أو تدليسا ودعاية ، وتناقلها الناس على التصديق حتى أصبحنا وفينا من يصدّق مثلا أنهم فيما مضى كانوا يستطيعون نقل الجدار من مكان الى مكان بالرقى والتعاويذ. وفينا من يستغلّ بقية جهالة الناس لنفسه حينا ثم تتناوله المحاكم والسجون لتريح الدنيا منه أياما . على أن من

أعمال السحر فى الماضى ماهو سحر حقا ـ أى أمر له علله واسبابه. ولكننا لانعرف له حتى الآن تعليلا علميا . كالسحر الذى كان يصنعه سحرة فرعون . فهذا صدق لاشك فيه له اساس علمى. بيد ان هذا الاساس غائب عنا لم نكشفه بعد . ولا يطعن فى صدقه اننا نجهل تعليله مع كل ما لدينا من العلم فالتحنيط مثلا كان صناعة عند سلفنا فى وادى النيل ، فهو حقيقة لاشك فيها لم يطعن فيها ولم يزيفها اننا نجهل طريقته العلمية . وكم من اختراعات اليوم ما كنا نسمع اكبر العلماء يقسم بكذب ما يروى عنها، لانه كان يجهل اسبابها ، فلما عرفها صدقها وعدها من بسائط الامور . وكم بين ايدي تلاميذ المدارس اليوم فيما يدرسون من علمى الطبيعة والكيمياء وعلوم الحيل ما لايزال يلعب به الاطفال فى المجامع الاهلية وفى البيوت باسم سحر، تسمية له بما كان يسمى به فى الماضى إذ كان أساسا مبهما لبعض أعمال السحر التى وردت الينا اخبارها

فالخلاصة من هذا ان القول بأن رابطة العلم بين الحارث والاسقف كانت هى الجامعة بينهما ، قول كان يريح الناس لتعليل المودة التى بينهما ، ولكن الواقع أن الحارث لم يكن يربطه بالاسقف هذا الرباط

كان الاسقف، على خبرته بطقوس دينه وعلى ما أعطى من بيان وطيب لسان و بصيرة بالطبائع، كامثاله جاهلا تمام الجهل بكل علم، غفلا بعيداً عن كل صواب فى العلم ولو اصاب. ولا يمكن ان يكون غير ذلك إلا إذا اراد ان يلحق بصفته الدينية الحقيقية صفة أخرى . اما الحارث فكان عالما بقدر ماوسعت صناعة الطب من الحقائق يومئذ

ما الذى كان يربط عالما بجاهل اذن ؟ الروابط كثيرة : كان الاسقف سيداً فى نجران بفضل مركزه الدينى ، يعلو عن بنى عبد المدان امراء نجران بقدر صلته بالآب والابن والروح القدس ومريم العذراء أيضا واختصاصه نفسه بالعلم الأعلى بهذه الاسماء الرهيبة ، والقدرة على حرمان الناس رضاها وجوارها . فالسيادة إذن هى احدى الروابط التى وثقت بينهما ، اذ هى الجاه والمنعة . وكان الأسقف على ماا كسبته الايام من الحكمة و بعد النظر وادراك العواقب يمثل المبدأ العام الذى يحكم الدنيا ، وبعبارة أخرى المبدأ الذى يذل الدنيا ويخضعها لأصحابه : فالدنيا كانت فى كل زمان نهبا لقويين : قوىٌ بذراعيه ، فهو يخضع الناس ، وقوىٌ بفكره يخيف الجهلاء و يستهوى العقلاء . وعاشت الدنيا تشهد حروبا بين القويين يتباريان فيهـا ويتكاثران ويتقاتلان بأتباعهما : فالأتباع إذن هم طعمة شجارهما . وكلما نشأ قوىّ جديد من هذا أو ذاك حاربه السابقون لئلا يأخذ منهم الأتباع والانصار وموارد الرزق والمنعة والنعيم ، واستعدوا عليه الناس بكل وسيلة . ولذلك كان فى الدنيا يومئذ حروب بين كسرى وهرقل كلاهما قوى بسيفه يريد أن يكون له متاع الدنيا. وكان بين بطريق الغرب فى الروم و بين بطارقة الشرق فى الشام ومصر وأرمينيه — قتال بين قويين أيضا يريد كل فريق أن يقضى على الفريق الآخر لتكون له المنعة والحياة الطيبة . وانما يكرهها لغيره لانه معه فى حقل واحد وهو يخشى أن يتقوّى خصمه ذات يوم فيحرمه ماهو فيه . ولذلك لم يكن أحد الفريقين ليقبل رأيا سديدا ،

ولا ينزل على حكم منطق ، حتى يوم جمع بينهم الامبراطور فى خلقيدونيه (١) وكسرى أبرويز فى القدس بعدئذ (٢) ، وقال كل عاهل : اختصموا أمامى ، وتناقشوا وتحاجوا . فلما فعلوا واستبان الرأى لم يقبله من كان على ضده ، وانصرفوا أشد عداوة مما كانوا يوم اجتمعوا .

ومن طعمة هذه الحروب ؟ من الذى دارت عليه رحاها الفارية ؟ هم الناس . الأتباع المساكين . كانوا نهبا وطحنا لكل قوى ، وهم لا يدركون ولا يشعرون ، ولا ناهبوهم أو طاحنوهم يدركون أو يشعرون ، لأن الأمر موروث من ألوف السنين ، موقَّر فى النفوس قبل أن تخلق لها أبدان . حتى إذا أشعر الناس بالحقيقة هبّوا على القويين فأدالوهما وكان العرب بما أشعرهم دين الاسلام صاحب الراية . لانه قضى على الملك بجعل الخلافة انتخابا وقضى على الكاهن لانه لم يجعل فى الاسلام اكليروس ولا بطريقا

كان الأسقف أحد هؤلاء الذين لا يدركون ما يفعلون ولا يشعرون ، بل يرون أنهم مصادر الخير الدائم بكلمات بركة يرسلونها ، وصلوات يتلونها . فعلاقة الحارث به كانت لأنه سيد منيع ، ولأنه رجل طيب الخلق يصلى ويصوم ، بعيدا عن رغبة الأذى وابتزاز الناس ، لأنه فى غير حاجة إلى ذلك ، فليس هناك مايوقظ طبيعة الشرّقية . فان تيقظت بكل شرورها فعلى غير نجران واخوانها من المسيحيين ، أى على الروم لانهم مسيحيون من نوع يخشى على منزلته منه . ولذلك كان يتمنى أن ينتصر المجوس عليهم ، ويفرحه خبر اندحار الروم فى الشام . ولكن كانت هناك علة أخرى لهذه

---

(١) سنة ٤٥٠ م على خليج القسطنطينية (٢) سنة ٦١٨م

العلاقة . ذلك أن الحارث كان ممن عاشوا فى الاسكندرية زمانا طويلا واتصل بأهلها وتزوّج منهم وخلف ، وسافر إلى فارس والعراق والشام واليمن، واتصل برجالها اتصالا وثيقا ، فهو لهذا أعرف بأخبار الدنيا من كل من يدعى العرفان . وكان الأسقف على عربيته راهبا من رهبان مصر اليعقوبية ، قبل أن يرسم أسقفا فى نجران . فالحارث لهذا يستطيع أن يتحادث مع الاسقف عن مصر وأهلها ، وعن شئون الكنيستين : اليعقوبية والرومية ، وتنافرهما ، ويتذاكر معه فيما أصابها وما يمكن أن يصيبها من الويل والثبور على يد الفرس ، إذ كانوا قد غلبوا الروم على أرمينية والشام وأجلوهم عن مواطن المسيحية الأصلية ، ويوشكون أن يملكوا بيت المقدس ويستولوا على الصليب المقدس ثم ينهبوا من بعده إلى مصر . وكانت هناك علاقة أخرى : علاقة المريض بالطبيب ، فالأسقف كان شيخا لا يفارق صومعته المظلمة إلا إلى الكنيسة ، ولا يخرج لزيارة أحد إلا بنى عبد المدان وذلك مرة فى العام ليمنحهم البركة ثم يعود إلى فراشه فى صومعته . ومن ثم كان محتاجا إلى من يصحح له جسمه ودمه بالعقاقير مادام أنه لا يسعى فى مناكب الأرض ويأكل رزقه بالحق ، ويعطى جسمه ورئتيه ما تحتاجان اليه من عمل وحركة يبعدان عنه السأم والمرض .

نزل الحارث عند الأسقف بأهله عند ما ورد إلى نجران ، فتلقاهم بالترحاب والمسرة ، وأنزلهم ناحية من بيته الواسع المهجور . وأقسم عليه لا يفارقه ما دام فى نجران ، وأخذ عليه مواثيق بذلك . ولكى يزيد فى

طمأنينة الحارث وراحته أمر أن يزال التراب الذى تراكم على الباب الخلفى الخارجى الذى يخرج منه إلى ذروة الجبل وطريق منعطف الى المدينة بغير حاجة الى المرور بساحة الكنيسة . وأمر كذلك بتجديد كثير من فراش الدار بما وصل اليه من القباطى الكتانية من مصر وما أهدى الى الكنيسة من الأدم النجرانية والثياب اليمنية ، والعروض الحبشية . فشكر الحارث فضل الأسقف شكرا جزيلا ، وقبل ذلك قبولا حسنا ، وشكرته هرميون على هذا البر شكرا قلبيا ، لأنه إنما بالغ فى هذه المكارم رعياً لها ، إذ هى بنت العلم والعز . وصار الحارث كل يوم يجتمع هو وولده بالاسقف ومن معه من القساوسة ويتذاكرون فى أحداث الشام ما ينتظر منها وما لا ينتظر . حتى اذا فرغ ما كان عندهم من المشوّقات إلى التلاقى ، تراخت بينهم الزيارات ، ودب السأم فى فؤاد النضر والحارث كذلك وأخذا يحنان الى الرحيل الى صنعاء ، حيث الدنيا أملأ بالحياة ، وأدعى إلى مرور الزمن فى رخاء ، وحيث يجدان فى جوار أحبار اليهود متعة للنفس واستزادة من العلم ، وحركة وحياة . وكان ورقة يميل الى ذلك ولكنه لم يبده ، وان كان قد شغل فراغ أيامه بالاتصال فى نجران برجل من يهود صنعاء كان يتجر فى العقاقير ودعوى التطبيب . ذلك لان ورقة وجد أن سوق العقاقير هى صنعاء فلا بد له من ارتيادها والوقوف على تجارتها ما دام قد اعتزم أن يفتح متجرا فى مكة لبيعها نزولا على إرادة مولاته أم المؤمنين

على أن تغيّبه هذا كان يؤلم لمياء كثيرا ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تبديه إلا فى شىء من الازورار عنه إذا رأته . فلما كثر، خشى أن يكون قد أساء اليها من حيث لا يدرى ، فسألها عن سببه ، فلم تبده له أول الامر ، ثم فاجأته ذات يوم بقولها : عجيب منك يا ورقة أن تترك أبى وتمضى الى الاسواق تقضى بها طول يومك . قال : إنى لا أتركه إلا بعد الفراغ من العمل معه فى كتابه ، بله انه هو الذى سمح لى بذلك. قالت : ولكنّ أمى فى حاجة اليك دائما . فصمت الفتى اذ أدرك حقيقة قصدها ، ولكنه على عهده لنفسه لم يشأ أن يسايرها حتى تبين . فقال : ما حسبت أننى أسىء اليها بما أفعل . بأبى هى وأمى يا لمياء : وددت لو ابتلعتنى الأرض ولا أسىء اليها . ولكنى رأيت هذا أدنى الى بقائى معكم وأكرم. قالت: لا أفهم ما تعنى . قال : ان أخاك النضر لا يحبّنى ، ولا يرى لى ولا لكم أن أجتمع بكم . قالت : وما شأن النضر ؟ قال : شأن الولد الكبير فى بيت أبيه ، ولقد سمعته غير مرة يكلم أباك فى شأنى ويغريه بى . وأنا وحقك يا لمياء ما أحب نور الصبح ولا خطرة النسيم كحبى اياك أنت وأمك ، عرفانا بالجميل وحمدا لله عليكم .

كان ورقة يقول هذا وهرميون داخلة عليهما . فقالت: ما هذا يا ورقة أأنت تصلى لربّك ؟ قال : انى لأدعوه أن يطيل فى حياتك يا سيّدتى أنت ومولاى الحارث ولمياء . قالت لمياء : انه يشكو أخى النضر . قالت: هل من جديد ؟ قال : أنا ما شكوته يا سيّدتى بل ذكرت بعض أمره فى

سياق عذرى . قالت : كيف ؟ قال : مولاتى لمياء أخذت علىَّ تقصيرى فى خدمتكم وقضائى وقت الفراغ عند الصيدلانى . قالت هرميون : خدمتنا ! هل أنت خادم لنا ؟ أنت ضيف يا بنىّ ، ضيف مكرّم وعزيز . لست فى حاجة الينا، بل الحاجة منا اليك . ولعل هذه الحاجة أشعرت لمياء بغيابك . أنت ولدنا وأخو لمياء . نعم ان النضر قد أغرق هذه الايام فيما يعيبه علىّ ولكنه ظالم . وقد ذكرت للحارث ما كان منه فلم يعتد به ، وأثنى عليك ودعا لك . فلا تأبه لما تسمع . قال : فديتكم ياسيدتى من كل سوء ، ولكنى أرجو ألا تأخذوا علىّ ماترون من تغيّبى ، فانى وحق الله اشد منكم ألما لهذا الابتعاد . قالت : أعرف ذلك ياورقة وربىّ فكن على هواك وان كنا نتمنّى أن تكون معنا هنا كما كنت فى هدى . فنظر ورقة إلى لمياء مستفسرا فوجدها غاضبة كأنها تقول : حتى بعدما جاءتك دعوتى ألا تفارقنى تعود إلى ازورارك وتعلننا به ؟ فأجابها وهو يردّ على كلام هرميون : الشكر لك ياسيدتى على برك ، ولكنى سأعمل على أن أكون بين يديكم ما استطعت .

وفيما هم فى هذا دخل الحارث فحيّا وجلس واستفسر من ورقة عما وجد فى نجران من الاعاجيب . فانصرف ورقة يجيب استاذه بما عرف انه يحبه من الحديث ، والحارث منصت إلى حسن وصفه ودقة نظره . على أن هرميون ضحكت إذ ذاك وقالت : لعل أعجب عجيبة فيها أن هرميون الرومية بنت الاسكندرية ومصر والبحر الخضم والهواء العليل وماء النيل

تعيش الآن فى ذرى جبل من جبال نجران فى صحراء العرب ! فقهقه الحارث لهـذه الملاحظة وقال : هكذا الدنيـا ياهرميون بنت الشرق للغرب ، و بنت الغرب للشرق ، وأكرم بالزواج حاديا ، ومع ذلك فانا راحلون فى القريب العاجل إلى بلاد المتعة والرفاهية : بلاد صعدة وصنعاء

فما سمعت هرميون هذا الـكلام حتى صاحت : صنعاء ! قال : نعم ، صنعاء . ماذا بها ؟ . قالت وقد فار غضبهـا : بعداً لصنعاء وكل صنعاء ! ما هذا ؟ أنحن ممثلون من يتنقلون فى الدنيا من بلد إلى بلد فى طلب الرزق بألاعيبهم ؟ ماهذه الحياة التى تحياها هرميون الشقية ! وما عيب نجران يالهى حتى نغادرها ولما يمض شهران ! رضينا بالعزلة فى هدى ، و بالعزلة فى نجران وكان لنـا فى كل منهما نعمة تنسينا حرور مكة وشرورها ، وأنت تريد أن تحملنى مرة أخرى على ركوب الجمال والبغال ، وقطع القفار إلى صنعاء وغير صنعاء ! ماذا لك فى صنعاء! أم أن هذا من إيعاز ولدك النضر ! لـكى لايقرّنى على حال أرتضيه . دعه يذهب حيث يشاء ، أما أنت فلا حاجة بك إلى السفر ان ثروتك لاتفنى.. و إن شئت أن تسافر معه فارحل وكن على هواك . تزوج هناك ماشئت وعش هناك ماشئت ، فوحق مريم ما أكره منك هـذا . لقد بلغت حد اليأس فكرهت الدنيا ، وكرهت نفسى ، وكرهت أبى الذى لم يقدر أنك ناقلى ذات يوم إلى صحراء مقفرة. وكرهتك أيضاً . وهذه ابنتك خذها وأبعد عنى . رضيت بعيشة الضبّ فى هذه القفار بين أقوام غلف القلوب سفهاء الاحلام ، لايعرفون من الدنيا

إلا الثريد والعصيد ، حتى إذا وقفت إلى شيء من راحة العيش على شظفه ونضو به وقلة شأنه تريد أن تخرجني منه . أأنت موكّل بشقائي؟ لا ! لن أسافر من هذا البلد وحق ابن الله الواحد إلا إلى الاسكندرية ولو على قدمي ! ولو تخطفني الفرس واللصوص أنا وابنتي

سكت الجميع لدى ثورة الغضب من هرميون وأطرقوا يفكرون .وكان ورقه قد انسل من هذا المجمع الخاص ، لا يشعر به أحد . وإذا بالنضر قد دخل على عادته ينظر إلى هرميون ولمياء نظرة خالية من كل مودة أو رعاية فتأملته العيون لحظة ثم اغمضت على الفور كما كانت . ولما رأى ماهم فيه أدرك أن أباه أعلن زوجته بعزمه على النقلة إلى صنعاء ، وأنها رفضت ، وأنه لا يدرى ماذا يفعل إزاء رفضها . فأراد أن يتكلم ، ولكنه وجد الباب مغلقا فسكت هو أيضا حتى يستبين وقت الكلام . والواقع أن هرميون لم تعارض في النقلة إلى صنعاء حباً في نجران ، بل لأنها وجدت فيها أخوة في الدين تستأنس بهم و إن كانوا على غير مذهب أهلها في المسيحية ، وصحبة من نساء كريمات في بيت بني عبد المدان أصحاب نجران وسادتها كن يزرنها وتزورهن وتجد بينهن حبا ومودة و إكراما . فأحبتهن وتعلقت بهن ، ووجدت لابنتها لمياء صحبة في بناتهن . نعم كانت تعلم من صاحباتها وزوجها أن صنعاء مدينة عظيمه ذات مياه و بساتين ، وقصور وميادين ، ولكنها كانت تعلم أنها بلدة يهودية ، وهي أشد كرها لليهود منها لأولئك السفهاء المساكين الذين رأتهم عاكفين على العزى واللات يتعبدون ،

وحول مئات من الأنصاب والأصنام فى مكة يطوفون وينحرون ثم ينصرفون أشد سفها مما جاءوا . على أن هرميون قطعت هذا السكوت فقالت : اذهب إلى صنعاء كما تشاء ، وغب فيها ماتشاء ودعنى هنا فى انتظارك أنا وابنتى . قال الحارث : كيف تعيشان وحدكما ؟ قالت : ماذا يصيبنا ؟ نحن فى حمى الأسقف وفى بركته . قال : ماقيمة هذا الحمى وهذه البركه وليس معكما رجل ! فسارع النضر يقول : لعلها تزعم أنك تارك لها ورقة !

قالت : ما زعمت شيئا من هذا يا غلام ، وخير لك ولكرامتك أن تحفظ لسانك، وإلا لطمتك على وجهك بنعلى هذا ! وأما وحق الله ما يزيد كراهتى لصحبة أبيك إلا أنه يصحب فدما قليل الحياء مثلك . قال النضر : أنت امرأة وقحة، لا أدرى كيف يعاشرك أبى . وخير لأبى أن يخلص إلينا منك وتذهبى أنى شئت . قال الحارث : أقصر يا نضر مالك ولهذا . قال ولم يأبه لكلام أبيه : إنا راحلون فى الغد إلى صنعاء رضيت أو لم ترضى ، وآخذون ابنتنا معنا ، فافعلى ما تريدين . قالت لمياء : لا أدرى علام كل هذا اللجاج . إذا كان أبى فى حاجة إلى السفر الى صنعاء فليفعل . إنا سننتظره هنا. ليست هذه أول مرة فارقنا فيها ، ولن أكون معك على أمى إلا أن أكون عاقة . قال النضر : إنك لحمقاء يا فتيّة ، اسكتى . قالت : إنما الأحمق من يقول حمقا ولو كان ذا لحية ! تريد لأمى أن تبقى هنا

وحيدة ، وأنا معك فى صنعاء ولا ترى هذا سفها ! حسبك هذا . أنا لا أرحل إلا مع أمى .

لم يدر الحارث ماذا يفعل إزاء هذه الثورة ، ولا ماذا يقول فى هذا الموقف فنهض من مجلسه صامتا ، وخرج يتبعه ولده ، وفى نيته الرحيل على كل حال عن نجران

الفصل الثانى والعشرون

وداع الأحباب

ضاقت الدنيا فى وجه هرميون ، فلم تدر ماذا تفعل إزاء ما بدا من رغبة الحارث فى الرحيل إلى صنعاء ، وما جرى بينها و بين النضر من المشادة والتنابذ بالالفاظ وأحست كأنما حدثا عظيما يوشك أن يقع ، لأنها كانت تعلم ما للنضر على والده من السلطان ، وتعلم من ناحية أخرى أن الحارث لا بد راحل إلى صنعاء ، وأن أهون ما يفعل إزاء ذلك هو تركها هى وابنتها فى نجران حتى يعود ، ولا تدرى متى يعود ، وأنه سيأخذ ورقة معه ، بل إنها لا تستطيع أن تستبقيه بجوارها ، لأنه إنما يسير معهم لأن الحارث معهم ، وهو رفيق الحارث وتلميذه ، يرافقه رغبة فى التعلم على يديه نزولا على إرادة الخير من سيده ابن نوفل المتوفى ، وطوعا لأمر مولاته خديجة سيدة قريش . وأحست كأنما النضر سيوغر صدر أبيه من جديد عليها ، وربما حمله على أخذ ابنتها منها إذا هى أصرت على مخالفته فيما يريده من التنقل بهـا من بلد إلى بلد . وأحست كأنما أخطأت إذ تمسكت بالمقام بنجران حتى أقسمت ألا تفارقها إلا إلى الاسكندرية . ثم ذكرت الاسكندرية وما فيها من شرور ومخاطر ، وذكرت وادى النيل فى مصر وما يملؤه اليوم من عصابات اللصوص ، وما يحمل الناس فى قلوبهم لكل

رومى الأصل من الضغن والحقد . ذكرت ذلك وغيره مما لا بد أن يذكره الباحث فى أمر نفسه وما يحيط بها من احتمالات الشر ، فنبا بها مجلسها ، وأقضها مضجعها . فرأت نفسها تهرول إلى صومعة الأسقف وتدخل عليه بغير استئذان ، ثم تنفجر أمامه باكية مما هى فيه

ذعر الأسقف لهذا وأخذ يسائلها عن سبب بكائها ، حتى استطاعت أن تجيب فشكت له بثها . وألحت باللوم فى ذلك على النضر بن الحارث ، وعزت اليه كل ما هى فيه من الشر . وكادت وهى تذكر قصة وجدها أن تدع شكواها وتذهب من فورها لتنفيذ فكرة شريرة خطرت لها بين الدموع والشجن ، وهى أن تستعدى عليه ورقة ، وتغريه بقتله جزاء ما يقتلها بما يفعل . ولكنها استفاقت ووجدت الأسقف يعزيها ويعدها خيرا ويطمئنها ، وهى لا تزداد إلا نحيبا بين يديه ، إذ ذكرت ما كانت فيه من العز والطمأنينة فى بيت أبيها فى الاسكندرية ، حتى قضى سوء الطالع فتزوجت من الحارث

كان الحارث قد دخل فى هذه الاثناء وسمع بعض شكايتها ، ولا سيما عتبها على القدر ، فأحزنه منها هذا القول ، وقال : ما أردت لك إلا المتعة بالنقلة إلى بلدة فيها من الحضارة ما ليس فى سواها ، وأنا طبيب لا بد لى أن أرتزق ولو كنت غنيا . وأنا فار بولدى من مكان كان يحيط فيه الأذى به وبغيره منه . وقد سئم المقام هنا . فإذا أنا لم أسارع إلى تشريد

السأم عنه حن إلى العود إلى صحبه فما أكون فعلت شيئا . وأنا ما أردت شراً لك . أما وقد رفضت وزدت الرفض تعقيدا فما لى إلا أن أتركك فى حمى الاسقف . ولكنى لا أدرى متى أعود . وسأترك لك ابنتك فما بينى وبينك خلاف حتى اليوم يقضى بالانفصال . ولكن اعلمى أنى قد حزنت لما سمعت منك من كرهى ، ولما أبديت من أسفك على أن زوّجك أبوك منى . لن أكون بعد اليوم مضاعفا حزنك . وها هى ذى نفقتك أنت وابنتك لعام كامل . فاذا عدت اليك فى غضونه فبها و إلا فسأرسل اليك نفقة عام آخر . فاما قضيته هنا أو سافرت بها إلى أهلك ولن تجدى هناك الا اليسر بما ملكتك من ثروتى وعقارى فى رقوده وأنت إذ ذاك حرة طليقة . أستودعك الله يا صديقى الأسقف ، وأوصيك بها خيرا أنت البر كله والتقوى كلها .

قال الأسقف : ما أنت يا حارث من ينظر إلى ظاهر الأمر ويحكم على باطنه . فهذه زوجة غريبة عن هذه الديار ، سئمت كثرة الأسفار ، وهى قطع من العذاب ، فاذا هى كرهت أن تهم بسفرة أخرى فلها لديك من إبائها عذر . إن تقبله كله وعفوت فأنت عادل . وان قبلت بعضه وعفوت فأنت بار رحيم ولكنها فى الحالين غير ظالمة. هى زوجة آثرتك على نعمة الحياة فى الاسكندرية ، وسارت معك تشم ريح السعادة فى جوارك . فاذا وجدت اليوم هذه الريح قد اختلطت بما يفسدها وكنت أنت الخالط فقد حملتها بملكك على اتلاف سعادتها وتنفيرها منك. وأنت على هذا ان

عاتبتها أولمتها أو هاجرت عنها لا تكون على معدلة معها ولا منصفة . قد يكون لك العذر فيما كان . ولكنها لا تكون هى الظالمة . وللزوجة على زوجها حقوق أخرى توجبها المودة وحسن الأمل والوفاء . حقوق تجعل شديدها هيّنا وهينها دلالا وثقة بمحبة الزوج ومكانتها لديه . وأنت يا حارث تريد أن تسقط هذا كله . ولعمرى لهو من غيرك ظلم ومنك منكر . أنت الحكيم العليم ، التقى البار ، والبصير الذى لا يجعل كل لفظ ينطلق به اللسان فى الغضب حجة على صاحبه . فالغضب يا حارث شيطان يركب الانسان ليتكلم بلسانه لا بجنانه . ليوقظ فى السامع شيطانا يسمع بآذانه لا وجدانه . ومن ثم يحكم شيطانان عن إنسانين ويقضيان بينهما وهما لا يدريان

إنى لأعرف وجه عذرك ، وأدعو لك بالطمأنينة ، ولكنى لن أضع يدى فى يدك حتى تعفو وتصلح وتسترضى هذه السيدة الوفية ، وتبارك لبنتك قبل رحيلك

كانت هرميون ولمياء تبكيان أثناء حديث الأسقف ، وكان الحارث مطرقا . فلما سكت الأسقف عن الكلام قال : والله ما أردت سوءا ولا بيّت شرا ، ولكن الزوج إذا وجد نفسه فى غير منزلة الكرامه نبت به الكرامة إلى مكان تستطيبه . والنفس كالنجم تنزل فى أحوال رضاها وغضبها منازل وبروجا تتغير فيها آثارها وأعمالها . ولقد حملنى شر ولدى وخشيتى عليه أن أكون اليوم على غير عادتى من تمام البر والرعاية لزوجتى ابنة

صديق وأخي قوزمان . بيد أني كنت أرجو أن تتئد وتصبر ، وتساعدني على ما أنا فيه ، ولكنها نفرت على الفور ، ونفرّتني قبل أن أستمسك ، وأخذت كلامنا عزّته في غير وعي ، إذ كان شيطان كل منا يتكلم بلساننا كما قلت ويسمع بآذاننا . فأنا الآن أعفو وأعتذر معا ، وأمنح زوجتي وابنتي البركة والرضا وأدعو الله لهما بالسلامة والتوفيق حتى ألقاهما في القريب ؛ وأرجو أن تتبينا وجه عذري في متابعة ولدي ، فإنه إن عاد إلى مكة حمله صحبه على ما خيّب الله سعيه فيه ليلة الحجون التي ذكرت لك . وربما مكنه الشيطان من قتل أبر خلق الله محمد بن عبد الله ، نقطة العطر المشتارة من ربيع بني هاشم ، بل ربيع بني عدنان وابرهيم . وإذا لم يرضني من أمره إلا أن أقتله بيدي وأنا أبوه وهو وحيدي ، فماذا يرضي بني عبد المطلب منا أجمعين!

نهضت هرميون ولمياء إلى الحارث تقبلانه وتبكيان وتعتذران إليه ، ثم تعرضان عليه أن تذهبا معه ، على أن يغفر لهما الأسقف الحنث باليمين. ولكن الحارث أبى قائلا: إن العزم صح على سفره بولده وتلميذه حتى حين . وهو يرجو ألا يغيب عنهما طويلا . ورأى الأسقف وجاهة الرأى فأقره ، وشكر لهرميون ولاءها ، وللحارث عفوه ، ودعا لهما بالرضا ، وعلى هذا ودعهم الحارث ومضى يسقط من جفنيه دمعة

ذهبت هرميون إلى غرفتها ، وألقت نفسها على الفراش خائرة القوى تنحدر دموعها . وذهبت لمياء في وجدها إلى إحدى الكوى المطلة على رحبة

الدار تراقب العير ، وتتزود لقلبها بنظرة إلى من تحب وهو يغيب عنها ، وقد استبان لها خطؤها فى أنها لم تهوّن على والدتها النقلة حتى لا تحرم جوار ورقة ؛ ورأت قلبها يندك تحت ذلك ويهلع ، وهى تعنف نفسها على تسرّعها . وكانت ترجو أن يلتفت ورقة صوب الكوة التى تطل منها لتحادثه حديث الوجد بنظراتها ، ولكنها لم تجده التفت ، بل استمر يربط الحمول ويستعد للرحيل ، كأنما ليس فى الدار قلب يتمنى أن يتسع ويلتقطه من رحبه الدار فى غفلة الناس ويخبئه بين ألفافه . وفيما هى على هذا الحال رأت ورقة مال إلى أستاذه الحارث يستأذنه فى توديع السيدتين ، فأشار له الحارث نحو الدار آذنا . ولكن النضر التفت واعترض على هذا قائلا : لاحاجة إلى التوديع ! إن الوقت قصير . قال الحارث : دع الفتى يودّع سيدته . من الاجرام أن تمنع أحدا أداء واجبه . قال النضر : أى واجب هذا ؟ فلم يأبه ورقة لكلامه ، وجرى نحو الدار والنضر يناديه من ورائه بصوت المنذر الناهى . ولكنه كان قد صعد . فلما رأى هرمبون طريحة الفراش جثا على ركبتيه وتناول يديها يقبلهما ويبكى وهو يقول : برغمى ياسيدتى أن أفارقك ، ولكن هذه مشيئة الله . ادعى الله ياسيدتى أن يجعل هذا الفراق إلى لقاء قريب . كان يقول هذا والنضر يناديه ويستعجله ، ويقطع عليه الوداع بكلماته وهو مستمر فى توديعه . ولكنه نهض يقول : أنا عند حسن ظنك بى ياسيدتى ، ولدك وصديقك وأخو لمياء . فاخذت لمياء تبكى بكاء مرا لم يسع ورقة وقد انفطر له قلبه إلا أن يتناول

رأسها و يقبل شعرها . فشهقت لمياء عند ذلك شهقة أذعرت أمها فأنهضتها من فراشها ، و إذا هى ترى ابنتها متعلقة برقبة ورقة تقول له : لاتفارقنا. كل ذلك والنضر ينادى . فاستودعهما الله ونزل يمسح دموعه . ولـكن النضر تلقاه بالشتائم المقذعة بين سمع الناس أجمعين ، والحارث لا يملك أن يصون تلميذه لئلا يتخذ ولده هذا عذرا له فى العود إلى مكة . ولـكنه قال له : حسبك يانضر. إن هذا الفتى بار بسيدتيه . قال له النضر: إنهما لا تريانه خادما ، بل كفؤا وضريبا وسترى عاقبة مكارمك . قال الحارث : ولا أنا. إنه ولدى وتلميذى وصاحب الـكرامة عندى. فشكر له ورقة بره بنظرة ملئت عرفانا بالجميل ، وسار مثقل القلب إلى الحول كظيما يفـكر فى نهاية استفزاز النضر إياه ، و إهانته التى لاتنقطع . لم يكن له من سبيل إلا أن يكظم و إلا أن يتقبل الأذى إذا أراد أن يكون مع الحارث ولم يكن له إلا أن يسكت لان الحارث نفسه يسكت ، ولم يكن له إلا أن يشرّد أسباب نفور النضر من أبيه ، مادام أبوه يتوخى قصدا من ذلك : هو ابعاد هذا الفتى الشرير عن أذى رسول الله . ولـكن لماذا يحتمل هو والحـارث وهرميون ولمياء كل هذا الاذى ؟ . لماذا لايريح رسول الله من عدو مبين لايرجى له هداية ؟ وفى استطاعته أن يضربه بسيفه ضربة غير ظالمة تقطع لسانه ، وترد أوصال السعادة التي قطعها بيديه كما كانت . الجواب لأنه ابن أستاذه الحارث البارّ به الذى طالما نظر اليه نظرات الاستشفاع أن يعف و يعفو من أجله و يعرض عن جهله من أجله . أجل سيبقى على هذا

الخلق من أجل أستاذه فلن يعفو عنه أستاذه اذا هو قتله أو أهانه ردا لاعتداء أو دفاعا عن النفس ، أو احتفاظا بكرامة . الوالد والد ومحال أن يعذر من يؤذى ابنه ولو كان الابن ظالما مفتريا . نعم يرى ولده أوغرصدر من آذاه، ولكنه لا يعذره فى أذيته . وهو لا يطيق ان يجعل لنفسه فى فؤاد الحارث شبحا مظلما يلعنه لسانه كلما تمخض به قلبه . إذن فليستمر على خطة الاعراض عن سفاهة النضر وأذاه و يعمل على تألفه فى كرامة عسى أن ينقلب ودودا ، أو يبصرة الله بما يجب

الفصل الثالث والعشرون

يمين النضر

بلغوا صنعاء ونزلوا وقضوا فيها ثلاثة أشهر كانوا يجتمعون فيها كل يوم بولاتها وأحبارها وعلمائها ، ويستمتعون بخيراتها . ولـكن ورقة لم يبتسم فى كل تلك الايام مرة واحدة ، لأنه كان حزينا لفراق لمياء . وكان يقضى أوقات فراغه يفكر فيها. ثم يغلبه الحنين واليأس فيسقط دمعتين كبيرتين يهدأ على أثرهما قلبه فينام مفكرا فيها ، وهو فى تلك الاثناء يؤدى فرض العتاب الذى أوجبه عقله على نفسه فيقول : أيتها النفس المغرية فى أكثر أمورك بما لايجمل . لماذا تضعفين منى وتؤملينني ما لايؤمل ؟ وما لايصح لى أن أرجوه ؟ لاتخادعيني ! لست كفؤا للمياء . ما أمى كهرميون ، ولا أبى كالحارث . وإن من الـكنود والجحود أن أرفع نفسى إلى حيث أبيح لها أن أؤمل لمياء عروسا لى وسكنا . هى فرحة أمها وفخر ابيها ، ولن يرضيا لى بها . إنهما لم يذكرا لى شيئا من هذا حتى فيما كان ينهمر به قلبهما من عواطف البرّ لى . نعم إنهما ينعتانى بالبنوة ويربيانى كذلك ، ولـكنهما ينضحان عن طبيعة الخير ، لا الجهل ونسيان ما فى ذلك من الاذى لنفسهما . وإن من الخسران أن يجهل الانسان قدر نفسه ، أو يغالط قلبه فيحكم بأسباب شىء لشىء آخر . ولايزال على هذا حتى يعلو الصبح ،

فيذهب إلى الماء ليتوضأ و يصلى صلاة الضحى ، و يدعو الله أن يلهمه الصبر فيلهمه على الأثر ، و يذهب الى أستاذه ليكون فى خدمته وصحبته . حتى إذا خلا الى نفسه عاد الى مثل ما كان فيه لا يفارقه حتى يتوضأ للعصر و يصلى و يدعو و يصرف الله عنه همه ، و يعود إلى استاذه وصحبته ، و يرافقه فى زياراته وسهراته وارتياداته الاسواق

وكان كلما مر فى السوق ورأى شيئا مما يحسن أن يهدى إلى النساء — لفت إليه نظر الحارث فى خفية عن ولده ليشتريه و يرسله إلى هرميون أوليلياء هدية منه ، أو يحفظه لديه حتى يعود فيكون هدية القادم . وقصده من ذلك أن يرد إلى قلب الحارث ما يكون النضر قد سلبه من العطف على امرأته وابنته ، لانه كان كثير الذم لهما والانكار لما يسميه عقوقهما . وكان الحارث يبتسم لورقة كأنه يقول له : إنى أدرك قصدك النبيل يابنى ، و يأمره على الفور أن يشتريه له و يتصرف فيه إما بأن يرسله على الفور ، أو يبقيه لديه حتى يعود فيكون كما أراد . . . و إنما كان يكلف ورقة شراءه عنه لكيلا يلفت إليه نظر ولده ، فيتدخل فى شأنه ، أو يجعله سببا لشجار جديد . بيد ان ورقة كان إذا اشتراه اعد كتابا رقيقا الى هرميون بالرومية يمضيه الحارث و يرسله مع الهدية مع برد الأحبار الذاهبين الى بلاد القدس او العراق مارة بنجران . فقد كانت هذه البرد تسير بغير انقطاع فيما بين مدائن كسرى واتباعه من حكام اليمن .

هكذا ساروا فى صنعاء . وكانت اسعد اوقات الحارث وورقة وقت

خلوهما لنفسيهما فى غيبة النضر ، ولم يكن الحارث ليخفى هـذا ، ولـكن ورقة كان على عادته مؤدبا كريما ، فلا يذكر النضر لابخير ولا شر ، وانما كان يدعو الله له بالهدى

وكان ورقه معروفا فى صنعاء وجيرتها وفى كل مكان بأنه غلام الحارث أو ولد الحارث ، لانه كان منه بمنزلة مبهمة لاتدل عليه صراحة . تارة يرونه قائما فى خدمته قيام العبد لسيده بحاجته ، وأخرى يرونه جالسا معه يذاكره ويحادثه ويباسطه مجالسة الند للند والولد لأبيه ، وهو على الحالين فى عزة ووقار وتوقير

كان بعضهم يراه غلاما للحارث فيناديه بذلك ،أو يعرّفه إلى الناس به وهو لا يتأذى ولا يعترض ، بل يشعر فى قرارة نفسه بشيء من الرضا إذ يجيء هذا التعريف أو ذاك النداء دليلا على أنه لم يقصر فى خدمة أستاذه وأنه لم تبطره منزلته فتجعله فى غير مظهر الغلام من مولاه . ومنهم من لم يره معه إلا فى مجالس الاعيـان يتذاكرون ، فاذا ناداه ناداه بابن الحارث ، فيتقبّـل التسمية لـكيلا يشغل الناس بأمره، ثم يعتذر الى الحارث من صنعه فيثنى عليه أدبه مع الجلساء بل كان الحارث نفسه يدعوه أمام الناس يابنىّ وكأنه يفخر أن يكون مثله ولدا له لانه كان يسمع الثناء عاطرا عليه من جميع الأفواه . على أن ورقة كثيرا ما كان يصحح للناس خطأهم إذا وجد فى السكوت أذى لـكرامة أستاذه أو منزلته . فيقول لهم : انه ليس الا تلميذا من اتباع الحارث . وانه يدعى ورقة بن صليح فيعرف الامر من

يسمعه ، ومنهم نعيم الصيد لأبى الذى كان الحارث قد جمعه به وعرّفه إليه وأوصاه أن يلزمه فى أوقات فراغه ليعرف منه تجارة العقاقير . ومع ذلك فقد كانت تغلب التسمية عليه ، و يعود من عرف حقيقته إلى ندائه بالنسبة إلى الحارث ، حتى إذا يئس منهم و بدا ذلك عليه قال له الحارث : أقصر عن دأبك وتقبّل كل تسمية ، فصار يتقبلها إلا فى كبار المواقف

ولكن حدث أن اجتمع الحارث وولده وورقة فى مجلس كان فيه ورقة محل الاكرام الأبين من النـاس ، وكانوا ينادونه فى الحديث بابن الحارث ، و يخصونه بالرعاية . فحسده النضر على منزلته ، وتملكه الغيظ فى المجلس ولكنه لم يجرؤ أن يفصح عنـه ، فما إن بلغوا دارهم حتى أنفجر النضر فى ورقة سابا وشاتما ، وعدّ عليه جريمة ، وأذى متعمداً أن يتقبل تسميتهم إياه بابن الحارث .وكلما هم الحارث يبين لولده وجه عذر الفتى ، وأن الأمر أهون مما يجد له ، أوهمّ ورقة يعتذر و ينيب — زاد النضر فى سبه وأذاه وتعييره ، حتى بكى ورقة . فحزن الحارث لهذا حزناً شديداً ودعا على ولده وشتمه فثار مرجل شره ، وأقسم باللات والعزى لا يبقى ورقة مع أبيه بعد يومه وجرد السيف وأنذر ورقة بالقتل ان لم يخرج على الفور . فوقف الحارث دون الفتى ليحميه والتفت اليه يقول : اذهب ياورقة من فورك الى نعيم الصيد لأبى وخذ ثيابك معك . هكذا قدر الله لى أن أحرم الولد والحبيب

الفصل الرابع والعشرون

عند الصيدلاني الفيلسوف

كانت دكانة نعيم الصيدلاني في سوق كبيرة تدعى سوق أزال(١) وكانت تمتد على ضفة نهر صغير ينحدر من جبال في شمالي صنعاء ويخترق رقعتها ثم ينصرف في طريقه حتى يصب في البحر الهندي . وهذا النهر يحد سفح تل عظيم قديم العهد يسمى تل غمدان ، كان عليه قصر عظيم البنيان حتى عد من عجائب الدنيا ، بناه أزال بن قحطان جد العرب اليمانيين (٢) ثم جرت عليه أعاصير الزمان فتهدم ، وسارعت الطبيعة فدفنته كما تدفن الانسان ، وموّهت على الناس أمره بما أنبتت فوقه من أشجار ، وما أسكنته فيه من حيوان : وكأنه ما كان

وكانت الدكانة جزءا من دار نعيم أو بالاحرى من بستان داره ، مستقيما مع السوق ، إذ كان هذا البستان الصغير قطعة من طرف بستان القصر العظيم في سالف العصور ، ومن ثم كانت على شاطىء النهر .

كانت دار نعيم شبيهة بأكثر دور التجار والاعيان والسراة في صنعاء ، وما أكثر تجارها وسراتها ، بيتا من الحجر ذا دورين يحيط به

(١) اسم صنعاء قديما (٢) من كتاب نشر المحاسن اليمانية

بستان فيه من أنواع التمر اليمنى الاصيل والمجلوب ماتستطيع أرضه إعالته، وفيه بئر أو آبار ينشل منها الماء لسقى البستان فى أيام الجفاف وهى قليلة. إذ كانت البلدة كثيرة الأمطار لوقوعها فى أطراف المنطقة المطرة فى منتصف المسافة بين خط الاستواء ومدار السرطان[٢]، وكانت لعلوها شديدة البرودة فى الشتاء لطيفة مستحبة، معتدلة المناخ فى أكثر الصيف، فهى لهذا مقصد طالب العيش الرخىّ . وكانت أسواقها عامرة فى كل وقت بانواع ما يرد اليها من حاصلات اليمن من الغلات والمعادن، ومصنوعات الجلد والقطن والكتان والحرير والصوف والذهب والفضة والحديد والمعادن الاخرى، كما أنها كانت مصنعا للسيوف والرماح والادوات المنزلية، ومورداً لتجارة الهند وبلاد الحبشة والصين من البرد وسائر الثياب، ومن الافاوية والعقاقير، وسوقا لما يرسل اليها من عمان وبلاد البحرين والفرس وعدن وحضرموت وشحر من اللؤلؤ والمرجان والياقوت وعجيب الاحجار الكريمة ومن العنبر والمسك والكافور والعود وانواع التحف العجيبة

ومن ثم كانت اليمن وكانت صنعاء بلادا تعاورتها الملوك وتنافست فى فى امتلاكها الدهاقين . وكانت فى هذه الايام من ملحقات كسرى بن ساسان ملك الفرس وعليها وال من قبله يدعى باذان .

ذهب ورقة إلى نعيم يحمل متاعه القليل على ظهر جواده، وهو مكروب محزون، فلما وقف ببابه ورآه نعيم على هذه الحال، أدرك أن هناك شراً

(٢) على خط عرض ١٤ وكسور من خط الاستواء

أصاب الفتى ، فترك مكانه من الدكانة ونهض اليه نهوض الوالد إلى ولده .
فقد كان نعيم يحبه حبا عظيما و يبالغ فى إكرامه حين زيارته إيامع الحارث،
حتى لقد حدثته نفسه أن يعرض عليه ابنته الوحيدة لو أمكن أن يتهوّد،
ثم لايعيبه الناس على تزويجه ابنته من فتى من مكة الوثنية سيقال إنه إنما
تهوّد لرغبته فى زواج يهودية جميلة أو يهودية غنية بأبيها

ترجل و رقة وهو يحاول أن يخفى همه العاصب فى كلمات التحية والتسليم
ولكنها كانت تخرج خرساء مظلمة ليس فيها من نغم إقباله الجميل على
الناس ومشرق ابتسامته فى الحديث ما كان يحببه إلى كل عين وكل
أذن .

وكان نعيم رجلا علّمته السنون وحياة الأسواق شيئا كثيرا من أحوال
النفس وكان يقول لورقة وكل من يستأنس به — وقلما أزورّ عن أحد أو
استثقله — أنّه يعيش فى دنيا خاصة به ، دنيا خلقها لنفسه ليعيش فيها
كما يحب لا كما تشاء المقادير. دنيا يطلع لنفسه فيها شمسا خاصة به بالنهار، وقمرا
خاصا به بالليل ، يغنّيه فيها و يطربه بلابل لا تفارق بستان حياته لا صيفا
ولا شتاء . ولذلك كانت له فلسفة خاصة يعجب لها الناس و يستريبون
من أجلها حجاه . وهو يعرف ذلك منهم ولا يأبه له ، ولا يعتد به ، لأنه كان
من بعد هذا تاجرا ماهرا ، و رجلا هماما، وشخصا يستوجب لنفسه المحبة من
كل إنسان ، كريما إذا وجب الكرم ، حليما إذا وجب الحلم ولكنه
كان إذا غضب فالويل لمن يكون سببا فى إغضابه .

رأى ورقة على هذا الحال ، فعمل على صرف همه بشىء من أساليبه الخاصة ، فلم يمهله حتى يسائله ويجيبه ، ويرتب على الجواب جوابا ، بل ابتدره بحكاية وعرة الألفاظ مما كان يرويه الناس من الاحاديث المفتعلة عن لسان كواهن يسمين صاحبات مصاد بن مذعور ويحملون الناس وضعفاء العقول من المتأدبين على تصديقها وترتيب قضايا فى التاريخ عليها ، مع أنها تحمل تكذيبها فى منطوقها . وإنما رواها نعيم ، لا تهكما منها ، بل ليصرف بهاذهنه ويشغل باله عن الهم كما ذكرنا . فقال له : «ياصاحب الجواد النّياف والبرد الكعاف ، والجرم الخفاف . يامضلا إذواد الملاكد ، وكوما صلاخد ، منهن ثلاث مقاحد ، وأربع جدائد شسف صمارد » . فلما سمع ورقة هذا الكلام لم يفهمه ، ولم يدرك قصده منه ، ولكنه رأى نعيما يتكلم كلام جد ، فجمع عليه لبه ليفهمه ، فلم يستطع ، وزعم أنه بعض لغة حِمْيَرَ الذاهبة ، أو العبرية الذائعة فقال له : لم أفهم مما تقول شيئا فقال له : كيف لا تفهم وعهدى بك ذكيا « لقد رعين الفَزَع ، ثم هبطن الكَرَع ، بين العقدات والجرع » فتلفت ورقة يستمد معناها من الهواء والسماء ، وهو يقول لنفسه : ما هذا اللسان ؟ أراه عربيا وما هو بمفهوم . وفيما هو ملتفت عنه رنت وراء أذنه ضحكة من نعيم إذ أدرك ما فيه ورقة من الحيرة ، ثم تناوله وسار به يحادثه حديث العقلاء ، وقد بدت على وجه ورقة علامات الابتسام . قال له : ياورقة وحق موسى لا تستحق الدنيا أن تفكر فيها ، ولقد عوّدت نفسى أن أزيل شجونها بمثل هذا الهراء الذى يسمونه

حكمة وكهانة . أتدرى أن هـذا مايروونه عن أربع جوار قابلن رجلا فى الطريق أضل بعرانه فجئنه يخبرنه أين هى . قال ورقة : وهل اهتدى إليها؟ قال : إنهم لايتركونه فى ضلاله كما يتركوننا ، بل لابد أن يجمعوه بها. وأقسم لك لو أننى كنت صاحب الجمال الضالة لأضلنى هذا الـكلام معها . دعنا من هذا ، واسمع : إنى قد أعددت لك عندى فى بيتى غرفة جميلة مطلة على البستان ، ولها باب على درب وآخر على الدار ، وستقيم فيها عندى ماشئت حتى تعود إلى مكة ، وإذا أنصفت فعش فى صنعاء ، ودع تلك البلاد . وأقسم لك ياورقة ، لولا أن قريشا ترتزق من جيرتها للبيت المحرّم ماعاش فى أرضها أحد . كيف يرضى الانسان باختياره أن يعيش فى وهدة كبيرة تحيط بها الجبال فهى أشبه بالقلنسوة المقلوبة ؟ لا ماء فيها ولا أشجار ؟ وما قيمة الحياة وما لذتها ، وما معنى الرضا بها إذا كنت لاتجد فيها إلا أحس مايجد الهارب فى الصحراء ؟ ابق معى فى صنعاء أمتعك بالحياة وأرك الدنيا على حقيقتها بعيدا عما يشغل به الناس أنفسهم من أمور الناس. أعيشك حكيما سعيدا بعيدا عن الضلال ، ومتمتعا بكل ماتشتهيه نفسك فى حدود الـكمال والفضائل . قال ورقة :ما أشد شكرى لك ، وما أشدنى رغبة فى أن أعيش كذلك.ولـكن هناك نفوسا لها بى روابط كثيرة ، ولا بد من تقطيع هذه الروابط حتى أتمتع بهذه الحياة السعيدة التى تزينها لى ، والتى لاشك عندى فى قدرتك على تحقيقها . ولـكن من المحال أن تقدر على قطع هذه الروابط فهى روابط الرحمة . حبال قوية شدت إلى القلب ، فهى تتجاذبه

نحو الأم والأهل والاصدقاء والاحباب . ولكنى لا أدرى كيف أعددت لى لديك مكانا ، والنضر لم يحملنى على ترك أبيه إلا منذ قليل ، أم كان هذا بتدبير سابق؟ قال : لا وربى ، ولكنى رأيت حزنك ، وسمعت النضر غير مرة يتكلم هنا مع أبيه فى شأنك بما ينم عن كرهه لك ، والحارث يدفع عنك ويثنى عليك ، فأدركت أن أيامك قصيرة مع الحارث بن كلدة.



فراق الصديقين

ولما رأيتك كما رأيتك أدركت أنك أتممت هذه الأيام . ولكى أدلك على أن الامر أهون من أن تفكر فيه بادرتك بما عرفت ، وليس لك إلا القبول. فبدرت من عينى الغلام دمعتان كبيرتان ترددتا فى السقوط حتى دفعتهما أخريان أكبر منهما فتحدرتا على خديه ، ثم قال : إن الحارث أمرنى أن

أجيء اليك ،وأنتظره هنا حتى يجيء . وإذ كنت لا أعرف مكانا آوى إليه فقد جئت بحمولي إلى دكانتك حتى أرى لى رأيا. ثم ذكر سبب غضب النضر وما كان من يمينه وما تهدده به من القتـل . قال نعيم : لارأى لك عندى . ستنزل فى البيت الذى وصفت لك منزلا مكرّما ، وستبقى معى معزّزا مشكورا .

وفيما هما فى ذلك جاء الحارث وعلى وجهه قترة من الهم والـكدر ،فنهض ورقه للقائه ، ثم انحنى فتناول يده وقبلها وغسلها بدموعه ، فتناول الحارث رأسه وقبله قبلات حارة ضمّنها كل معانى حبه وتقديره وعطفه وأسفه . ثم جلس يمسح دموعه حتى إذا هدأ قال الحارث : يانعيم ، إن هذا الفتى أشرف وأنقى من وقعت عليه عينى ، أو لمسه قلبى . وما كنت لأفارقه لولا يمين غموس قطعها ولدى . وما كنت لأوثر ولدى عليه إلا لأمر واحد هو ما كان ورقة يؤثره به وإن لم يكن ولده . ذلك أنى أردت أن أبعد ابنى عن مكة ، حيث نهض فى تلك الوديان المقفرة نبى يدعو إلى دين إبراهيم، ويصرف قريش عن الأوثان . ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذى ورد ذكره فى توراتـكم . ولـكن ابنى يكرهه ويحسده ويريد قتله . وابنى شرير لايقبل رأيا ولا نصيحة . وسيلقى جزاء شروره وبغيه . وهو وحيدى ، فبراً برسول الله وبأمنى وبولدى من بعدهم ، لايسعنى إلا أن أتحمل كل أذاه لى ، وأسير معه سير الطاعة لأحول بينه وبين جريمته .وسأرحل به الليلة إلى العراق فقد سئم البقاء فى اليمن . وأنا تارك معك ولدا لى آخر ،

هو ورقة هذا . كن له كما أكون ، وعلمه تجارة العقاقير وأنواعها وأصنافها وعرفه منافعها . على أنى قد وضعت جزءا من كتاب عن العقـاقير كتبه ورقه بيـده وجئت به هدية له . وها هوذا ، ثم قدم إليه حزمة كبيرة من الرقاق التى كتب عليها ورقة كتاب أستاذه

وهنا لابد لى أن أعلن أمرا أخفيته حتى عن ورقة ذاته. ذلك أن مولاه وصديقى ورقة بن نوفل حكيم العرب ، وصهر الرسول الامين ، ابن عم زوجته الشريفة خديجة بنت خويلد — كان قد أودعنى خمسين دينارا تـكون لورقة يوم يتم علم العقاقير ، على أن يشترى بما شاء منها تجرا يكون أساساً لتجارته فى مكة . وأقسم أن هذا القول صحيح ، وما أقسم إلا لأنى أعلم حق العلم أن الغلام لايقبل منى إحسانا ولا أجرا ، وإن كان قد خدمنى وأسعدنى بما كان يجب أن أعطيه عليه أجرا ، ولـكنى أريد أعلن أن سيده ورقة بن نوفل أبى أن أجعل له أجرا ، ظنا منه أن الأجر يفسد علاقتى به ، ويقضى على رابطة الابوة التى تجمع بينى وبينه ، وينزله من نفسه منزلة لايرضاها ، فقد كان ورقة عازما على أن يتبناه ، ولـكن القدر فاجأه قبل أن يتم مراده ، بيد أنه قد أورثه خير ما يملك ، أورثه الحنيفية السمحة فلم يعن لوثن ، وعلمه القراءة والـكتابة وهى كنز لايقدر بثمن ، ثم أعطاه خلقه وعفته ونبله وأكرم بها عدة للزمن . فخذ ياتميم مال الفتى وأسرع ، بتعليمه تجارة العقاقير ، وعرفه منابتها ومواردها ، فان هذا علم لايؤخذ درسا بل ممارسة ، وإلا ذهب رأس المال . حتى إذا أتممت تعليمه

وشعر هو بذلك ، فدعه يشتر منها مايشاء بما يشاء من هذا المال ، فإن أحسن الشراء فدعه يرحل ، وإن أساء فأبقه عندك حتى يحسنه . وإذ أنى عزمت على ترك صناعة الطب لغيرى ولولدى بعد ما هيأ لى ربى من الثروة الواسعة ، فأجعل مالديك مما أوصيتك بمشتراه لى من حق ورقة ، وخذ لنفسك مابقى لديك من المال أجرا على تعليمه ، وما هو بالكثير . وقبل أن أنهض من مجلسى أريد منكما شيئاً واحدا ، هو ألا تنهضا لتوديعى ، ولا تمدا للسلام علىّ يدا . إنى أريد ألا يشعر القلب أنى أودع باختيارى أحب الناس الىّ

فما كاد يتم هذه الكلمة حتى نهض ورقة وجرى إلى أستاذه وجثا على قدميه على الارض ، وأخذ يبكى وينشج فى بكاه ، وهو متعلق بأردانه ، كأنه يمنعه من النهوض وتنفيذ عزمه على الفراق ، والحارث محزون تنحدر دموعه على لحيته ، ونعيم مفجوع القلب ، حتى استمسك فأخذ بيدى ورقة ، وأفسح الطريق للحارث ، فخرج وقد استنفد منه حزن الساعة صبره وجلده ووقاره

الفصل الخامس والعشرون

لمّ الاطراف

بقى ورقة فى صنعاء مع نعيم ينعم بجواره فى بيته ودكانه ، وينسى همومه فى مجاهل اليمن ومعارفه ، وسهوله ووديانه ، وجباله وأحقافه ، وقراه وحلله ، ومرابعه ومشاتيه . فقد رأى نعيم والفرصة سانحة بوجود رفيق من أحسن الرفقاء نفسا أن يرتادبلاد اليمن ومنابت العشب ليستريض ويتعرف، ويعلّم ورقة ويبصرّه ، وإن لم يكن ورقة فى حاجة إلى ذلك كله ، بل ربما كان بقاؤه فى الدكانة أعود عليه بالفائدة منه بالترحال . ولكن كان لابد لورقة لكى ينسى الدنيا الجميلة التى أخرج منها ، دنيا لمياء وهرميون — أن تمرّ عليه الحوادث والوجوه فى تناقض واختلاف ليشتغل بها فؤاده حتى لاتكون رتابة المكث فى مكان واحد مذكرة إياه بالأحباب والاخوان . ولذلك أخذه نعيم فى سفرات متقطعه كان قد انتواها من زمن بعيد إلى البلاد المحيطة باليمن على البحر الهندى وخليج فارس وبحر القلزم . فلما أتمها استقر بصنعاء مدة ثم عاد الى ارتياد بلاد اليمن نفسها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . كل ذلك باسم ارتياد منابت العشب ، حين أن نعيما كان مغرما بالتنقل والاستراضة والسياحة . وكان فى نيته يوم تتزوّج إبنته أن يتركها بين يدى زوجها وينصب إلى العراق أولا ثم الى الاسكندرية أو إلى الاسكندرية

ثم الى العراق ؛ لأنه كان يسمع المغريات عن الاسكندريه وما فيها من الأعاجيب وعن مدائن كسرى وما فيهـا من مظاهر الملك والسلطان . وكان فى كل حديث عنهما يغرى ورقة ألا يفوّت على نفسه زيارتهما

سرّت هذه الزيارات من هموم ورقة ، فلم يبق من صلات قلبه بأحبابه إلا حبيس وجد بلمياء وذكريات محبة خالصة ، كانت تمر على مخيلته كل ليلة عندما يرقد لينام أو يفيق فى الصباح ، أو يخلو لنفسه فى مكان . ولا يزال يتأمل وجه لمياء ونظراتها إليه المملوءة بالحب والرضا والعتـاب الشديد ، ثم يتذكر استحالة أن تـكون له ، حتى تتسرّب الذكريات واحدة بعد أخرى . فاذا انطفأ نورها رقد ونام ، أو أفاق لينهض . ولقد اغرم ورقة بالصلاة ، فاوجب على نفسه منها مالم يكن قد أوجبـه الله بعد على المسلمين ، تلك هى صلاة الصبح والعشاء . كان ورقة يفيق على عادته مبكراً ، وإذ هو متوحد فى غرفته ـ كان يذهب من فوره ليتوضأ بماء البئر ثم يعود إلى غرفته ويتجه إلى الله ليصلى . فاذا انتهى منها ضاعفها ؛ وكان يشعر أن هذه الصلاة الصباحية أفعل فى القلب من صلاة الضحى لان النفس تـكون إذ ذاك خالية من مشاغل الحياة . أما صلاة الضحي فـكانت تقطع عليه يومه ؛ وإذا انصرف لها لم يكن قلبه على سجيته النقية الخالية من مؤثرات الحياة

وإذا عاد إلى غرفته فى الليل لينام وأحس بالوحدة ـ استمد الأنس من جوار الله فذهب الى البئر وتوضأ وصلى واتجه إلى الله بقلبه ، ودعا

لأهله وهرميون ولمياء و إخوانه فى مكة بما يدعو به القلب المطهر ، فرآهما فى صلاته ودعائه رؤية رضا وطمأنينة ، ثم ذهب إلى فراشه يفكر فيهما تفكيره المعتاد حتى يملكه النوم فينام

كانت هاتان الصلاتان مما هداه اليه قلبه واحتياج نفسه ، ولم يكن يجد فى أن يصليهما خروجا ، فقد صلى مع زيد صلاة ليلية تقربا إلى الله ، وعلم أن الرسول عليه السلام كان يصلى كلما أحس حاجة إلى الصلاة وكان ورقة يؤخر الضحى حتى يجيء وقت الطعام فينهض و يتوضأ و يستريح ، فكانت صلاة الضحى فى الحقيقة عنده هى صلاة الظهر ، فلم يترك مما أمر الله بعدئذ [1] الا صلاة المغرب . على أنه كان فى كل صلواته مستهديا بوحى قلبه ، ومن كان قلبه متصلا بالله فالصواب رائده ، حتى فيما لم يأته به علم ولا أذان

نترك ورقة إذن فى ارتياداته وفلاته يسلخ من حياة الدنيا عاما ، وهو على ماهو عليه من هدوء النفس والارتياح إلى عشرة أستاذه الجديد نعيم : يشتغل معه و يعمل له حتى أصبح ينوب عنه فى كل شيء : يبيع له ، و يشترى من أعراب نجد ، وخولان ، وقوافل عدن وغير عدن مما علمه نعيم ، و يعقد صفقات صغيرة وأخرى كبيرة مع المستبضعين من صغار تجار العشب ومستورديه ، ونعيم فرح به مغتبط ومثن عليه . حتى إذا كان ذات يوم قائما فى

---

(١) فرضت علينا الصلوات الخمس بعد ليلة الاسراء وذلك قبل الهجرة بسنة أى فى السنة الثانية عشرة من البعثة

دكانة نعيم دخل عليه قس من قساوسة نجران كان يعرفه لكثرة التقائه به في بيت الاسقف ، جاء إلى صنعاء في شأن من شئون الكنيسة ، وكان يعلم من الأسقف أن ورقة في صنعاء ، ومن الحارث أنه عند نعيم فجاء يزوره

رحب به ورقة أيما ترحيب ، واستأذن من أستاذه في مرافقته ، فأذن له وكلفه أن يدعوه للعشاء معهم وقبل القس ذلك شاكرا رغبة منه في الائتناس بصاحبه في بلدة ليس له فيها صاحب ، و إن كان معتاداً أن يزورها في طلب حاجات الكنيسة

على أنه كان يحمل من هرميون ولمياء سلاما ودعاء وأشواقا ، و إن كان قد احتفظ له بها قرابة عام . ذلك أنهما كانتا تعلمان أنه رسول الكنيسة وقاضي حاجاتها من صنعاء فكلفتاه أن يلقى ورقة عند نعيم الصيدلاني يوم يصل إلى صنعاء، و يبلغه عواطف المحبة والرضا . أبلغه ذلك وأبلغه أنهما سافرتا من نجران منذ عام وانه جاء صنعاء مرتين ، وجاء الى الدكانة ، ولكنه لم يلقه ، إذ كان ورقة مسافراً مع نعيم وانه اليوم سعيد بأن يلقاه و يبلغه رسالة السيدتين .

وعلم ورقة منه انهما سافرتا مع الحارث وولده النضر إلى مكه عينا وانهما ستبقيان بها نزولا علي إرادة النضر إذ أبى أن يسافر الى العراق ، وأن الاسقف نصح لهرميون أن تطيع زوجها فيما رأى من العودة بها و بلمياء الى مكة بعد مشهد عصيب كان الحارث فيه على وشك أن يطلق هرميون ويأخذ ابنتها منها .

قال ورقة : مسكينة هذه المرأة ! قال : حقا هى كذلك . ولكنها لم تكن على صواب . قال ورقة وقد أفاق بعد ذلك الحديث الذى أحزنه : فيم كان خطؤها؟ قال القس: كان فى استطاعتها أن تبقى فى نجران لو أرادت فقد طلب أحد بنى عبد المدان من الحارث أن يزوجه لمياء ، ورضى الرجل ، بل رضى النضر الذى ما رأيته يقر شيئا يكون فيه خيراً أبدا . ولكنها رفضت واعتذرت كما قالت لى بربارة قهرمانة الأسقف معاذير عجيبة . قالت : إنها لا تزوجها من عربى أبداً . فلما تدخل النضر فى الأمر قالت: إن بينها وبين زوجها صكا بذلك: أى أن يكون زواجها بيدها لا بيده. قال نعيم وكان يسمع: والله إنى لأراها على صواب . ما هؤلاء الأمراء يا مولانا إلا أسماء لأجلاف صحراويين يشقون الناس باسم الامارة والسيادة . قال القس : وهل تستطيع هرميون أن تعود إلى الاسكندرية والطريق مزروعة فيها الأسنة والسيوف . لن تنتهى هذه الحرب بين الفرس والروم قبل عشرين سنة تكون فيها ابنتها قد عنست ، وتكون هى قد آمت، ولم يصبح لهما ذكر فى الدنيا . قال ورقة : ولمياء ألم يكن لها فى هذه المعمعة رأى ؟ . قال : ثق أن رأيها رأى أمها . قال نعيم : محال أن يكون الأمر كذلك ، ترفض العذراء زوجا من أهل الامارة انتظاراً لزوج يذهب بها القدر إليه فى الاسكندرية بعد زمن لا تدرى ذرعه ! قال القس : بل أؤكد لك ذلك ، فقد خبرتنى القهرمانة أن الفتاة أعلنت والدها أنها نذرت لله أن تتعنس ، وأنها لا تريد الزواج ، فان حملها عليه فهى تدرى كيف تنجو بنفسها منه . فأدرك الحارث أن ابنته

تنذره بالانتحار . وقبل أن يأتى الغد عليه ويعطى كلمة لبنى عبد المدان رفضا أو قبولا — كان قد ارتحل عن نجران بأهـله إلى مكة ، وهوّن على امرأته يومئذ هذا الارتحال انها لم تـكن تستطيع أن تلقى نساء بنى عبد المدان بعد هذا الرفض

عرف ورقة سرذلك فاشتغلت نفسه بما سمع، وبات ليلته سهران يفـكر فى لمياء ، وكلما غالب نفسه على النسيان وصرف الفـكر عنهـا ويذكر أنه عاهد نفسه أن يقطع صلته بها وهدأ على ذلك —وجد قلبه ينازعه. وأخيراً وجد نفسه يعتزم الرحلة إلى مكة لغير قصدٍ ظاهر ، ولا أمل معين. ولـكنه شعر أن وجوده فى مكة بجوار من يحب هو المنى كل المنى . وهاج فى نفسه الرحلة والاصرار عليها أنه كان فى الشهر الأخير من الشتاء ، وأن قافلة مكة عائدة إليها صبيحة الربيع

أعلن ورقة الصيدلانى نعيما برغبته هذه ، ولم يستطع نعيم ولا أهل بيته صده عن الرحيل ، ولذلك قضيا قرابة الأسبوع فى تجهيز مايحتاج إليه ورقة من البضاعة التى كان يعد نفسه للاتجار فيها فى مكة . وكان المال الذى تجمع لديه كثيرا ، إذ يجاوز مائة دينار ، لأنه اضطر أن يبيع جواده لرسل جاءوا من بلاد الفرس فى طلب الخيل للحرب ، ولم يكن فى استطاعته مخالفة رغبة الحـكام أو إخفاء الجواد عن العيون . كما أن ماتركه له أستاذه الحارث من العقاقير عند نعيم كان بقدر كبير . ولذلك رأى ورقة ألا يستهلك ماله كله فى العقاقير . وإذ رأى من الحـكمة أن يشترى

بعرانا لنقل حموله ، وكان قد عرف جمّالا ممن يحملون البضاعة لنعيم — قد اتفق معه على أن يذهب به إلى سوق الجمال ليشترى بخبرته ثلاثة بعران يحمل عليها بضاعته على أن يجعله على جماله فى عير اليهود الذاهبين إلى القدس

على أن الجمّال خانه كما علمنا وفر بالمال ، فاضطر إلى أن يشترى بما بقى معه جمالا أخرى ويخرج بها من صنعاء بعد العير بيوم مجتازا بها مفاوز محفوفة بالأخطار ليدرك قافلة مكة فى نجران ، فحدث له ما حدث من الالتقاء بالجمّال وعير اليهود فى حلة الأراك ، ووقع له ماوقع مع الذئاب والقرضاب وانقاذه الغلام رؤبة ، ثم وصل إلى نجران فى موهن الليل برسالة من اسحاق ليعوق القافلة عن المسير يوما حتى يدركها ويسير فى حماها

الفصل السادس والعشرون

الصحيفة

الآن وقد عرفنا ورقة من قبل أن يخلق، وعرفنا تاريخه مدى اثنتين وعشرين سنه، وعرفنا أهله وسادته وأساتذته، وبلده وجيرانه، والجو الذى عاش فيه والعناصر التى كونت ذاتيته — فان فى مقدورنا اليوم أن نفهم مايجرى بينه وبين أسقف نجران من الحديث. ولكننا لم نعد فى حاجة إلى أن نكون معهما لنسمع ما جرى بينهمامن أخبار الحارث وهرميون ولمياء والنضر، فقد أجمله القسيس لنا فى دار الصيدلانى بصنعاء، ولذلك نطوى صفحته على عجل لنتعرف مالم نعرف. ويكفى لذلك أن نقول أن الأسقف حذّر ورقة من غدر النضر به لأنه أنذر أباد بذلك أثر بادرة عطف بدرت منه وكلمة خير أرسلتها هرميون. وحذّره كذلك من محاولة لقاء سيّده فى مكة وبالأحرى زوجته وابنته ضنا بهم من أذى النضر وبنفسه كذلك. ونزيد على ذلك أن اليهود جاءوا بحمولهم وحمول ورقة وسافروا فى صبيحة اليوم الثانى من أيام الربيع إلى مكة شاكرين للأسقف عظيم فضله عليهم فى ذلك، وأنهم نزلوا لورقة عن الشملالة شكرا له على ما تجشم من أجلهم، فقبل هديتهم شاكرا مغتبطاً

وما زال سائراً مع القافلة ورؤبة معه حتى بلغ طريق خولان، فأنزله

وا كترى له راحلة تنقله وأوصى به عيرا كانوا ذاهبين إليها ، ونقده فوق هذا بضعة دنانير ليدخل بها على أمه ، وليتمكن من اللحاق به فى مكة إذا شاء فإن اهتدى إليه فيها ، وإلا فليسأل عنه فى بيت رسول الله محمد بن عبد الله . وسارت القافلة فى طريقها المعتدل حتى بلغت هدى فى العصر بعد عشرين يوما من نهوضها من نجران

وفيما هو يتأمل الجبل ومصعده الذى اعتاد أن يرقاه إلى دار خالد بن الوليد ويتذكر طويفاً وسعدى وفتنة ، ويسائل نفسه ترى ماذا لقيت ؟ وماذا جرى من الأحداث فى غيبته ؟ رأى رجلا يحث نحوه بعيرا هزيلا كان راكبا عليه . فتأمله فاذا هو طويف بعينه الذى كان يفكر فيه . كان ذاهبا إلى مكة ليستبضع فتلقاه بعظيم الفرح وسأله عن حاله وعن فتنة وأخته فقال الرجل : إنه خير حال ، وأن الله قد رزقه منها منذ شهرين غلاماً جميلا سماه ورقة ذكرى لذلك اليوم المبارك الذى جاءه فيه بفتنة ، وأنه قد غيّر اسمها فعلا وسماها ناجية كما سماها له ساعة عرفهم إليها . ثم سارا يتذاكران حتى قطع عليهما الحديث دقدقة خيل واردة من طريق مكة وعليها جماعة من سادة قريش : منهم أبو الحكم المخزومى ، والنضر ابن الحارث ، والمطعم بن عدى ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود وبغيض بن عامر وآخرون . فلما اتصلوا بالقافلة وقفوا ووقفوها ، وقالوا لتجارها : أيها التجار ! إنكم قادمون إلى مكة ببضاعة عبد العزى ، وبطعام وكساء لأهلها . قالوا : نعم . قالوا : وقد علمنا أن مقدمكم اليوم . فأرسلتنا

إليكم قريش تنذركم ألا تبيعوا بنى عبد المطلب شيئا مما معكم من طعام أو كساء ، فان فعلتم قاطعنا كم وتناولكم منا من لانرده عن أذا كم . وإن نزلتم على إرادتنا عوّضنا كم وأكرمنا كم . وسيكون منا فى الاسواق نفر يدلونكم على من تبيعون اليه ومن لاتبيعون ، كى لا يكون لكم عذر من خطأ . فتنبهوا لأنفسكم . ولم يمهلوا التجار حتى يردّوا بالقبول أو الرفض ، وارتدوا على ظهور جيادهم إلى مكة مهطعين

تعجب ورقة لهذا وسأل طويلا : هل جرت أحداث أقبح مما حدث منذ عام ؟ . قال : أحداث كثيرة ، فقد اجتمع كفار قريش على قتل رسول الله ، [١] وقالوا : قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا ، وقالوا لقومه : خذوا منا دية مضاعفة و يقتله رجل من قريش و تريحوننا وتريحون أنفسكم . فأبى قومه ذلك ، وسفهوا رأيهم واجتمع أهل رسول الله فنقلوه إلى شعب عمه[٢] أبى طالب ليأمنوا عليه غدر الغادرين. فعدت قريش على بنى عبد المطلب و بنى هاشم خرجوا على الجماعة وموالاة لولدهم الذى عق قريشا وآلهتها.وأجمعوا أمرهم على عقابهم بمقاطعتهم ومنابذتهم وضيقوا عليهم بحصرهم فى هذا الحصن ومنعهم من حضور الاسواق وقررت قريش فيما بينها اسقاط بنى هاشم من عدادها وعدهم أجانب عنهم بل أعداء لهم وحرّموا على أنفسهم أن يتزوجوا منهم أو يزوجوهم وقرروا ألا يقبلوا منهم صلحا أو تأخذهم بهم رأفة حتى يسلّموا رسول الله اليهم ليقتلوه بأيديهم ، [١] وكتبوا بذلك صحيفة فيما بينهم وعلقوها

---

(١) كتب السيرة (٢) شرقى مكة : انظر الخريطة

فى الكعبة توكيداً على أنفسهم[٣] فدخل بنو هاشم و بنو عبد المطلب مؤمنهم وكافرهم فى الشعب[٣] ليمنعوا رسول الله ويحموه من القتل ؛ إلا عمه أبو لهب لعنه الله[٣] فانه ظاهر عليهم قريشا ، والآن لايدخل إلى بنى هاشم من طعام إلا النزر اليسير ، ومن ثياب إلا القليل وترى المؤمنين يحتالون لاطعامهم كل محتال ولكنهم يلقون فى ذلك شدة وعذابا من الكفار . وأصبح كثيرون من بنى هاشم لايجدون من طعام إلا الخبط وورق الشجر[٣] ولذلك فانه — أى طويف لم يعلن اسلامه لاحد من أهل مكة — وكان فى نيته أن يحتال لدخول الشعب بشىء من الطعام .

فلما سمع ورقة هذا الكلام تألم ألما شديدا ، وتذكر ما كان الحارث قد ذكره منذ عام من إئتمار قريش ببنى عبد المطلب ليلة عتق فتنة ، وطلبه إليه أن يصلى لله ويدعوه أن يكف عنهم هذا الاذى. وصمت ورقة يفكر فى حال سادته وأهل بيت نبيه الذى يفتديه بروحه وصح عزمه على ألا يدخل مكة إلا ومعه مقدار عظيم من الطعام الذى فى القافلة ، وأن يعمل كل حيلة فى إيصاله إلى بيت رسول الله فى الحصن المحصور ليأكلوا منه عشية يومه . ثم اتجه ورقة إلى السماء رافعا يده اليها وتمتم بكلمات عاهد فيها ربه على أن لايذوق من ساعته زادا حتى يأكل رسول الله وأولاده

وكانت له صحبة فى القافلة بتجار من يهود نجران واليمن يحملون طعاما

---

(٣) السيرة الحلبية وغيرها

وكساء على أربعين جملا : تجار رحّل كان كثيرا مايلتقى بهم فى أسواق صنعاء ونجران ، بل لقد حمل ورقة أحدهم ذات مرة فى سفرة له الى مكة رسالة إلى باقوم ، فتوثقت بينهم وبينه فى الطريق مودة عظيمة . ذهب إليهم من فوره ليتذاكر معهم فيما يحملون من بضاعة ، كم يكون ثمنها ؟ وكم يربحون من بيعها ؟ وإذ لم يشكوا فى مأربه لانه كما يعلمون تاجر مثلهم يسير ببضاعة معهم الى مكة صدقوه القول وقالوا : هى بضاعة يقدر ما فيها من الكساء بثلاثين ومائة دينار وأن حملها عشرة جمال . أما الطعام فهو على مايبهظ من ظهور الجمال لايزيد ثمنه على ستين ديناراً وإن كان فيه سمن وسكر . ولذلك فانا لانتاجر فى الطعام ، وإنما هذا طعام كنا قد جئنا به من قرن المنازل إلى عكاظ (٤) فلم يبع فيها وها نحن أولاء عائدون به إلى مكه ، ولعلك قد رأيت جمالا تتصل بنا ساعة نزلناها . قال : لم أر شيئا ، فقد كنت مشغولا بحمولى

---

(٤) عكاظ سوق بصحراء بين نخلة اليمانية والطائف وتبعد ١٢٠ كيلو مترا عن مكة جنوبا يجتمع فيها الحجاج الواردون من الشرق قبل افاضتهم الى مكة . وتقوم هذه السوق هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوما وقيل شهرا وتجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون الشعر ويتبايعون قال شاعر

اذا بنى القباب على عكاظ * وقام البيع واجتمع الألوف

وكان رسول الله يخرج الى عكاظ ليدعو القبائل الى الاسلام . وكذلك كان يخرج الى مجتمعهم فى الاسواق الاخرى ذى المجنة وذى المجاز وهذه على بعد ٥٠ كيلو مترا من مكة ويجتمع فيها أهل الجنوب من الحجاج وفى مر الظهران التى يجتمع فيها اهل الشمال قبل الافاضة الى عرفات ومكة للحج

ساعة نهضتنا، ولكن ماقولكم فى أن أشترى طعامكم هذا، وما تحملون من كساء، وأدفع لكم فيه ماطلبتم قبل أن تدخلوا به مكة ؟ آخذها لنفسى لأتاجر فيها وأرتزق ؟ وأريحكم من عناء تصريفها، وتضييق قريش عليكم فى بيعها ؟ قالوا : نشكرك إن فعلت . قال : وإنى لراغب حقا . وإذ أنى أريد أن أجازف فأبيعها لبنى هاشم الليلة وقريش مشغولون بانزال القافلة فى الابطح فانى أرجو منكم أن تساعدونى على ذلك بأمر لا يكلفكم مشقة، بل يريحكم من الان . قالوا : وما هذا ؟ . قال أن تتئدوا فى سيركم مجانبين حتى تنحدروا إلى ذيل القافلة واطراف ذيلها ثم تنقطعوا عنها. فاذا سارت القافلة وتقدمتكم، واشتغلت قريش بأمرها عطفتم على طريق أجياد .قالوا: هذا شأنك وفيه راحة لنا .على أنا لا نكره أن يصل الى الحنفاء الموحّدين بالله مثلنا رزق كهذا برضانا . قال شكرا لكم. على هذا اتفقوا، فتأخروا وانقطعوا ووقفوا الجمال، ودفع لهم ورقة ثمن مايحملون واتفقوا على أن يسير هو بجمالهم وجمّالتهم لينزل حموله حيث يشاء، ثم يردها اليهم. وعلى ذلك نزلوا فى منعطف أجياد وسار هو بالجمال حيث أراد

اشتغلت قريش بالقافلة، فانزلوها فى أبطح بنى كنانة، وأقاموا عليها الحراس بالليل ليمنعوا بنى هاشم أن يشتروا من أهلها، كما أقاموهم بالنهار لذلك، وهم يزعمون أنهم دبروا مايجب لأجاعة أهل بيت النبى وعشيرته وأنهم يوشكون لهذا أن يسلموا إليهم سيدهم و نبى الله ليقتلوه لقاء لقيمات يسمحون لهم بشرائها من الاسواق .

ولـكن الله كان يخيّب فألهم حين يؤملون ، ويرد كيدهم فى نحورهم حين يبيتون ، فقد كان ورقة يسير بجمال الطعام والـكساء فى تلك الساعة على مدرج جبال أبى قبيس قاصداً حصن أبى طالب من وراء البيوت . وإذ كان منزله وراء الحصن فى طريقه إلى دار رسول الله فقد وقف بعرانه عنده ودق على أمه الباب ففتحته وقبّلها وقبلته وسألها عن مكان مولاتها سيدة المؤمنين من الشعب فدلته عليه حين دخل على باقوم فقبّل يده واعتذر له من اضطراره إلى تركه قليلا . ثم استودع أبويه بضاعته وجمالته ليدخلوا عقاقيره فى الدار ، وجمـاله فى مربط جواده ، وانصرف على الفور إلى بيت سيّدة قريش ، من حصن أبى طالب .

كان ورقة يعرف هذا الحصن معرفة تامة لـكثرة ماذهب اليه فى أيام طفولته ومراهقته . وكان يعلم أن له مدخلا عجيبا . شقا من شقوق أبى قبيس يفضى الى رحبة واسعة تـكاد تكون مربعة وان للحصن على هذه الرحبة بابا لايستعملونه كثيرا لانه ان أدى الى شيء فالى ظهر جبل أبى قبيس ، لا الى سوق مكة وبيت الله . ولـكن هذا الباب كان أقرب الى البيت الذى نزل فيه رسول الله بأهله . ولذلك قصد اليه ورقة وأدخل الجمال فى تلك الحظيرة الموفقة . وكان صوت الجمال قد نبه الآذان ، ففتح زيد بن حارثة باب الحصن محاذراً وإذ رأى ورقة ، ورأى الجمال تملأ الرحبة صاح مكبرّا : الله أكبر . الله أكبر ! وجاء أهل البيت ليروا ماذا حدث . .

ثم لاحت سيدته سيدة المؤمنين خديجة و بنات رسول الله فهرع اليهن ورقة يقبل أيديهن جميعا وهو يقول: بأبي أنتن وأمي و بنفسي من كل سوء. هذا رزق أرسلني الله به، اشتريته من القافلة عند ماعلمت بحصاركم. فرفعت أم المؤمنين و بناتها أيديهن شكرا لله على بره ودعون له ثم أمرت بادخال الحمول ساحة الحصن. فانصرف أهل البيت إلى معاونة الجمالة على ذلك، ولم تمض ساعة حتى كان رزق الله قد استوى فى الساحة، وعاد الجمالة بالجمال إلى ماوراء مكة كما اتفق التجار مع ورقة مشكورين مكرمين

و إذ علمت سيدة قريش بما كان من قدوم وفد الكفار على القافلة و إنذارهم التجار بالويل إذا هم باعوا بنى عبد المطلب شيئا — أدركت مايحيط بورقه من الشر، فأمرته أن يذهب إلى أمه لكيلابرى، وأوصت كل من رأى وشهد أن يكتم أمر ورقة، وإذا سالهم سائل أن يقولوا له: جاءت جماله فأنزلوا الحمول وانصرفوا ولا يعرفون من هم. وهذا صدق كله، ولكنه لايبين عن المرسل. على أنه هو الله وحده الذى دبر هذا ورد كيد المشركين والكفرة القساة القلب الى نحورهم وأكبادهم

ولم تر أم المؤمنين أن تلجأ الى فراشها فى تلك الليلة، حتى توزع فضل الله على عشيرة الرسول، مؤمنين وغير مؤمنين، ليطعموا عيالهم الذين يتضورون جوعا ولكنها ما كانت تصدر عن أمر إلا بمشورة رسول الله، وكان عليه السلام عند عمه أبى طالب، فارادت أن ترسل اليه ليجيئها، ولكنه كان قد جاء فعلا، وتلقاه مولاه زيد بالخبر السار، فحمد الله فيما

إخال ، ودعا لو رقة وأثنى عليه كما أخال أنه عليه السلام وافق ز وجته على
ماراأت من اسعاف أهله فى نفس الليلة بما جاءها من الطعام . فأرسلت إلى
كل بيت كيلا عاجلا من كل صنف و رد على أن تقسم بقية ماجاءبالعدل
والرحمة فى الغد. أما الثياب فتركت أمرها الى الغد كذلك حتى ترى حاجة
كل بيت منها فتوزعها عليهم تبعا لذلك

مضى يومان بعد هذا ، والقافلة يحرس سوقها حراس من المشركين.
ولكنهم لم يروا أحدا من بنى عبد المطلب دنا من السوق ليشترى طعاما
أو يلتمس خرقة. فتعجبوا لهذا أيما عجب.ولكن لم يطل عجبهم كثيرا فقد
أخذوا يتبينّون الحقيقة شيئا فشيئا من روايات بعض أهل القافلة . خبّرهم
بعض تجارها أنهم لا يرون عير اليهود الرّحل، وأنهم يرجحون أنهم باعوا تجارتهم
لبنى عبد المطلب وانصرفوا . وقال بعضهم إنهم رأوهم يتأخرون عن القافلة
ساعة دخول مكة ، ولا بد أن يكون هذا تدبيرا منهم للذهاب ببضاعتهم
الى شعب أبى طالب على الفو ر . وادعى بعضهم كذبا أنهم كانوا يعلمون
أنهم قادمون بطعام وثياب خصيصا لعشيرة أبى طالب. وقال غيرهم بل لعشيرة
محمد بن عبدالله عينا. وأتى على ذلك ببراهين وشواهد كاذبة ليدعم بها روايته.
فسقط فى يد أهل الصحيفة المشركين ، وكادوا يتميز ون من الغيظ لحبوط
مادبروا و ودوا لو يستطيعون ادراك عير اليهود القافل . ولكنهم كانوا قد
رحلوا عن مكة قبل أن تعرف قريش أمرهم بيومين ، بل لو خرجوا و راءهم

فى حينه ما أدركوهم، لأنهم كانوا قد أخذوا طريقا آخر غير طريق البر إلى اليمن . وهو ما كانت قريش تسلكه لتدركهم وإنما فعل العير ذلك ليستبضعوا لبنى هاشم شعيرا وسمنا من أسواق جدة وجيرتها بعد ماعلموا من سوء حالتهم ، و إجماع المشركين على إجاعتهم و إذلالهم وامكان أن يستفيدوا من هذا الحادث ربحا مضاعفا . على أنهم كوفئوا على حسن النية خيرا معجلا ، ذلك أنهم لم يرحلوا خفافا ، بل رحلوا محمّلين ، وكان لهم فى الحالين أكرم أجر . واليك ماجرى

الفصل السابع والعشرون

الهجرة إلى الحبشة

أجمعت قريش رأيها على أن تقاطع كل مسلم كذلك ، وتلحقه ببنى عبد المطلب فى الأذى . فلما جاع المسلمون وكادوا يعرون — أذن لهم رسول الله فى الهجرة بأولادهم ونسائهم إلى الحبشة ، إذ كان لهم فيها ملك كريم عرفوا من إخوانهم السابقين إليها أنه مال إلى الاسلام ، فأكرمهم أيمّا إكرام ، ولكنهم ما كانوا يجدون جمالا تنقلهم إلى حيث يركبون البحر إلى بلاد هذا الملك الذى وفّقه الله إلى الخير . وانتظروا القافلة . ولكنهم أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يستأجروا شيئا منها ، لأن قريشا قد أنذرت أهلها وضربت عليهم الحصار . ولذلك ظلوا يتحيّنون الفرص حتى حانت من حيث لا يعلمون . ذلك بأن ورقة لما ذهب إلى بيته وجد فى انتظاره فى البيت رجلين من المؤمنين لم يكن فى الامكان حبس الخبر عنهما ، ألا وهما عبد الله بن مسعود خادم رسول الله ، وبلال بن رباح عتيق أبى بكر الصّديق ، وكانا كثيرى التردد على أخيهما فى الاسلام ياقوم الرومى . فلما اجتمعا به قبّلاه ودعوا له بالخير جزاء حسن صنيعه وجهاده فى سبيل نبيّه ! وذكرا له ما يلقى المسلمون من الأذى من قريش ، وأن منهم من استأذنوا رسول الله فى الهجرة إلى الحبشة كما هاجر إخوانهم من قبل .

ليحموا ذرية المسلمين من الفنـاء مرضا وجوعا ، ولـكنهم لا يجدون جمالا . قال ورقة : هذه جمالى تخذوها لمن يريد ، وهناك أربعون جملا أخرى تعود إلى اليمن فى صبيحة هذه الليلة ، إن شئتم جعلتها لهم ، على أن يرحل الراحلون فى الصباح لا ينتظرون ولا يتلوّمون خشية أن تعرف قريش من أمرها ما تجهل حتى الساعة فتعاقب أصحابها على ما فعلوا من أجل بيت الرسول

فلما سمع الرجلان هذا الـكلام كبرا لله شكرا وحمداً ، ونهضا إلى بيوت من كان فى نيتهم الرحيل من المسلمين ، وأكدا لورقة أنه إن ذهب إلى العير القافل ، فاستقدم البعران فى موهن الليل إلى داره ، فسيلقيانه ليفرقاها على بيوت الراحلين . على هذا اتفقوا ونهضوا لهذا الأمر ، وذهب ورقة على حمار كان بالقوم قد اشتراه ليحمله، حتى بلغ عير اليهود ، وأخبرهم بما اتفقوا عليه ، فشكروا له سعيه . وكان الجمالة أشد رغبة من سادتهم فى ذلك لما علموا من فرط بر المسلمين و إحسانهم لقاء ما يحسن الناس إليهم وإن كان ضئيلا

جاء بهم ورقة فعلا ، وكان الليل قد انتصف ، وأهل مكة كلهم نياماً إلا من اتفق معهم بلال وعبد الله ، فقد شكروا لهما هذا السعى ، ونهضوا من فراشهم يعدون أحمال الرحيل ، وما أحمالهم إذ ذاك بالأمر الـكبير ، حتى إذا جاء الجمالة بالجمال رحلوها وركبوها وساروا قبل السحر يلتمسون

جـدة ليأخذوا طريق الشاطىء إلى أقرب مرفأ تحملهم مراكبه إلى بلاد الملك الطيّب .

كان الذين رحلوا فى تلك الليلة وما قبلها حوالى مائة من المسلمين (١)، منهم جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء ، والمقداد بن الأسود ، وعبدالله ابن مسعود ، إذ ركب بعيرا من بعران ورقة ، وعبيد الله بن جحش ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان . وكان عيرا كبيرا لم تسمع قريش بنبئه إلا يوم تعجبت لاختفاء الطلب من بنى عبد المطلب على الأسواق ،ولـكنهم مع ذلك لم يصدّقوه

ولقد كان ورقة يريد أن يصحبهم فى تلك السفرة ، ولـكنه كان يرى أن الرسول أصبح فى حاجة إليه ، بل وجد أن من واجبه أن يبقى ليكون دريئة له عليه السلام من أذى الـكفار . ولذلك بقى فى مكة شهرا لا يدرى كيف باع فيه كل ما جاء به من العقاقير . ولـكن الواقع أن الحارث كان قد علم بمقدمه ، فأغرى تجار العطارة والعقاقير بشراها منه . وكان قصده من ذلك متشعباً : بعضه أن يساعده على الربح من بضاعته ، وبعضه أن يضمن له شاريا قبل أن يدخله ولده وسـائر قريش فيمن تجب عليهم مقاطعته . وبعضه ان يغريه بالرحلة عن مكة فى طلب عقاقير أخرى من اليمن ليصونه من أذى ولده الذى أنذر للآت دمه اذا هو رآه ماراً بداره ، أو سمع انه اتصل بلمياء أو هرميون أو راسلهما . على أن هناك غرضا

(١) كتب السيرة

آخر وراء ذلك كله : ذلك أن والده النضر حمله على الرضا بتزويج لمياء من فتى من فتيان بنى عبد الدار . وكان الحارث يعلم فى قرارة نفسه ان بين ابنته لميـاء وورقة محبة شديدة وغراماً قوياً ، ولـكنهما لطهرهما ما كانا يفصحان عنه أو يتدانيان بسببه ، بل كان ورقة على وجده يعمل عمل الـكريم الطاهر النفس على أخماد نيران جواه ، وتجنب كل مباح . وكان الحارث بصيراً بالقلوب فرأى من البرّ بالغلام أن يحمى أذنه ان تسمع خبر زواج لمياء ، وقلبه أن يلتهب لانقطاع أمله منها ، وان لم يكن قد استشعر هذا الأمل من قبل .

اجتمع لدى ورقة من المال ما كان كثيرا ، فقد أعطته سيدته خديجة ثمن ما حمل إليها وزادته عليه اكراماً ، وأعطاه المسلمون الراحلون ثمن بعرانه الثلاثة ، لأنه لم يرض أن يفارق الشملالة ولو على ألف دينـار ، وتضاعف ما كان قد دفعه ثمنا فى العقاقير وزاد زيادة كبيرة فأصبح يملك نصف ألف من الدنانير لم يدر ماذا يفعل بها . فاستودعها أباه ، وانصرف يفكر فى الرحلة إلى اليمن فى طلب العقاقير . ولـكنه وجد نفسه كارها لهذه الرحلة لما خطر له من ضرورة البقاء فى جوار رسول الله ، ولأنه كان يشعر أنه لقربه من حيث تسكن لمياء — كأنه مع لمياء . وكم مرة خطر له أن يمر بدارها ليكون أدنى إليها أو تمسياً أن يراها ، ولـكنه ذكر أن الحارث على فرط بره ، وعلى ما سمع عنه ممن اشتروا منه بضاعته ، لم يزره ، بل أغراه بالرحيل فى طلب عقاقير اخرى فأدرك أنه لا يستطيع ذلك خوفاً عليه من والده

وأنه لا يحسن به أن يزوره ، أو يبدو بجوار داره لئلا يراه ولده أو أحد من أتباع ولده فيكون له منه أذى . وذكر نصيحة الأسقف فاستقر رأيه على البعد عن دار الحارث وقلبه يلتهب شوقاً إلى لمياء

وظل الفتى على حال دبّره لنفسه : ذلك أنه كان إذا قضى سهرته مع أهله و بلال ومن يزوره من المؤمنين وانصرفوا — نهض هو فتقلد سيفه ، واحتمل قوسه وكنانته ، والتحف عباءته فوق ذلك ، وسار حتى يبلغ شعب بنى طالب ،حيث يسكن رسول الله منذ قاطعتهم قريش فيجلس بالقرب من عتبة الحصن يحرس الباب ،أو يطوّف بالحصن خشية أن يعلوه أحد من أشقياء قريش الذين كانوا قد أعلنوا نيّة قتل الرسول مهما ترتب على ذلك من الأذى . وكان إذا لاح الفجر وسمع رسول الله ناهضا ليتوضأ يعود هو إلى داره يتوضأ ويصلى الصبح وينام . وإذا كان رسول الله فى سهرة عند أحد من صحابته رضى الله عنهم — وقف بباب الصحابى حتى يخرج فيسير أمامه حتى يطمئن عليه فى داخل داره

جرى على هذا مدة طويلة لا تفتر له همة . ولا يغض له جفن . ولا يعرف هذا أحد الا زيد بن حارثة . ولكنه مع ذلك لم يخبر رسول الله اجابة لرجاء ورقة خشية أن يصرفه رسول الله عما يجد فيه نعمة لقلبه بالسهر عليه .

وطال سهر ورقة وزيد يراقبه متعجبا لبره . لقيه ذات يوم فى داره فقال: الى متى يا صاحبي تقضى الليل فى العراء ؟ إن رسول الله آمن فى الحصن

لا يمسه أذى . قال اسمع يازيد انى ان أحببت رسول الله وقمت على حراسته فانما أحب الله وأجير الحق والخير الذى أرجوه للناس على لسانه . ما قيمة دنيا لا يكون فيها وما يصلح للناس حياةفيها ؟ كل يقوم بواجبه . إنه يدعو إلى الحق، ويحتمل فيه كل أذى ،وهو من هو من الناس ومن الله ، وأنا أريد أن أقوم بواجبي لله ولدينه ولنبيه وللناس . وتدخل بلال فى الأمر هو وباقوم فاستمر ورقةعلى حاله غير مكلف ولا مسئول

وحدث ذات ليلة والظلام شديد فى العتمة من الليل بينما كان ورقة يطوف بالشعب — أن رأى ثلاثة أشباح تروح وتجىء فى الطرقات المؤدية إلى الحصن فزعمها فى أول الامر أشباح أفراد من بنى هاشم يسيرون الى بيوتهم ، ولكنه رآهم يذهبون ثم يعودون ، وقد يقفون ليتلفتوا . فخطر له أن يخدعهم كما خدع القرضاب وتظاهر بالنوم على عتبة الدار ، فتجمع الثلاثة بعد قليل ، وسمعهم ورقة يقولون: نراه عاد إلى داره مبكرا . هـذا ابنه زيد نائم على عتبة الدار. لو عاجلتموه ! قال أحدهم : لا تفعلوا ، وإلا أنذرتموهم بما نحن بصدده . دعوه ، وانتظروا حتى يترك محمد داره فى الفجر الى مسجد إبن أبى قحافة (٢)

---

(٢) هو أبو بكر «رضه» وكان له فى داره مسجد يصلى فيه يلجأ إليه المسلمون للصلاة فى بعض الأوقات ولا سيما فى الفجر . وكان كثير من أهل مكة يذهبون اليه فى بيته ليؤمنوا على يديه سراً ، وعرف المشركون هذا فانبوه واهانوه .وإلى دعاية ابى بكر للدين يرجع الفضل فى ايمان سيدنا عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن الزبير وسعد ابن أبى وقاص وأبى عبيدة بن الجراح وغيرهم وهم من أعظم أساطين الاسلام

ادرك ورقة أنهم يأتمرون بالنبى، وعرف من بين المتآمرين صوتا ما كان يظن أن يكون مع المشركين على هذا ، ولكنه قدّر أن يكون معهم اضطرارا. ذلك هو زياد عبد الحارث أو بالأحرى عبد النضر . وأدرك لوجوده أن المؤامرة دبرها النضر ليقتل رسول الله . وخشى إن هو تركهم أن يكون النبى عليه السلام قد انتوى صلاة الفجر مع أبى بكر فى بيته ، وكان قريبا ، وفى هذا ما يعرضه للأذى . وخطر له أن يوقظ زيد بن حارثة ليلقى إليه خبر هؤلاء ، ولكنه خشى أن يعاجلوه إذا نهض بالقتل فيموت فى غرض يمكن تحقيقه بما هو أهون عليه ،وأعود بالخير على بنى هاشم. فاستمر متظاهرا بالنوم فرآهم مروا به ثم وقفوا عليه هنيهة وانصرفوا ، فما كادوا ينعطفون حتى نهض وشد قوسه فرمى أحدهم بين كتفيه فسقط ، ورمى زيادا فى كفه فتقطعت . وأراد أن يدرك الثالث ولكنه جرى حتى أخفاه الظلام . فنهض بعض خدم الرسول على الصوت وفتحوا الباب فوجدوا ورقة عائدا،وسألوه



فأخبرهم الخبر، فشكروه وقبلوه، وذهبوا إلى الرجل الملقى على الارض فوجدوه من عبيد بيت النضر عينا، فنقلوه إلى مكان أبين ليراه الناس فى غدهم ويعلموا مادبر النضر

وكأن النضر قد علم بما لقى رجاله فأرسل من ينقل القتيل ويتعرّف القاتل ولكنهم لم يجدوه. وجدوا بيت الرسول محروسا بغير واحد، فولوا الأدبار مهطعين. وكان الفجر قد أوشك أن يلوح، ورأى ابن حارثة أن ينصب ورقة لينام ويتركهم لينوبوا عنه فى حراسته وأصروا على ذلك فلم يجد بدا من إطاعتهم. ولكنه ما كاد يصل إلى الدار حتى رأى على بابها رجلا مربوط اليد ينتظره وهو يئن أنين مكلوم، فلما دنا منه ورقة عرف أنه زياد بعينه الذى ضربه. قال: ما خطبك يازياد؟ قال: أرسلنى إليك مولاى الحارث لتضمد جرحى بشىء من العقاقير، فانه لايجد فى داره شيئا. وقد كتب لك اسم الدواء على هذا الرق. وكان ورقة قد تأمل زيادا فلم يجد عليه مايريبه من أمره، فدق الباب ليفتح له، وأخذ الرّق منه ودخل به إلى الدار ليقرأها. فاذا فيها: موّه عليه وانج بنفسك وإلا هلكت. فسكت ورقة وغرق فى بحر من الفكر والعجب. كيف عرف النضر أنه هو الذى قتل؟ ولكن الامر لم يكن عجيباً فى الواقع، لأن النضر كان قد شغل نفسه بذلك، وكان له جواسيس وعيون من رجال ونساء. وكان من السهل عليه أن يعلم أن ورقة عاد، وأنه يحرس بيت رسول الله كل ليلة، ولكنه لم يشأ أن يعلن أحدا بذلك، ولا سيما زيادا لأنه كان يعلم ما بينهما من

مودة فأبقاه جاهلا أمره حتى تلك الليلة . ولكن ورقة لم يكن فى حاجة إلى هذا الكتمان، ولا سيما بعد ما جاءه العلم من الحارث بظهور أمره . فقال له : حتى أنت يا زياد تأتى مع القتلة لتقتل رسول الله . فشده زياد لما سمع وقال : كيف علمت ذلك ؟ قال : وماذا يهمك كيف علمت ؟ ألست من موالى أم المؤمنين ؟ وإن كنت حرا . قال : بلى ، وإذا كنت لم تستطع أن تخالف لسيدتك الطيبة العفوة أمرا ، فكيف أملك أن أخالف لسيدى الشرير السافل أمرا . لقد دفعنى إلى ذلك دفعا ، وأنذرنى إن أنا ذكرت شيئا لأبيه أن يقتلنى فكتمته . وهذا ما أصابنى الليلة إذ كنت فى المؤتمرين ، ولكن من أين لهم أنى أنا أحدهم ؟ قال ورقة : هذا ما دلنى عليه جرحك البالغ . قال : أولا تكتم أمرى؟ قال : لا والله ، ولقد كنت أحب أن تكون أنت المقتول . أتخوننى يا زياد فى نبى ؟ وقد علمت قدر حبى له ؟ قال : واسوأتاه !! هـذا أقتل لنفسى من كل قتل . ليتنى ألقى رسول الله وأنيب اليه بفيض دمعى وسيل قلبى . خذنى بحقك اليه . إنى أريد أن أطأطىء عنقى لسيفه ليضربنى ، فوحق الله وذلة الرق الذى أنا فيه لا يريح قلبى من إثم ما فعلت إلا أن أرى سيف رسول الله يهوى على رقبتى . لاأرى لعقابى إن أنا نجوت إلا أن أظل على شركى وكفرى ، ليعذبنى الله عذابه الشديد لقاء ما همت نفسى بقتل رسول الله

هنا تراءى باقوم ونادى : أسلم يا فتى . أسلم وأشهد الله على إيمانك ،

فأنك قد تبت وأنبت ، وإنى لأمنحك عن رسول الله عفوا وإحسانا .
قال زياد وقد تحدر دمعه واختنق صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده وسوله ، وأننى أجرمت وأسأت ، ولا يسع جرمى إلا عفو الله ورسوله . فتناوله باقوم على الاثر ، وعلمه الوضوء ، وتوضأوا جميعاً وصلوا صلاة الفجر معا

ثم أخذه ورقة إلى غرفته وطمأنه بأنه لم يخبر أحداً أنه كان مع المؤتمرين . ثم سأله عن حال هرميون ولمياء فقال : إنه أسوأ حال ، لأن النضر يلح فى أن يزوجها من فتى من بنى عبد الدار ، وهى وأمها ترفضان ، ولكنه يخشى أن تحمل اليه حملا وإكراها . ولكنى أعلم حق العلم أن لمياء عازمة على قتل نفسها ليلة الزفاف ، وأمها لا تشك فى ذلك فهى لا تفارقها ، ولا تنقطع عن الشجار مع زوجها وابن زوجها بسبب ذلك .

والواقع انه فى اللحظة التى كان فيها زياد عند ورقة والنضر والحارث مشغولين بما جرى ، إذ كان الحارث قد وقف على ما كان ابنه يدبره من السوء — كانت هرميون ولمياء على ظهر ناقتين من أهزل النوق تسيران فى طريق جدة

كانت هرميون تكره زواج ابنتها من عربى ، وكانت لمياء تكره كل زواج بعد ما خاب أمل قلبها ، وكان النضر يوشك أن يضربهما الضربة القاضية ، فلم تجد هرميون بدا من المجازفة ، وأخذت تتحين الفرص حتى وجدتها فى تلك الساعة فانسلت بابنتها على الأقدام ، حتى بلغتا بعض

خيام كانت قد نزلت عندها هى والحارث يوم جاءت معه من مصر وأكرمهم أهلها أيما إكرام ، وأكرمتهم هى من جانبها إذ أعطت أهلها ثيابا ومالا

هناك التقت بالعجوز ربة الدار وزوجها وابنة لهما ، وكانتا متنكرتين كل تنكر ، فلم يعرفوهما لأول وهلة . ولكن العرب كرام فلم يسائلوهما فى شىء ، إلى أن وجدت هرميون فرصة للحديث مع الزوجة فأخبرتها خبرها ، وطلبت اليها رواحل لتنقلها هى وابنتها إلى جدة ، وحلفتها بكل مقدس لديها أن تكتم خبرها حتى لا يعرف أحد مكانها . فطمأنتها المرأة على ذلك ، وخلت بزوجها فأجاب وأعد بعرانه ، ونقدت هرميون المرأة أجرة البعران نقدا سخيا ، ووعدت أن تكرم الزوج عند بلوغها سالمة إلى جدة . وتطوع الزوج إزاء هذه المكارم أن يسير بهما فى غير الطريق المعتاد ، مارا بمفازة سكانها أهله وأولاد له ، ليبلغ جدة مسرعا وكذلك كان

هناك وجدتا سفينة على وشك الرحيل إلى عيذاب كانت آتية من بلاد الحبشة تحمل من خيراتها شيئا كثيرا إلى مصر ، ولكنها لم تكن لتحمل ركابا ، ولذلك أبى صاحبها أن يأخذ أحدا معه ، ولكن هرميون توسلت اليه وكلمته بالرومية ، وخبرته أنه إن لم يأخذها معه فسيردها أعداؤها وهم من ولاة مكة ، إلى حيث يعذبونها . فلم يسع الرجل إلا أن يبادر فينقلها وينشر قلوع السفينة على الفور ليرحل بهما من بلاد كرهتها اليوم كرها شديدا . لم يفت هرميون أن تكرم العربى الذى نقلها أيما إكرام ، وتحمله رسالة شكر وسلام الى زوجته وابنته

الفصل الثامن والعشرون

خمار و نقاب

تنبهت قريش فى صبيحة اليوم الثانى لمقتل عبد النضر على أحداث عظيمة .علم بنو عبد المطلب بما كان من ائتمار النضر وصحبه على رسول الله ، فذهب وفد منهم على رأسه حمزة والعباس — و إن لم يكن قد أسلم بعد — إلى الحارث بن كلدة فى بيته يسألونه هل كان ماجرى بعلمه و رضاه ؟ فأنكر علمه واستعاذ بالله أن يرضيه قتل رسول الله . فقالوا : وهل يرضيك ان نرسل نحن غلماننا ليقتلوا ولدك غدرا كما أرسل ولدك غلمانه ليقتلوا أخانا غدرا ؟ قال : كلا. قالوا: فما جزاؤه إذن ؟ قال: لاتسألوا والدا فى جريمة ولده، فلن يكون رأيه معكم على ولده ، وها أنتم أولاء على مثل حالى، فابنكم يسفه أحلام قريش، ويقول لهم بلسان ربه : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » ومع ذلك تمنعونه ممن يؤذيهم بلسانه . قالوا : البادى بالشر أظلم وابنك وصحبه لم يتركوا سفلا من القول حتى رموه عليه حتى فى بيت الله وكانوا فى ذلك بادئين ، على أنا مامنعناه إلا من الاغتيال ، ولم نمنعه من سوء المقال قال : قد يكون القتل أهون من القول . قالوا : والاغتيال بيد العبيد والغلمان أهو شيمة الرجال ؟ . قال : هذا ما يحزننى و يخجلنى . وددت لو كان ولدى رجلا فيطلب محمدا إلى قتال ، فاما قتله و إما مات بسيفه ،

ولـكنه جبان رعديد . قالوا : حسبنا أن تنعته أنت بذلك وإلا فقـد جئنا نطلب اليه مواجهتنا ليختار منا من ينازله لأنه ليس ضريبا لمحمد بن عبد الله، ولا الدنيا في حاجة إليه كبعض حاجتها إلى بصيص من نور الله الذى استودعه رسوله ، ولأنه إنما يبغى علينا أول مايبغى ، إذ نحن حماة رسول الله وعضادة دينه. ولـكنا بعد هذا لا نتنازل امرأة! وقد جئناه بخمار ونقاب وفاغيه وحناء ، فان أبى أن يلبسهما ويتطيب ويختضب ، وود أن يرد علينا شوار العروس — فنحن فى انتظاره حيث يشاء ثم نهضوا عائدين إلى شعبهم ليرتبوا على مداخله ومخارجه حراسا وعسسا من أنفسهم كل ليلة ، حتى يأمنوا على أخيهم شر مايبيته السفلة الجبناء

كان النضر فى تلك الاثناء فى الدار يتسمع ، ولـكنه لم يجرؤ أن يبدو للحاضرين ، وكره أن ينعته أبوه بما نعت ، وأن يقول حمزة والعباس فيه ماقالا ، ولـكنه وجد فى قولهم دليل اكتفائهم من الامر بالاهانة . ولم يطق أن يعـلم أحد بوجوده فذهب من فوره إلى صحبه يبلغهم ماجرى ويستعديهم على بنى عبد المطلب . ولـكنهم أبوا عليه ذلك ، ولامه بعضهم على مافعل إذ أذلهم فى عين بنى هاشم ، وأحقرهم فى عيون النـاس فعاد النضر يفـكر فيما أصـابه من الخذلان ، ورأى أن ورقة سبب كل هذا . فاجتمع عليه الغلان وثارت نفسه على ورقة، فعزم على تنفيذ ما كان قد انتواه من قتله حين جاءه العبد الثالث بخبر القتيل والقـاتل . وانصرف لتدبير مقتله فى تلك الليلة . فخرج إلى ظاهر مكة ليلقى جماعة من الصعاليك

العرب كانت له بهم معرفة قديمة واتفق معهم على اغتيال ورقة وهو خارج من داره أو عائد إليها، وجعل لكل منهم دينارا. وهناك علم منهم أن امرأة أبيه وابنتها شوهدتا تسيران فى حمى أعرابى إلى جدة من درب غير دربها. فأنكر ذلك، ولكن القائل كان ممن يترددون على بيت الحارث، ويأتى إليهم بالماء من بئر فى جوار خيشه فهو يعرفهما لذلك حق المعرفة، ولكن النضر لم ير أن يأخذ بقول الرجل فيرسل أحداً فى طلبهما وقطع الطريق عليهما، لانه كان مشغولا بهمه وتدبيراته. ورابه من الرجل قوله إنهما سارتا فى غير دربها، إذ كل درب غير دربها مفازة محفوفة بالخطر الأدهم وما يجرؤ أحد أن يسير بامرأتين فيه. على أنه لم يعد بعد ذلك إلى الدار ليستوثق بل ذهب ليلقى ابن معيط صديقه وشريكه الاثر، وقضى معه الهزيع الاول من الليل كراهة أن يلقى أباه. على أن أباه كان قد خرج فى إثر حمزة والعباس يلتمس بيت رسول الله ليلقى على أقدامه حزنه ومقته ويستبرىء من جريمة ولده، ولم يعد إلى داره حتى كانت الشمس على وشك المغيب. هناك دخل بيت أهله وهو لم يدخله منذ جاءه زياد بخبر المؤامرة إذ كان قد نزل لينظر فى الامر وعواقبه ولم يفرغ منه إلا مغرب يومه. دخل البيت ولكنه لم يجد هرميون ولا لمياء. وسأل عنهما فلم تدر جوارى البيت عنهما شيئا، لانهن ما كن يدخلن عليهما إلا إذا طلبن فارسل فى طلب ولده، فقيل له إنه لم يعد منذ خرج فى الصباح فأرسل فى طلب امرأته

فلما جاءت قالت : إنها لاتدرى من أمر هرميون إلا أنها كانت تود زيارة أهل بيت المطعم بن عدى (١) ولعلها ذهبت إليهن . فأرسل يسألهم ولكن الرسول عاد بأنها لم تجئهم ، فضاق صدر الرجل ، وأخذ يفكر فيما تكون قد فعلت ولكنه لم يهتد إلى رأى

لم يخطر له أنها فرت بابنتها ، وانما خطر له أنها لما كان بينهما من المشادة آثرت أن تقضى يوما أو بعض يوم فى أحد بيوت الاصحاب العظماء كالمطعم بن عدى هذا ، وتستعين به عليه . ولكنه لم يدر من يكون هذا الصاحب ، ولم يدر متى خرجت ، حتى يوجه العتب إلى صاحبه على أنه لم يعلمه حتى الآن بأمرها . وآثر أن ينتظر ، فانتظر . ومضى من الليل شطر كبير فلم تعد ولم يبلغه أحد عنهما شيئا ، ولم يقفه ولده على شىء

أخذ الشك يساوره من كل جانب ، ولكنه كان رجلا صبورا فآثر أن يتجلد حتى يطلع عليه الصبح ويبصر فى نوره له طريقا . فلما جاء الصبح نهض وخرج فوجد النضر فى انتظاره ليقول له إن امرأتك هربت بابنتها فى طريق جدة ، فقد شوهدتا فى رفقة أعرابى يسير بهما صباح الأمس فى طريق الغرب ، وأنه أرسل وراءهما رسلا ليتعرفوا أخبارهما ، ويمنعوهما من نزول الماء إذا كان فى قصدهما السفر إلى مصر ، وليعملوا على إعادتهما إلى مكة . والواقع أنه لم يكن قد أرسل أحداً ، وإنما تراءى له

(١) أحد أصحاب الصحيفة ولكنه كان من عظماء قريش وأنبلهم ، وهو الذى استجاره رسول الله لما عاد من الطائف وأراد أن يدخل مكة فدخلها فى حمايته ، وإن كان من أعلام المشركين

فى الدار بعض من كان أرسلهم ليقتلوا ورقة ، فخطر له أن يرسلهم وراءهما فقال ما قال . أما الحارث فقد سمع حديث ولده وجلس خائر القوى على مقعد كان بجواره وسكت سكوتا طويلا ، والنضر لا يسائله. ثم أفاق الحارث من صدمته فترك ولده ودخل إلى غرفته الخاصة دون أن يكلمه لأنه رأى أن كل ما أصابه حتى الآن من المتاعب والأحزان إنما كان بفعل ولده وجنوحه إلى الشر بفطرته ، وأن من العبث أن يكلمه فى ذلك

على أن النضر سره من أبيه ألا يكلمه إذ كان يعلم ما يجول فى خاطره ، ونزل إلى القاعة التى يلتقى فيها الناس ليلتقى مَن دسهم على ورقة ليقتلوه . وما كان أشد دهشته وغضبه حين علم منهم أن ورقه رحل عن مكة فى طريق يثرب ، وأنه كان فى رفقة من المسلمين يودعونه ، وأنهم لم يجدوا فى استطاعتهم قتله وهو على هذا الحال فعادوا يخبرونه. كاد يتميز النضر من الغيظ لا لأن تدبيره لقتل ورقة قد خاب كما خاب تدبيره السابق . وكان قد وعد أصحابه أن يجيئهم هو برأسه — بل لأنه قدّر أن رحيل الفتى فى يوم فرار هرميون ولمياء لا بد أن يكون بتدبير سابق بينهما على يد زياد عينا لمّا أرسله أبوه ليضمد له جرحه بشىء من عقاقيره . فعزم على أن يعاقبه، و إلا فمن هذا الذى يجرؤ على دخول بيته آمنا ليدبر ذلك إلا أن يكون من أهل الدار ! و إن ذهاب هرميون غربا وذهاب ورقة شمالا لا يفيد افتراقهما إلا تمويها ، فهما لا بد مجتمعان إما فى جدة أو وادى مر (٢) ، فأمر

---

(٢) هو وادي فاطمة الآن أول مراحل الطريق إلى المدينة ويسمى مر الظهران

رجاله أن يقسّموا أنفسهم فريقين ، هذا يسير إلى جدة ، وذاك إلى مرّ ، فمن بلغ احداهما قبل الآخر ولم يجدهما فيها يلحق بالفريق الآخر عسى أن يكون فى حاجة اليه . وعلى هذا التدبير الحربى الخائب نهض أعوان السوء لا لينفذوه، بل ليجتمعوا خارج مكة حيث شاءوا، ليأكلوا و يشربوا و يقضوا يوما سعيدا بأموال النضر هازئين به و بتدبيره لأنهم كانوا يعلمون أن بعرانهم هزيلة ، وأن ورقة خرج على شملالة تأكل الطريق أكلا ، وأنه خرج من عش أمه ، وأن امرأة الحارث خرجت قبله ، وأن لاداعى إلى هذا التمويه. و إذا كانا متفقين على الهرب معا فقد كان من الميسور أن يسير وراءهما ككل سائر و إلا فلو كانوا يريدون تضليل الناس لكان عليه أن يسبقهم فى الخروج إذا أراد طريق عسفان لطوله لا أن تسبقه هرميون .لذلك رأوا ساعة خرجوا أن يوفّروا على أنفسهم الجهد والمشقة ، وغابوا عن مكة ثلاثة أيام وعادوا يقولون إنهم لم يتركوا شبرا من الأرض لم يفتشوا فيه عنهم ،وأنهم تأكدوا فى جدة أن هرميون ولمياء ركبتا سفينة مع أحد الرجال إلى مصر. فقدّر النضر أنه ورقة حتما ، ولم يجد ضرورة للاستفهام عن حلية الرجل وصفته، وقد كان من الحتم أن يصفوه له بما عرفوا عن ورقة

والواقع أن ورقة لم يترك مكة عملا بنصيحة أستاذه فيما أرسله إليه مع زياد ، بل نزولا على إرادة مولاته أم المؤمنين ، فقد جاءها خبر صريح أن القوم ذكروه فى مجالسهم بكل سوء فقالوا : إنه صاحب العير ، الذى جاء بالطعام الى شعب ابى طالب ومدبر هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وأنه قاتل

العبد النضرى ، وفاضح أمرهم ، ولذلك أهدروا دمه . وعلمت أم المؤمنين بذلك فور قوله فدعته إليها لتعلنه بأمرهم ، وتأمره بالرحيل على الفور عن مكة[٣] قالت له : يابنى ، إننا نضن بحياتك ، وقد علمنا أن قريشا جعلت لرأسك ثمنا سيتهافت عبيدهم على نيله. ولقد أديت واجبك إذ ايقظت بني عبد المطلب لاقامة الحراس على كل مدخل ، وبقي علينا ان نؤدي واجبنا نحوك . ارحل عن مكة من فورك ، واقصد إلى بني النجار فى يثرب فهم خؤولة مولاك ، وعش فى كنفهم حتى ارسل فى طلبك ، او عش كما شئت . وقد رحل اليوم إلى يثرب نفر من الأوس على رأسهم أبو الحيسر أنس بن رافع وفيهم فتى من بني الأشهل يدعى أياس بن معاذ اسلم بدعوة مولاك وجهر[٤]، واحتملها سائر العير حتى حين ، فأدركهم فى الطريق ، وسر فى أمن عيرهم . قال ورقة: إنك لتحرمينني نعمة الشهادة فى سبيل رسول الله . ولقد جاءنى العلم بما بيت لى النضر وصحبه من الشر بخط أبيه فى هذا الرق ولكنى آثرت أن أموت على عتبة رسول الله لتكون لى الجنة . قالت : الجنة لك بما دعا لك رسول الله ، وما رضى عنك[٣] ، فأستودعك الله . إنك لاتدرى ماذا نجد لفراقك وما نكن من الحب لك ، ولكننا نؤثر حياتك على مصلحتنا . فبكى ورقة بكاء غزيرا وانحنى يقبل يدها ، ودعت له . وانصرف إلى أهله لينهى إليهم أمر مولاته ، ويرتحل ببعض ماله وشملالته عن مكة . وإذا هو يلقى على باب رسول الله جماعة من إخوانه المسلمين علموا بما أعلنته

---

(٣) هذا لسان الحال فى القصة فليتنبه القارىء (٤) كتب السيرة

قريش من إهدار دمه ، وعلموا من زيد بن حارثة أن مولاته دعته إليها لتأمره بالهجرة إلى يثرب ، فجاءوا ليحيطوا به ويمنعوه ، ويرافقوه إلى ماوراء التخوم

ذهب ورقة باخوانه إلى بيته ، وأعلم أمه وأباه بما كان ، فشكرا لأم المؤمنين فضلها ، وودعا ولدهما وداعا كريما .وعلى هذا خرج ورقة بشملالته وأكثر مااستودع أباه من المال ، وخرج فى طريق يثرب غربى مكة فى سيفه وقوسين وكنانتين ، يحيط به إخوانه من كل جانب . حتى إذا بلغوا به وادى مر الظهران ، وأمنوا عليه عقبة عسفان(٥) قبلة كل منهم ودعوا له جميعا فاستودعهم كلمات يبلغونهـا إلى مولاه رسول الله ، يطلب منه الدعاء والرضا ، وأخرى إلى مولاه الحارث بتحية وسلام وعتاب .ثم سار بعد العقبة وهم يشهدونه ، وقد حنت الشملالة إلى الصحراء وقطع الفلوات ، فطارت به مرقلة تبغى عير يثرب ، حتى بلغهم فى رابغ فحياهم تحية الاسلام وأنذرهم بخبره ففرحوا به وساروا به إلى يثرب

فى الوقت الذى كان فيه ورقة يودع أصحابه عند عقبة عسفان — كان الحـارث قد خرج من داره إلى دار ورقة ليخرجه من مكة على الفور ، إذ كان قد بلغه من زياد أنه أخذ البطاقة منه وشرع يضع العقاقير على يده

(٥) قطعة من الجبل معروفة بصعوبة مرتقاها والسير فيها فهى من الضيق بحيث لايستطيع أن يمر عليها الابعير بعير وتجاورها هاوية سحيقة لامفر من الموت لمن تزل به القدم فيها .

كما أمره ، ولكنه سمعه يقول لأمه : إن مولاى الحارث ينصح لى أن أنجو بنفسى ، ولكننى لاأرحل حتى يرحل رسول الله . لاأفارق ظله حتى أطمئن عليه أو أموت . فقدر الحارث أن الغلام لايزال فى مكة ، ولذلك ذهب اليه ليغريه بالخروج من مكة ويكلفه البحث عن زوجته وابنته عسى أن يجدهما ويحملهما على العودة اليه ، أو البقاء بهما فى جدة حتى يكتب إليه . وانما خطر له ذلك لأن النضر أخفى عنه ماروى رسله خشية أن يزيد وجده ، ورآه خارجا من الدار فلم يكلمه

بلغ الحارث دار ورقة ، ولقى باقوم وتماضر ، وعلم أن أم المؤمنين أمرته بالهجرة إلى يثرب فهاجر . فسقط فى يد الحارث وصمت لايتكلم مدة اعتورته فيها الأوهام خيرها وسيئها . وخطر له فيما خطر أن سفر الفريقين فى وقت متقارب إنما كان بتدبير ، ولكنه نفى عن نفسه هذا الخاطر على الفور إذ كانت الدلائل تناقضه . فنهض الرجل حزينا كسير القلب هاما بالخروج من دار باقوم وهو يقول : إن كنت أحمد الله على خروج ورقة من مكة ونجاته من أذى ولدى ، فانى أدعوه تعالى أن يجزى ولدى بما فعل بى وبه .

وفيما هو يفتح الباب ليخرج وجد عند الباب أعرابيا شيخا على بعير هزيل يسأل عن ورقة. فلما رآه الحارث لم يعرفه ، ولكن الرجل عرفه ، فاستوقفه وأناخ وذكره بنفسه فذكره ، وقال : إنه آت له بكتاب من امرأته وآخر إلى ورقة ، وناوله الكتاب . فاذا فيه بالرومية :

إلى ولدنا ورقة . رحلنا عن مكة فارين بأنفسنا من أذى النضر . فر بنفسك أنت أيضا ، وثق أننا نواليك بدعواتنا ، ونذكرك بالشكر والمحبة الخالصة ونستودعك الله ؟

هرميون

قال الحارث وقد قرأه : ليس هذا الكتاب لى . هذا لورقة وأعطى باقوم اياه ، فأخرج الرجل الكتاب الثانى وقدمه إليه فاذا فيه :

سيدى وزوجى الكريم

تحية . لقد كنت أعتقد أنى بمجيئ معك إلى مكة أفر من شقاء إلى رخاء . ولكنى وجدت أن نيران الاسكندرية وحيرة الشرور فيها — أخف من عداء ولدك لى ولابنتى ونكرانك حتى عليك . أردت أن تقتلنى وتقتل ابنتى هما وحزنا . وإذ كان علىّ أن أرضى ابنتى كما ترضى ابنك فقد فعلت مافعلت . والبادى بالشر أظلم والسلام ؟

هرميون

مادت الارض بالحارث إذ أتم قراءة الخطاب ، ولكنه طواه ووضعه فى جيبه ، وسار فى طريقه كأن لم يكن أحد معه يودعه ، أو أن فى الارض من ينظره ، فلم يسلم ولم يتكلم ، وعاد إلى الدار ليلقى بنفسه فى الفراش مريضا .

الفصل التاسع والعشرون

فى يثرب (١)

بلغ ورقة منازل بنى النجار خئولة بنى عبد المطلب بن هاشم ، ونزل

---

(١) يثرب مدينة الهجرة وعاصمة الراشدين . مدينة قديمة بناها العرب العمالقة على أثر خروجهم من مصر . وهى تعريب كلمة أثريب المصرية : وتسمى طيبة تعريبا لاسم ثيبة الذى يطلق على مدينة الاقصر وهى فى الحقيقة على خط عرضها . وكان ينتظر إذ هى فوق مدار السرطان بقليل أن يكون حرها أشد من حر الاقصر لكونها فى صحراء والاقصر يجاورها النيل ولكنها تعلو عن سطح البحر ٧٦٠ مترا ولذلك لا تزيد درجة حرارتها على ٢٨ درجة فى غالب الصيف . وفى الشتاء تنحط درجة الحرارة فى النهار إلى عشر فوق الصفر وفى الليل إلى خمس تحت الصفر . وكثيراً ما يجدون الماء متجمدا فى أوانيه فى الصباح (عن الرحلة الحجازية للبتانونى) على أن فيها اياما كثيرة تبلغ فيها الحرارة درجة لا تطاق

وهذه البلدة كثيرة الامطار شديدة السيول ، ولذلك فهى كثيرة البساتين والمزارع كثيرة الآبار ، كثيرة المراعى ، ولكنها كثيرة الحميات أيضا . وقد أصيب بها جميع الذين هاجروا مع الرسول عليه السلام على إثر نزولهم . وسنأتى على وصف مسهب لها فى رواية « باب الشمس » ولكن حسبنا اليوم أن نعجل بالقول أن فى شمالى المدينة واديا ينتهى إلى جبل أحد الذى حدثت فيه الموقعة المسماة باسمه وفيها جرح وجه النبي عليه السلام وشفته وكسرت رباعيته . واستشهد فيها أسد الاسلام حمزة بن عبد المطلب . وفى جنوبيها على خمسة كيلو مترات قرية قباء التى بنى فيها أول مسجد فى الاسلام بناه الرسول وهو مهاجر إلى المدينة . وإلى غربيها وادى العقيق الخصب الذى كان مربض العز ، ومجلى حسن العمارة فى القرن الاول وتغنى به الشعراء وإلى شرق المدينة شرق الحرم المدنى والروضة النبوية يوجد البقيع أكرم بقعة فى

فى كنف كبيرهم سعد بن زرارة أحد زعماء قبيلة الخزرج . وقد كان لمقدمه عليهم شأن كبير فقد علموا منه خبرا عظيما تجردت على إثره السيوف من أغمادها ، وانتظرت كلمة النزال لتسيل الدماء على إثرها فى أودية يثرب وتعلو أصوات العويل والبكاء فى كل دار . بيد أن ورقة لم يعن هـذا ولم يكن يعرف ماوراءه وإنما كان كلامه مرسلا على عواهنه وان تشمّمت منه الخزرج ما كان يعدّ لهم الأوس (٢) من الشر فثار ثائرهم ، ذلك أنه روى

المدينة بعد قبر المصطفى عليه السلام إذ دفن فيه قرابه عشرة آلاف من صحابة الرسول وأنصاره وحماة الاسلام . وكان بعض هذا المسجد على حاله الآن بيوت زوجات المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

(٢) الاوس والخزرج قبيلتان من الازد نزحتا من اليمن فى أوائل القرن الرابع الميلادى، كما نزحت حمير وغسان وغيرها إلى الشمال، ونزلتا بيثرب . وكان بها بطون من اليهود النازحين إليها من بيت المقدس على أثر ما أنزل بهم بختنصر من الويل ، وعلى أثر ما لقوا على يد القـائد پومبيوس الرومانى فى سنـة ٦٤ قبل الميلاد وعلى يد الامبراطور طيطوس سنة ٧٠ بعد الميلاد ، وما لقوا من نـكبة هادريان لهم سنة ١٣٦ ولعل أبين هذه البطون بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع الذين كان لهم شان كبير فى تاريخ الاسلام. وعاشت الاوس والخزرج مع اليهود موالى أى عمالا وخدما حين كان اليهود أصحاب الحول والطول وأرباب الحصون التى يسمونها الآطام إلى أن استعان بهم إخوانهم الذين تنصروا فى الشام وهم العرب الغسانيون ملوك الشام على قتال جيرانهم اليهود انتقـاما منهم على ماجاء فى تاريخ دينهم من أن اليهود صلبوا المسيح عليه السلام ونـكلوا بأتباعه . وإذ لم يكن اليهود قد صلبوا للأوس والخزرج أحداً فيغضبوا له ويتحمسوا ، فقد أغراهم الغسانيون بالاستيلاء على أرزاق اليهود وبساتينهم وآطامهم وبهذا أذلوا اليهود . وصار الأوس والخزرج أندادا لهم فى الملك والسلطان لهم من اليهود موالى كما كان لليهود من العرب مثلهم . ولما رأى اليهود ماحل بهم وخشوا أن يستعين العرب باخوانهم فى مكة وغير مكة على افنائهم لجأوا إلى سياسة التفريق بين

فيما روى من حديث سفره أنه جاء فى عير لأبى الحيسر الأوسى، وأن ابن أختهم عليه السلام التقى بهم فى بعض الدور فى مكة[٢]، وكانوا سبعة نفر فدعاهم إلى الإسلام كما كان يدعو كل من يلقاه من قبائل العرب فى منى وعرفات، وتلا عليهم بعض ما نزل عليه من كتاب الله القويم، فصدقه العير فى قلوبهم ومالوا إليه، ولكنهم لم يروا أن يجهروا بإيمانهم ولا بإسلامهم. وقالوا إنما جاءوا مكة لغير ذلك، إلا واحد منهم يدعى إياس بن معاذ الاشهلى [٣] فقد قال لهم وقد امتلأ قلبه بنور الحق : أى قومى، هذا والله خير مما جئنا له. فضرب وجهه أبو الحيسر بحفنة من حصباء البطحاء، وقال :دعنا منك فلقد جئنا لغير هذا ... [٣] قال بنو سعد : زعمنا أنهم ذهبوا يعتمرون ! ألم يعتمروا ؟ [٤] قال : بلى. قالوا : ففيم إذن ملامة الغلام ؟. وفيم وردوا مكة ؟ فأجاب أحدهم : يلتمسون من قريش ما كانوا يلتمسونه منها ليوم معبس ومضرس [٥] لتحالف قريشا علينا نحن الخزرج

الاوس والخزرج بالوشايات والقاء بذور الشحناء فنجحوا فى إحداث النفرة بينهما وتحكيم الحقد والبغضاء فى قلوبهما فتشاجروا وتقاتلوا ولم يزالوا على هذا الحال حتى أدركهم الاسلام بعد يوم بعاث الذى كاد يذهب بهم، فاتفقت الكلمة والتأم الصدع وصاروا كعهدهم يوم جاءوا أمة واحدة على نصر دين الله وكان لهم ما كان من خير الدنيا ونعيم الآخرة. أولئك هم الانصار الذين أراد الله أن ينصر بهم دينه ويعلى كلمته ويظهره فى العالمين سراجا منيرا

(٣) كتب السيرة

(٤) الاعتمار حج فى غير أوانه، وكان أكثر ما يكون فى شهر رجب

(٥) جداران حارب عندهما الاوس والخزرج

وأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وعلقوا كرانيف النخل على بيوتهم ليموّهوا علينا قصدهم ويحموا أنفسهم من أذانا (٦) وقد فعلوا اليوم مثل ذلك . قال سعد : إن القوم يبيتوننا فأعدوا لهم ماتستطيعون من قوة ومن رباط خيل وأجمعوا واحشدوا فى خفاء

والواقع كذلك . فقد كانت الاوس تتجهز لحرب ضروس تريد أن تأتى بها على الخزرج . ولذلك جددوا الحلف مع أنصارهم من قبائل اليهود النازلين فى يثرب وهم بنو قريظة و بنو النضير على المؤازرة والتناصر . وراسلت حلفاءها من مزينة . ثم جعلوا على رأسهم زعيمهم أبا أسيد حضير الكتائب . وجددت الخزرج حلفها مع يهود بنى قينقاع ، وراسلت حلفاءها من القبائل المجاورة أشجع وجهينة ، وجعلت على رأسها عمرو بن النعمان البياضى . وأخذ كل فريق يستعد للقتال فى خفاء . على أنهم ما كانوا يأبهون لظهور أمرهم ، فقد كانوا قبل هذا وفى كل وقت أعداء صرحاء كل منهم مهدر الدم لما بينهم جميعا من الثارات والعداوات المستحكمة من أيام حروب الفجار (٧)

---

(٦) قال ابن الاسير . كان من عادة العرب إذا تهيئوا لفريضة الحج أو العمرة وكانوا متخاصمين أن يعلقوا ذلك على بيوتهم ليكف عنهم عدوهم الاذى رعاية للدين .

(٧) هى حروب وقعت بين الاوس والخزرج بعضها تلو بعض بسبب فرس أراد صاحبها ألا يبيعها إلا لاعظم الرجال فى يثرب . واختلف من فى السوق يومئذ فيمن هو العظيم . هذا يقول فلان ، وذاك يقول فلان إلى أن يمت الى يثربى من عظماء

ولقد أحس ورقة في تلك الأيام بالوحشة فكان يخرج إلى أسواق يثرب ليأتنس بالناس ويتعرف شئونهم ، وهناك التقى بصنوف متضاربة العقائد والمذاهب ، من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والبوذيين الذين كانوا يأتون بمتاجرهم من الهند إلى يثرب وبفئات من الروم والفرس والشاميين واليهود جاءوا فارين من ويلات القتال فى بيت المقدس

وسمع منهم أخبار اقتتال الفرس والروم فى أدنى الأرض من بلاد العرب ، وعلم أن الفرس قد تركوا أنطاكية ، وقيصرية واتجهوا إلى بيت المقدس . وأن شاهين قائد جناحهم الجنوبى على وشك أن يدخل بيت المقدس ويستولى على خشبة الصليب المقدس ليرسله إلى مارية علامة على نصر المذهب اليعقوبى على المذهب الرومى الذى لا يقره البطارقة اليعاقبة ولذلك فهو كفر .

هناك التقى بأخيه فى الإسلام الفتى إياس بن معاذ الأشهلى الذي رافقه فى العير القافل إلى يثرب فأنس به وسعد وصار فى رفقته فى أكثر أوقاته : ومن ثم جمعه إياس برجل من الأوس عظيم القدر يسمونه الكامل (٨) لأنه كان شاعرا وحكيما . وكان عالى الشرف والنسب فيهم قوى القلب جلدا صبورا اسمه سويد بن الصامت . كان هذا الرجل يفخر

اليهود . وأدى اختلافهم فى التعيين وما صحبه من التحقير إلى إراقة الدماء عشرات تلو عشرات من السنين

(٨) كتب السيرة النبوية

فى قومه بأنه سبقهم الى نعمة الله إذ أسلم وآمن بمحمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية . اجتمع به فى بعض أيام الحج فى مكه حين كان يخرج إلى الحجيج فى منى وعرفات وعكاظ وغيرها من مجامع الحاج يدعوهم الى التوحيد فيؤمن به من يؤمن ويجحد على جهله من يجحد . وأنه عليه السلام دعاه إلى الله وإلى الاسلام وتلا عليه بعضا مما أنزل الله عليه من القرآن ، فصغرت فى عينه حكمة لقمان التى كان يستهدى بها فى رأيه وشعره وطابت نفسه للقرآن وآمن برسول الله ، وعاد الى موطنه يتحدث عن رسول الله ، ويقول للأوس ولكل من كان يتصل به : يا قوم . ان الذى يخبرنا اليهود بمقدمه قد جاء . هذا الذى فى يده خلاصنا من ذلة الايمان بغير الواحد الأحد . هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . نور الله الذى يرتقبه اليهود رجاء أن يعتزوا به علينا يوم تتم دعوته فى قريش . فانهضوا اليه وآمنوا به وبايعوه لا تسبقكم اليهود اليه

والواقع أن لليهود فضلا غير مقصود فى أن كان الأوس والخزرج على تمام الاستعداد لقبول دعوة الإسلام وحمل أمانته . فقد كانوا فى عهود جوارهم لليهود يرجون لو يتهودون كما تهودت حمير . ويدخلون فى دين اليهود لا حبا فى اليهود بل فرارا من ذلة النفس باتباع دين غير كريم هو دين الوثنية المكية التى كانوا عليها . ولكن أحبار اليهود كانوا يأبون عليهم هذا التهود (٩) ويحولون دونه قائلين : « ان اليهودية وقف على بنى اسرائيل من أولاد ابراهيم » حين أن المانع الأكبر كان فى أن ادماج الأوس

والخزرج فيهم معناه زوال شخصيتهم الاسرائيلية برجحان العربية عليها ، وزوال اختصاصهم بالعز والسلطان . ولذلك أبى الاحبار أن يهوّدوهم ومن ثم بقى الأوس والخزرج على وثنيتهم الكريهة التى كان اليهود مع ذلك يعيّرونهم بها ويسفّهون أحلامهم للاستمساك بها(٩)

من أجل هذا كان حديث سويد وإياس وورقة مع من يتصلون بهم من الاوش والخزرج حديثا مشتهى . لأن الرسول عليه السلام عربىّ وهم عرب فهم أحق به ، وهو أحق بهم من كل إنسان . ودينه دين توحيد وإخاء ومساواة ، فهو خير بديل من دين اليهودية المحتكر . ثم هو لاينكر أحداً من الانبياء كما يفعل اليهود مكابرة وأنانية ويعظم عيسى بن مريم تعظيما هم يعلمون أنه يستحقه وان انكره اليهود وكذبوه . ولهذا أكبر الأوس والخزرج هذا الدين ولا سيما لانه دين الحنيفية السمحة : دين أبيهم ابراهيم أبى اسماعيل واسرائيل الذى هم عليه فعلا لولا مادخل عليه من بدعة الاوثان .

وحنت نفوسهم الى اعتناقه واعلاء كلمته ولكن الناس إذا حنت نفوسهم الى أمر كان لابد لهم أن يأتوا بزعيم منهم تجتمع فى نفسه عواطفهم وأغراضهم ليقودهم حيث يريدون . غير أن الزعماء كانوا مشغولين يومئذ بما يملأ نفوسهم

(٩) راجع كتاب « اليهود فى بلاد العرب » للاستاذ ولفنسون و « حياة محمد » للدكتور هيكل بك وسير موير ومؤلفات مارجليوث وهو جارث ودائرة المعارف البريطانية والاستاذ ولز

من العداوات والاحقاد ، والتوفر على الثأر والانتقام بعضهم من بعض. مقفلى الاعين عن النور الذى لو تأملوه ، لاهتدوا به إلى السلام و إلى المنعة وسعادة الدارين . ولذلك لم يستطيعوا أن يبصروا هذا النور، حتى أفرغوا فى ميادين الحرب ما كان فى قلوبهم من دماء الذئاب . يومئذ صفت النفوس وراق الجو للمبصرين . ومن ثم تأخرت بيعتهم الرسول على الاسلام ودعوته إلى الهجرة اليهم ست سنين

ولقد كان ورقة محل الرعاية والمودة من كل أوسى يتصل به وكل خزرجى . يدعونه إليهم و يسائلونه عن رسول الله فيجيب بما يعرف .وهل كان ورقة إلا لسان حالهم يتكلم و يشرح فيزيدهم هياما وحنينا إلى الاسلام! وما كان أشد اغتباطه حين كان يلتقى بالمهاجرين إلى يثرب فيسائلونه هم أيضا عما سمعوا من ظهور نبى فى قريش يدعو إلى الله وتوحيده ، والمؤاخاة بين الناس ولإزالة الفروق فيجيبهم بالايجاب و يخبرهم بشأنه و بدينه وغايته إخبار الطبيب البصير . وكان أهم مايحاول ورقة تبصير هؤلاء المجوس والنصارى المثلثين الذين يتناحرون فيما يبدو، على كلمة واحدة : هل جسد المسيح يفنى أو لا يفنى ؟ واليهود الذين لا يريدون لاحد غير بنى إسرائيل شيئا مما وعدهم الله به فى التوراة. خشية أن تنفد نعمة الله!!! أو لا يصيبهم من القسمة إلا رذاذ ! . نقول كان ورقة يقول لهم : إن الاسلام يمتاز عن سائر ما انقلبت فيه الاديان بالتسوية بين الناس فى الحقوق والواجبات (١٠) و بالاخاء العام ورعاية الحرية للفرد إلا ما آذت غيره : وهو مالم تعرفه الدنيا

يومئذ إذ كان متاع الدنيا وكرامة الحياة قسمة بين أهل السلطة الزمنية . والسلطة الدينية . أما السوقة : أى عامة النــاس بعدهم فأمرهم فى المرتبة الثانية . هم الموالى والخدم والعبيد ، و إنما يتفاضلون فيما يسمحون لهم به من الرزق بقدر وفائهم لهم ، وتضحيتهم فى سبيلهم . ولذلك كان أ كثر هؤلاء المهاجرين يتمنّون على أربابهم أن ينصروا هذا الدين وصاحبه على عجل فى أصقاع الارض عسى أن يبلغهم فيريحهم مما هم فيه من الاختلافات التى لايدركون لها معنى ، بل ولا يعرفون ماهى ، وهى تتقاضاهم رقابهم ورقاب أولادهم وتستبيح أموالهم وأعراضهم

---

(١٠) هذه التسوية التى جاء بها الاسلام وعامل الناس على قواعدها كان أبين مظاهرها: أن الرسول عليه السلام كان على منزلته العليا عند ربه و بين أتباعه واحدا منهم لا يميز نفسه عن أى عربى بشىء . وكذلك كان أعاظم أنصاره افرادا من الشعب لا يمتازون فى شىء إلا بما ميزهم به الله من فضل قيادة الامة ورعايتها اما فى الغنى ومتاع الحياة فقد عاشوا وماتوا من أفقر الناس و بنيت الشريعة الاسلامية والاحكام الشرعية فى كل عهودها على هذه المبادى قبل ان يعرفها قانون فرنسا الذى وضع إثر تقرير حقوق الانسان واعلان مبدأ الحرية والاخاء والمساواة بل القول أن ذلك القانون انما استأنس بالشريعة الاسلامية قبل وضعه فى ثورتهم الرهيبة سنة ١٧٩٠ . ولقد كانت مبادىء الاسلام هذه ضربة قاضية لنظام أوروبا الاجتماعى فى القرون الوسطى نظام الاقطاعيات والموالى الذين يباعون ويشترون مع الضياع والاراضى وكانت السبب المباشر للاصلاح الدينى فيها على اثر ما عرفوا من فلسفة الاسلام المبنية على التوحيد فى الاندلس وتطبيق نظام الحكم فيها . وما الثورة الفرنسية إلا نتيجة تغلغل هذه المبادىء فى النفوس . وهل من شك فى أن كلية فرنسا فى باريس أنشأها تلاميذ ابن رشد الذين عادوا من قرطبة إلى بلادهم بعد موته — راجع كتاب تاريخ التربية لمونرو

واستمر ورقة على هذا الحال من الاجتماع بسويد واياس بن الأشهل وغيرهم من رجال الاوس ، كما كان يجتمع بالخزرج وغير الخزرج ، ولكن حماته من بنى النجار آخذوه على ذلك وقالوا له : كيف تصادق الأوس ! إن صديق أعدائنا عدو لنا . فانصرف عنهم أو فانصرف إليهم . إنا قادمون على حرب مع الأوس ولابد لنا أن نعرف اليوم عدونا من الصديق . قال الفتى : إنما المؤمنون إخوة فأنا آنس بأياس لأنه مسلم مثلى لا لأنه عدو لكم . وأما وربى ليس الاشهلىّ براغب فى هذه الحرب ولا بمروّج لها ، وما يكره م الاشياء شيئا كأن يقتتل أخوان لتظفر يهود من بعد تضعضعها ، بالمنعة والسلطان .ولقد أسلم إياس يوم ذهب الأوس يلتمسون الحلف عليكم من قريش فأبوه عليهم ، وعدّ ظفره بالاسلام خيرا مما جاء فيه أهله . ولن يحارب إياس خئولة نبيه . هكذا قال لى. قال الأسعدى اللائم:ليس من الحرب مفر ففى أى جانب أنت ؟ قال : فى جانب خئولة مولاى رسول الله . ولكنى لا أريق دما عامداً . أكون فى الساقه أحمى متاعكم ومئونتكم ، وأحمل الماء اليكم،وأضمد الجراح . فسكت ابن النجار على هذا

على أن ورقة انقطع من يومه عن زيارة صاحبيه لئلا يتهم بالتجسس على الأوس ، وكان يخرج إلى أرباض يثرب وجبالها فى نهاره ، ويعود إلى يثرب فى ليله ، وهو يدعو الله أن يلهم الاخوين السلام

الفصل الثلاثون

يوم بُعاث

كان ورقة يخرج إلى الجبال المحيطة بيثرب أو إلى أوديتها مستريضا أو ملتمسا لناقته علفا فى مراعى بنى النجار، فكان يعجب لما كان يرى على سفوح الجبال وقممها من بيوت محصنة بنيت بالحجر الاصم، وصينت من أذى المقتحم بأساليب الوقاية والدفاع. تلك هى الآطام التى بناها اليهود للاعتصام بها كالقلاع والحصون فى بلاد الشام. هناك فى وحدته كانت تسبح نفسه فى عالم الخيال والتفكير، فيتأمل تكالب الناس على أعلاق الحياة واحتيال غيرهم على صيانة ما فى أيديهم من ذئاب العالم، ويتفحص أخلاق بني آدم وأفعالهم فلا يراهم فى الحقيقة إلا ذئابا فى مسالخ أناس. كان يعرض أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم على مخيّلته ويتساءل فلا يأتيه إلا جواب مذعر مؤلم لايجد لنفسه حيلة ولا وسيلة إلى دفع ألمه إلا بالاتجاه إلى الكعبة حيث يسكن سيّده المرجّى لخير الناس ودفع شرورهم، ويجثو داعيا ومصليا أن يعجل الله بنشر دينه ليريح الناس من هذه الشرور. ثم يراجع نفسه فيقول: ما محمد إلا بشر وسيموت كما مات غيره. ترى أيبقى دينه حيّا قويّا كما يكون فى حياته؟ أم تلويه ذئاب الناس بأنيابها الحديدية، وتوجهه وجهة أخرى ليعودوا فيقضموا الرقاب كما يفعلون الآن؟ وما كان

ليرد عليه جواب هذا إلا بما يذعر. ولذلك كان يقول : ألا إنه يجب علينا نحن المسلمين أن نخصص من انفسنا طائفة لحماية دين الله ورد الشارد إلى صراطه المستقيم ، ودفع الناس عن الناس بالموعظة الحسنة وسيف الخير الذى لا يرحم إذا أردنا أن نعيش سعداء فى الدنيا والآخرة . كان تفكيره إذ ذاك يجرى على هذا الأسلوب من سؤال وجواب :

دعنى حرا : لا . لأن حريتك تقيّدنى
اترك لى مافى يدى : لا . لأنى محتاج إليه
ألا تحافظ على عهدك معى ؟ : لا . لأن هذا يضرّ بى
إذن دعنى أعاملك كما تعاملنى : لا . لان هذا اعتداء علىّ
إذن دعنى أمنع أذاك عنى : لا . لأنه يحرمنى القصد من أذاك
هذا بغى وعدوان : لا . هذا ماتصف به أنت حق
فإن ناهضتك ؟ : إذن أقتلك
أتبعك اذن : لا بأس لتخدمنى
وتعطينى الحرية ؟ : لا بأس بقدر ماتستبقى تبعيّتك لى
أتبع دينك ليعصمنى : لا بأس على أن تقرّب لى قربانا فى كل وقت
هذا يفقرنى و يرهقنى : لا بأس ماأغنانى وقوّانى
ولكنك تذلنى وتفنينى : لا بأس ماأعزّنى وأبقانى
من قال بهذا ؟ : الذئب
وأين الذئب ؟ : أنا وأنت

نحن أناس : نحن وحوش

ولو تهذبنا ؟ : لن تموت الفطرة

فما الفضائل ؟ : نعوت لشذوذ

وما الرذائل ؟ : نعوت سيئة لأفعال صائبة

وما الحق ؟ : ما نال البغى

فما الأخيار ؟ : الضعفاء لم يستطيعوا أن يستذئبوا فاستكلبوا

فما الحكماء ؟ : الذين يحاولون إتلاف فطرة الذئب فى الانسان

فما الأنبياء ؟ : فئة تناهض الطبيعة

ولكنهم ينجحون : نعم فى تقوية الذئاب الضعيفة

ودين محمد ؟ : سيذيع وشيكا

لماذا ؟ : لان الضعاف يريدون مخرجا

كيف ؟ : سيصير العبد حرا ، والمنبوذ أصيلا ، ويرى الفقير أن له حقا فى الغنى ، وأنه لن يقدم قرابين لا للسيف ولا للهيكل ، وأن ستكون العقيدة بسيطة لا تخجل العقل

ويستمر كذلك ؟ : لا . إذا بلغ طالبو الحرية حد التساوى نزعوا إلى الظلم كما كانوا وعمد بعضهم إلى التسلط على بعض

لن يكون دين محمد معهم يومئذ : سيلحقونه بهم قسرا

باسم الدين ؟ : والديان

بالبهتان ؟ : بكلام كالبرهان

وحكم القرآن الصريح ؟ : يؤوله أنصارهم بكلام فصيح

هل يكفى الكلام للاقناع؟ : نعم ممن رفع عن نابيه القناع

ولكن الناس لن تصدقهم : سيحملهم السيف على التصديق والدينار على المشايعة

يأسا ؟ : نعم وبؤسا

فاذا صاروا لهم ؟ : صاروا كلابا ، أو عادوا ذئابا

أهكذا الدنيا ؟ : أجل من قبل ومن بعد

هكذا كان ورقه يتخيل ، لكثرة ماشاهد من الناس ، وما سمع من الناس . فالعالم كانوا فى نظره ذئابا صرحاء ، لايعرف الفضيلة منهم ولا يقول بها ، ولا يميل إلى البرّ إلا من ضعف أو أضعف ، فهو ذئب مستور ما إن يقوى حتى يتكشف ، فاذا الفضيلة رياء ، وإذا حب الخير احتيال.

ذكر أهل مكة كيف أنهم يناهضون رسول الله الذى أرسله الله بالحق والحكمة والدواء لكل داء ، ومع ذلك وجدهم يسفهون رأيه ويكذبونه ، وهم يعلمون أن رأيه حكيم وأنه صادق، ولكنهم كانوا يقولون فى أنفسهم: ماذا ينفعنا هذا الصدق إذا كان سيلزمنا العمل بالعدل والتساوى ، ويكون له الحق فى الحكم على أفعالنا ، والحد من حريتنا ، وتقييد تصرفاتنا ، والتسوية بين القوى منا والضعيف ، والكبير من الناس والصغير ، وحرمان الذئاب حق

الفتك بالشياه! يجب علينا إذن أن نناهضه، و إذا استطعنا أن نقتله فلنقتله، لأننا إن تركناه يدعو إلى دينه فسيقوى و يقوّى الضعفاء معه، و يسلب منا موارد الغنيمة، ولأننا إن سلّمنا له بقوله فإنما نحن فى الحقيقة ننضوى تحت لوائه ونعطيه الزعامة علينا فيصبح ملكا حقيقيا، وان لم يسم نفسه بذلك، وننقلب له رعايا وأتباعا. لا. لن نسلّم بفقد مركزنا الاعلى باسم التسليم بان الله واحد. الله واحد فعلا. كل القلوب تشعر بذلك، وليكن محمد رسوله، ولكن أن يترتب على ذلك تقليم أظافرنا وحت أنيابنا فلا، ثم لا، ثم لا ألف مرة. وعليه يجب أن نستمر و يستمر سائر العرب معنا على عبادة اللات والعزى ومناة ما أبقت هذه العبادة على أرزاقنا من ورائها، وعلى منزلتنا العالية فى مكة والحجاز و بلاد الوثنيه، ولو بقيت أمة العرب حطيطة الشأن فى كل زمان. انما الخير ما فاء علينا بخير، ونحن فى بحبوحة من العيش ومتعة، فلماذا نعمل على تبديل الحال بما لا نعرف عاقبته علينا؟ بل العاقبة معروفة: زوال سلطتنا، وذهاب قوّتنا. إذن فلنحتفظ بما نحن فيه، وندافع عنه، ونقتل من يحاول تغييره. وفيما هو يفكر كذلك وهو فوق الجبل سمع على بعد صياحا متداركا واردا مع الصبا، فالتفت صوب مورده، فاذا هو يرى طائفتين تقتتلان اقتتالا شديدا فى مكان شمالى المدينة عند محلة تدعى بُعاث، فأدرك من فوره أن الأوس وحلفاءها يقاتلون الخزرج وحلفاءها، على نحو ما كان سمع من استعدادهم، واعترته خجلة من أن ابن زرارة لم ينذره بشأنها، وقدّر أنه كره أن يعلنه بيومها على أثر ما رأى منه من كره القتال عامدا

فى الصفوف. ولـكنه مع ذلك لم يجد من المروءة ولا الشهامة أن يقعد عما كان وعد من معاونتهم بالقيام على الجرحى وحفظ الذخيرة فأبرك الشملالة وركبها وجرى بها نحو بعاث فاذا هو يجد القتال شديداً : هذا يكر ثم يفر وذاك يصمد ثم يخترق الصفوف ، والنقع فوق الرءوس كالضباب الـكثيف لايتبين فيه الحس الا وميضا للسيوف حين تشرع وتوضع ، والا أصوات الحقد والغل تعلو وتتضع ، والا دماء تسيل على الرغام ، ورءوسا تتدحرج بين الأقدام . وفيما هو يدنو من الموقعة رأى ثلاثة من الأوس يتعاورون رجلا بالسيوف ، وكأنه كان قد جرح فهو يدافع عن نفسه دفاع اليائس ، فلم يملك إلا أن ينيخ على عجل ، ويهرع إلى صوت الجريح يحميه من الأذى. وامتشق حسام زيد بن حارثة ، ونادى بأعلى صوته : يا رسول الله ! وفيما كان أحد الثلاثة يهوى بذراعه على الجريح ليقتله كان ورقة قد أهوى على ذراعه فقطعها ، ثم اتجه إلى الثـانى فاذا هو عملاق من بنى قريظة كان كثيرا ما يراه فى السوق يتحدث ويفاخر ، فهابه ورقة وكاد يفر منه ، لولا أنه وجد الرجل على ظاهر قوته لا يحسن المسايفه . وذكر باقوم إذ كان يقول له : لا عليك من طول الرجل وعرضه . أحسن المسايفه تجده أمامك صريعاً .فسايف ورقة على نحو ما علمه باقوم ، وداور الرجل وحاوره ، ويامنه وياسره ، وغته بالسيف غتة أحنقت عليه العملاق فأراد أن يرديه معه ورفع سيفه ليطيح رأس ورقة ولـكنه عاجله من حسامه بضربة فصلت كفه عن معصمه وطارت هى والسيف فى الهواء وخرّ الرجل على أثرها صريعا .هنالك سمع

الجريح من ورائه يدعو له ويثنى عليه . فالتفت فاذا هو يرى مضيفه أسعد ابن زرارة نفسه . وإذ همّ بحمله والبعد به عن الحومة رأى فارسا يدنو منه،



والشرر يتطاير من عينيه لأنه كان قد سمع بما لقى العملاق ، فجاء يثأر له . ولكن ورقة لم يمهله حتى يدوسه بسنابك جواده ، ويعمل فيه سيفه بل تناول قبضة تلو قبضة من تراب الأرض وحصبائها ، ورمى بها على الرجل فأعماه ، ثم أهوى بالسيف على نخذه فهشم ركبته تهشيما . وكأنما كانت هذه الضربة فصل الخطاب . فقد اشتد الخزرج وبنو قينقاع على الأوس وقريظة وبنى النضير فولوا منهزمين نحو العريض من نجد . ولكنهم كانوا فى فرارهم قد رموا بسهام على المتعقبين ليردوهم عن اللحاق بهم

وأصاب أحد هذه السهام زعيم الخزرج فى هذه الملحمة عمر بن النعمان البياضى فقتله لساعته ، والأوس لا تعلم بذلك ، وتعمد الخزرج إخفاء الحادث حتى يطمئنوا إلى النصر [١] .

لم يكن بد بعد انتصار الخزرج من القضاء على الأوس وقريظة والنضير وتخريب دورهم ، وسبى نسائهم على عادتهم فى هذه الحروب ، ولكنهم لم يمهلوا حتى يفعلوا ذلك ، فقد كبر الأمر على حضير الركائب زعيم الأوس المنهزمين ، وأراد أن يحمل قومه على معاودة القتال فتناول رمحه وطعن نفسه وصاح: واعقراه! والله لا أبرح حتى أموت[١] فرجعت الأوس تحمى قائدها وهم فى يأس من النصر . ولكن حدث حادث من رجل عرف فى التاريخ بنفاقه ، هو عبد الله بن سلول الخزرجى[٢] كان من القاعدين عن الحرب نفاقا وخيانة لقومه ، ولكنه مع ذلك خرج يتجسس ليرى وسيلة مغنم ، وفيما هو يتجول رأى أربعة من الخزرج يحملون قائدهم القتيل فى عباءة فشمت به وقال له : ذق عاقبة البغى . ثم تناثر منه الخبر إلى الأوس فشدوا على الخزرج [٢] وهزموهم ووضعت فيهم الأوس السلاح ، ونادى حضير من مرقد موته أن إيتوا الخزرج قصراً قصراً ، ودارا دارا ، واهدموا حتى لا يبقى منهم أحد. فأخذوا فى ذلك وأمعنوا [١] واندلع اللهب فى بيوت

---

(١) ابن الاسير وكتب السيرة

(٢) ورد ان الاوس كانوا ابن سلول وهو خزرجى بان اختاروه ملكا على الاوس والخزرج معا

الخزرج ونخيلهم وزرعهم، وعلا الصياح والعويل من كل جانب، ولكن عز ذلك على بنى الأشهل [٣]، فما أن أودى صاحب الأمر فيهم وهو حضير حتى نهضوا يجيرون بنى الخزرج. وصاح صائح منهم بصوت جهير يكفهم عند الأذى فقال: يا معشر الأوس! أحسنوا! لا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب [٤]. يعنى اليهود حلفاءهم من بنى قريظة و بنى النضير، فانتهى الأوس عنهم ولم يسلبوهم، ولكن اليهود أخذوا فى السلب والنهب وأمعنوا فى قتل المستضعفين، وطالبوا برقاب بعض من اشتدوا عليهم فى القتال من الخزرج، أو رأوا أنهم قتلوا لهم فى المعمعة

---

(٣) بنو الاشهل هم سادة الاوس ومنهم إياس بن معاذ الذى أسلم فيما يسمى العقبة الاولى عندما جاء مع أبى الحيسر يلتمس حلف قريش على الخزرج. ومنهم سعد بن معاذ سيد الأوس الذى أسلم فى المدينة هو وسعد بن عبادة سيد الخزرج على يد مصعب بن عمير الذى كان رسول الله قد أرسله بعد بيعه العقبة الثانية ليفقه فى الدين من بايعوه فيها على الاسلام: وذلك قبل الهجرة بعام وفى قول بعامين

(٤) ضعف الغالب والمغلوب ووجد الفريقان يومئذ أنهم إنما تقاتلوا من أجل اليهود لأن هؤلاء استعادوا مكانتهم العالية فى يثرب. وادكر العرب ماضيهم إذ كانوا موالى لليهود، وأن الفرقة بينهم تمكن لليهود من الأرض، فجنوا إلى الاتحاد وسارعت الأوس تسترضى الخزرج وعرضوا أن يجتمعوا تحت إمرة ملك يكون من بنى الخزرج ورشحوا لذلك عبد الله بن سلول لمكانته منهم وفضله عليهم ولكن الله كان يريد غير ذلك لقاء إرادة الخير التى أرادوها إذ كفوا عن الأذى فأغمدوا السيوف وتركوا متاع إخوانهم. كافأهم الله بالاسلام وكرامة الانتصار له فسموا أنصار رسول الله. ذلك أنهم كانوا كلما وردوا مكة فى مواسم الحج ولقيهم رسول الله على عادته من الخروج لدعوة القبائل الواردة، دعاهم إلى الاسلام فأسلموا فرحين بدين التوحيد الذى كانت نفوسهم تحن إليه، وعادوا يذيعون أمره فى يثرب حتى بايعوه مرتين: الاولى على الاسلام، والثانية على طاعته وحمايته وحماية دينه ونصره فى دعوة العالمين إلى دين التوحيد. فهاجر اليهم عليه السلام فى السنة الثالثة عشرة من النبوة هو وسائر المؤمنين فكان ذلك اليوم يوم السعادة والنور للعرب وللعالمين طرا

أحدا ممن كانوا يعزّونه ويكرمونه . وإذ كان ورقة قد قتل لهم عملاقهم وفارسهم المعلم وهو يدافع عن زعيم بيت بنى النجار أسعد بن زرارة طلبوه فى كل مكان حتى اقتحموا عليه بيت أسعد نفسه وهو جريح فى فراشه ليطلبوا القود منه . ولكن أخاه فى الاسلام إياس بن معاذ كان قد علم من قبل بما بيتوا ، فأرسل فى العشية غلاما له ينذره ويأتى به فى الحى من أطمه . وإذ كان قد أجاره ولم يجز اليهود إجارته بل أقسموا ليقتلنه ولو حمته السماء ، فقد أمر غلامه أن يخرج به إلى ما وراء يثرب ، ثم خرج وراءهما من ناحية أخرى ، والتقوا فى طريق الشام وساروا حتى بلغوا ساحة بعاث

هناك وقفوا وصلوا على قبر صاحبهم الكامل سويد بن الصامت فقد كان قتل فى تلك الملحمة . وهناك ودع ورقة وداع الأخ أخاه ، ودعا له بالسلامة ، وأوصى غلامه أن يكون فى خدمته حتى يبلغ به أيلة(٥) أو مايشاء فشكره ورقة على بره به وقبّله وحمّله تحية وسلاما إلى بنى النجار ، وأوصاه أن يحذر اليهود ، ويحذر كذلك عبد الله بن أبىّ بن سلول ، وألا يركن اليه لأنه إذا كان قد خان الخزرج وهم قومه ، فحرىّ به أن يخون الأوس . ونصحه أن يمضى فى نشر دين الله فى يثرب ، فما يرأب الصدع الذى بين الأخوين — الأوس والخزرج — إلا اجتماعهما على الاسلام . وأوصاه

---

(٥) إمارة مسيحية كان مقرها على رأس الخليج المسمى اليوم خليج العقبة . وأيلة هى العقبة ، وقد ورد أميرها يوحنا بن رؤبة على رسول الله يوم نزوله تبوك فقدم الطاعة وقرر على نفسه جزية قدرها ٣٠٠ دينار كل عام . وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدا بذلك وبعد ذلك بما شاء الله من الزمن دخلت فى الاسلام

كذلك أن يحبب إلى الفريقين مبايعة رسول الله على الهجرة إليهم وتولى أمورهم ، فوعده إياس بذلك ، ودعا ورقة له بالتوفيق

عاد إياس إلى يثرب ، وانصرف ورقة والعبد الأشهلي من فورهما يضربان في طريق الشام . ولكنهما لم يلتزما طريق القافلة تفاديا من أن يتعقبهما متعقب من قريظة فذهبا إلى حرة خيبر ، وهي واد خصيب لبطن من قريظة والنضير تخترقه الأنهار ، وتزينه الزروع والنخيل والبساتين الجماء ، ومحرسة على جوانبه حصون لهم وأطام (٦) ، ولكنهما لم ينزلا بها بل عطفا على وادي القرى (٧) وهو مثله في الخصب والنماء قاصدين إلى فدك ثم إلى تيماء حيث كان للسموءل بن عاديا حصن يسمى الأبلق نزل به امرؤ القيس ذات يوم واستودع صاحبه قوسه وسلاحه . وما زالا سائرين في بلاد ذبيان وثمود البائدة حتى بلغا تبوك (٨) في ختام ثمانية أيام كانت

---

(٦) من هذه الحصون : ناعم ومصعب والوطيح والسلالم وقد افتتحها المسلمون عنوة تحت إمرة النبي عليه الصلاة والسلام سنة سبعة للهجرة ، ومنذ ذلك اليوم لم تقم لليهود قائمة في بلاد العرب ، فقد تشتتوا أو هاجروا أو رضوا بدفع جزية ، وفيها سبيت صفية بنت زعيمهم حيي بن أخطب فأعتقها النبي عليه السلام وتزوجها

(٧) قرى يهودية فتحها المسلمون صلحا

(٨) بلدة على حدود الحجاز من جهة الشام . كان الروم قد عمدوا إلى غزو الحدود في السنة العاشرة من الهجرة لأن بلاد العرب من حضر موت الى الحيرة ودومة الجندل وأيلة (أي العقبة) في ذلك الوقت قد دانت لرسول الله اما بالاسلام أو بدفع الجزية فتعمد الروم غزوها عسى أن ينتصروا على المسلمين فيقلل هذا من هيبة الاسلام وكرامة رسول الله عند من دانوا له من العرب مرغمين. فسار اليهم الرسول بثلاثين ألف رجل حتى بلغوا تبوك هذه . فلما رآهم جنود هرقل فروا يتحصنون في قلاعهم في الشام وحبط غرضهم ، وازداد المسلمون في جميع أرض الجزيرة هيبة ، وزاد الاسلام رسوخا . وجاء أمير أيلة ، يوحنا بن رؤبة طائعا وراضيا أن يدفع الجزية عن

الشملالة فيها مزدهية بنفسها صلفة بأن تدوس بأخفافها قبور ثمود العاتين الذين عقروا أختها ناقة نبى الله صالح التى أخرجها الله لهم من الصخر ليؤمنوا فلم يؤمنوا فأبادهم بضلالهم وجرائمهم ، وصارت بيوتهم المنحوتة فى الصخر دليلا على ما نزل بهم من البوار والنكال

يد وهو صاغر . وفى هذه السنة تمت كلمة الله فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن الرسول كل عادية عليها وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام . فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبى عليه السلام ويحسن بمن يريد درس هذه الغزوة من تاريخ المصطفى عليه السلام ، ليعرف أثرها العميق أن يراجع كتب السيرة ، وألفته بنوع خاص الى كتاب « حياة محمد » لهيكل بك فى العربية وسير موير فى الانجليزية .

الفصل الحادى والثلاثون

الامير الجريح

كان إياس قد نصح لصديقه ورقة أن يلجأ إلى أيلة ، ولذلك لم يكن فى نيته أن يطيل مقامه فى تبوك . على أنها لم تكن يومئذ مما يصلح لاقامة أحد بها. فقد كانت خرابا أو تكاد تكون كذلك ، إلا من بعض مضارب لأعراب من جذام ، ومنازل لهم فى بقية من حصن ثمودى قديم فيه بئر منحوتة فى الصخر يتهافت عليها أهلها فى كل حين ليستقوا . هناك نزل حمى هؤلاء الأعراب هو والأشهلى غلام إياس بن معاذ ، إذ كان قد بلغ بهما الجهد والجوع غايتهما ورأيا أن يقضيا الليل فى جوارهم

ولكن هؤلاء الأعراب لم يكونوا ممن يؤمن جانبهم ولو حموا . فقد فكر بعضهم حين رأوا الشملالة أن يغلبوهما عليها ويأخذوها استراقا ، فان عجزوا فقتلا ، ولذلك انتظروا حتى يدخل الليل

على أن غلام إياس كان قد أدرك غايتهم إذ كان ورقة قد أرسله اليهم يشترى شيئاً من اللبن، فقصد إليهم وسمعهم يتحدثون فى دارهم فيما ائتمروا ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع شيئا ، وتقدم يطلب اللبن وتقدم ثمنه شاكرا مثنيا وعاد يخبر ورقة بما سمع . فلم يكن لهما بعد هذا من رأى إلا أن يرحلا على الفور . ولكنهما خادعا القوم حتى دخل الليل ، فأشعلا النار ليوهماهم أنهما

هناك ولكنهما تركاها تشتعل وانتحيا وامتطيا ضاربين الى أرض مدين بلاد نبى الله شعيب وموسى الكليم ، حتى بلغا معاناً وكانت بلدة على قدمها وتهدّم قصورها الرومانية واسعه العمران كثيرة البساتين والمروج كيثرب إلا أنها صغيرة . هناك التقى ورقة بجموع كثيرة من أهل الشام والقدس : روم وسوريين وغسانيين تركوا ديارهم ومتاعهم وفروا بأنفسهم ونسائهم وأولادهم إلى قرى الصحراء يلتمسون موئلا من الفرس واليهود معا . ذلك بأن الفرس كانوا فى ذلك الوقت قد تمكنوا بقيادة السلار شاهين من اقتحام أسوار مدينة القدس فدخلوها وأعملوا السيوف فى حماتها من جنود هرقل ، حين كان أهلها من اليهود يقتلون سكانها تنفيسا لحقدهم القديم ، ويعملون المعاول فى البيع والأديار ليهدموها ، ويسلبوها ويفضحوا أعراض الروم والمسيحيين فيها

امتلأت بالمهاجرين ساحات معان ، وخرائب قصورها ومعابدها ، حتى أصبحت وكأنها سوق لا ممر فيها لسائر ، ولا مستقر فيها لقدم . فاضطر ورقة أن يلتمس لنفسه مناخا فى حاجر جبل قريب . وما زال يتأمل البقاع حتى لاح لعينه مكان طيّب ومسطح قريب على سفح الجبل فارتضاه مضربا لخيمة رقيقة كان يحملها فوق جوالقه لمثل هذه الظروف

هناك أناخا الشملالة وزميلها بعير الغلام الاشهلى ، وعقلاها وصعدا إلى المسطح يفحصانه فوجد ورقة أنه منبسط سوت أرضه يد الانسان ، إذ

كان فى الحقيقة عرصة مغارة فى الجبل غير غائرة ولا كبيرة ، ولكنها كانت على كل حال مشغولة بركام من صخرات ملقات فيها ، و إذ لم يكن فى قصد ورقة أن يطيل مقامه فى معان ، فقد صرف عنها نظره ، وضرب خيمته على عرصتها بيد أنه تعجب لدقة صنعها واستقامة زواياها . وما رأى عليها من أسطر بالخط الآرامى. فوقف يتأملها وهو غارق إذ ذاك فى تذكر أستاذه ورقة بن نوفل حين كان يريه أنواع الخطوط التى كان العرب يكتبون بها . و إذ كان يعرف منه أن الانباط سكنوا هذه الجهات وأنهم كانوا يكتبون بهذا الخط قدّر أن تكون هذه المغارة من صنع الانباط (١) ولعلها

---

(١) يقول نيكولسون : الانباط قوم من العرب ولكنهم كانوا يكتبون بالآرامية: وذكر أنهم كانوا يسكنون المدن وأنهم أنشأوا لهم مملكة عاصمتها مدينة بطرة وبلغت شأوا بعيدا فى المدنية والثقافة حتى غزاها تراجان أمبراطور روما فى سنة ١٠٥ بعد الميلاد وألحقها بملكه . ويقول البتانونى : انهم كانوا يعبدون ذا الشرى ومناة وقيس وهبل واللات وغيرها ومنهم أخذ العرب وثنيتهم . وقال البتانونى عند الكلام على عاصمة ملكهم بطرة : إنها تبعد عن معان بخمسة وثلاثين كيلو مترا . وتبعد عن العقبة بمائة وثلاثين وكانت هذه المدينة عاصمة حكومة الانباط وهى حكومة عربية كبيرة . نشأت فى القرن الرابع قبل المسيح . وكانت لها مدنية عالية وجيوش قوية ساعدت الاسكندر الأكبر على فتح بلاد فارس ومصر ، وأن أنتيغونوس خليفة الاسكندر حاربها فهزمته شر هزيمة وحاصرها ديمتريوس وأنقلب عنها خائبا . وذكر أنها كانت فى القرن الثانى قبل المسيح قوية جدا ومن أكبر ملوكهم الحارث الذى ملك سنة ١٦٩ وامتد ملكه إلى دمشق شمالا ووادى القرى جنوبا (بقرب المدينة) وشرقا إلى العراق وغربا إلى سينا . وكانت فى اول القرن الثانى للمسيح مركز التجارة بين الشمال والجنوب والغرب. والعرب تسمى بطرة الرقيم، ولعل هذا لما وجدوا على أثارها من النقوش الكثيرة ، ويرى بعضهم أن فى بطره الكهف

كانت محرسا أو مخفرا أو قبرا من قبور السادة ، نهب اللصوص ما كان فيه مما كان يدفن مع المدفون وتركوه كذلك . على أنه رأى به أثرا من دخان المواقد فقدّر أنه استعمل ذات يوم لسكنى طائح أو مستدفيء

وفيما هما شارعان فى حل حولهما رأيا رجلين من العرب يدنوان منهما ، وهما يقودان بعيرين ركّب على ظهر أحدهما شبه سرير مغطى بأردية على شبه قبة مستطيلة لحماية من فيه من أعاصير الصحراء . فلما بلغا مكانهما وقفا وتطلعا ثم التفت أحدهما يكلم ورقة يسأله أن يسمح لهما بمكانه لينزلا به الامير .

أخذت ورقة عزة النفس فقال : أليس فى هذه الصحراء مكان غير مكانى ينزل به الامير ؟ . قال مخاطبه فى شيء من الوداعة : بلى ، ولكنه جريح ومريض ، ونخشى أن يدركه الأجل قبل أن نعثر له على مكان طيب ! إن هى إلا مكرمة نلتمسها ، فان شئت أن تظل فيه فذاك ونذهب للبحث عن مكان سواه ، وإن كنا لم نجد منذ دخلنا معانا بقعة كهذه قال ورقة : بل

الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم . ويقال كذلك أن فيها قبر هارون أخى موسى . وقد ابتنى الصليبيون بجواره قلعة

على أن ماقى هذه المدينة من الآثار مختلف الاشكال والدلالة فمنها النبطى والفلسطينى والعربى والرومانى والبطليموسى ، وفى بطره هيكل يسمى الآن خزنة فرعون منحوت فى الصخر يرى بعضهم أنه رومانى أقامه الرومان بعد تملكهم المدينة لمعبودهم إيزيس وفى هذه المدينة واد على جانبيه قبور منحوتة فى الصخر ، وفيها مدرج للتمثيل منقور فى الجبل . مزخرفة ومقاعده . وفيه ٣٣ صفا يسع ثلاثة آلاف متفرج

حبا وكرامة . ثم نهض هو والغلام يساعدان الرجلين على حمل الامير فى سريره ، وأنزلوه فى مكان أمين . ثم خطر لورقة أن الغار أصون للأمير فى مرضه، وذكرهما فارتاحا إلى ذلك وصعدا مع ورقة ليرياه . فلما أمعنا فيه النظر وافقا على أن يخلياه مما فيه من الأحجار ، وشرعوا جميعاً فى ذلك على الفور محاذرين أن تكون الاحجار مأوى صلال أو أفاعى تخرج عليهم من ورائها وهم ينقلونها ، ولكنهم لحسن الحظ لم يجدوا بها من ذلك شيئا



ولقد رأوا مع ذلك أن ينظفوا المكان فانصرفوا لذلك . فى تلك الهنيهات فهم ورقة من الرجلين ما أفهمهما الجندى وهو أن الامير رومى من القدس ، وانه من أقرباء نيقتاس والى مصر ، وأن أباه قتل فى موقعة بيت المقدس التى دارت فيها الدائرة على الروم فى ظاهرها وباطنها ، وأنه جرح

فى المنزل وهو يدافع عن إخوته الصغار الذين قتلهم اليهود جرحا بالغا هو وجندى كان أبوه قد تركه فى الدار لحمايتها. ولكن هذا الجندى الوفى حمله على عاتقه والدم يقطر منه حتى خرج به بعيدا عن القدس فى غير طريق الفارين إلى غزة، إذ كان المجوس واليهود يتعقبونهم فى تلك الناحية، حتى إذا لم يعد الجندى الوفى يقوى على حمله والسير به أكثر مما سار لكثرة ماسال منه من الدماء، سقط به على الارض إعياء أمام مضرب خيام هذين العربيين، فأوصاهما به خيرا ثم لفظ النفس الاخير وقضى وقال أحد الرجلين متمما حديث زميله: ولقد بكى الأمير عليه بكاء شديدا وكان لايزال الآن يبكى ولكنه لايستطيع حراكا لأن به جراحا بالغة أبى أن يكشف لنا عنها لما رجونا منه ذلك عسانا نعرف له دواء أو ضمادا . ولكنه رجا منا أن نحمله إلى أمير أيلة لأنه من أقربائه وأعطانا خاتما كان فى يده أجرا لنا على نقله لأنه لايملك نقوداً . سرقها اليهود كلها!

ولكنا ولا نكذبك لانعرف لهذا الخاتم قيمة وإن كان فيما يلوح كريما، ولو عرفنا فما نعرف كيف نبيعه. ولقد كنا رأينا أن نعطيه الى أمير أيلة حينما نصل به اليها ونأخذ منه أجرنا بيد أنا أصبحنا نشتهى أن نرد اليه خاتمه ولا نأخذ منه شيئا . لانا نشعر أن تكسّب المرء من وراء كوارث الناس مضيّع للمروءة، ومؤلم للنفس . قال الآخر : أما وربى إنى لارى ذلك، أجل، لابد أن نرد إليه خاتمه . وحسبنا مما فعلنا وما نحن فى صدده أننا نفعله ونحس بالخير فيما نفعل . على أننا لسنا جمّالة ياصاحبى، بل نحن من

أهل يثرب ، جئنا نستبضع فرأينا القتل والهدم والتخريب فاعتزمنا العودة وجئنا بالأمير معنا .

ما كاد الرجل يذكر أنه من يثرب حتى تنبّهت نفس ورقة إليهما فقال لهما: من أى الأحياء أنتما ؟ . قالا : من موالى أبى أيوب النجارى(٢) نسكن فى شرق يثرب عند البقيع . أأنتما من يثرب ؟ قال ورقة :إن رفيقى يثربى ، أما أنا فمن مكة ، وإن كنت أعرف أبا أيوب فقد كنت من ضيوف ابن عمه أسعد بن زرارة . فلما سمع الرجلان ذلك أكبراه وزادهما منظر الشملالة إكبارا . ولكن وداعته وفرط كرمه وتبسّطه معهما ومع غلامه ألزمتهما ما أراد من أن يكونا معه كما هو معهما عديلا ومثيلا . وكانوا قد انتهوا من تنظيف الغار فنزلوا جميعا ليحملوا الأمير إليه فلما بلغاه كلّمه أحد الرجلين قائلا :لقد وجدنالك أيها الأمير غرفة طيبة ترتاح فيها . نظفناها لك وأعددناها وسنحملك الآن إليها . كيف حالك الآن ؟ لم يكن الأمير يجهل العربية ولكنه كان ضعيفاً فلم يزد على قوله : شكراً لكم . ثم حمله الرجلان وغلام إياس يساعدهما ، حتى أدخلوه المغارة

لم يكن فى قصد الأمير أن يبقى فى معان ، ولكنه كان من الضعف بحيث لم ير اليثربيان بداً من أن يبقيا به فى معان حتى يسترد شيئا من العافية ليقوى على احتمال مشقة النقلة إلى أيلة التى رجا منهما الجندى الرومى أن

---

(٢) أبو أيوب خالد النجارى هو الصحابى العظيم الذى نزل رسول الله فى داره يوم ورد المدينة مهاجرا ، وهو من الخزرج ، وقد شهد فتوح الشام فما وراءها حتى مات متازيا فى سنة ٥١ هـ بالقرب من القسطنطينية وله قبر هناك ومسجد عظيم

ينقلاه إلى أميرها فلم يكن له بد من الموافقة ولذلك لم يعترض بشيء حين جاءا به إلى معان ، وأخذا يبحثان له عن مكان ينزلان به فيه. فلما استقر فى المغارة رفعا الغطاء عنه فلاح الأمير من تحته فى ثياب جندى عظيم ، ولكنها كانت فضفاضة بدا فيها الأمير كأنه صبي يرتدى ثوب أبيه ، و بدت كفاه من كميه صغيرتين كأنهما كفا عذراء لا كفا رجل عرك السيف . ولاح وجهه تحت عصابته ولثامه كأنما هو وجه وليد فى لفائفه . وما كاد ورقة يتشكك حتى بادره أحد الرجلين يقول : انظر ماذا فعلت به الجراح ومشقة السفر والهمّ ! ولكننا نرجو الله أن يرد عليه عافيته فتلتئم جراحه و يقوى على النقلة إلى أيلة افتقدم ورقة نحو مرقد الأمير يتفحصه وهو مؤمن على دعاء الجمّالة . وكان فى صوت ورقة نغمة عطف كصدى الموسيقى تنبه لها الامير وفتح عينيه ليرى صاحبها فاذا هو يرى وجه ورقة السمح يطالعه بعينين تفرغان عليه شآبيب من الرحمة ثم يحييه بكلمات تشجيع كريم أدركها الأمير كلها وان لم يكن يحسن فهم العربية ذلك بأنها كانت من ثقة القلوب الصافية التى لا تحتاج الى لسان . فأدرك الأمير أنه فى حضرة إنسان كريم ، و إن لم يكن قد عرف من هو ولا من يكون ، وكأنه أراد أن يدلّه على حسن حكمه عليه وارتياحه إليه فشرع جفنيه مرة أخرى وأرسل إليه فى شعاعهما الضعيف رسالة شكر وارتياح وتودد وثقة ، ثم أغمضهما . وقد لاح على وجنتيه أثر ذلك فيما كساهما من إشراق الرضا . و إذ كان ورقة يعتقد أن للجوع أثرا شديدا فيما يلقى الأمير من الاعياء فقد شرع

يعنى به فتركه حيث هو وخرج بالرجال إلى خيمته ليدبّر الأمر . هناك أمر غلامه أن يذهب إلى سوق المدينة ويشترى لبنا وخبزا ليعد لهم طعاماً .
فانصرف الغلام فى ذلك ، وجلس ورقة بصاحبيه فى خيمته على باب الغار يتحدث معهما . فذكر لهما ما جرى من الاحداث فى غيبتهما عن يثرب وما لحق بالخزرج من الشدة يوم بُعاث. وما فعل اليهود والأوس أثر انتصارهم، بديار الخزرج إذ خرّبوها وأحرقوا نخيلها ،حتى منعهم عنها بنو الأشهل سادة الغلام الذى معه . وكيف أن اليهود لم يرعووا بل أمعنوا فى السلب والنهب والمطالبة برءوس من قتلوا لهم فى الملحمة عزيزا أو قائداً كبيرا . وأنه إذ قتل لهم فى الدفاع عن أسعد بن زرارة علاقهم ثم فارسهم المعلّم طلبوه فى كل مكان ،وأنذروا ابن زرارة بالويل مالم يسلمهم أياه ولكنه كان فى ذلك الوقت فى حمى بنى معاذ زعماء الأوس وإذ لم يقبل اليهود إجارة سادة الأوس ، لم ير هؤلاء بدا من ترحيله ، فرحل ، وأنه اليوم فى معان هاربا لايدرى أين ينزل .

كان ورقة يذكر ذلك والخزرجيان صامتان يتميزان من الغيظ وجدا على اليهود . وأخذ كل منهما يذكر لبنى قريظة والنضير سيئة إثر سيئة ويعجبان للخزرج والأوس وهما إخوة كيف لايصطلحان ويعملان على إخراج اليهود من أرض لايريدون أن يندمجوا فى أهلها أو يدمجوهم فيهم ليعيشوا فى الدنيا إخوانا مطمئنين ! قال ورقة : هذا مالايكون . إن اليهود لايريدون أن تضيق أرض المعاد بهم ، فهم يرجون أن يقيموا مملكة

أورشليم التى هدمها عليهم بختنصر. قال أحد الرجلين : ماهى ذى أرض المعاد قد أخلاها لهم الفرس من الروم فليعودوا إليها و يريحونا منهم. إنهم لم يتركوا فى القدس دارا لرومى ، ولا بيعة ولا ديراً إلا خربوها فقتلوا من فيها ، ليخلوا الديار لهم ولاخوانهم المشتتين فى الصحراء .

قال ورقة : لا . إن يغلب الروم اليوم فسيغلبون غدا . قالا : كيف تعرف ذلك والفرس ، فيما روى الركبان ، على أبواب مدينة هرقل ؟ قال ورقة لقد بلغت هزيمتهم مسمع المشركين فى مكة فطربوا وفرحوا لانتصار الفرس عبدة النيران على عبدة الله لأن المشركين حمقى كالفرس ، وشمتوا بالمسلمين الذين هداهم نبى الله محمد بن عبد الله إلى عبادة الواحد الأحد القهار . فأوحى الله إليه قوله تعالى : « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » فلينتظر الفرس قليلا ، ولينتظر اليهود . بل ستكون هذه البلاد من بعد ذلك للعرب يوم يسلمون . إنها بلادهم وسيملكهم الله بلادهم يحكمونها ، و يقيمون فيها العدل ، و ينزلون الرحمة و يحكّمون فيها العقل ، و يمحون الفروق ، وسيكون للموالى ماللسادتهم من الحقوق ، وللمرأة فى الدنيا مايصونها من عبث الرجال . فالمرأة أم الدنيا يصونها الاسلام و يحميها

قال أحد الرجلين : لقد سمعنا عن محمد شيئا كثيرا من اليهود ، يقولون إنه سيأتى إليهم بقريش كلها مسلمة موحدة مثلهم لينصرهم و يعطيهم يثرب ملكا ، والأوس والخزرج موالى . قال ورقة : كذبوا . بل آمن :

بعض الأوس و بعض الخزرج ، وقد أخذوا يفكرون فى دعوته إليهم ليجعلوه سيّدا فيهم ، يرأب صدعهم،و يجمعهم تحت لوائه : لواء التوحيد ، والمحبة ، والاخاء . وهنيئا لمن يسارع إلى الايمان بهوالانضواء تحت علمه ويكون فيمن يلقاه داخلا إلى يثرب ، لينشر منها دين الله و يهدى الخلق إلى الصواب

قال أحد الرجلين : اللهم إنى مؤمن بدعوة ابن عبد الله ، راغب فى دينه . وحقك يا ورقة لن أعبد مناة [٣] بعد هذا إنى وحقك لأستحيي من نفسى كلما أخرجتها من رحلى ، وأخذت أدعو لها وأصلى . وقال الثانى : وأنا والله يا مسعد ، لا أدرى لماذا نعبد مناة إذ كنا لا ندعو إلا الله ولا نقسم إلا بالله ! ألا ترى هذا عجبا ! لا والله ، ما عدت أعبدها ! ثم هبّ الرجل من مجلسه وذهب إلى رحله وأخرج منه قطعةمن الخشب على شكل عرائس الاطفال [٤] ،وأخرج مثلها من رحل صاحبه مسعد ، وأتى بهما إلى ورقة يقول : هذا يا سيّدى ما يحملوننا على عبادته. أرأيت أشدجهلامن هذا؟أنا راميهاعن يمينى. ألا ترى ذلك يا مسعد؟ قال : بلى. قال ورقة أعطونى إياهما فأخذهما. وكان الغلام قد أتى براوية كبيرة من اللبن ، فناداه ورقة ، وقال : خذ هذين الآلهين القبيحين واجعلهما فى

---

(٣) كانت مناة معبودة المدينة كما كانت العزى معبودة مكة واللات معبودة الطائف ، وكما رأينا يعوق ويغوث معبودتى بعض نواحى اليمن (٤) كان من عادتهم أن يحملوا تماثيل فى رحالهم لآلتهم كما يحمل بعض فرق النصارى صليباً فى أعناقهم أو فى السلاسل

النار ، سخن بهما اللبن . هذا كل فائدتهما ! أحرقهما كما سيحترق من يعبدونهما بالنار فى الآخرة ، ولنار الآخرة أشد وأنكى

تردد الغلام فى أخذ الخشبتين منه . فقال له ورقة : ويحك ياغلام إياس ! ألم يأتك نبأ إسلام مولاك ؟ وأنه خلع اللات والعزى ومناة ؟ قال: بلى. قال ورقة : ثم ألم تؤمن بمحمد بن عبد الله الذى صدّق به اليهود قبل أن يدعوهم لأنه مذكور فى توراتهم ومذكور فى الانجيل؟ قال : بلى. قال: فما هذا إذن ؟ قال : لاأدرى وحقك . أشعر برهبة . قال : لابأس عليك . أشعل النار . ستزول رهبتك عما قريب. وضحك ! ولكن مسعدا وصاحبه لم يضحكا إذ كان بهما فى الحقيقة شيء مما امتلك الفتى، ولكنهما لم يبدياه. ذلك بأنهما عاشا حياتهما يريان فى هذه الخشبة من القوة والاقتدار على الأذى والشر مالم يكن من السهل أن يقتلع بكلمة ، ويمحى أثره فور تسليم بصواب . ولذلك أخذا يتساءلان عمن أسلم من يثرب فأخذ ورقة يذكرهم واحدا بعد واحد ، حتى إذا ذكر اسم سويد بن الصامت ، وكان معروفا فى يثرب كلها بأنه الحكيم الرشيد الكامل - أقسما بالله لن يضع مناة فى النار أحد غيرهما . وكانت النار قد أوقدت ، فنهض كل منهما بالهه الذى كان منذ ساعة عزيزا ومكرما فرماه محقرا فى الرقيد ، وأخذا ينظران الهيهما وهما يشتعلان ويسخنان اللبن فى وعائه فوق الأثافى ، وورقة يراقبهما ويضحك لما يبديان من آثار التشفّى، وما يلوح على غلام إياس من الذعر. حتى رآه فى بعض أحوال تعجبه يدفع النار بمحراك فى يده ليقلب الإلهين

فى النار ، فضحك ضحكة عالية لفتت إليه ثالوثهم ، فنهض الرجلان عائدين إليه يقولان بعداً لمناة وعبادة مناة ! خبرّنا كيف نفعل لنكون مسلمين . قال : أشهدا أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، فشهدا . فقال . وأن محمدا عبده و رسوله ، فنطقا بأن محمدا عبده و رسوله . عند ذلك نهض ورقة ونهضا معه فقبّلهما واحدا بعد آخر وقبّلاه كذلك ، ثم أمرهما أن ينصرفا ليملأا سقائيهما من ماء بئر عيّنها لهما كان قد رأى الناس عندها وأعطاهما سقاءه ليملأاه له وقال لهما : لابد لكما من الوضوء والصلاة لله شكرا على الايمان فارتاحا إلى ذلك ، وذهبا ليحضرا الماء .

فى تلك الاثناء كان الغلام الأشهلى قد جاء بماعون اللبن فوضعه بين يدى ورقة ثم عاد ليأتى بجفنة من جوالقه وكان ورقة قد شاهد فى رحل الامير طاسا من الخزف الجميل فنهض يستأذنه أن يأخذها ليأتى له فيها بطعام . ولكنه وجده نائما فجاء بالطاس بغير استئذان وجاء بسقائه كذلك وغسل الطاس وصب فيها شيئا من اللبن وأخرج كسرة مما زوّده به صديقه الاشهلى ودخل على الامير فوجده مغمض العين على حاله ولكنه كان يتمتم بصلاة بالرومية ، وينادى مريم أن تصونه فى غربته من الاذى حتى تواريه التراب ، ويشكرها على أن هيأت لها فى سفرتها الطويلة كل هذه العناية وهذا الصون من قوم أغراب ليسوا من جنسها ولادينها . ثم شرّع جفنه فاذا هو بجد ورقة أمامه واللبن فى يده فسرّه أن يراه ، وامتلأ قلبه بالشكر لمريم على أن أجابت دعاءه . ثم استمر فيما كان فيه فشكر ورقة بالرومية ، ودعا

له ، فرد ورقة شكره ودعاءه بالرومية كذلك ، وطلب إليه أن يسمح له بإطعامه هذا اللبن

وكأنما تنبه الامير إلى أن ورقة يكلمه بالروميةفسأله بها : أكنت تكلمني بالرومية يا فتى؟ قال نعم . أعرفها من صغرى . إن لى فى الروم أهلا وأحباباً . وكان يتذكر لمياء وقتئذ وأمها ، فملا الوجدوجهه وشفتيه ، ولكن الامير لم يدرك من ذلك شيئا ولم يهمه ولكنه رأى وسامة ورقه وما فيها من صباحة الخير وطيب القلب فعاد يشكر مريم على أنها أرسلت إليه من يأنس به ، وينزل شيئا من الطمأنينة فى قلبه ، وانلم يجد فى مسلك اليثربيين إلا ما يستوجب الحمد لله طول الدهر على ما أنعم عليه بتوفيقه الجندى إلى مضربهما . قال ورقة: أتستطيع أن تنهض أيهاالامير؟ فابتسم الامير وقال: أستطيع بألم شديد . قال ورقة : فاسمح لى أن أنهضك. ثم مد يده اليسرى وأنهضه ، فكان كمن ينهض طفلا لأنه وجده صغير الجسم هزيلا ، ثم قدم له طاس اللبن فتناولها بين يديه ووضع ورقة كسرة الخبز فى حجره وأخذ الامير يشرب ويأكل قطعة الخبز وهو ملفف فى ردائه وورقة يتعجب من دقة يديهوصغر أصابعه ، حتى إذا فرغت الطاس وأخذها ورقة عرض أن يأتيه بقدر آخر من اللبن ، فأبى الامير وقال : إن هذا اللبن أول ما أكل منذ غادر بيته فى القدس ، ولكنه لم يشته الطعام حتى نزل بهذا المكان ، وكان هذا الآن لاقبله .فقال ورقة : علامة طيبة بإذن الله . قال الامير:لقد رد الله الىّ شيئامن العافية لمرآك .

وانى لأرى العافية تسرى فى بدنى كله إذ وجدت أنك تعرف الرومية ، وأن لك من أهلها أهلا وأحبابا . ثم طلب إليه أن يرقده فأرقده. وكان الرجلان قد عادا بالماء فاستأذن وخرج للقائهما وسار بهما ليعلّمهما الوضوء ، وتوضأ الأشهلى معهما ، ثم أمّهم ورقة واتجه إلى بيت المقدس إذ كانت قبلة المسلمين يومئذ ، وطلب إليهم أن يقلدوه فى لفظه وعمله. فنوى ، واتجه وركع وسجد، وصلى ركعتى الشكر ، وصنعوا مثله ونهضوا جميعا يحمدون الله على الهدى والرجلان يشكران لورقة صنيعه ، ويحمدان الله على اجتماعهما به . قال : هكذا تفعلون فى كل ضحى وكل عصر وأنتم متوضئون لا أسألكما على ذلك أجرا إلا أن تهدوا إخوانكم من موالى المدينة ، خزرج وأوس إلى ما اهتديتم اليه . وكان الرجلان قد اشتريا من سوق معان قطعة كبيرة من اللحم ، فطرحاها فى النار فوق قطع من حجر لتنضج وفاحت رائحتها فجرى إليها أحدهما وقلبها وجاء بها يقول : لقد سئمنا أكل اللبن فى يومينا الماضيين ، فجئنا بهذا . دعوا اللبن للامير ، ولنأكل نحن هذا . قال ورقة : لا بأس . وانصرفوا يأكلون جميعا باسم الله وهم يتحدثون بنعم الله عليهم . ويعدون ورقة أن ينشروا دين ابن عبد الله بين الموالى جميعا .

ولقد رأى الرجلان إذ طعما أن يذهبا لاطعام المطايا فيما حول معان من المروج ، واقترح غلامه الأشهلى أن يفعل فعلهما ، فأذن لهم فى ذلك

على ألا يعتدوا على ملك أحد ، فان اعترضهم معترض فليدفعوا له حقه .
وأمر الغلام أن يبادر بذلك عنه وعن رفيقيه ويدفع لصاحب الغيضة مما
بقى معه من الدراهم. فأجاب الغلام بالطاعة وذهبوا جميعا فى طلب الـكلأ
والماء للجمال

الفصل الثانى والثلاثون

حديث الغار

جلس ورقة على أثر انصراف الجمالة متكئا على جوالقه فى الخيمة يتأمل الدنيا ويذكر مامر بالبقاع التى هو فيها من احداث الزمان ويعجب لصنع الانسان وتكالب الأمم. نظر الى ما خلفته الحوادث من الآثار فى معابد معان فذكر النبطيين الذين جعلوا من صحرائها جنة ومن مضارب خيامها قصورا ، وامتلكوا ما بين العراق وخليج القلزم (السويس) ودمشق ، ويثرب كيف دالوا واختفوا حتى لم يعد يذكرهم أحد أو يعرف عنهم شيئا ، حين أنهم كانوا سادة الأرض أبد قرون واليهم يرجع الفضل فيما نال الاسكندر الذى يسمى بالكبير من المجد الواسع والملك العظيم إذ حالفهم واستعداهم. ففتحوا له بجنودهم العراق وفارس والهند ومصر وأقاموا بسيوفهم ملك ذلك الغلام المقدونى الذى لم يكن بلغ السابعة عشرة من العمر حين كان على رأس هذه الجيوش العربية وهى تغزو تلك الاقطار ، ثم كان جزاؤهم بعد ذلك أن حاول خلفاؤه كسر شوكتهم وتبديد دولتهم فلما عجزوا عن تحقيق ذلك بالسيف حاولوه بالخديعة فاذا دولتهم الزاهرة فى الصحراء تعود فى القرن الثانى من المسيح كما وجدوها ، خرابا يبابا ، فيما قبل المسيح ببضعة قرون .

ضحك ورقة فى نفسه ضحكة عجب صامتة ، وقال فى نفسه أيمكن أن يكون لهذه الامة العربية التى تقيم لغيرها ممالك وعزا ، عزا خاصا بها ؟

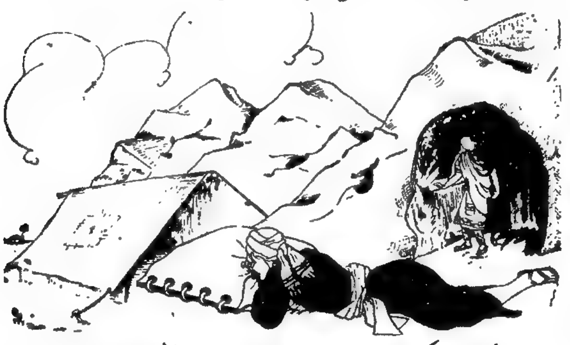


ومجدا مؤثلا لا تأتى عليه غير الدهر ؟ صمت واذا هو يعود به الفكر إلى مكة والى رسول الله يتأمل وجهه كأنما ينتظر أن يسمع منه جوابا . واذا هو يرى وجه الرسول تفترّ شفتاه عن ابتسامته الحلوة الخلابة . واذا هو يتخيّل كانه يقول له : نعم يا ورقة لم يرسلنى الله فى هذه الامة الا لهدايتها إلى الرشد وتوحيد كلمتها وجمعها على الحق واعدادها للمجد وابعادها عن الخنا والرذيلة فهى على وثنيتها وفساد معتقدها الآن أشرف أمة وأنبل شعب . ستؤمن بما

أنزل عليّ وسيكون لها فوق ذلك منعة فى الأرض حتى تأتى فى الشرق الى جبال البامير عند الصين فتملوها وفى الغرب الى بحر الظلمات فتنيره وتنتشر إلى الشمال وتنحدر الى الجنوب . ولن يكونوا ظلمة ولا قساة. سيكونون رحمة للناس وأخوة للناس . وسيرى الناس أن الله أراد بهم الخير. وسيبقى هذا الملك لهم ولكل من لف لفهم واتبع دينهم ما بقوا على أمر الله وعملوا بما هداهم فى قرءانه ، وأعدوا لكل عدوّ عدة التنكيل والتدمير وما عرف كل مسلم أن الأمر فرض عليه لا يتعلق بسواه ، ولا يقلل منه قعود غيره عنه . فان غضوا الطرف عنه أو فرّطوا فى شيء منه ، انحل ملكهم وذهبت دولتهم

وفيما هو فى هذا البحران قال و رقة فى نفسه : واحسرتاه لنفسى كيف حرمتنى المقادير أن أكون مع رسول الله وله فيما هو فيه ! ثم حرمتنى أن أبقى فى يثرب لأكون مع خئولته وأبناء أعمامهم اعمل على تعجيل يوم هداهم إلى الله ! ثم حرمتنى أن أكون فى جوار أحبائى الذين اشم ريح السعادة فى اردانهم ! أعيش متنقلا فى الصحراء من جوز الى جوز ، ولا أدرى أين مستقرى ولا كيف يكون حالى ! أمقدر على أن أعيش فى الدنيا مبعدا عن كل أمل ! حرمت آباء لى ما كان لأحد فى الناس مثلهم برا ومحبة ونعمة : أبى وباقوم وابن نوفل والحارث وسيدى وملاذى محمدا رسول الله. وحرمت نعمة الأمومة المباركة من خديجة أم المؤمنين ، وأمى تماضر وهرميون ! وحرمت الاخوة زيد بن حارثة و بلالا و إياسا ،

ومنهم كنت أستمد القوة والأمل : وحرمت الأخت لا أخت سواها : لمياء ، التي تحبني وأحبها ، وكان جوارها النعمة والمسرة ، والقلب السعيد . ولكن واحسرتاه : لقد افترقنا وهي تحسبني صلب القلب خشن النفس ، جامد الحس ، فهي إلى اليوم في مكة لا تذكرني الا وهي منقبضة النفس عني ، تود لو ترسل إليّ كلمة الغضب في طيات ما يهب علينا من النسائم لولا ما تكون قد أدركته من سرّي المكنون



ثم أخذ يتذكر جمال وجهها واشراقها ببسمات المحبة حين كانت تلقاه ، وما يعروها من نشاط السعادة لمرآه وتمنى لو كانت الى جواره كعهده بهدى وتمنى لو يتناولها بين ذراعيه ويدنيها من قلبه المحترق بالشوق اليها ويقبّلها ويعتذر اليها ويفيض على ترائبها نبع حبّه المطهّر المكتوم . فلما لم يجدها التى رأسه على جوالقه وخبأه في طياته وأخذ يذرف الدمع مدرارا ويتأوه

ملتاعا ، واذا هو يحس على كتفه أنامل رقيقة تلمسه ، وصوتاً حنونا يكلمه. فالتفت فى غشيته فاذا هو يرى فى سحاب ما القاه على الدنيا من فيض دمعه وجها مجللا بالغيوم ، نسى انه وجه الأمير الصغير الراقد فى فراشه جريحاً فى الغار و يزعمه لفرط ملاحته ودعته حين ارتدت العافية اليه ، وجه لمياء قد توارد اليه شبحه حقيقة ماثلة فمدّ ذراعيه اليهـا يقول فى ضراعة القلب المتفطر: لمياء ! تعالى! لمياء! الىّ ! ولشدّ ما كان ذعر الأمير وحزنه اذ رأى الفتى فيما هو فيه وأدرك أنه وجد قد دلّهه . وتمعن فى محياه فوجد فيه مع الملاحة معالم قلب كريم وطلعة شاغف مشغوف .فرق للفتى، وقال له: لا بأس عليك ياصاحبى ! وكانت عينا و رقة قد خلتا آخر ما كان فيهما من قطرات الدمع فاستطاع أن يرى وجه الأمير عيانا و يدرك انه فى بحران . وسرعان ما رد ذراعيه الى عطفيه واستوى فى مجلسه يعتذر الى الامير فى ذلة المريض. ولـكن الأمير لم يدعه يتم اعتذاره فأعاد عليه القول: لا بأس عليك ياصاحبى. سمعت نحيبك فأخذتنى عليك رقة ورأيتنى انهض بقوة الله لأرى ما بك عسى أن أخفف عنك . ولـكنى أشعر . . . . أشعر . . . ثم لم يستطع ان يتم جملته بل سقط على ورقة ، وهو مطرق ، من أثر دوار أصابه لما أنفق من الجهد فى النهوض وفى الوقوف حياله . وأدرك ورقة ذلك من صفرة علت وجه الامير فنهض وأرقده مكانه . ثم أخذ يحل أربطة لفاعته من أعلى ليرد عليه الهواء فينعشه . وما كان أشد دهشته إذ لاح له من وراء الأزرار نحر عليه عقد من اللؤلؤ الـكبير متدل فوق قميص من الزرد يعلو قميصا من الحرير

الأبيض برز منه فوق الترائب نتوءان أيقظا فى نفسه أن تحتهما ثديين ، وأن الامير أميرة. وثبت عنده ذلك عندما اتجهت عينه إلى وجهها فبدا له منه وجه انثى فى الثلاثين من عمرها ، اذناها قد خرمت شحمتاهما لتحملا قرطا لم يكن إذ ذاك موجودا . أيقن أنه كما أوجس ، وانها انما تنكرت لتصرف عنها من الأذى وهى فارة مالا يقع للرجال . على ان دهشته لم تعقه لحظة عن أن يبحث عن سقاء الماء ليرش منه على وجهها نطلا ينبهها، ثم يحملها وهى على هذه الحالة ليرقدها فى فراشها فى الغار ، ويبعدها عن عيون من معه من الرجال إذا هم جاءوا وهو مشغول بأمرها .وكانت الاميرة قد تنبهت إذ ذاك ، ورأت صدرها مكشوفا ومبللا بالماء ، فنظرت اليه والى نفسها وهو واقف أمامها، نظرة ذعر وتفحص آملة أن لا يكون قد كشف عن أمرها فقال لها : لابأس عليك ياسيدتى . اطمئنى . ستظلين على ما كنت عليه من التنكر وسأكون لك على الدنيا

بكت المرأة إذ ذاك بكاء صامتا وأرادت أن تتكلم ولكنه قال لها : ثقى بالله ياسيدتى وباخيك الذى جمعته بك الغربة ، وجعلت لك عليه حقا ؟ كلانا شقى محزون ولنعم المؤاخى الحزن والشقاء . ثم استأذنها فى أن يمسح لها نحرها مما نطل عليه من الماء ويربط لها لفاعتها ، فسمحت وفى نظراتها لمعات الشكر والحمد لله على أن أرسل اليها مؤاسيا فى ساعات حزنها وفرقها من أن تصاب فى كرامتها بمكروه . ثم قالت والعين شكرى بدموعها : ما اسمك أيها الفتى الكريم لاصلى لك وأدعو ؟ قال ؟ شكراً لك ياسيدتى .

اسمي ورقة بن صليح وأنا من مكة. قالت ليثبك القديسون على مروءتك . ثم اخذت تتمتم بالصلاة والدعاء وهو مشغول بتجفيف الماء عن نحرها

وفيما ورقة يسبل لفاعتها على بدنها تألمت ألما مفاجئا تقلص له وجهها وصاحت : الجرح الجرح ! فرفع يده على الفور ووقف هنيهة حتى زال أثر ألمها وقال : معذرة اليك يا سيدتى . قالت : لا بأس . قال : ألا تسمحين لى يا سيدتى أن أرى جرحك ؟ انى أعرف شيئا من طب الجروح . قالت : بلى يا ورقة ، لم يعد يريبنى منك شىء ، ولكن ماذا تستطيع الآن فعله للجرح ونحن كما ترى بعيدون عن الدنيا وعن الدواء . قال : لا تعجز حيلة الطبيب وان لم أكن واسع العلم . قالت : لا بأس . اكشف وانظر انى واثقة بمروءتك . والله لا أدرى عن جرحى شيئا . فقد أغمى علىّ ساعة ضربنى اليهودى بسيفه ورأيتنى فى هذه الثياب محمولة على كتف خادم زوجى الوفى . ولا أدرى من ألبسنى أياها وإن كنت أظن أنه هو الذى فعل هذا .

أخذ ورقة يزيح اللفافة والدرّاعة الفضفاضة عن بدنها واذا هو يرى الزرد والقميص الذى تحته مقدودين قدا طويلا بادئا من جانب الثدى الأيسر ومنتهيا فى أسفل الخاصرة. ويرى على اسنط القد جرحاً لاصقا بالزرد نفسه من أثر ما علق به من الدماء . ورأى بعض حلقات الزرد مشتبكا فى الجلد أو غائرا وبعضها مكسوا بأهداب من اللحم ، والجرح كله قائما تخالطه دماء ومصول . فهاله ما رأى ، ولكنه دارى عواطفه ، ثم أخذ يرد كل شىء الى ما كان عليه ،

وهو يقول: احمدى الله يا سيدتى ، وصلى له صلاة الشكر مضاعفة كل يوم. لقد أنقذ حياتك الزرد الذى لبسته. قالت ألف حمد لله على كل حال — كيف ذلك ؟ قال لقد عاق الزرد السلاح عن أن يغير عليك. قطع السيف حلقات الحديد فلم يبلغ إلىّ ما وراء الجلد بكثير . والجرح على كبره يسير فى طريق الشفاء ولكنه يحتاج إلى تنظيف. لقد وهبك الله قوة فى البدن ستعجل لك العافية. قالت : ليتنى مت يا صاحبى ، ولم أعش بعد زوجى وولدى. ثم خنقتها العبرات فسكتت وتحدرت الدموع على خديها متداركة كقطرات السقاء المخلخل. ولم يستطع ورقة أن يحبس دمعه لدن هذا المنظر المؤلم فبكى لبكائها ، ثم تمالك نفسه يقول : هوّنى عليك يا سيدتى لا تضعفى نفسك بهذا الوجد . أنت شابة وسرية كما أرى ، وستشرق عليك شمس حياة طيبة جديدة يوم تعودين إلى الاسكندرية ، وسيكون لك اولاد وزوج تحبينه. إن الله واسع الرحمة. ما أرجو منك ان كنت تأخذين بالرشد ، أو كنت ممن يقرون الحق الا أن تضعى أمور الدنيا أمامك كما تضعين الكتاب وتقرئى. فستجدين فى هذا الكتاب مخطوطا بقلم عريض كبير : لاتنظرى إلى الوراء : انظرى الى الامام. اذا ورد عليك فكر مؤلم فرديه بيدك وسيرى الى الأمام لتبلغى ماتعده الدنيا لشبابك وجمالك من النعمة والمتعة التى تنسين بهما كل ما مضى. أما وأنت تبكين الآن فذاك لأنك شاكة فى المستقبل وفى رحمة الله. لا ياسيدتى شبابك وجمالك وجاهك ضمين لك برد سعادتك. انى سأحملك الى أهلك

فى الاسكندرية لتقربى من هذه السعادة . نعم أنى كنت ذاهبا الى القدس وان كان صديق لى قد أوصانى أن أقصد الى يوحنا أمير أيلة ولكنى أكره المكث فى الدنيا بلا عمل . وكذلك كنت فى طريقى الى الرقيم التى تسمونها بطرة (٣) . ولكن لم يكن لى غاية خاصة من ذلك فلأعد معك إلى أيلة واسلك بك أقرب الطرق الى القلزم، طريق الشعوى ، وهو مملوء على قصره بالعشب والماء . (٤) بيد أن القوافل لاتطرقه كثيرا لانه ليس طريق تجارة بعدما دالت عمان و بطره .

سأصرف الرجلين من هنا وسأدفع لهما أجرهما وأن كانا لا يريدان أجرا ، فقد أعطيانى الخاتم الذي أعطيتهما أياه لا رده اليك ، انهما ليسا من جمّالة النقل ، بل هما من موالى سادة كرام أعرفهم فى يثرب ، وقد ملكتهما عليك شفقة . ها هوذا . ثم أخرج الخاتم من جيبه ، وتناول يدها و وضعه فى الأصبع التى بدا عليها أثر نزعه والمرأة غارقة فى دموعها ، لاتتكلم فقد كانت هذه المروءة فوق كل ما علمت أو وهمت ، أو تجد له لفظا يفيه شكرا ، ولكنه استمر يكلمها فقال : أما جرحك ياسيدتى فسأعالجه بعد قليل عندما يعود غلامى . لابد من نزع الزرد عنك ،ونزع

---

(٣) هى عاصمة الادوميين ثم النبطيين قديما وسماها الرومان بعدهم بطره لانها حجرية كلها اذ الكلمة تعريب لمعنى الحجر فى الرومانية : ويسميها صاحب تاريخ سينا بتراء تعريبا للاسم الرومانى ولست معه فى ذلك فالرقيم اسمها العربى — أى المرقوم وهو مشتق من كونها ذات نقوش وكتابات ترى على كهوفها الكثيرة التى يقال أن منها الكهف الوارد ذكره فى القرآن الكريم . (٤) عن تاريخ سينا لشقير بك

القميص كذلك وسأتولى أنا هذا الأمر وحدى حتى لايعرف أحد خفىّ أمرك بيد أنى أريد ماءً ساخنا ، ولا بأس أن يعده الغلام. هل معك ثياب؟ فابتسمت ابتسامة محزون ولم ترد . قال : لابأس ، عندى أنا شيء من ذلك للطريق ، والسوق على كل حال قريبة .

وفيما هو يكلمها استطاعت أن تسأله : ممن تنتظر جزاءك على هذا الجميل ياصاحبي ؟ قال : لا أنا انتظر جزاءا ولا أنا أريده . قالت : ولا من الله ؟ قال : من يفعل مايراه الناس خيرا ارتقابا لجزاء من الله يتلف الخير نفسه . على أن الله اعطانى جزاء هذا العمل سلفا بما أنا فيه من السعادة وذلك أنك قبلت ان أتولى أمرك . ولكنى ولا أكذبك انما أرد جميلا لم يكن لى قبل بردّه . لقد اكرمتنى سيّدة من بنى جنسك اكراما ليس وراءه إكرام . وأنا اليوم أعيش فى نعمة من برّها واحيا فى ذكراها ، واشعر الآن إذ انا معك أنى معها بجوار ابنتها التى احبّها وتحبّنى ، ثم فرّق الدهر بيننا فهى اليوم فى مكة تطوى فؤادها على وجد يأكل جسمانها ، وأنا هنا فى حرق تأكل حياتى . وما كان بكائى الذى ايقظك وحملك على النهوض الىّ إلا لأن وجدى كان قد غلبنى وساعدته الوحدة والعزلة على الفتك بى فأطلق القلب مكنون سرّه. أشعر الآن أنى أراهما اذ أراك واحادثهما كعهدى بهما فى الأمس إذ أحادثك ، وأنى سعيد ، وأن الدنيا بين يدى . واذا قمت لك بما ترينه خيرا فكأنما أقوم به لهما . بل أرى بينك ياسيّدتى وبين منى النفس شبها قريباً جدا . فتذكرت المرأة حاله عندما كان يبكى

وتذكرت انه نطق باسم فتاة وهو فى هواجس وجده ساعة اغمى عليها وخيّل اليها أنه كان يقول لها لمياء . فنهضت قليلا من مرقدها وقالت : لمياء ؟ ! قال ورقة : نعم . قالت وقد تذكرت أنه قال انه يرد جميلا الى سيدة من بنى جنسها: بنت هرميون ؟ فارتد ورقة الى الورا . يتأمل وجهها متعجبا ، وقدّر أنها تعرفها من الاسكندرية . وقال : أجل ياسيّدتى بنت العالم قوزمان وزوجة الحارث بن كلدة الطبيب ، اتعرفينها ؟ فعادت السيدة الى فراشها منهوكة القوى من أثر هذه المفاجأة ولم تتكلم . فقال ورقة : أراك تعرفينها ياسيدتى ! فأشارت بجفنيها وهزة من رأسها إيجابا ، وصمتت وأخذت تتمتم صلاة بالرومية، ثم تكلمت أخيرا فقالت : هى اختى ولمياء ابنتها تشبهنى حقيقة . اهما فى مكة الآن ؟ قال نعم ياسيدتى . قالت : ألم تذكر هرميون لك ان لها اختا اسمها هيلانه ؟ قال : بلى . قالت : أنا هى هيلانة . قال: يارحمة الله لقد كانوا جميعا يذكرونك ويسائلون الله عنك . ولقد أحببتك ياسيدتى لكثرة ماذكروا عنك ، يالله ! أى نعمة هذه التى القاها ! ثم جثا وتناول يدها وأخذ يقبلها ويغمرها بفيض دمعه، وهيلانه غارقة كذلك فى دموعها ولكنها لم تر من المروءة أن تحرمه تلك القبلات البريئة التى كان يروى فى دمعها بعض وجده . واذا هو فى ذلك الوجد يقول : واحسرتاه ! لقد كسرت قلب لمياء بجمودى ، وها هو ذا اليوم قلبى يتفتت . ولكنى لم أجد من المروءة ولا الوفاء ولا من حقى أن أفصح لها عن هيامى بها . أن أباها أستاذى وسيدى وهو رجل عظيم فى الدنيا بل لعله أعظم

العرب من غير بنى عبد المطلب ، وما أنا إلا فتى قليل الشأن فى مكة :
كانت أمى سبيّه وكان أبى تجارا من الاسكندرية ولذلك كتمت عنها
هيامى بها وعملت على أن تكرهنى لتنسانى . وزادنى أصرارا على دأبى
هذا ما رأيت من سيّدتى هرميون ، فلقد كان أغلى أمانيها أن لا تزوّجها
إلا من أهلها فى الاسكندرية ، ومن بيت الامير نيقتاس نفسه . فليلطف
بى الله وبها وليهبها كل ما ترجو لها وأرجو من النعمة والسعادة . فلما
انتهى من حديثه سمعها تقول : بل نذهب الى مكة ، خذنى الى مكة .
لعلى أستطيع أن أجمع بينك وبين لمياء . فابتسم ورقة ابتسامة مكلوم
يائس ، ولكنها استمرت تقول : هل كبرت لمياء وصارت عروسا وصار
لها قلب يحبّ ويهوى ! لقد تركتها طفلة فى السابعة من عمرها . قال :
صارت ملكا يا سيدتى . قالت : وأراها اختارت لهواها ملكا كذلك
يا أخىّ . فتراجع الفتى قليلا ، وأخذ ينظر اليها وحاول الكلام فقاطعته
وقالت : وحق ابن الله ، لو كنت أمها مازففتها إلااليك أنت ياورقة ، إنى
لأراك آية من آيات الخير الذى يحدثنا عنه القديسون . قال وقد أخذه
الحياء من كلامها : سيدتى ! إنما ترينى كذلك لأنى فى أحسن حالاتى:
فتى ذليل النفس شريدا طريدا مقطوع الأمل فى الحياة ، واجدا هائما ،
يجد فى ظلمة اليأس والحزن نورا وسعادة . قالت : خذنى إلى مكة لأرد
اليك جميلك ، ولأهدى ابنة أختى نعمة . قال لا أستطيع يا سيّدتى . ان
أخاها لأبيها أهدر دمى لأنه كره أن أكون ولدا لأختك . قطع بينى

و بينها فى اليمن وأهدر دمى فى مكة هو والمشركون جميعا لأنى قتلت عبداً لهم كانوا قد أرسلوه فى السحر ليقتل سيدى وملاذى رسول الله محمد بن عبد الله . فانا شاكر لك فضلك يا سيدتى ، وأرى ما أنا فيه اليوم أكبر عوض. وسأذهب بك الى الاسكندرية ، إن لى فى حىّ رقودة أبناء أعمام أعرفهم بأسمائهم سأبحث عنهم، وسأشتغل هناك بما يشتغلون به . قالت هيلانه . لا بأس بذلك . ولكنى سأدخلك خدمة نيقتاس والى الاسكندرية وسيعرف لك جميلك . إنى زوجة أخ له اسمه تيودور كان فى الاسكندرية قبل أن يجيئها نيقتاس من أفريقية (تونس) بجيوش هرقل بعشرة أعوام . وتزوّجني قبل فتحها على يديه بخمسة ثم قضى لنا سوء الطالع أن نرحل الى اذاسا لنلقى جيوش الفرس ، ولكن الروم دحروا . لان الفرس استعانوا بألوف مؤلفة من العرب واليهود على الشام وتملكوها . ومنذ ثلاثة أشهر حاصروا القدس ودكوا حصونها ، وانحدروا علينا كالسيل يقتلون و يحرقون . وكان زوجى على رأس بعض الجيش فقتل واحسرتاه وهو يدافع عن كنيسة القيامة . وكنت يومئذ فى الدار فجاءنى بعض جنده يخبروننى خبره وليحملونى على الرحيل بولدى فرارا من القتل والبسنى أحدهم زردا تحت ثوبى المسبل من قبيل الحيطة وهو هذا الذى رأيت . ولكن اليهود أدركوهم فحاربوهم فى بيتى وقتلوهم جميعا الا واحداً فقد ظل يدافع عنى وعن ولدى حتى ضربه أحدهم ضربة ألقته على الارض مقطوع الساعد وهجم بعضهم علىّ ليسبونى أنا وولدى حين كان أحدهم يضربنى ليقتلنى

ثم خنقتها العبرة واستمرت تقول : حتى رأيت ولدى قتيلا بجوارى، ولم أشعر بعد ذلك بشىء إلا أن الجندى الأبتر يحملنى و يسير بى مجدا فى الجبال والأودية و راء بيت المقدس، والدم يقطر من ساعده. وضعنى على كتفه كما تضع الام طفلها ، حتى وجد مضربا لهذين العربيين فالقانى بين أيديهما ، وكلمهم فى شأنى بالعربية كلاما لم أفهمه كله ولكننى أدركت القصد منه . ثم أخبرنى بالجهد أنهم سينقلوننى الى أيلة عند أميرها ، وأنه خبّرهما أنى أمير ثم أسلم الروح وقضى وهو شاخص الىّ وانا كذلك شاخصة اليه هلعة لا أدرى ماذا يجرى فى الدنيا . فقد زايلنى أكثر صوابى ، حتى تنبهت لنفسى بعد مسيرة يوم ، فرأيتنى فى هذه الملابس فادركت أنه هو الذى البسنى اياها عندما عزم أن ينقلنى . أراد أن يخفى حقيقتى عن الناس . فبكيت طول الطريق وصليت لله أن يأخذنى اليه . كل هذا وأنا لا أشعر أنى جريحة ، ولكننى رأيت الدماء على ماالبسنى الجندى وشعرت بالألم وتحسست بيدى فعرفت مارأيت . ولقد كنت أتمنى أن أموت كما مات زوجى وولدى ، ولكننى واحسرتاه لم أمت ، بل عشت لما هو شر من ذلك : للحزن والثكل . ولقد أحسن الىّ هذان العربيان بمالا أدرى كيف أشكرهما عليه ، وحملانى على بعيرهما كما رأيت . فلما أنزلانى ليلة أمس للمبيت ولم أكن حملت نقودا لم يسعنى الا أن أشكرهما من كل قلبى واعتذر اليهما من عجزى عن مكافأتهما ثم قدمت لهما خاتم الزمرد الذى رداه اليك . قل لى كيف اشكرهما ؟

ولكنك ستتولى عني ذلك . أجزل بحقك عطاءهما ما استطعت وعسى أن أتمكن من رده اليك فى الاسكندرية ، والا فالخاتم لك وعقد اللؤلؤ لك . قال ورقة : أمسكى عليك القول ياسيدتى ، لاأريد مالا ! قبّح المال والراغبون فيه . اسقطى المال فما بيننا ياسيدتى ، فما يفسد علىّ نعمة الله الّا ذكر المال . ان معى ما يكفينا ويزيد .

فصمتت هيلانه فترة طويلة ذرفت فيها ذوب قلبها كله ، ثم قالت : الحمد لله الذى وهبنى على اليأس أخا وصديقا .

الفصل الثالث والثلاثون

إلى اثريب

عاد الجمالة بالجمال بطانا من خيرات الله فى مرابض معان ، رياً من مياهها العذبة الجيدة ، فأناخوها فى مدرأ من هواء الخريف ثم ضربوا لأنفسهم مخيما يقضون فيه الليل فى جوارها لحراستها . ولكنهم صعدوا إلى ورقة ليقضوا معه ما بقى من اليوم ، وقد بدا الآن فى نظر اليثربيين مثل الشجاعة والمروءة والعقل الراجح فقد ذكر لهما غلام أياس ما كان منه من قتل عملاق بنى قريظة وفارس بنى النضير فى الدفاع عن سيدهما ابن زراره فى يوم بعاث الذى انقلب فى النهاية على الخزرج ، وان سيده أياسا اضطر أن ينقذه من أيدى اليهود بترحيله عن يثرب فى قطع من الليل كما اضطر المسلمون فى مكة الى انقاذه بترحيله عن مكة أثر ما تآمر المشركون على قتله جزاء افساده عليهم كل ما كانوا يعمون من الأذى للمسلمين ولرسول رب العالمين . وانبرى موليا بنى أيوب يدعوان له ويثنيان عليه لانقاذه سيد الخزرج ويأسفان على أنهما لم يكونا فى يثرب فى ذلك اليوم

وكان العصر قد آذن فنهضوا للوضوء والصلاة وتعاهدوا جميعا على على الامانة والصدق والعفة والتقوى، ونصر الله . ثم انصرف اليثربيان الى الى مضربهما بجوار المطايا حامدين شاكرين تاركين الامير فى عناية ورقة واثقين بفضله ومروءته

أما ورقة فجلس يفكر طويلا فى احداث هذا اليوم حتى إذا ذكر هيلانه ، تنبه الى أنه وعد أن ينظف جرحها ويكسوها غير كسوتها فنادى غلامه وأمره أن يغسل ما عونا مما لديه ويغلى فيه ماء ، ويغلى اللبن كذلك ليطعم الامير . وكان قد عزم فى نفسه على الرحلة الى أيلة فالأسكندرية ، فأعد كتابين أحدهما الى أياس ، والآخر الى أسعد يشكرهما فيه على ما لقى من البر والخير ، وحدثته نفسه أن يكتب رسالة الى باقوم وأمه ليخبرهما بما اعتزم من السفر الى الاسكندرية ، ويرجو من إياس ان يرسلها اليهما مع من يكون ذاهبا الى مكة من رجاله فكتبها كذلك

فلما انتهى الغلام من مهمته وجاء بالماء الساخن واللبن ، أمره ورقة أن يدخل به غار الأمير ، فلما عاد خطر له أن يبعده عن المكان ، فارسله الى سوق عمان ليشترى خبزا ونسيجا لعامته . فانصرف الغلام فى ذلك . أما هو فأخرج من جوالقه قميصا من الكتان وخرقا كالمنديل وعصابة من عصائب عمامته وفتح جوالق الغلام فاستخرج منه قدرا كبيرا من ملح الطعام ودخل بذلك على الاميرة . فلما رأته بدت عليها علامات المسرة بمرآه . وابتسمت ابتسامة المحبة الخالصة ، فقال لها : أعددت لك الغسول يا سيدتى وجئتك بقميص مما ألبس ، فلا تعيبيه ، انه ليس كقميصك الذى من الحرير ، ولكنه خير منه الآن . بيد أنى أرسلت غلامى الى سوق عمان ليأتى لنا بنسيج ، قالت : ليس لى معك رأى ، افعل ما ترى . قال : شكرا . ثم أنهضها برفق وحل اللفاعة ونزعها ثم وضعها تحت خاصرتها ليقى بها الماء عن الفراش ساعة

الغسيل ،وحلّ أزرار الدرّاعة وأتى بالماء فوضع فيه ما أتى به من الملح،ووضع الخرق فيه وأخذ يبلل الجرح بالماء المملَّح ، ويزيل الدماء والمدة عن الجرح شيئا فشيئا . وعند ما لان اللحم والجلد الجافان تلطف فأخذ ينزع حلقات الزرد المشتبكة فيهما من أثر سيف اليهودى ، والاميرة تتألم ولا



تجرؤ أن تتأوه ، حتى أخلى الزرد كله عنها . واستمر ورقة يغسل الجرح حتى نظف ، جففه بخرقة مما أعد ، ولفّ خصرها بعصابة عمامته وجعل منها نطاقا ، ثم غطّاها بغاشيتها التى كانت تتغطى بها فى فراشها .وعندئذ أغمض عينيه لكى لاتتأذى الاميرة بوقوع بصره على بدنها ، وتناول كمى الزرد واحدا بعد آخر ،ليخلعه عنها، وكذلك فعل بالقميص الحريرى الذى كان تحته

وهو فى إغماضه لا يرى. ثم التفت عنها مظاهراً وقدّم لها بيد ممتدة الى الوراء قميصه لتلبسه. فأخذته منه ولبسته، حين كان قد انحنى يأخذ ماعون الماء والخرق الملوثة ليخرج بهما من الغار مظاهراً. وعاد ورقة بعد ذلك يأخذ الدرع وقميصها الملوثين بالدماء فلما تناولها رأى فى عينها علامة التردد فادرك أنها لا تريد أن يبدو قميصها للعين فيراه الجمالة ويعجبوا. فابتسم ورقة وقال: لولا أنى أخشى أن نحتاج اليه فى الطريق لتركته على حاله، ولكنى سأغسله بيدى على الفور قبل أن يعود غلامى، وادع له اللفاعة ليغسلها هو. وسيجفان ولا شك قبل الصباح، قالت وقد ابتسمت: افعل ما بدا لك بيد أن لا حاجة بنا إلى القميص، أما نستطيع أن نشترى من هنا نسيجا أو من أيلة، إنى أستطيع أن أخيط ما نشاء. قال: كذلك ولكن لا بأس بغسله، انه لا يكلفنى شيئا. ثم خرج فغسله مما عليه من الدماء وعاد به بعد قليل فنشره على حجرين فى غرفتها على صورة لا يبدو منها حقيقته ولاحظت الاميرة ذلك وابتسمت وقالت أراك تحسن التمويه ياورقة، قال إلا فى الخير ياسيدتى. قالت قصدت ذلك بالطبع، معذرة اليك وفيما هى فى ذلك عاد الغلام بالخبز والنسيج فتناوله منه وشكره ورجا منه أن يغسل لفاعة الاميرة فقد تركها له عند السقاء، وانصرف ورقة يطعم السيدة شيئا من اللبن والخبز حتى إذا طعمت لففها فى النسيج وهو لا ينقطع عن مؤانستها بأدبه وأحاديثه وتأميلاته فذكر لها أنه سيقضى فى معان يوما واحداً لتقوى على الرحلة الى أيلة ولا يقيم بعدها فيها الا ريثما يستعد للرحلة الى القلزم

وكانت الشمس قد غربت فى ذلك الحين وكاد الغار يظلم فخرج بها ورقة إلى خيمته ليقضيا بعض الليل فى ضياء النجوم حتى إذا غلبها نوم العافية المؤاتية حملها إلى مرقدها فنامت وانصرف هو ليسهر عليها وعلى لمياء.

* * *

فى صبيحة اليوم الموعود كان ورقة يسير بهيلانة الى أيلة بعد أن ودع البئر بين الثلاثة وأكرمهم جميعا ، وحمّلهم الرسائل التى أعدها لاصحابه وأهله ، ونقل اليهم جميعا فرط شكر الاميرة ـ وقد ظلت فى اعتقادهم أميرا جريحا ـ ودعواتها الخالصة لهم.

وفى صبيحة اليوم الرابع كان يسير بها فى قافلة عظيمة اتخذت درب الشعوى طريقها إلى القلزم (السويس)

كانت القافلة مؤلفة من أخلاط من الناس على مثل ما شهد فى بطاح يثرب ومعان ، جاءوا من أدنى الشام واعلاها ، ومن شرقيها وغربيها ، بين روم وشاميين، فارين بأنفسهم وبأولادهم من ويلات الحرب فى تلك البقاع منهم الثاكل والمحزون ، ومنهم المحروب والمغلوب. جاءوا فى الصحراء من القدس وقيصريه وبصرى وغزّة الى أيلة وغير ايلة قاصدين مصر من غير طريقها القريب منهم — طريق رفح والعريش والفرمة — لعلمهم أن الفرس كانوا قد استعدوا لفتح مصر ، ويوشكون أن يسيروا اليها من ذلك الدرب فتركوه وصعدوا فى الصحراء وعطفوا على بطرة ومنها إلى أيلة ليخترقوا صحراء سيناء إلى القلزم من طريقها هذا القصير.

اخترقت القافلة درب الشعوى فى اتجاه الغرب لم تمل عنه يمنة ولا يسرة الا فيما كانت مضطرة اليه من تفادى جبل أو التماس بطحة على أنها لم تلق فى هذا الدرب ما اعتادت أن تلقاه مثلها من الوعث والمشقة ، إذ كان طريقها معشبا كثير المياه والأودية ، كثير المباءات والمنازل . ولذا عدّ الركب أيامهم فى سيناء نزهة مباركة وعلامة طيبة على رضا الله الذى أنقذهم من أذى الفرس واليهود ومسترزقة العرب

بلغوا القلزم على الهوينا فى ستة أيام، و بلغوا بلبيس فى يومين ونهضوا فى اليوم التاسع قاصدين اثريب

ولشد ما كانت دهشة ورقة حين كان يخترق حقول مصر ومزارعها ، فلا يرى على جانبى الطريق إلا خضرة ، ومياها وماشية وأنعاما ، و رزقا غير منقوص . وكان الجو فى أوائل كيهك (نوفمبر — ديسمبر) قرًّا جميلا منعشا ، والشمس دفيئة كريمة ، تسطع على البقاع فتجلو جمالها وتمنحها رونقها ، وتتكشف للعين دقائق فضل الله على هذا البلد الذى جعلت الأمم القوية حيازته علامة استكمال مجدها ، و بلوغها سدرة المنتهى فى الحياة الدنيا . وهيلانه فى أثناء ذلك مغتبطة بما تسمع من ورقة من أحاديث عجبه ، معقبة عليها بما لديها من أخبار ما يمران به من البقاع فى عهدها القريب . وكان الجرح قد أمعن فى الالتئام ، فارتدت اليها العافية ، و زها وجهها بنور الصحة ، فلاحت بين تلك الخضرة كالزهرة الحالية الانيقة تلقى عليها من جمالها الفتان جمالا تبدو فيه كأنما هو بعض نضرتها . ذلك

حينا كانت تنسى همّها فى جوار صديقها ورقة ، وفيما كانت تجده من اللذاذة بالحديث معه عن مصر وفتنتها ، وما تستشعره من نشاط نفسها لدن تقديرها أنها ستتمكن فى القريب العاجل من رد جميله اليه واستخلاصها لنفسها بعد ذلك أخا وصديقا .

قريبا من أتريب (بنها) فاذا هما يريان أشرعة سفن كثيرة تمخر من الشرق متجهة إلى أتريب ، كأنما هى سرب متواصل من حمائم بيضاء ، فزعم انه النيل وتاقت نفسه مشتهية أن ترى على الفور ذلك النهر الذى طالما حدثه عنه باقوم والحارث أعجب الأحاديث . ولكن هيلانه عجلت فانبأته أن الذى يرى إنما هو فرع من النيل يخرج من أتريب وينتهى عند تنّيس وقدرت أن هذه السفن التى تمخره انما تحمل اللاجئين من بلاد الشام والموت الزؤام إلى بلاد مصر والاسكندرية .وكان الواقع كذلك فقد كانت تحمل جموعاً من أروام الشام الفارّين منها من كل ملة ، حتى من اليعاقبة الذين أمّلوا الخير كله من اندحار الروم وانتصار المجوس فلمّا لم يعرهم المجوس اهتماماً ولم يشغلوا أنفسهم بالسفاسف ولم يتدخلوا فى عقيدة أحد وإنما تدخلوا فيما يملكه الناس وعملوا على أخذه منهم، فروا هم أيضاً مع الفارين .

بلغا بعد قليل ميناء أتريب العظيمة ، وكان ورقة فى أثناء قدومه يرسل ببصره إلى صفحة النيل ممتدا على الافق من الجنوب إلى الشمال ، فيرى أمامه أعجب ما وقعت عليه عينه منذ خلقه الله — يرى النيل ! يرى

السلسبيل — يرى فيض الخير الذى ترسله السماء إلى الخلق كل عام بالرى والخصب والنماء . ويرى الفلك تجرى هادئة على صدره ، فما إن يغفل الطرف عنها حتى يراها قد أوغلت وانحدرت إلى مستقرها ، فهى تحكى نعمة الله التى يرسلها إلى الموعود بهـا فتأتى اليه سلسة هادئة ، حتى إذا استبطأ سيرها وجدها قد غمرته من حيث لا يدرى. ولقد أزدحمت الميناء بالفلك الصادرة عن أتريب والواردة اليها على صدر الفرع التنّيسى ،لتقطع النيل وتنحدر منه الى الترعة الفرعونية التى شقها أحد ملوك مصر السابقين ليصل بهـا ما بين الفرعين الشرقى والغربى مارة بحصن منوف القوى وصاعدة فى مرورها الى أرباض نيقيوس حتى تفيض منها فى النيل من الجانب الآخر .

وفيما ورقة غارق فى تأمله وتفكيره ، انتبه على حديث هيلانه إذ تقول: ماذا نفعل بالجمال؟ لم تعد لنا بها حاجة ، فالطريق إلى الاسكندرية طريق النيل . لم يكن ورقة قد أعدَّ لهذا السؤال جوابا ، ولا هو يستطيع الآن جوابا . أما البعير الذى تركبه فكان هينا عليه أن يبيعه إذا وجد شاريا ، أما الشملاله التى يحبها وتحبه والتى أصبحت جزءا منه ، ففراقها عنده كفراق لمياء ، ولـكنه اضطر الى فراق لمياء رعيا لها ولأهلها ولانه لم يكن يملك غير ذلك . وأما الشملالة فماذا يجبره على فراقها ؟ سكت ورقة عن الجواب فقالت هيلانه : أنا أعرف قدرها عندك وان لم تعد لك بها حاجة ، ولن يكون لها عمل فى الاسكندرية. قال:وفى الصحراء وسيناء و بلاد آدوم وثمود

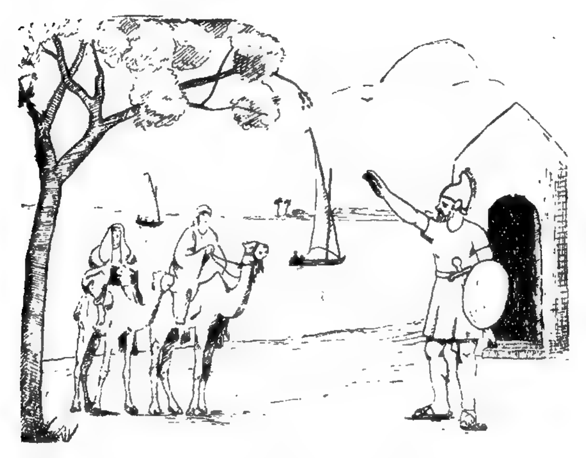
وفيها بين يثرب ومكة . قالت : لن تعود اليها ، لن أسمح لك . فابتسم ورقة وقال : أليس هناك من سبيل إلى أخذها معنا الى الاسكندرية فى سفينة؟ أنها آخر ما بقى لى من بلادى . قالت : إنك تجهل ما تتكلف من النفقة فى نقلها وعولها ، ولكنك لا تقيم لذلك وزنا . ثم تذكرت أنه يحب ناقته حباً تهون إلى جانبه النفقة فقالت : هى المحبوبة المعززة ، لا بأس سأدبر الأمر . خير لك وأرخص أن يأخذها لك أجير الى الاسكندرية . قال: وهل يؤمن عليها الأجير ؟ هبى أنه ذهب بها قالت وقد ابتسمت: انك يا صاحبي تنسى من أنا من نيقتاس حاكم هذه الارض ، وانى ان شئت ان أحملها إلى الاسكندرية على أعناق الرجال حملوها شاكرين . ولكنى لا أريد أن ألق منهم أحدا ، الا إذا عجزت

وفيما هما يتحادثان سمعا صوتا من ورائهما ينتهرهما قائلا : إلى متى تقفان تتكلمان وتزحمان الطريق ! قبح العرب والقبط جميعا ! انصرفا من هنا على الفور والا ضربت راحلتيكما فالقيتكما فى النيل طعاما لسمكه .

التفت ورقة وهيلانه إلى القائل فاذا هو جندى رومى مميز ممن أعدتهم الحكومة لمراقبة الواردين من الشرق إلى أتريب والطالبين الاسكندرية فى سفن الترعة الفرعونية ، على رأسه خوذة وفى يده درع من النحاس ، وفى منطقته سيف سميك . وقد ترك شواربه تتدلى على جانبي فكيه ، وتملأ وجهه وحشية تنفعه فى القتال

تأملاه فشد ورقة خطام ناقته استعدادا للسير والتفت إلى هيلانه كأنه

يلفتها إلى ضرورة الابتعاد عن المكان الذى يتحكم فيه هذا الجندى .



ولكنه رآها تتمعن فى وجه الرجل ورأى شفتيها تسايران نجوى نفسها فى النظراليه ، ثم انطلقت كلمة منها فى مواجهته تقول : كوسموس !

فالتفت الجندى اليها اذ كان هذا اسمه فعلا ولكنه لم يعرف مناديه لانها كانت قد تزيّت بزى العرب فى مرافقة ورقة منذ خرجت من معان وتلثّمت فلاحت فى صورة لاتدل على شىء ، ولأن العهد بينهما بعيد والصلة بينهما مقطوعة من زمن طويل . وأدركت هيلانه أنه لم يعرفها لتنكرها أما هى فلم يخف الرجل عنها وان كان قد كبر قليلا عنه يوم كان من حراس

زوجها فى منوف . وإذ التفت الى القائل كانما يسائله من المنادى ، لم تشأ أن تعرّفه من هى اذا أمكن أن يتذكرها ويعرفها هو بالنظر اليها . ولكنه لم يعرفها ، فقال وهو ينظر اليها: من ينادينى ؟ فازاحت هيلانه شيئا من لثامها ليلوح له شىء من أنوثتها لعله يتذكرها وقالت : ألا تزال تنكرنى ؟ فتمعن الرجل فى وجهها وقال متسائلا فى شك عظيم : سيدتى هيلانه ! قالت : نعم . قال : مرحبا بسيدتى العالية، مرحبا ! كيف حالك ياسيدتى وحال مولاى؟ قالت: وقد جهدت نفسها على التجلد : نحمد الله . وانت يا كوسموس وأولادك ؟ قال : نحن لا ننساك ياسيّدتى ولا ننسى سيدى ثم تناول كوسموس خطام بعيرها وأشعرها أنه يريد إناخته فأذنت . ولما بلغت قدماها الارض تناول الجندىّ يدها فقبّلها ووقف فى خضوع يحادثها وفى نفسه ألف سؤال وسؤال ، ولا سيما لانه رآها وحيدة ورأى معها فتى عربيا . ولكنه آثر ألا يحرجها بأسئلته فلعله يستطيع أن يعرف من حديثها معه مايريد أن يعرفه . وكان ورقه قد أناخ هو أيضا وجاء ليكون معها ساعه الحديث. فلمّا رأته قالت لكوسموس: هذا فتى نبيل يا كوسموس . أمكن إخوانك أن يخرجوا بى من القدس ليوقفونى شرور الفرس وجئت هنا فى حمايته . فالتفت كوسموس ينظر إلى الفتى نظرة ثناء وتحيّة ردّها ورقه بمثلها حين كانت هيلانه تتم كلامها : وهذه الناقة العظيمة عزيزة عنده وهى كذلك عندى لأنها تسابق النعام . فهل لديك حيلة هينة لتكون معه فى الاسكندرية ؟ قال : والله إن لدىّ شاريا لها يريد أن يبلغ القدس

فى أقصر زمن، ولو طلبت فيها مائة دينار ماتردد .قال ورقة : لا أبيعها بألف.
قال : إذن فلنجعلها فى احدى سفائن الجماهير والبضاعة الذاهبة إلى
الاسكندرية وما أكثرها . قالت : بل أرى أن تستأجر لها راكبا يلحق
بنا فى بيت أبى الذى تعرفه . قال كوسموس: حبا وكرامة .قالت: وأما البعير
فأرجو منك أن تبيعه . قال كما ترين ياسيدتى. أما الناقه فان لدىّ صديقا من
أكبر تجار الغلال فى الاسكندرية تونوّابها فى المجلس اسمه أورست يريد العودة
الى الاسكندرية مسرعا وسيكون سعيداً بأن أعرض عليه ركوبها لانه
يستطيع أن يبلغ بها الاسكندرية فى ضحى الغد. ولكنى أخشى أن سيبقى
فى مريوط أسبوعا . قالت : لابأس.هذا أصلح . قال :حسن جدا وسيدفع
الراكب أجر ذلك لصاحبك دينارا . إن الاجور اليوم عالية جدا .
والرواحل عزيزة جداً قال ورقة : شكرا لك ، ولكنى لا أريد أجرا .
حسبى من أجره أن يعنى بها ويوصلها الىّ سالمة . قال : ليكن ماتريد .
سأبيع هذا البعير قبل أن تركبا السفينة . إن لدينا من سفن القصر واحدة
خالية . هل أعدها ياسيدتى ؟ قالت : إذا لم يكن فى ذلك بأس فافعل
قال : أى بأس ياسيدتى ! هى سفينتكم ، وهل يملك التصرف فيها أحد
أكرم منك ! قالت : أعدها إذن ولكنى أرجو منك أن لاتخبر أحداً
بأمرى إن شئت حتى أرحل عن أتريب . قال : لك الامر ياسيدتى . ثم
دعاها للاستراحة فى جوسق له على النيل ريثما يعد السفينة . ونادى بعض
رجاله ليحملوا الجوالق الى الجوسق — ويبقى أحدهم لحراسة الجمال

الفصل الرابع والثلاثون

فى الاسكندرية

يخيّل إلينا ورقة تسير به هيلانة فى سفينتها الأميرية ناشرة قلوعها فى النيل عند أتريب ، ثم منسابة فى الترعة الفرعونية قاطعة جزيرة منوف على خط مستقيم حتى تصل إلى فرع رشيد بجوار نيقيوس (١) ثم هابطة مع النيل قليلا لتنحدر هناك مغربة فى جوف الفرع السكانوبى (٢) وتسير حتى تصل إلى تيمنهورس (دمنهور) وبعدها إلى الكريون (٣) على مدى ثلاثين كيلو مترا منها ، لتدخل هناك فى خليج كليوباترا (٤) السائر بمائه إلى الأسكندرية ، فيدخلها من جنوبيها ويخترقها حتى يصب فى البحر عند ما يسمى الآن مينا البصل — يخيل إلينا أن ورقة كان لفرط تعجبه مما رأى فى شبه ذهول . ما أعظم الفرق بين ما كان فيه فى

---

(١) محلها الآن قرية زاوية رزين وتبعد عن منوف تسعة كيلو مترات جنوبا بغرب — كانت أسقفية عظيمة ، وحصنا من أعظم حصون مصر فى طريق الوارد من الشرق أو من منف (٢) نسبة إلى بلدة كانوب التى كان هذا الفرع يصب فى البحر عندها . وهى أبو قير الآن (٣) لاتزال هذه البلدة موجودة باسمها ، وكانت على جانبي النهر فلما عدل مجراه فى القرون الاخيرة تركت الكريون وراءه وحيدة وكانت آخر حصن لمصر قبل الاسكندرية (٤) خليج كليوباترا خليج أقدم من كليوباترا نفسها حفره أحد اجدادها ولكنها عدلته ، وأكثره الآن الترعة المحمودية

بلاد العرب وما هو فيه الآن . هناك صحراوات قاحلة ماحلة ، وهنا مزارع ناضرة زاهرة . هناك جبال وأحقاف ، وهنا سهول ومروج . هناك آبار وعيون ضئيلة أو أفلاج وخيران جافة ، وهنا النيل والترع والخلجان والسواقى المترعة . هناك الخيام والمضارب ، وهنا الدور والقصور . أعظم ما رأته العين هناك من الحصون بيوت منيعة لسادة اليهود والعرب مبنية من الحجر فوق الجبال حول يثرب ، وأهون ماترى العين هنا صروح عالية وثكنات كالجبال قائمة على جوانب الطريق هنا وهناك . حتى إذا وقعت عينه على منوف ونيقيوس والكريون ، ورأى كلا منها مجموعة من الحصون الشاهقة الكبيرة الاحجار والابواب يعمرها جند الروم مدججين بالسلاح فى كل وقت استعدادا للطوارىء قال فى نفسه : لا ! هذه دنيا أخرى وعالم آخر غير دنياى التى كنت فيها . ولكنه كان قد سمع من باقوم ماسمع عنها أبد سبع سنوات متوالية ، وعززته هرميون والحارث ولمياء فيما روى له فصدق القول ووعاه ، ولذلك لم تكن دهشته لتذهله الذهول المنتظر . على أنه لما رأى بعض حصون تراجان فى منوف ونيقيوس مهدمة من أثر ما فعل بها بونوسوس أمير الشرق قائد قواد فوقاس ، والجيوش المصرية مجدة فى اعادة بنائها يتعجب كيف استطاع هذا الرجل الجبار أن يهدمها ؟ ويغلب عليها من كان فى جيش هرقل الأخضر (٥) : وكانت هيلانة فى أثناء ذلك تروى له مافعل بونوسوس هذا منذ سبع سنوات فى مصر من القتل والهدم

---

(٥) الأخضر كان دائما حزب الثورة

والتدمير انتقاما للامبراطور المسكر وه فوقاس . روت له أنه قتل كل حكام أتريب وسمنود ومنوف والسكريون ، وكل ضباطها العظام ، ونهب وسلب حتى إذا بلغ الاسكندرية واستعصى عليه دكها لمناعة أسوارها عاد يخرّب ويقتل متراجعا إلى تنيس ، ونشر مناسر اللصوص فى كل مكان ، ثم هرب إلى أنطاكية قصر إمارته ومنها إلى القسطنطينية. (٦)

هنالك أراد قتله أنصار القائد هرقل فرمى نفسه فى البسفور وغرق (٦) وأعقبوه بامبراطوره فقتلوه وأحرقوه (٦) وولوا هرقل بدله . ثم استمرت هيلانه تقول : ولكن هذا الامبراطور السيء الحظ هرقل لم يهدأ يوما واحدا. فقد استمر كسرى أبرويز فى الحرب مع أنه انما جاء لينتقم من فوقاس جزاء قتله حماه الامبراطور الطيب موريقوس أبى زوجته مارية . أوغل فى أرمينية ووصلت طلائعه إلى خليج القسطنطينية . ثم علقت هيلانة على ذلك بقولها : وكان المرجوّ إذ أن الشعب ثار على فوقاس قاتل حمى كسرى وأن هرقل قبض عليه وقتله اقتصاصا منه لجنايته أن يكفّ كسرى عن القتال ويعود إلى بلاده ، ولكنه لم يفعل بل استمر يحاربنا حتى أجلى جيوش الروم عن أرمينية والشام معا . وها هوذا قد ملك القدس واستولى على الصليب المقدس ، وأكبر الظن أنه آت بجيوشه إلى مصر ليفتحها . ولكن هيهات أن يدخل الاسكندرية! إذا كانت قد استعصت على بونوسوس وهو شيطان الشياطين فهل تسهل على قائده شاهين ! إن أسوارها سميكة

(٦) بطلر . وتنيس كانت فى المنزلة ومنها يسافر فى البحر الى الشام ثم أمر صلاح الدين بهدمها تفاديا من مشقة الدفاع عنها بغير ما فائدة حربية كبيرة

جدا لاتفعل فيها قذائف المجانيق ، نعم إن فى الاسكندرية يهودا يبلغون أربعين ألفا يتربصون بنا الدوائروفيها يعاقبه يدفعهم القساوسة إلى العبث ، ولكن سلفى نيقتاس لن يفوته أمرهم .

وكانت السفينة منذ دخلت بهما الترعة الفرعونية تمرمسرعة بقوة الريح وبمجاديف النوتية الاشداء الذين كانوا فى خدمة السفن الأميرية . ولذلك استطاعت أن تبلغ الاسكندرية فى أيام قليلة ، وتيسر لمن كان فيها أن يروا أعاجيب ما كان يجرى فى تلك الايام : رأوا مئات من السفن بين صغيرة وكبيرة تحمل أخلاطا من أهل الشام وجنودها وقساوستها بل و يهودها فارين بما معهم من الذرِّية والأزواج وما أمكنهم أن ينقلوه من المتاع قاصدين الاسكندرية أو غيرها من البلاد الحصينة فراراً من و يلات الحرب فى تلك البقاع الشقية . وكانوا كلما مروا بمرفأ من مرافىء القرى على جانبي هذه الترعة العظيمة ، أو على شواطىء النيل فى فرع رشيد والفرع الكانوبى وخليج كليوباترا غربيّه يلتقون بسفن تحمل غلالا وحيوانا و بيضا وسمنا بعضها سائرفى طريقه إلى الاسكندرية، و بعضها يوسق من أجلها. وكانت هذه السفن فى غالبها يحرسها جند من الروم لهم سمة خاصة تدل على أنهم من جنود يوحنا الرّحوم بطريق الروم فى الاسكندرية ، و بعضها فى حراسة شمامسة من أتباع بطاريق اليعاقبه الوطنيين . والواقع أن الكنيسة الروميّة كان لها بحكم النظام العام فى القطر أملاك واسعة مستقلة عن أملاك الأمير وكانت تزرعها وتأخذ غلتها للكنيسة وتنفق منها فى سبيل الاحسان

و إطعام الناس الذين لو تركت لهم هذه الاراضى لم يكونوا فى حاجة إلى إحسانها . بل كانت لها فى الغلال تجاره واسعة (٧) وكان للبطريق اليعقوبى أملاك وأوقاف كثيرة ، تأتى له فى مواسم الزراعة بغلالها لتنفق على مسكنة الاديار وفى الاحسان الى الجياع . و إذ كان ولاة أمر الناس يتوقعون غزو الفرس مصر ، فقد أمر كل بطريق أن تنزح البلاد فى الصعيد والدلتا و بلاد القطر من غلاتها وخيرات زرعها وضرعها لتخزن فى الاسكندرية استعدادا لويلات الحصار العصيبة . ولكنها نزحت كذلك لغاية أخرى . فقد بلغ يوحنا الرحوم ماوصل إليه حال أبناء كنيسته فى القدس ، ولا سيما على أثر أسر الفرس زخرياس عديله فى البطرقة هناك وحملهم إياه إلى مدائن كسرى . و بلغه أن الفرس شبعوا من القتل والهدم بل بدأوا يرون أن اليهود انتهزوا فرصة الحرب فأعملوا سيوف الغل والحفيظة فى الآمنين ، وهدموا وقوضوا باسمهم واستعملوا كل المغريات فى سبيل حمل الجنود الفرس على هدم البيع والدور المسيحية العظيمة بدعوى البحث فيها عن كنوز الذهب والفضة ، فارتدوا عليهم ببعض الأذى وسمحوا للمسيحيين باعادة بناء بيعهم وأديارهم والعودة إلى ديارهم (٧) .

بلغ يوحنا الرحوم ذلك فأمر فأعد لاسعاف أهل القدس والمساعدة فى إعادة الكنائس (٨) إلى ما كانت عليه ألف أردب من القمح والخضر

---

(٧) بطلر (٨) عن بطلر نقلا عن سعيد بن بطريق وليونيتوس ، وذكر بطلر فيما نقل أن

وألف بغل وألف سفينة من السمك المملّح وألف دن من الخمر وألف رطل من الحديد وألف صانع وألف قطعه من الذهب. ولذلك كانت هذه السفن عائدة من الاسكندرية فى سبيلها إلى أتريب وتنّيس (٨) لتنقلها ألوف الجمال فى البر أو السفن فى البحر إلى العريش وغزة لتصل إلى القدس.

بلغت السفينه الأميرية براكبيها ضواحى الاسكندرية ، تلوح على مدى منها عشرات من أديارها الحصينة صوب البحر فى الشمال وبحيرة مريوط فى الجنوب ، وتتوسطها مدينة الاسكندرية فى سورها القاتم تعلوه شهبة ناصعة كأنها قطعة من أحقاف اليمن العالية تجلّلها ثلوج . ذلك بأنها كانت فى أسفلها محوطة بسور عظيم عالى الجدران قاتم اللون لقدمه ولما يتسلق عليه من نباتات الصحراء البحرية فى ذلك الجو الرطب الذى تشتهيه الأعشاب وتمرع فيه . ثم تعلو الجدران من ورائها بروج مشرفة وقباب لامعة من الرخام والمرمر والحجر الابيض هى صوى الكنائس الكثيرة والمعاهد العظيمة ، والآثار الباقية فى الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط وأجمل مدائنه وأغناها وأطيبها

لاح السور العظيم محيطا بالاسكندرية أمام عينه إحاطة السوار بالمعصم حتى على شاطىء البحر فقد رآه ينعطف انعطاف مجد فى سيره. وكانت

يوحنا كتب إلى مودستوس القائم بأعمال البطرقة يقول : أعتذر إليك من أنى لا أستطيع أن أرسل شيئا جديرا بكنائس المسيح ، وما كان أحب إلى من أن أجىء فأعمل بيدى فى بناء كنيسة القيامه التى هدمها الفرس واليهود. نقلا عن الترجمة العربية للإستاذ أبى حديد

هيلانة قد خبرته بعض أمره فكان يتبين البعيد كأنه قريب ويرى بعين فكره مالا تطلعه العين الناظرة على تفاصيله. رأى إذ ذاك أحجاراً صماء كبيرة



بنى بها السور العظيم تعلوها على فترات قصيرة أبراج مستديرة وصروح مربعة ازدحمت بالمقاتلة من أنواع الجند الرومى والزنجى وبالمسترزقة من العرب وأهل برقة وطرابلس وإفريقية (تونس) ولاح باب الاسكندرية الشرقى، باب عون(المطرّية) أو باب الشمس، داخلاً فى السور إلى مدى تلوح على جانبيه عضادتان مقوستان من البناء الاصم . وكأنما الباب صدر كمىّ هازىء ، أو صنديد لايبالى بمن يواجهه . قد درّع وكمّت بصفائح من الحديد والنحاس ثبتت بمسامير ذات رءوس كبيرة وجعلت له فيما روى له مزاليج من قضب الحديد لايهزها وقع قذائف المجانيق عليها فهى لاتئن لها ، ولاترن إلا رنين الضاحك الهازىء ، ولا يؤثر فيها لهب النيران المدمّرة ، فهى هى

لاتتزحزح ولاتتجانف ، والويل لمن يقرب من الباب أو يقف يقرعه ، إن كان له أن يقرع ، فهناك تنصب عليه من ناصية الباب ميازيب من نفط وكبريت ونيران تشعل فيه لهبا لاينطفئ حتى ينقله إلى من أرسلوه فيحرقهم ويحرقه معا

وكانت كنيسة مرقص الرسول(٩) تتبدى عالية بقبابها إلى الجانب الشرقى البحرى من الجدار . وتلوح وراءها صوب الباب مسلتان عظيمتان (١٠) عرف ورقة يومئذ أنهما قائمتان أمام هيكل يسمى القيصريون(١١) أنشأته كليوباترا تكريما لزوجها أنطونيوس وجعلت فيه معبدا لعبادة القياصرة ومدرسة ومكتبة لرواد العلم ومطعما للطلبة ثم أتمه وزاد فيه القيصر أوغسطوس حين استولى على مصر وجعلها من أتباع رومه . من ذلك الحين نسب إليه ، وظل كذلك حتى انقلب المعبد فى المسيحية كنيسة للصلاة والترتيل . ولاح له إلى الجانب الجنوبى فى قرية رقوده عمود السوارى (١٢) الذى

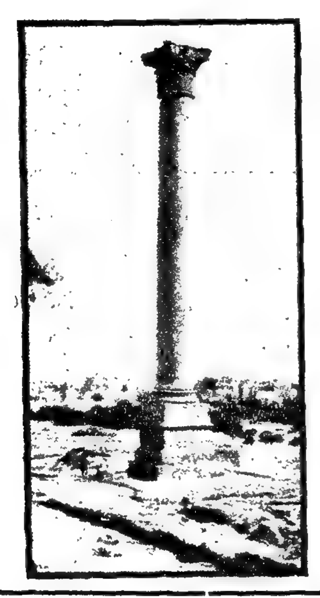
---

(٩) حيث تقوم الآن مدرسة سان مارك الفرنسية

(١٠) منقولتان من هيكل عين شمس إحداهما الآن على نهر التاميز فى لندن ، والأخرى فى حديقة عامة فى نيويورك

(١١) كان هذا الهيكل قائما حيث محطة الرمل الآن وما يحيط بها من كل جانب على مدى كبير ومنه سمى الشارع الذى وراءها شارع المسلة

(١٢) عمود من الصوان الاحمر يبلغ ارتفاعه ٢٧ مترا أقامه الحاكم بومبيوس تكريما لدوقليطيان الذى اضطهد المسيحيين ورد الاسكندريين إلى عبادة الأوثان . وكان على قمته تمثال الامبراطور ، وإنما أقام بومبيوس العمود للامبراطور علامة ولاء وشكر على ما أظهر للناس من المكارم والعطف إثر ما انزل بهم من الويل والعقاب على



وقف يندب السرابيوم (١٣) ودار الحكمة المدمرة ومكتبتها التى كانت عامرة (١٤) ثم أتت عليها فيما دمرت ، نيران المسيحية فى أوائل عهد المصريين بها لتقيم مكانها كنائس الأنجيلون وغير الأنجيلون من البيوت المعظمة للدين وحده .

ولاحت لعينه كذلك فيما قبل عمود السوارى إلى الجانب الشرقى الجنوبى

خروجهم على دين الدولة (١٣) السرابيوم معبد أقامه بطليموس الأول قائد جيش الاسكندر المقدونى الذى اسس دولة البطالسة ليكون بعضه معهدا لدراسة الفلسفة والعلم والآداب وذلك نزولا على إرادة الفيلسوف الاعظم (أرسطو) وهو دار الحكمة التى ورد ذكرها فى كتب العرب ، وبعضه معبدا تجتمع فيه الآلهة فى إله واحد ويقول براشيا فى كتابه عن الاسكندرية : إن المعبود الذى أقامه بطليموس فى السرابيوم أشبه فى معناه بالاله اليونانى زيوس من حيث أنه كبير الآلهة الاغريقية . ولقد ضمنه بطليموس معالم إله المصريين أوزور ـ هابى ، ومعالم الاله الاغريقى ديونيسوس .

مشرفة (جبلاية) البانيوم العالية مجللة بالازهار وأوراق المتسلقات من النبات بين أشجار باسقة تظل مروجا هناك (١٥) كانت مسرح الظباء من أوانس مدينة الاسكندرية اللاتى لم ترعين ساثح فى الأرض

وكان غرضه من ذلك توحيد العبادة فى مملكته الجديدة . وقد نمت عبادته نموا سريعا وعظيما وبقى السرابيوم حتى دمره المسيحيون وأشعلوا فيه النيران سنة ٣٩١ وأحرقوا مكتبته العظيمة وبنوا مكانه كنائس (١٤) قال براشيا فى تاريخ المكتبة ماخلاصته أن أضابير المخطوطات التى كانت فى المعهد « موزيوم » الذى كان فى حى براكيوم (وهو الحى الذى كان فيه القيصريون) لم تصل اليها نيران يوليوس قيصر وإنما أكلت ماكان فى المتاجر القريبة من الشاطىء . ولكن معظم هذه الكتب ذهب فيما لقيت المدينة من الانحطاط والخراب فى القرن الثانى من حكم الرومان (وهو القرن الثانى المسيحى تقريبا). ومن المحتمل أن يكون بعضها ذهب الى روما . على أن المكتبة بقيت مالقيت من النار والدمار أيام الاضطرابات التى حدثت عندما جاء الامبراطور كاراكلا إلى الاسكندرية . ثم إن الامبراطور أورليان فى منتصف القرن الثالث هدم حى البراكيوم كله ، فالتجأ بعض أهل المعهد إلى السرابيوم . ويجب أن نسلم أن المكتبة الكبرى لم يكن لها أثر فى آخر القرن الثالث . وإذا كان سوء الحال الحكومى يومئذ لايسمح برعاية المكاتب فانه مما لاشك فيه أن المسيحية قضت عليها قضاء مبرما . وفى سنة ٣٨٩ أمر الامبراطور بالغاء الوثنية ، والقضاء عليها فى الاسكندرية فانصرفت يده إلى السرابيوم الذى أصبح آخر ملجأ لها واستولى علية وهشم تمثال السرابيس وأسلم المعبد للنيران،ولم تنج المكتبة الوليدةمن النيران . « وهى مانقله اللاجئون إليه إثر هدم المعهد « الموزيوم »واستمر براشيا يقول.وعليه فأنه من الصعب بل يكاديكون من المستحيل أن نسلم أنه كان فى الاسكندرية مكتبة عامة كبيرة أوعما يعتد به بعد القرن الرابع الميلادى. فما روى الكاتب المسيحى أبو الفرج فى تاريخه الذى ألفه بعد خمسة قرون من فتح الاسكندرية من أن عمرو بن العاص دمر المكتبة العظيمة وأعطى ما كان فيها من والكتب للحمامات كذب صراح»

أجمل منهن ولا أعرق فى الحضارة منهن (١٦) ومستراد المزهوين بفتوتهم وثرائهم من شباب الاسكندرية وأولى النعمة المؤاتية من سراتها

وقفت بهما السفينة عنـد مفترع ترعة البرا كيوم (١٧) الآخذة من الخليج لتروى تلك البساتين العلمة من يمينها وشمالها و بسـاتين قصور الامارة والحـكومة على شاطىء البحر حيث تصب فيما بين رأس لوكياس (١٨) والهبتستاد (١٩) ليملأوا منها الصهاريج الـكثيرة التى كانوا يدخرون فيهـا المياه لأيام الجفاف والحصار فى حى البرا كيوم العظيم وما يجاوره .

وقفها النوتية كأنما يستأذنون فى أن يسيروا فى هذه الترعة إذ هى أقرب إلى قصر الامارة ، واعتادت سفن القصر أن تخترقها ،ولـكن هيلانة كانت منذ دنت بها السفينة من الاسكندرية فى عراك نفسانى كبير : أتقصد إلى دارها التى كانت فيها من قصور الامارة وزوجها — أخو نيقتاس أمير الاسكندرية والديار المصرية — حىّ أم تعود إلى البيت الذى يردّها القدر بقتل زوجها فى القدس إلى مثل ما كانت عليه فيه من

---

(١٥) حيث حديقة النزهة وأنطونيادس الآن (١٦) عن براشيا (١٧) هى ترعة الفرخة الآن . والبراكيوم الحى الاعظم حى الحكومة الذى كان واقعا على البحر وممتدا الى الوراء فيما بين طابية السلسلة إلى ما قبل ميدان محمد على الآن وممتد إلى الوراء . وكان فيه القيصر بون كامر والمعهد العلمى والمكتبة ودار التمثيل وغيرهامن المبانى الاميرية (١٨) الذى عليه طابية السلسلة (١٩) الجسر الموصل من ميدان محمد على إلى جزيرة المنـارة ورأس التين فقـد كان محله ماء ثم ردم وطما عليه رمل البحر فاصبحت الاسكندرية متصلة بالجزيرة كما هى الآن وميناؤها بعد ذلك ميناءين احداهما شرقية ويسمونها الـكبرى ، لانها كانت كذلك والاخرى غربية وهى المستعملة الآن

الوحدة ؟ ورأت فى أن تلجأ إلى قصر نيقتاس دعوى لم يعد لها محل ، ولاسيا بعد أن انقطعت صلتها بنيقتاس بقتل ولدها من أخيه . لم يبق لها إذن إلا أن تسير إلى بيت أبيها . ولذلك أشارت أن تسير بها السفينة إلى مدخل الخليج فى الجانب الغربى الجنوبى من المدينة فى حى رقوده ، إذ كان بيت أبيها غربى السرابيوم .

ازدحم الخليج هناك عند باب فيلاق (٢٠) بالسفن الواردة إلى المدينة فكست بأجرامها لبة الماء كما تكسو أسراب الأوز العظمية صفحات البحيرات البعيدة عن أذى الانسان . ولكنهم لم يكونوا يسمحون الا للسفن الاميرية وشباهها بالدخول والسير الى مرفأ شارع كانوب (٢١) الذى يتوسط المدينة مارا من الشرق الى الغرب . أما سائر السفن فكانت تنعطف إلى اليسار وتدخل بحيرة واسعة هناك لتنزل حولها .

وإذ كانت السفينة التى تركبها هيلانة وورقة تحمل شارات القصر فقد سمح لها بالدخول ، وسار فى رفقتها على الشاطىء بعض الجند

---

(٢٠) ميناء الاسكندرية فى جنوبيها لاقتبال السفن الواردة من النيل (٢١) هو شارع رشيد الذى يسمى الآن شارع فؤاد الاول ، وكان ممتدا فى وسط المدينة من الشرق الى الغرب . يبتدىء من باب عون (هليوبوليس) ويسمى باب الشمس لمواجهته الشمس عند شروقها وينتهى بباب يسمى باب القمر فى الغرب لمواجهته القمر عند هلاله وكان هذا الشارع يمر فوق خليج كليوباترا بجسر من الحجر عريض — ولديه مرسى عظيمة تقابلها من الناحية الاخرى مثلها للسفن الاتية من البحر

ليكونوا فى حراستها حتى تقف عند مرساها بالقرب من جسر شارع كانوب .

ولشد ما كان اضطراب نفس هيلانة ووجدها عندماوقعت عينهاعلى مكان عزها : على المدينة التى كانت فيها ثانية اثنتين فى المجد والعز والمتعة بل أولى نساء مصر اذ كانت سلفتها زوجة نيقتاس قد قضت نحبها قبل مقدمه ، وأصبحت اليوم كأية امرأة ، بل دونهن جميعا . فما عز المرأة إلا شعاع من شمس أبيها ، فاذا تزوجت كان عزها من شمس زوجها ، فان ترملت انطفأ عنها هذا الشعاع وذاك . شعرت هيلانة فى قرارة نفسها بهذه الحقيقة المؤلمة فبكت وسح دمعها سخينا ، لانها كانت تفجر دمعها من أعماق قلبها المحترق بالحزن والترمل . وشهد ورقة هذا المنظر المؤلم وأدرك سره فتألم ، ولم يجد من حقه أن يحاول تعزيتها بشىء من القول . فقد كان يعلم حق العلم أن هذا الحزن أبعد من أن تصل إلى الأذن فيه كلمة تعزية . بل كان يرى - و يحق مايرى - أن كلمة التعزية التى يتعجل بها المجامل فى مثل هذا الظرف أدعى إلى إيلام نفس المرجو عزاؤه ، بل من شأنها أن تطلعه على خلو نفس المعزى من الحس أو صواب التقدير . لأنه لو كان صادق الحس لبكى معه ، وندب معه . أما وهو يرى الامر من الهوان بحيث يملك المعزى عقله ولسانه فيتكلم ، ففيه الدليل على أنه غفل القلب أنانى جامد الحس يبتغى أن يعود المحزون إلى سابق حالته التى كان للمعزى مصلحة فيها وفائدة . كان ورقة يعرف ذلك بفطرته المخلصة ، و يدرك قدر ماتلقى

هذه المرأة من الشقوة ، و يعرف سر بكائها الآن . وتمثله لنفسه ، فاغرورقت عيناه بالدموع أسفاً لحال صديقته الثاكلة الأيمة وحزنا عليها . و إذ نظرت إليه وهو يراقبها فى حزنها وجواها ولا يتكلم إلا بهذه القطرات المترددة — أدركت قدر نبل الفتى وصدقه فرقأت عبراتها فى تأملها جلال روحه، واستطاعت أن تنهض من مجلسها قائلة : هلم بنا . لقد وصلنا أيها الصديق الوفى . هلم نذهب إلى البيت الذى ولدت فيه لمياء . وكانت بذكر لمياء تحاول مخادعة نفسها ، وتتظاهر بالتشجع لكى لا تقصر فى حقه عليها من مشاركته فيما لا بد أن يكون فكر فيه من أمر لمياء . ولكنه كان بصيرا بخلجات القلوب فلم يأبه لذلك ، واستمر فى العناية بصديقته الثاكلة . فقال وكأنما ذكر لمياء لم يوقظه : هلم ياسيدتى . ولكنك نسيت أن تأمرى باكرام غلمان السفينة . قالت : سأكرمهم فى بيت أبى . مرهم يحملوا متاعنا . إن البيت قريب من هنا والامر لا يحتاج إلى عربة . قال : بل الخير أن يكون إكرامهم قبل أن نغادر السفينة . فابتسمت وقالت : إذن فأعطهم ماتشاء . قال : بل تأمرين ياسيدتى فما ركبت قبل اليوم سفينة ، ولا نقدت نوتيا فى حياتى شيئا . فقالت : أعط كلا منهم إذن نصف دينار . ففعل ورقة كما أشارت ، وتقبل النوتية عطاءها بفرط الشكر ، وانصرفوا يحملون متاع ورقة القليل إلى الشاطىء فى أثرهما . ولم تجد هيلانه بدا وقد أعد لها حارس السفينة عربة إلا أن يركبا ، ولا سيما لأن هيلانة لم تكن فى ملبس يليق بكرامتها ، وإن لم يعرف أحد من هى .

سارت بهما العربة شرقا فى شارع كانوب الواسع العظيم مارة فوق أرض مرصوفة بالحجر اللامع بين صفين من القصور والمبانى العظيمة ذات الأعمدة الاغريقيةوالقباب الشاهقة والحدائق تتخللها تماثيل العظماء الغابرين وأعيان الناس ، وكان أبين تلك القصور قصر المحكمة تحرسه جنود من الروم والزنج فى ملابسهم البهيجة

ولشد ما شده ورقة لما رأى وتعجب ولكنه لم يكن فى دهشته هذه أرعن فضاحا لعواطفه بما يبدى من القول والاشارة ، بل كان على عادته متزنا ينظر ويتأمل ، ويقارن ويعجب ، ويتذكر بإقوم وما كان يروى . ولعل أعظم ما لفت نظره فى تلك الجولة أنه كان يرى الشارع الأعظم تقطعه دروب جانبية (٢٢) كأنما خطت هى والشارع الأعظم يوم مهد على مثل رقعة الشطرنج الذى رأى أهل اليمن يتسلون بلعبه فى مجالسهم ، وكان فى دكانة نعيم رقعة منه يقدمها لأصحابه الذين كانوا يأتون إليهليقضوا بعض الوقت فى متجره . أدهشه النظام والعناية وشعور حكام المدينة أن حياة المدن تتطلب حسن التدبير حتى تتوافر فيها السعادة والراحة . وكان فى ذلك مقارنا بين الاسكندرية ويثرب ومكة بل وصنعاء ، حيث الدروب رسوم أفاعى منسابة ، أو مجازات للراجل ذات حفر ونقر . ولشد ما كان

---

(٢٢) اثبتت أعمال الحفر والكشف التى تولاها المرحوم الفلكى باشا انها كانت كذلك . وكانت نموذجا تحتذيه الروم فى تخطيط مدنها

إعجابه عندما انعطفت بهما العربة فى حى رقودة حى المصريين والجند والأعراب (٢٣) مارة فى أسواق الخضر والفاكهة تتخللها دكاكين القصابين والجدّالين باعة الدجاج والطير ، والبدالين، ومخترقة أحياء الصناعة والتجارة التى كانت تصدر إلى جميع بلاد الشرق القريب والحبشة وبلاد الروم والرومان : صناعه الثياب الكتانية والحريرية المزخرفة بالالوان ، وبأسماط الذهب والفضة التى امتازت بها الاسكندرية أبد قرون ، وصناعة البسط المصوّرة والاستار والنمارق ، وأوانى الزجاج المزخرف والملوّن ، والخزف المتقن ، والنجارة والحدادة ، والنحت والحفر ، وصياغة الذهب والفضة والنحاس ، وتقليد الجواهر من الزجاج والبلور . كل ذلك كانت عامرة به أسواق رقودة . بعضها مما يصنع فى ذلك الحي العظيم الذى يشغل نصف المدينة العامرة ، وبعضه وارد إليه من بلاد القطر فى شمالى مصر أو صعيدها ، ومن ثم كانت الاسكندرية أعظم بلاد العالم وأغناها وأروعها . بل كانت المثل الأعلى فى النظام والمدنية والحضارة (٢٣) .

---

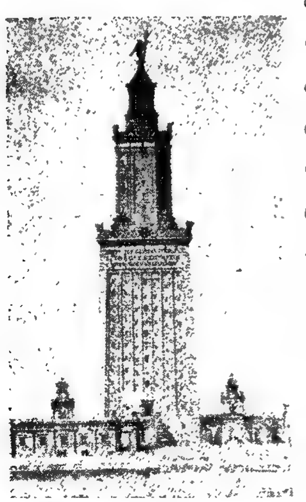
(٢٣) عن بطلر وقد روى أن أهل مصر لم يكونوا يسمون الاسكندرية باسمها الرومى بل برقودة ، وهو اسمها الذى ارتضوه لها قبل أن يجيء الاسكندر فيقيم بجوارها على البحر معسكره ، فالقول اذن بان الاسكندر هو منشىء الاسكندرية كذب: رقودة حلة اقامتها القوافل العربية الادومية والنبطية التى كانت تسير بالتجارة بين الشرق والغرب وكان لاهلها دول عظيمة كان بعضها يملك سيناء كلها ولا تزال فى أيدى ابنائهم الى الان وأن كانت من مصر

لم يطل سير العربة بين ميناء الخليج والدرب الذى سمته هيلانة لسائقها ، فقد كان فى غربى السرابيوم بجوار كنيسة الانجيلون على غير بعد كبير من الجسر ، ولكنها اخترقت بهما حى رقودة ، فكانت نظرات ورقة على جانبى الشوارع وتأمله ما فيها ، وما تعرضه المتاجر من مبيعاتها كافيا لتبصيره بما هنالك . على أنهما ما انعطفت بهما فى شارع الانجيلون حتى قالت هيلانة : ها هوذا بيت أبى ، وأشارت إلى حديقة مسورة ذات أشجار مختلفة الطول تزيّن فيما بعدها صدر بيت ذى طبقتين ، ضخم البنـاء على صغره ، مزين النواصى بالنقوش والحلى ، وبدرج من الرخام الأبيض يصعد عليه إلى باب جميل الصنع ، كأنه بعض أبواب الكنائس إلا أنه صغير . هناك وقف السائق وترجل ليقرع باب الحديقة ، فقدكان على غير عادته مقفلا ، وكان منظر كل شىء يدل على خلو المكان من الناس

ولشد ما كانت دهشة هيلانة إذ لم يجب قرع الباب أحد فلا حارس البستان أجاب ، ولا تنبه أحد من خدم البيت إلى القادمين . على أن الوقت كان بعد الظهر من كيهك أى فى شتاء مصر الحقيقى ، فلا حر ولا فتور حتى يكون الخدم نائمين . وفيما هى فى حيرتها أقبل عليها بعض أهل الحى يخبرنها أن والدها سافر منذ شهرين إلى منف إجابة لدعوة جرجيس واليها ليعوده فى مرض انتابه ، وأنه أرسل منذ أيام مجاوره بطرس البحرينى فأخذ حملا من أضابيره ومجلداته وعاد اليه

لم تجد هيلانة بدا بعد هذا من أن تقصد إلى القصر ، فأمرت سائق

العربه أن يذهب إلى البروكيوم وينزلها عند الباب الخلفى الجنوبى من القصر. فعادت بها العربة إلى شارع كانوب وانحدرت بها إلى حى الإمارة ومنه إلى القصر مشرفة فى سيرها على البحر من وراء السور القائم على الشاطىء وسمعه ورقة هدير أمواجه وزمجرتها فى مناطحة اليابسة وارتدادها عنه خائبة خاسرة وهى مع ذلك لا تفقد الأمل فى الغلبة فهى ترتد لتجتمع بأى من اخواتها وتعاود الكرّ عليه فى أمل لا يفنى حتى تفنى اليابسة وتردها الى القاع كما كانت .



لم يجد ورقة للبحر من شبيه فى روعته وجلاله إلا ما رأى فى بلاده من مهامه البيداء. هى بحر من رمال وهو صحراء من أمواه . ما إن يحاول الانسان اكتناه ما وراء ملتقى النظر حتى تحجبه عن العين قبة تنزل خاصة من السماء لتحد بصره وتقول له بلسان التعجيز : حسبك من أمر البحر ما ترى . سفائن كالبيوت المشيدة لن تكون أثبت من الخيام فى الصحراء يعمرها من أهل البر عتاة يكونون من رهبة البحر كالحملان

ثم دار بصره مع الافق فاذا هو يرى جسر الهبتستاد الذى وصل به البطالسة بين أرض رقوده وجزيرة فاروس ثم طرح البحر من سديمة على جانبيه فقسم الميناء جفنتين شرقية وغربية وقامت المنارة على ناصية الجزيرة تهدى السفائن الحائرة إلى بر السلام

هناك أمكنه أن يرى المنارة ، إذ كانت العربة مجدة بهما نحو القصر ومنعطفة قليلا فى مواجهتها . فاذا هى بناء عظيم جداً مؤلف من ثلاث طبقات الاولى(٢٤) مربعة والثانية مسدسة والثالثة اسطوانية . وكان بابها عاليا يصعد اليه بمدرج من السلالم من الجهة الجنوبية . وكانت جدران جميع الطبقات مخرمة بنوافذ للنور والهواء (٢٤) — وبدا لعين ورقة أن فى زوايا سطح الطبقتين الأولى والثانية تماثيل من النحاس الاصفر لمردة بحرية تزين هذه الاركان

أما الطبقة الثالثة فبعضها بناء اسطوانى أقيمت عليه أعمدة علم ورقة أنها ثمانية جعلوا بينها المرايا الشهيرة والمصباح الكبير الذى يشعل ليل نهار ليلقى من ضوئه على المرايا ما يرد على البحر فيهدى الطرف البعيد . وفوق الأعمدة قبة وفوق القبة تمثال من البرونز

وعلم ورقة من هيلانه ان فى هذا البرج العظيم صهريجا عظيما مملوءا بالمياه العذبة للشرب وفيه روافع يرفع بها الماء الى الادوار العليا والوقود للموقد أو المصباح الذى يواجه لهبه . وهناك مصعد للدواب من الطبقة الاولى الى الطبقة الثانية إذا احتاجوا الى اصعاد الوقود على ظهورها ، وفى الطبقة الثالثة

درج فى داخل الجدار يصعد عليه إلى الموقد والمصباح وأن سمك الجدار متران أما الوقود فكان من نوع الخشب المعروف بالشراق وأما المرايا التى كانت تستعمل لعكس نور اللهب فكانت محدبة ليكون ماتعكسه من الأضواء أبعد مدى

---

(٢٤) عن دليل الاسكندرية لبراشيا

الفصل الخامس والثلاثون

بطرس البحريني

لم تكن هيلانة تعرف بطرس البحريني الذي ذكره أهل الحيّ ونعتوه بأنه كاتب أبيها ، لأنها سافرت من الاسكندرية كما علمنا قبل اتصاله به بسنوات

ولكن هيلانة لم تهتم بخبر بطرس هذا لأنها كانت تعلم أن أباها مقصد الطلاب والمتعلمين والنساخ والمطالعين ، فهو إذن من هؤلاء ، إلا أنه مقرب إلى أبيها . ولكن الحوذي رأى أن يسلي الراكبين بالحديث فذكر لها أنه رأى بطرس وهو يحمل الصندوق الذي تكلم عنه الجار ، على إحدى عجلات النقل عند مرفأ فيلاق وأراد أن ينفث رأيه في بطرس ، فروى لها أن الشرطة استرابوه ، فأخرج لهم برهان أستاذه ، فتركوه ينزل السفينة . ومع ذلك فقد كانوا يريدون حجزه انتقاما منه لما كان يقع بينه وبينهم من المشاحنات التي كان يبلغ فيها صوت الجدل أجواز الفضاء ويجمع عليهم الناس ليعرض عليهم حكايته فيما لا يترك للناس مجالا لسماع قصة الجندي وإبداء سبب القبض عليه . كان في كل مرة يقول للناس : إن هذا الجندي الرومي يضطهدني لأني يعقوبي ومصري ، لا لأني أجرمت أو أسأت إلى أحد . فإن كان يرضيكم أن أظلم فأحبس لأني لست على

دينه فأمرى للرب ينصفنى ولكن لا تستنصروا بعد هذا باخوانكم يوم يسيئون إليكم لأنكم مصريون ويعاقبة . بهذا وبمثله كان الشرطى الرومى يتركه بالرضا أو بالكره . وكم مرة نشبت موقعة بينه وبين الشرطة ، فضربهم وضربوه ، وحبسوه . وكان سيّدى قوزمان يخرجه بأمر المقوقس حتى أصبح الشرطة يهابونه ، وأصبح يسير فى رقودة كأنه الثور المقدس

جاء بطرس البحرينى من جزيرة منوف، على أثر ما أنزل بونوسوس سنة ٦١٠ بمطرانها وقساوستها من الويل . فقد كان الفتى تلميذا أوشماسا فى الكنيسة التى قتل المطران فى رحابها وخشى أن يلحقه السيف هو أيضا ففر إلى دير فى وادى النطرون . حتى إذا اطمأن باله بجلاء بونوسوس عن الديار — خرج من مخبئه فارا إلى الاسكندرية، حيث الحياة أقرب إلى مطاليب الشباب. وكان قد تعلم فى الدير صناعة النسخ والتذهيب وتزيين الكتب ، فعول على أن يرتزق من صناعة النسخ فى الاسكندرية مدينة الكنائس والاديار، وأخبار القديسين ومعجزاتهم، ومابقى من علوم اليونان فى الكتب. وقد وفق الفتى فى عمله الجديد توفقا ملأ قلبه أملا وحياة ، وأنعشه انعاشا مضاعفا . وقد أغرم بالطب على أثر اتصاله بالعالم قوزمان فيما كان يعهد اليه به من النسخ ، لاعتقاده أن الطب أعود عليه بالكسب ، ولأن فى العلم به مايشبع نفسه التوّاقة إلى التمكن من الناس . فالطب فيه شفاء ، وفيه قتل ، وفيه امتلاك لقوة الكيمياء وتمكن من حيل الطبيعة . وفيه خفاء وفيه حماية . ولذلك أقبل يلتهم ما كان فى مكتبة الاستاذ الكبير ليشبع هذه

لخلة من ناحية ، وليفسخ مايرى فى نسخه وبيعه مغنما كبيرا

كان الفتى ضليعا شديد النشاط قوى الذكاء . له رأى فى كل شئ عن وثوق بعلمه أو بحدسه ، ولذلك كان شديد الاستهزاء بالناس إذا خالفوه . فاذا اشتد أحدهم معه فالويل كل له من لسانه البذىء . ومن ثم كان لايستطيب مجلسه أحد ولايطيل الحديث معه إلا أمثاله فى خلقه من الحمالين ، وعمال الاسواق . ومع ذلك فقد كان عريض الدعوى ، يقول إن أباه كان من أهل الثراء فى منوف وإن له أملاكا ورثها عنه فى جزيرة ابشادى ، وأنه إنما جاء إلى الاسكندرية ليتعلم الطب . وكان مايكسبه من النسخ وتزيين الكتب بالنقش المموه بالذهب معينا له على هذه الدعوى الكاذبة . فهو لم يكن إلا ابن خادم من خدام الكنيسه فى منوف فلما مات أبوه ضمه المطران إلى الكنيسة وهناك تعلم القراءة والكتابة ، وطمع أن يكون شماسا ، لولا ماجرى من قتل المطران وهروبه هو إلى الدير .

على أنه كان فوق هذا كثير الارتياد لأماكن اللهو السافل فى الاسكندرية، يتظاهر فيها بالثراء فيما كان ينفق فى الخمر وفى الميسر حين أنه كان فى الواقع ينفق مما يبتزه ابتزازا من خليلة كانت له فى بعض المواخير . وإذ كان العالم قوزمان من أخيار الناس بعيدا عن أن يتسمع أو يسمح لأحد بالوشاية فيه ، بل ولا أن يصدق ماكان يرويه له ضباط الشرطة من سيئاته ، لانه كان يراه هادىء الطبع مكبا على العمل لايتكلم معه إلا بصوت خافت ، ولا إن حادثه لينظر اليه معاينة — فقد احتضنه . وعمل

بطرس من ناحيتــه على دوام هــذه الثقة ، لينتفع بجواره ،ونسخ ما لديه من يا نفــائس التأليف فــكان يسعى فى خدمته ،و يرعى مصلحته

واذ كان الاستاذ مترملا من زمن بعيد ثم زادت وحشته بعـد سفر الحارث بهرميون ولمياء فقــد خطر له أن يستأنس بالمجاور فى داره فعرض عليه أن يخصص له فى جانب البستان غرفة مما الحق بمكتبته ينزل فيها و يقيم وأن يكون أمين مكتبته بأجر مقدر فتفضل بطرس بالقبول ! ولـكنه التمس ، أو بالأحرى اشترط ، أن يسمح له بارتياد كنائس الرب لـكى لاينقطع عن موارد الهدى والتقى ! ومن ثم أصبح من قوزمان بمثابة « سكرتيره » الخاص ، الا أنه كان قد اقتطع لنفسه كل مايحتاج اليه من الزمن لارتياد مباءات الخنى لا لالتماس موارد الهدى

الفصل السادس والثلاثون

حارس الامير



كان للقائد تيودور شقيق نيقتاس أمير الديار المصرية من قبل هرقل جانب من القصر الكبير فى الاسكندرية يشغله من يوم أن فتحها أخوه فى سنة ٦١٠ ولكنه كان على اتصاله بالقصر مستقلا عنه . وكان له باب كبير لم يفتح منذ سافر تيودور على رأس الجيش الذى أرسله نيقتاس مددا لجيوش هرقل فى الشام، وآخر صغير فى خلفه يحرسه جندى "مسن" اسمه لوكاس كان فى خدمة القصر منذ كان يسكنه والى مصر تيودور بن ميناس فى عهد الامبراطور موريقوس المقتول حتى أصبح الباب يعرف

باسم الحارس نفسه فيقال باب لوكاس لا القصر الصغير ولا منزل تيودور .
وانما بقي لوكاس هناك حتى فى أيام فوقاس رعيا من الوالى لرجل خدم القصر مدة طويلة بأمانة واخلاص . ولما جاء نيقتاس اقره من جديد فى عمله بعد ما كبر وشاخ ولكنه أمر أن يعزّز بواحد من حرس القصر ، وسمح للوكاس أن يقيم فى الغرف المجاورة للباب بعد وفاة زوجته وقتل أولاده فى الحروب والثورات ، وإن كان قد بقى له حفدة كانوا يزورونه من آن لآن

بلغت العربة بهيلانة وورقة عند هذا الباب فترجلت وترجل ، وكان لوكاس جالسا على كرسيّ هناك يحادث حفيدا جاءه زائرا على العادة فستنزفا ما يكون معه من النقود ، لأنه كان من الممثلين الذين يعملون فى دار التمثيل وهى إذ ذاك معطلة بسبب الحرب وأخبارها السيئة وركود الحياة فى المدينة وكان الجد يحبّه لظرفه ومبالغة الفتى فى رعايته وتعمّد تألفه ، ولذلك كان فى ذلك الوقت يعطيه مامعه ليسمعه جزاء اسعاده وزيارته إياه . ولذلك لم يلتفت إلى العربة ولا إلى من نزل منها ، حتى أنه لما لفت اليها استمر ينظر اليها وإلى ملابسها الغريبة وهو على حاله من انشغال القلب بحفيده المحبوب فلم يتبيّن هيلانة ولم يعرفها حتى نادته باسمه فتنبّه ولكنه مع ذلك استمر جالسا وقال : كأنى بمولاتى هيلانة تنادينى ! قالت : نعم يالوكاس قال وقد نهض : يارحمة الله ! أنت هنا ! قالت : نعم . قال : معذرة اليك يامولاتى ماترقّبت حضورك . والواقع أنه كان قد سمع بقتل زوجها وبلغه مقتلها هى وولدها ، ولكنه لم يشأ أن يثير هذه الذكرى المؤلمة ساعة اللقاء فتظاهر بجهله ، وعمل

على مداراة عواطفه التى ثارت لدن رؤية سيدته ، وقال لحفيده : اذهب يا أنطونيوس ونبه الخصىّ الذى فى خدمة القهرمانة إلى مقدم مولاتك . فانصرف أنطونيوس مسرعا ، ونهض لوكاس إلى سيدته يدلف نحوها متجلدا ويقول : مرحبا بسيدتى ، ولكن ما هذه الثياب التى أنت فيها ؟ قالت مجارية الرجل فى مظاهره : ثياب الصحراء ! تركت كل متاعى من الدنيا فى بيت القدس وجئت فارة بنفسى من القتل فى حماية هذا السيد العربى إنه يعرف الرومية كأهلها . فحياه لوكاس بأكرام ، ورد ورقة التحية بمثلها وقالت هيلانة : أنزله عندك أكرم مكان ، واجعل فى رفقته أحد أولادك . أليس هـذا أنطونيوس حفيدك ؟ قال : بلى ياسيدتى . قالت : لقد كبر ! ليكن فى رفقة السيد ورقة يريه المدينة ويعنى به . قال : سيكون كولدى ياسيدتى . مرحبا بك فى دارك

أدركت هيلانة من دموع تترقرق فى عينى الرجل أنه عالم بما وقع لها وأدركت كذلك سرّ سكوته عن السؤال عن زوجها وابنها ، واقتضابه القول فى الحديث معها . وكانت هى تتجلد كذلك تفاديا من موقف لا يجمل بها ، فأمعنت فى الاهتمام بشأن صديقها ، والتفتت إلى الحوذى وهو حامل جوالقه ، وأفسحت له الطريق ليدخل ، وأشارت له بذلك ، وتقدمه لوكاس فدخلت وراءهما لتطمئن على منزل ورقة ، وأشارت اليه ليدخل معها . وإذ رأت غرفة مفروشة وسريرا ومقعدا واستحبتها قالت : لا بأس بهذه الغرفة مؤقتاً . ثم سألت الحارس عن رفيقه فى الحراسة فقال : إن أهل القصر لم

يعودوا يستطيعون تعزيزه بآخر كعهدهم قبل سفرها لشدة الحاجة إلى الجند في الشام . قالت : لتكن هذه الغرفة غرفة السيد ورقة حتى حين

وكان أنطونيوس قد عاد يخبر جده بأنه فعل كما أراد . فقالت هيلانة : فلنصعد إذن . ثم التفتت إلى انطونيوس وقالت وهي تحاول كتمان عواطف قلبها المحترق : لقد كبرت يا أنطونيوس وصرت رجلا هماماً كجدك كيف حالك ؟ فانحنى أنطونيوس وقبّل يدها وشكرها . والتفتت إلى ورقة تودّعه وبها من الشعور المتضارب مالا يستطاع تحليله . ولكنها كانت على فرط ما يلذع قلبها من لهب الوجد والحسرة لعودتها إلى دار لاتجد فيها من كانت الدار به جنة ودارا ، تستشعر نوعا من الفجيعة لاضطرارها إلى ترك ورقة الذى أصبحت ترى أن مرآه وحديثها معه واجتماعها به — هو الخيط الذى يربطها بالدنيا . ولذلك كانت عند ما همت بالصعود إلى غرفتها يتقدمها الحارس لوكاس الشيخ ، كأنما هى تقاد بالرغم منها إلى حكم ينفذ عليها . و بودها لو بقيت مع ورقة عند الحارس ، أو أنها أصعدته معها . ولكن هذه الامنيّة الأخيرة كانت أبعد الأمنيتين عن نفسها ، لا لأنها لاتملك ذلك أو أنه لايليق بها ، بل لأنها تكره أن يكون وعاه ماتستشعره لورقة من العواطف المبهمة — هذه الغرف . عواطفها كانت تجنح الى جو من الصحراء والوحدة والجبال ، والشدة والمغارات ، لتنعم بعطف هذا الفتى الذى لم تجد له شبيها فيمن رأت من الناس أو سمعت أو وهمت . وهى تصعد الآن باختيارها لتحبس وتدفن ، وتحرم نور الشمس التى كانت

تغمرها من ورقة باشعتها المدفئة المسعدة : أستودعك الله يا ورقة إلى حين قريب جدا ، ولكن حياة القصور غير حياة الصحارى ومع ذلك فلن يطول فراقنا ، ولا احتجابى عنك ولا مكثك هنا . ولكن قبل أن أصعد إلى غرفتى التى ما جئتها إلا لأسارع إلى أمر انتويته ، وإلا لكسرت الأبواب ودخلت بيت أبى ، أرجو أن تتقبل شكرى . قال ورقة : سيدتى ! إنك لتؤلميننى بهذا المقال . قالت : لن أطيل الكلام فى هذا . لست مدينة لك بحياتى التى عملت على إنقاذها فهى أبخس شىء عندى ، بل أنا مدينة لك بما لا أعرف ما هو ، ولكنى أعرف من أثره أنى لا أطيق الغيبة عنك ، أشعر أنك أصبحت لى فى شقوتى التى تعرف كالنسيم للصدر ، وكالنور للعين . أستودعك الله إلى لقاء قريب

بكى الحارس عند ذلك بكاء غمر وجهه ولحيته ، ولكنه لم يفصح عن حزنه ، لكيلا يفجّر فى قلب سيدته مرجل حزنها الذى كان باديا له من وراء حديثها ، ولذلك تقدّمها فى سكوت وصعد درج السلم معها إلى مستقر عزها الراحل وشقائها المقيم

* * *

لا نطيل فيما لقيت هيلانة من الوجد فى دارها ، ولا كيف لقيت من جئنها من نساء القصر للتعزية ، ولا ماحدث حين وقف الأمير الخيّر نيقتاس يذكر سماحة أخيه وما يلقى من الفجيعة فيه ، وكيف أنه بالغ فى إكرامها كما بالغ فى عتابها على ما أبدت من الرغبه فى الانتقال إلى بيت

أبيها ولا أنه أمر القهرمانة باعداد بطانة لها من خير جواريها فهذا ماجرى.

ولشد ما كان إعجاب الامير بورقة ونبله إذ كانت تروى هيلانة له قصته معها حين كان يغسل جرحها وينزع عنها ملابسها . وأكبره الاكبار كله حينما روت له ما كان منه فى الغار ، وورده الخاتم ، واحتفاظه بتنكرها حتى بعد أن لم يعد فى الكتمان من مصلحة ، وكيف كان يبيت فى مواهن الليل فى الصحراء يقظا ليحرسها من أذى أشرار القافلة ، ولا ينام إلا وهو سائر بها فى الضحى أو فى المقيل . وذكرت له من أخباره ماعلمت من سبب هجرته من مكة ويثرب وما كان يبدو منه فى معاملته لصوص القافلة من الحزم والشدة التى تبيّنوها منه فهابوه وهو فتى لاتزيد سنه عن الثانية والعشرين

وكان نيقتاس فى أيامه الأخيرة قد بدأ يشعر أن هناك أزورارا عنه من الناس ، كأنما أوجسوا أن الدنيا توشك أن ينقلب حالها ، فلم يعودوا فى حاجة إلى دوام التظاهر بالولاء له . وكان قد علم بأن الفرس أعدوا عدتهم لغزو مصر (١) ولا بد أن تتجه نفوس اللؤماء إلى التقرب إلى الغزاة ، ويفكر بعضهم فى أن يعجل لهم برهان ولائه ، ولا غرو أن يعملوا على أذاه كما عملوا مع كل من تقدموه من الولاة ، إذ كانوا يأتمرون بالحكام ليقدّموا رقابهم إلى الاعداء عربونا على الطاعة والولاء . وزاده شعورا بذلك مارآه فى المدينة من قيام الثورات فى حى اليهود فى الشرق

---

(١) خريف سنة ٦١٦

وفى حى رقودة المصرى الصراح على من بقى من جند الروم فى الاسكندرية بل وعلى كل رومى تسلمنا لليوم الذى لايرون فيه ظلا لمذهب الروم . فما إن ذكرت هيلانة له ماذكرت عن ورقة حتى خطر له أن يجعله حارسه الخاص . وعززه فى هذه الرغبة ان ورقة غريب عن الجسانيين المصرىّ والرومىّ . نعم إن المصريين كلهم عرب قدامى جاءوا فى أثر عرب أقدم ولكن الدين قطع صلتهم بأرومتهم حتى جهلوها فلا ضير إذن من استخلاصه لنفسه ولذلك أعلن هيلانة برغبته فى رؤيته . فلما جاء رأى فتى أقل مظاهره ماذكرت هيلانة ، بل بدا لعينه منه صورة الفتى المقدونى الذى أعطاهم ملك مصر ، إلا أنه فى ثياب عربية ، فتلقاه الأمير بتحية خالصة أملاها عليه إعجابه بالفتى ، إذ وقف أمامه يحادثه بكلام متزن ، ووقار ليس فيه أثر من آثار الادعاء أو الغرور ، أو الجهل بالفروق ، أو الشعور بما كان له من الفضل . ولا فيه مظهر من مظاهر الرهبة التى تعترى صغار الناس لدن لقاء الأمراء ، وإن يكن يلقى الآن أميرا يملك مصر ، وتدين له الدنيا من ربوع الشام إلى برقة إلى بلاد النوبة ، فهو أعز من كل ملك ، وأدعى أن تهتز النفس فى حضرته . وحادثه نيقتاس يقول له : علمت يافتى عما كان منك من البر بالأميرة والعناية بها ، فلا أملك لقاء هذا إلا شكرك. قال شكرا للأمير ، إن من نعم الله على الانسان أن يمكّنه من أداء حق الناس عليه . قال الأمير : وهل كان للأميرة عليك حق فى شىء ؟ قال : إن للناس فى مروءة الناس حقا مشاعا من يقصّر عن أدائه وهو قادر عليه

سقطت مروءته وهزل . قال الامير : ولـكن من المجزى عن التقصير ؟ قال : الله . قال الامير : فى الآخرة . قال ورقة : فى الدنيا قبل الآخرة قال : كيف ذلك ؟ قال : تتضع نفسه لدن كل حادثة قدرا ، حتى إذا تلفّت يرى نفسه لم يجد شيئا . جزاء الانسان من مروءته النبل ، ومن كان للناس ، غير مسئول ولا متدخّل فقد بلغ غاية المجد و إن لم يكن أميرا . قال الامير : ولـكن هذا قد يقتضيه دمه وحياته . قال : من يمت فى مكرمة فقد عاش

لم يملك الأمير من إعجابه بورقة وفرحه بأن يجد فيه أمنيّة نفسه إلا أن يلتفت إلى هيلانة ، وكانت إذ ذاك تتمتع عينها ببريق الزهو بصاحبها والاعجاب كذلك به ، ويقول لها : أتقولين إنه فتى كريم ! ماأعجزك يا أختى عن تقدير الرجال ! إنه للفتى النبيل . قال ورقة : شكرا للأمير وحمدا لله على حسن ظنه بى . قال : إن شئت فانى جاعلك حارسى ورفيقى . قال ورقة : هذا بعض برك أيها الامير ، أرجو أن أحسن اقتباله ، وأجزيك عنه بمثله . قال الامير : أنت اليوم فى خاصتى برتبة أمير مائة ، وسيكون لك فى مرقدى من القصر مرقب مهيأ . إنى فى حاجة إلى بطل نبيل مثلك ، ولـكى تبدأ حياتك فى القصر كرصفائك سآمر لك بمائتى هرقلىّ لاردا لما انفقت ، فانى لاأريد أن أفسد مروءتك ، بل تحقيقا لما قصدت ، وسيجيئك الآن خائط القصر وخازن سلاحه ليعدّا لك مايحتاج اليه شأنك فى خدمتى من اللباس والسلاح . وأنت أيتها الأخت هيلانة ،

أكرمى فتاى فلم يعد فتاك ، حتى تعد له غرفة بجوارى . قالت : شكراً لاخى ، وحمداً لله . هذا ماأملتـه من فضلك لمن غمرنى فضله ، وسيرى الأمير من أمره أكثر مما رأى . قال : نرجو الله أن يوفقه إلى الخير . والآن أستودعك الله ياأختاه إلى لقاء قريب ، ثم التفت إلى ورقة فرأى فى عينيه مقالة يريد أن يزجيها فقال له : هل من شىء تريد قوله ياورقة ؟ قال: رجاء يامولاى الامير . قال : ماهذا ؟ قال : أن أتقلد سيفى العربىّ الذى صحبنى منذ عركت مقابض السيوف ، ففيه سرّ النصر ، وأن أحتمل قوسى التى وهبنى الله إياها اثر ماأنقذت الدنيا من شرور قرضاب ولى فيها ذكريات أخرى . قال : لابأس بما ترى ، بل لعمرى إن فيهما لعلما على فتاى النبيل هل لك من أمنية أخرى ؟ قال : اثنتـين ماأهونهما : ألاّ يؤبى علىّ زيارة مولاتى هيلانة لانها صلتى بالصحراء التى أستمد منها الحياة والسعادة، وذكرى الاهل والاحباب. قال الامير : وهذا لك ياورقة ، بل هذا خير انا وأعود بالخير ، فما الثانية ؟ قال : الثانيه ألا تحملنى على مشاركتك إذ أنا من جندك ، فى حضور صلاتكم فى الكنائس لأنى أومن بغير دينها ، وإن أكن أومن بالمسيح عليه الصلاة والسلام وبأمه مريم العذراء البتول. إنى مسلم ياسيّدى ، أومن بواحد أحد لاشريك له : قال هنيئا لك دينك ولى . ثم ضحك وقال : لاأريد أن يشتغل حارسى وقت صلاتى فى الناس بصلاة . أليس كذلك ياهيلانة ؟ قالت : بلى وربى . أنت على حق . قال الامير : هل من أمنية أخرى ياورقة ؟ قل فهذا وقت لاأملك فيه رد

سؤال . فضحكت هيلانة ضحكة كريمة وقالت : ما أشد شكرى للأمير ، ولكنى لا أظن أن قد بقى لديه شىء . قال الامير : إذن فملى هذا ، ثم انصرف مودعا من هيلانة بأكرم مجالى الشكر والامتنان ، وعادت إلى ورقة تهنئه وتشكره على تقاضية من الامير حق زيارتها ، وكادت لفرحها تتناول الفتى تقبله ، ولكنها تنبهت فانحدرت إلى مجلسها وفى فمها بقية من كلماتها التى كانت تسير بها عائده من حيث ودعت نيقتاس .

الفصل السابع والثلاثون

هرميون ولمياء

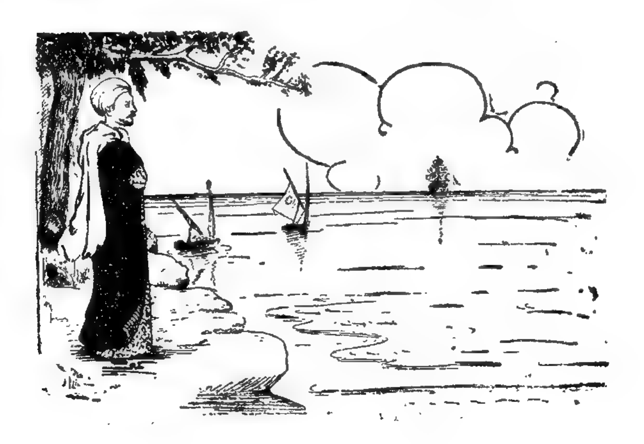
أين هما؟ ماذا جرى لهما فى الطريق؟ وماذا فعل الحارث أثر ما وصل إليه من القول المرّ فى بطاقة امرأته؟ أما أين هما، فهما فى منف[1] فى قصر حاكم مصر عند نيفرت أخت قوزمان زوجة الحاكم. رأت هرميون وهى سائرة فى سفينتها من قفط أن تنزل بمنف لزيارة عمتها وقضاء بعض الوقت معها، ثم تستأنف الرحلة إلى دار أبيها فى الاسكندرية. ولكنها وجدت زوج عمتها مريضا واشتدت علته، فلم تستطع ان تفارق عمتها. ولم تجد كبير داع إلى التعجيل، فكتبت إلى والدها تنبئه بعودتها من مكة، وأنها اضطرت إلى البقاء مع عمتها لتعينها على شئون التمريض. وأشارت عليه أن يعجّل بحضوره لتطبيب زوج أخته، فجاء قوزمان وأخذ يعالجه حتى نجا من مرضه. وكان الشتاء على الأبواب، وأخته راغبة فى بقائه لديها حتى ينتهى البرد، فرجت منه أن يقضى الشتاء فى جوّ منف الدفىء ولم يجد فى ذلك بأسا فبقى وأرسل لمجاوره بطرس البحرينى فى طلب بعض كتبه ليعيش فى جوّه الذى يستمد منه الحياة والرغد

أما الحارث المسكين فلازمته العلة مدة ما، فلما أبل انقطع عن لقاء النضر، وإذا لقيه هذا لم يقع له لسان على لسان. وكان النضر يعلم أن أباه

---

(١) عاصمة مديرية مصر وقتئذ ومكانها الآن البدرشين

يتهمه بأنه سبب ما وقع كله ، وأنه قطع بينه وبين أحبابه جميعا وأسلمه إلى الوحدة والشقوة والآلام ، فعمل من ناحيته على ألا يلقى أباه . وكان يقضى يومه بين شياطينه أعداء رسول الله ليدبروا للمسلمين كيدا بعد كيد . وأخيرا رأى الحارث أن بقاءه فى مكة مضن له ، فأرسل غلامه زياداً ليعدّ له مسكنا فى جدة ، وانتقل اليها بما بقى له من الدنيا : كتبه وأضابيره ، وأخذ يشتغل بوضع كتاب عن الملل ودوائها وقلما كان يخرج من داره إلا للاستراضة أو لرد زيارة ؛ على أنه كان كلما ذهب إلى شاطىء البحر ورأى الماء يخط أمامه من الجنوب إلى الشمال طريقا واسعا ، ويرى السفن قادمة من مصر أو ذاهبة اليها — حدثته



النفس أن يستقل إحداها على الفور إلى برنيس[٣] أو عيذاب ليلحق بامرأته وابنته فى الاسكندرية لينعم بجوارها حيا وميتا. ولـكن عزة نفسه كانت تتغلب على هواه فيـدير ظهره إلى البحر لـكيلا تستمر السفن فى إغوائه ، ويعود الى بيته حزينا يردد زفرات الهم والأسى. على أنه كان كثيرا مايسائل نفسه كيف تعود هرميون باختيارها إلى الاسكندرية بلد الثورات والمذابح والحصار والنار ، وهى تعلم أن الفرس قد يجيئون مصر وأنهم لا يرحمون صغيرا ولا يرعون امرأة ولا شيخا ؟ بل كيف تجرؤ هرميون أن تركب البحر وتخترق الصحراء بابنتها والبحر محفوف بالمكاره ، والصحراء غاصة بالاشرار ؟ ولم يكن الحارث ليجد فى قلبه بالرغم مما أودعت خطابها اليه عن المعاذير ، إثارة من عفو ، لأنه كان يرى فى عملها هـذا الجرىء تعريضا بكرامتها وشرفها وحياتها هى وابنته. ولـكم مرة همّ أن يدعو عليها بما فعلت ، ولـكنه لم يكن يجد على لسانه قولا ولا فى فؤاده معنى ، لأنه كان فى قرارة عقله يجد أنها إنما صدرت فى ذلك عن يأس وإيثار منها لشر أهون من شر . ولذلك كان يعود إلى داره وقلبه محزون ، ولسانه يتمتم بألفاظ يدعو بها على النصر لا عليها ، ثم يتمثل لمياء بهجة قلبه التى كانت تقبّله كل صبـاح ويقبّلها ، ويشم فى جوارها عبق السعادة ، فيحن اليها حنينا يقض مضجعه ولا يجد له تنفيسا الا بلومها على مطاوعتها أمها فى الفرار بها ، وعدّ ذلك عقوقا له . ثم يتبيّن حقيقة حالهـا فى مصر وهكذا كان يقضى أوقات خلوته فى ذلك

---

(٣) ميناء بجوار عيذاب والقصير كانت ترسو عندها السفن أحيانا

يغالب نفسه جاءته رسالة من هرميون احتال أهل القصر فى منف على إيصالها إليه . ذلك أنهم أرسلوها إلى حاكم عيذاب مع أحد رجالهم الكثيرين الذين يسيرون فى أعمال الحكومة بين مصر وعيذاب . وهناك تولىّ حاكم المرفأ إرسال الرسالة مع أحد أرباب السفن الماخرة بخيرات مصر ومصنوعاتها إلى موانى الحجاز والحبشة واليمن ، وكلفه أن يتدبّر فى إرسالها إلى الحارث بن كلدة فى مكة . فلما وصل الرّبان إلى جدة وأخذ يبحث عن راحل إلى مكة ليسلم الحارث الرسالة — علم أنه مقيم فى جده ، فذهب بنفسه اليه وأسلمه إياها بيده

كانت الرسلة طيبة العبارة فى مطلعها ،ضمنتها هرميون أشواقها والمحبة منها ومن لمياء ، والاعتذار اليه مما فعلت ، وأنها لم تلق فى الطريق إلا الاكرام ، وأن الدنيا فى مصر هادئة ، ودعته اليها ، وكانت الرسالة طويلة فكان سرور قلبه بتلاوة صدورها ظاهرا على وجهه ، ولكنه ما توسطها حتى اربدّ وجهه ، و بدا على فمه الهلع ، لأن هرميون تخبره خبرا لم يرتح إليه ذلك أن عمتها خطبت لمياء لابنها الاصغر دميان أحد ضباط حصن بابليون. نعم انه يعقوبى وهى رومية ، ولكنها ستجرى مراسيم الزواج كما جرت فى زواج عمتها من الحاكم . فقد كانت رومية المذهب وهو يعقوبى ، ولكن أهل الكنيسة لم يعجزوا عن التوفيق وتحقيق القصد ، ولاسيما لان فيه اكتسابا للمذهب وأضافت إلى ذلك أنها مع ذلك أرجأت تنفيذ رغبة عمتها حتى يرد منه جواب الرضا . نعم أنها تملك تزويجها بغير استشارته

الاضطراب والعراك ، حتى إذا انقضى عليه ثلاثة أشهر فى جسده ، وهو عملا بما اتفقا عليه منذ مولدها ، ولكنها لم تجد أن تغمط حق الابوة فى زواج ابنتها كما انكر حق الامومة حين ود ولده أن ينزلها منزلة السحاوات بتزويجها من ذلك الملكّ المنبر بر الذى شاء أن يجعلها إحدي زوجاته

دارت الارض بالحارث دورتها لدن هذا النبأ ، لانه أوضح له سوء حاله إيضاحا جمع عليه كل همّ . رأى أنه مقطوع عن دنياه وعن ولده وزوجه ، وانه قد أصبح يقضى فى أموره كأنه من سقط الاشياء . نعم أنها تستشيره وتعلق تحقيق رجاء العمة على قبوله ، ولكنه شعر أن الأمر مجاملة واستشارة لا تعليق صحيح . وأنها لن تتردد فى زف ابنتها الى قريبها حتى ولو رفض . وشعر أنه أصبح محروما حتى من أن يحسن الى ابنته . نعم ان له أملاكا فى الاسكندرية ومريوط بعضها مما أقطعه اياه الوالى تيودور بن ميناس حاكم الاسكندرية جزاء أن شفاه من علته التى أعجزت فطاحل أطباء الروم فى الاسكندريه الأسبق،وكان اقطاعه اياها تدبيراً منه لابقائه فى مصر وحقا انه كان له فى ذمة دير الهانطون (١) أموال أقرضهم اياها عند ما احتاجوا الى المال لترميمه أثر ما أنزل به بونوسوس ذات مرة من الهدم والتدمير ، وأنهم لهذا قد نزلوا له عن قطعة من السوق بجوار كنيسة الانجيلون

---

(١) هو دير الزجاج الذى ذكره المقريزى فى خططه ، وهو المعروف لدى الافرنج بدير انياتون وبعضهم يسميه دير أنطون — وهو قائم غربى الاسكندرية على مدى تسعة أميال منها ، وكان مستقر البطرقة اليعقوبية فى تلك الايام لأن الحكومة الرومية ما كانت ترى من حق اليعاقبة أن تجاور بطرقتهم بطرقة الروم فى العاصمة

اليعقوبيه يستغل ايرادها لنفسة ، وان كان قوزمان وكيله عليها وعلى غيرها بل وكيل ابنته لأنهم اشترطوا عند تزويجه من هرميون أن يكون ريع أملاكه فى بلاد مصر وقفـا عليها وعلى أولاده منها فى غيبته أو وفاته ، ولـكن بر الوالد وعطفه ونظرة الحب منه كانت فى نظره البر والاكرام لابر مثله ولاكرام سواه .

على أنه ما كان يستحب السيد دميان زوجا لابنته لمياء ، لأنه رآه فى الاسكندريه فى بعض زياراته لخاله قوزمان فلم يعجبه حاله ، وعرف من بطرس البحرينى التقى الورع ، المـكتب على الدرس والفسخ والعلم شيئا عاما من تصرفاته لم تكن مما يشرف فتى نبيلا . رآه فى ذلك الأيام مغرىً بالخمر مولعا بما لايولع به إلا السفهاء من حب الميسر والمراهنة ، وإدمان حضوره ليالى التمثيل ودورالملاهى والمراقص ، وكان لايتورع أن يقيم الولائم فى غياض مربوط للفسقة والجوارى والراقصات حتى لقد تغيّب عن المنزل ثلاث ليال قضاها على تلك الحال فى بعض خبايا أصحابه فى الاسكندرية وأشفقوا أن يقضى نحبه بينهم فحملوه إلى بيت خاله وهو على شفا جرف الموت تسمّما بما شرب وتهدّما من أثر مابغى . وعجب لامرأته الرشيدة كيف ترضى لابنتها المطهرة بعلا كهذا ، ولو كان ابن عمّها وابن حاكم مصر ! ولذلك تناول رقعة فكتب عليها رسالة الرفض والتأنيب لامرأته ، وهو على أشد مايكون الوالد من الالم والحسرة والحزن على ابنته . فما أن خط فيها بضعة أسطر حتى شعر بانقطاع قدرته عن الاسترسال فى الـكتابة ، فترك الرقعة

بجواره وأخذ يفكر ، ولتغلب على نفسه واعتزم أن يسافر إلى منف ويعمل بنفسه على إحباط الزواج . ولـكنه كان قد ركبه مرض شديد ألزمه الفراش فلما عاد صاحب السفينه ، حين انتوى العودة إلى مصر ليأخـذ منه رد الرسالة ، وجده محموما لا يعي ، ووجد عنده رجالا كثيرين لم يعرف أن منهم ولده النضر . ووجد كذلك بعض النسوة من أهله ، فأدرك أن الامر خطير ولما لقيه النضر لم يدله على مكانه من الحارث ، وانما اكتفى بأن قال له : ها أنت ذا ترى الحارث مريضا بحمى الدماغ ، فهو لا يعي الآن حديثا . ولعل رسالتك سبب ماهو فيه فعد إلى من أرسلك بما ترى . هذا أوضح جواب على أنى وجدت حين دعيت اليه رقعة كان يكتبها فيما أظن لامرأته يؤنبها فيها على شيء لم تعل عليه الأسطر القليلة التى استطاع أن يكتبها قبل أن يغشى عليـه ، فهو يؤنبها ويسفه عملها بل أرى أنه يلعنها إذا هي نفذت عزمها . وفى اعتقادى أن الزوج لا يلعن زوجته إلا إذا كانت قد أساءت اليه إساءة لا تحتمل عفوا ، أو يكون قد جُنّ بفعلها ، وكلا الأمرين عصيب . فخذ هذه الرساله المقتضبة معك فهى كل ارادة الرجل فيما أظن . قال الرسول : ألم تطلع أنت ياسيد على الرسالة التى جئت بها اليه ؟ . قال النضر — وإن كان قد اطلع عليها فعلا وعرف مافيها — : لا . ليس من حق طبيب مثلى غريب عنه أن يفتش ، وإنما وجدت هـذه الرقعة التى أعطيتك إياها بجوار فراشه . قال الرسول : أظن أنه زواج إحـدى بناته من دميـان ابن حاكم منف . هكذا خبرنى الغلام الذى جاء بالرسالة إلى

عيذاب . أهو صهر العالم قوزمان ياسيد ؟ قال : نعم . قال : علمت من رسول القصر أن قوزمان غير مرتاح إلى هذا الزواج ، لأن هذا الفتى من فساق منف المشهورين قال النضر : قد يكون ذلك ، فقد سمعت الحارث يهذى فى بحران حماه شاتما دميان هــذا ، ولاعنا امرأته أيضا . قال الرسول : سأكتب رسالة بما رأيت وسمعت منك ، وأضع معها هذه الرقعة ، وأرسل الاثنتين فى لفة واحدة إلى قوزمان لتقع فى آمن يد . فهو فى منف كما علمت من غلام القصر ليداوى سيته . قال : تحسن صنعا .

نهض النضر إذ نهض الرسول للخروج من البيت ، واستمر فى تنكره المقصود يقول : إن لهذا الرجل العظيم ولدا طبيبا فى مكة سأرسل فى طلبه لأنى لا أريد أن أتحمل التبعــة وحدى فى مرضه . قال الرسول : تحسن صنعا أيها السيد . إنى أراه فى شدة . وانصرف الرسول على هذا ، وعلى أن محدثه من أطباء مكة ، لا أنه النضر عدو هرميون العامل على أذاها وإن كان الخير فيما دبر الآن . على أن كل قصده انما كان أن يؤلمها ويقاوم مشيئتها حسنة كانت أو سيئة

الفصل الثامن والثلاثون

ترهّب القلب

أبلّ حاكم منف ، وتهيأت النفوس لاتمام الزواج بالرغم من أن هرميون كانت تستمهل عمتها حتى يجيء جواب الحارث ، وترى رضاه ضروريا ، وبالرغم من أن لمياء آذنت أمها أنها لاتجد فى نفسها ارتياحا إلى الزواج من ابن عمتها هذا وإن لم تستطع أن تبدى سببا لهذه الكراهية تقتنع به أمها. وخيل إلى أمها فى ذلك الوقت أنه نشور هواها الدفين ، أو هو مابقى من أثر مقارنة كمال خلق ورقه وأدبه إلى جراءة دميان وصلفه . نعم إنها لم ترمن لمياء هياما بورقة ، ولكنها كانت تشعر أن تعلقها به ليس إلا عرضا من أعراض حب قد لاتكون تعرف يومئذ أنه الهوى . ولكنه الهوى على كل حال عرفت أو لم تعرف . فهى إذا لم تجد فى ابن عمتها ما كانت تجده فى ورقة فذلك لأنها لم تحب ابن عمتها بعد، ولكنها ستحبه بعد الزواج فلا خوف من هذا . ولكن الحقيقة أنها بالرغم من دوام تفكيرها فى ورقة ومناجاة قلبها له فى كل خلوة وفى كل ليلة كانت تعتقد أن الدهر قد قطع بينهما وفرّق ثم لاوصل بعد هذا ولا اجتماع . وأصبحت ترى أن لمياء الماضى قد ماتت كما تموت الراهبة. وأصبح سواء فى الدنيا أن تتزوّج دميان أو سمعان ما دام أهلها يريدون زواجها ويرون هذا حدثا عظيما حين أن لم تعد

تهمها نفسها . سوى أنها رأت دميان ذات يوم فى بستان القصر وكان فريداً وكانت فريدة فحيته ورد التحية كأنما هى ابنه البستانى الهينة عليه ولم يبتسم أو ينهض للقائها والحديث معها على عادة الخاطبين أو الاصدقاء ، فتنبهت نفسها على ألم مهانة نالتها إذ شعرت كأنه يريد أن يقول لها : إن زواجى منك برغم إرادتى ، وإذا أنا رضيت بأن أتزوج منك فذاك نزولا على حكم أمى ، لا لرغبة منى فيك أو لمزية لك . فاحتملت آلامها وصمدت حتى إذا لقيت أمها أبدت لها عدم ارتياحها إلى هذا الزوج ، وذكرت بعض ما لقيت منه من مظاهر الاستهانة بها . ولكن أمها استنتجت لها من ذلك الجفاف معانى التحشم والأدب الذى فطر عليه الفتى ، وغير ذلك من القول الزائف . فعادت الفتاة إلى سابق سكوتها وارتقابها يوم ينتهى أمرها بزفافها إلى دميان ، وانتحارها بالزواج .

على أن والدتها كانت قد بدأت ترى عود ابنتها يذبل ، وجنحت نفسها إلى العدول عن زواجها ، ولاسيما بعد ما سمعت قصة فتور دميان من ناحيتها وإهماله شأنها ، وبعد ما كانت تسمع من أخبار مبهمة عنه . ولكنها كانت قد قبلت هذا الزواج ، وإن كانت قد علقته على رضا الحارث ، وكانت العمة قد عدت هذا القبول منها نهاية القبول ، وأخذت تعد للحفلة عدتها من التفكير والتدبير . وشايعها زوجها فى ذلك إلى أبعد مدى ، إذ كانت صاحبة الرأى الأعلى فى بيتها ، بل وفى كل شىء حتى فى حكم مصر نفسها . ولم ينفع هرميون نجوار أبيها لأنه على ما كان يعرف من فساد خلق ابن أخته

امتنع عن أن يبدى لها رأيا فيما عرضته أخته ، قولا بأنه أقل الناس خبرة بالناس . على أنه لم يشأ أن يعترض مشيئة أخته ثقة منه بأن نصيحته لابنته لن تنتهى إلى خير ، ولا سيما لأن أخته كانت قد أرسلت منذ مدة خطابا إلى البطريق أنستاسيوس اليعقوبى تلتمس منه أن يبار كها بزيارته إياها فى منف . وتنازله بقضاء أشهر الشتاء فى ضيافتها ليتولى فى غضونها مراسيم إكليل ابنها دميان على لمياء ابنة الحارث حفيدة قوزمان، ورد عليها البطريق المحترم قابلا دعوتها ومحييا هذا الرجاء اكراما لها ولزوجها وأخيها قوزمان والحارث زوج ابنة أخيها ، وأنه ينوى أن يعجّل بالقدوم عليها بعد انصراف أثناسيوس بطريق انطاكية الحبيب الذى جشم نفسه مشقّة الاسفار ليقيم اتحادا بين كنيستى انطاكية والاسكندرية (١) اليعقوبية وانه لهذه المناسبة السعيدة قد ارسل الى اسقف كنيسة المعلّقة(٢) يعلمه بأنه سيقيم عيد ربه ومخلصه يسوع هذا العام فى كنيسته

رأت هرميون أن الأمر أصبح أعقد من كل معقد . وانما أملت من رفض الحارث هذا الزواج الذى اصبحت تكرهه كما تكرهه لمياء لفرط ما أثر فيها وجدها بورقة وامتهان دميان اياها ، ويأسها من كل فرج — لم يعد يفيدها شيئا . فعملت عن تنشيط ابنتها بالتأميل الفارغ وافتراء صفات المحاسن فى دميان على امل ان ينصلح حاله بعد الزواج . ولكنها كانت تؤنب نفسها على هذه الاكاذيب ، وتلوم نفسها على تعجلها بابداء

---

(١) بطلر وتاريخ البطارقة (٢) فى حصن بابليون شمالى مصر (القديمة)

القبول من ناحيتها ، حين أنها كانت ، لو لم تتأثر بجو اللقاء الذى غمرها حين وردت بالسفينة على عمتها ، قادرة على الرفض الصريح. وزادت شقوتها حينما دخل عليها أبوها وفى يده طومار الرسالة التى كتبها ربان السفينة ينبىء قوزمان بما رأى وما سمع من حزن الحارث ومرضه ورفضه وأنه يرى دميان أسوأ زوج لابنته . وقد أقره قوزمان على هذا الرأى ، واعتذر إلى ابنته من كتمانه أمره لانها قبلت زواجه من ابنتها قبل مجيئة من الاسكندرية . وما إن قدم لها الرقعة التى كان يكتبها الحارث قبل أن يصاب بحمى الدماغ ورأت فيها ذمها وتأنيبها ولعنها إذا هى أقرت هـذا الزواج — حتى هلعت المسكينة ، وشعرت بلعنة الزوج تفتأبها فبكت بكاء مراً حتى لم يدر أبوها كيف يعزيها ، بل ولا كيف يستره عن عمتها وإبنتها . فاكتفى من الامر بأن أوصد باب الغرفة من الداخل وعاد اليها يشهد بكاءها حتى تفرغ ما فى قلبها ، وهو يحاول تهدئتها بوعود منه لا يملك تنفيذها . ولكنها وعود رأى أن يشغلها بها عن البكاء. بيد أنها لم تهدأ حتى رأت لمياء . فقد دخلت عليها من باب آخر هو باب الطرقة المؤدية إلى الغرف التى خصصت لجدها قوزمان : هدأت لانها لم تكن تريد لابنتها أن تعرف سببا بكائها فهى لا تريد أن تقف معها تستمع وتعلم بأن أمها أضحت اشد رغبة منها فى إلغاء خطبتها ولكنها تجد انها اصبحت مغلولة إلى عنقها بما تعجلت به عمتها نيفرت من التدبيرات قبل ان يجىء جواب الحارث، بل قبل أن تمكنها من فحص الامر ومعرفة عواقبه . ولذلك طلبت إلى لمياء فى لطف

الأم الحزينة أن تنتظر فى غرفة جدها حتى تدعوها . فلم تأبه لمياء لهذا الطلب وقالت بلسان لم تتعوده أمها : لم أعد أملك أن أجيب هـذا الرجاء يا أماه . إن كان بكاؤك لأمر خاص بك فيجب علىّ أن أعرفه لأحمل معك ألمه . وإن كان بكاؤك لأمر خاص بى فيجب علىّ أن أعرفه لأنى أحق بألمه . قالت هرميون : فى الامور مالا يكون من الخير للأم أن تطلع ابنتها عليه . قالت : إن كان من حقك على أبيك أن تفاتحيه فى شأنك وتحزنيه لحزنك ، فمن حق عليك مثل ذلك إذ أنت أمى قالت هرميون وقد ادركت أن الفتاة لقيت على الاقل برهانا جديداً على شقوتها من زواجها بدميان ولا ترى أن تسمعه الآن : ولكنى بلغت رشدى يابنيتى ولى بامور الحياة خبرة لاتكون لمن هى فى مثل سنك ، ولى أن أتولى أمر نفسى بنفسى وأمرك كذلك . أما أنت فلم تبلغى سن الرشد بعد . قالت لمياء : إذ لم أكن بلغت رشدى فكيف رضيت أن تلقى بى فى دنيا لابد لى من تمام الرشد فيهـا : دنيا الزوجية التى تتطلب العقل والصبر والأناه ، وتتطلب فوق هذا ، لمثل حالتى ، القدرة على التضحية . قالت هرميون وقد أدركت ما وراء ذلك : أتوسل إليك بحق محبتى لك أن تتركينا لنتدبر مخرجا مما يحيط بنا من الضائقه قالت لمياء : المخرج فى يدى يا أماه لا فى يدك ، فقد أفلت الامر من يدك أنا أعلم أنك تريدين أن تتحللى من عقد ارتبطت به مع عمتك فى شأنى لانك علمت أنك تورطت ، ولان أبى رفض ، كما يبدولى من وصول هذه الرسالة إليك. وأشارت إلى الرسالة وكانت لاتزال ملقاة على كرسى بجوارهـا

يراها من ينظر . وإذ لم تجدى المخرج فانت تبكين . المخرج فى يدى يا أماه كما قلت لك ، سأخرجك من ورطتك التى أوقعك فيها مكر عمتك وجبروتها قال قوزمان : كيف يكون هذا يالمياء ؟ قالت : ألقى بنفسى فى النيل ، انه أحن منكم صدرا وأوسع رحمة. فنهضت أمها مذعورة وأمسكت بيد لمياء كأنما رأتها قد هرعت إلى جسر بابليون وتوشك أن تلقى بنفسها فى التيار فهى تمنعها من ذلك وقالت بصوت مذعور : النيل ! لم هذا يا ابنتى ؟ قالت : لانك لاتريدين ان تفعلى ما يجب فعله وهو ان تذهبى من فورك لتقولى كلمة واحدة من أجلى . تقولين هكذا ! إنى آسفة جدا لأن ابنتى لاتريد هذا الزواج ولان والدها لا يريده ، وأنك لاتملكين بعد هذا تنفيذ وعدك لها ! فسكتت هرميون ونكست رأسها . فقالت لها لمياء : أتستطيعين هذا يا أماه ؟ فنظرت هرميون إلى ابنتها لتكشف عن سرّ هذا السؤال ، ولكن لمياء وقفت أمامها كالخشبة لايبدو من أسرارها شيء . ثم قالت : إذا كنت لاتملكين ذلك فحمّلى جدى رسالتى هذه ورسالتك إليها . قال قوزمان : هذا ما كنت أخشاه : ألا تدخران لى إلا السيئة ؟ ستثور نيفرت ثورة الضبع لاالخيبة رجائها بل لانها دعت البطريق الاكبر من الاسكندرية ليتولى الاكليل ، وقد وعد بالحضور قريبا ولابد أن يرافقه فى قدومه طائفة من أساقفة الكنائس و رجال الكهنوت للخدمة ، فكيف يكون موقفها يوم يحضرون للاكليل ولا إكليل . قالت : وتريد أن يجتمع الناس ليشهدوا إكليلى كما يشهد المعيدون ذبح حمل يعدونه لمائدتهم !

لا . لن أكون حملهم فى ذلك اليوم ! لاتحزنى ياأماه ! دعوا كل بطارقة المسيحية تأتى لتزوجنى فسأجهر أمامهم حين يجيئون بى لأعلن كلمة الرضا أنى رافضة . وسأعلن فى حضرتهم المقدسة ماأخفيته عنك وعن أبى وعن ورقة نفسه : وهو أنى خلعت دين المسيحية ومذاهبها جميعا ، واتبعت ملة الحنيفية الموحدة بالله . ملة آبائى الأكرمين . ليس أكرم من أن أجهر فى حضرة الاكليروس جميعا أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً رسول الله . فسأكون أول مسلمة هبطت وادى النيل ، وأول من جهر بالاسلام فيه . وأكرم بذلك حالا .

كانت هرميون وقوزمان يسمعان هذا الكلام من لمياء ، وبهما من هول ما تنذرهما هول شديد من الفضيحة الكبرى التى سيذيع أمرها فى ربوع مصر وبواديها ، ولكنهما كانا يريان على لمياء شيئا من مظاهر جنون اليأس فأشفقا عليها ، وخشيا أن يستولى عليها ، فانبرت أمها تقول لها لتريح فؤادها من عوامله : لابأس عليك يا لمياء ، سأنقض هذا الزواج ، وسأذهب الآن إلى عمتى . تعالى أنت معى إلى مخدعك فاستريحى ريثما أذهب إلى عمتى . قال قوزمان : لن يتم هذا الزواج فاطمئنى يا لمياء . وسأعود بك إلى الاسكندرية قريبا وألقى البطريق وأعلنه بالواقع قبل أن يتهيأ للمجىء . إنك أكرم عندى من كل إنسان . ثم تناولها فى صدره



وأخذ يقبلها عن حنان حقيق وشفقة . فخارت قوى لمياء المسكينة و بكت على كتف جدها بكاء يفتت الصخر وهلعت أمها لذلك فتناولتها وأجلستها على فخذها وأخذت ترفه عنها وهى لا تنقطع عن البكاء . فتاة فى مقتبل الحياة ، بريئة طاهرة نبيلة تعبث بها المقادير من أول يوم ، و يجتمع كل من لهم بها علاقة على أن يجمعوا عليها الهمّ واليأس والضنى ، وهم لو تركوا الدنيا تسير معها فيما أرادت لها من الخير لكانت أسعد خلق الله. ولـكنهم كانوا يعترضون مشيئة القدر الصالح فى كل خطوة من خطواتها وكل خفقة من خفقات قلبها.

وهى صابرة وراضية ومستسلمة ، حتى كادوا يسلمونها إلى الجنون . اجتمع العرف والرياء والجبن والسفالة على العبث بقلبها النبيل ، وقتلها فى روعة الصبا ! قبّح العرف وقبّح الحياء وقبّحت المجاملة ! تقضى على الجمال والحق والسعادة ! ومع ذلك فقد كان كل منهم يقول إنه يعمل للخير ! كانت لمياء بينهم كالزهرة الناضرة ادعوا أنهم يريدون أن يسقوها ماء النبع الصافى فرووها ماء النار .

حملها جدها على كتفه وسار بها إلى مخدعها حتى أرقدها فى فراشها ، وجلسا بجوارها يعتذران اليها مما جرى ، ويؤكدان لها أنهما لن يسمحا بأن يتم هذا الزواج .

وكانت أمها تعجب لتغيّرها وتشددها اليوم فى الرفض . وكانت تظن أن لمياء لقيت دميان فى البستان كما لقيته منذ أيام وجرى منه مثل ما جرى أو أكثر ، فثارت كرامتها لذلك وجاءت مصممة على إحباط كل مشروع . من هرميون ولكن هرميون لم تشأ أن تتأكد من حدسها خشية ما تهيج الرواية من نفسها . غير أن الحقيقة غير ذلك

فالحقيقة أن لمياء لقيت فى القصر إنسانا ملأ قلبها قوّة وأفعم نفسها حياة وردها إلى يقظتها التى كان الوجد بورقة قد ذهب بها ، حتى عدت نفسها جثة لم يعد يهمها فى أى أرض تلقى . ذلك هو المجاور بطرس البحرينى شيطان الاسكندرية الذى يلبس فى بيت أستاذه قوزمان مسوح القديسين . لحق هذا الفتى إلى أستاذه قبل أن يرحل الحارث بزوجته وابنته لمياء بسنة ، وكانت لمياء تعرفه حق المعرفة لكثرة ما كانت تلقاه فى رحبة البيت أو

فى بستانه ، وتتعجب لفرط أدبه معها وشدة ورعه حين أن نظراته كانت تذعرها لما ترى فيها من بريق خاص يميزها عن سائر العيون التى تراها ، وتعجب لوسامته وحسن بشرته حين أنها كانت تستشف من ورائها قوة خفية كقوة الثعبان . ولذلك كانت تخشاه من غير ما سبب وتزورّ عنه . على أنها يومئذ لم تكن تهمه فى شىء لصغرها، فلم يأبه لمظاهر خشيتها واستغرابتها إلا بمقدار ما يخشى من أثر ذلك بتغير أهلها عليه . واستمر معها على تأدّبه وتكمله وعظيم الرعاية لها فى بيت أستاذه ، حتى يجمع أهل البيت على وصفه بأنه القديس الشاب المسكين الذى يدعوه طلب العلم إلى التماسه منهم فى كل هذه الذلة . أما اليوم وقد غابت لمياء عنه ما غابت ، وعادت على غير انتظار فتنة لكل عين ، ومتعة لكل قلب ، فقد تنبهت شياطين نفسه ، وهام بها هياما لم يستطع أن يطفىء أواره ، وإن استطاع أن يخفى لهبه . واشتهى وتمنى لو تكون له ، وهو يعلم أن دون نيلها خرط القتاد ولكن ذلك لم يكن لينزل فى قلبه اليأس ، فقد كان يحدّث نفسه بقوله : نعم إننى لا أعرف اليوم لى حيلة تتحقق بها أمنيتى ، ولكنى قد أوفق إلى حيلة فى الغد ، فلماذا اليأس ؟ ولماذا لا أمهّد للمستقبل ؟ وعلى هذا عمد إلى التحبب إليها ، ولفت نظرها اليه . فكان يبالغ فى رعايتها فى أدب خالص كانت شعلة الوجد تصبغه صبغة الاخلاص . وزاد هيامه ووجده ما عرف من أنها توشك أن تزف إلى دميان . إذن فلتكن خطوته الثانية أن يحول دون هذا الزفاف بكل وسيلة حتى يردها خالصة الطامع فيها .ولن

يعدم بعد ذلك حيلة فى حمل أمها على تزويجها منه رغبة منـه أو رهبة .
ولـكن كيف يكون هذا ؟ ، و بأى عمل يبدأ فى تنفيذ خطته ؟ لم يكن له
إلا أن يستعين بلمياء نفسها على ذلك . يجب أن يمـلأ قلب لمياء بغضا
لدميان ، وذعرا من دميان ليقطع بذلك ثلاثة أرباع الطريق المرسوم .
وكان هـذا من أهون الأمور عليه ، لأن دميان كان مهلهل العرض
لولا أنه ابن مقوقس منف .

أخذ يحتال للقائها والانفراد بها للتحدث إليها بوشاياته ، ولـكن
القصر كان غاصاً بالعيون فى كل مكان ، وأهون مظاهر الاستهانة يودى به
و بمشروعه . ولذلك أسـقط فرصة لقائها فى الردهات والبستان من عداد
وسائله . كما أنه رأى أنه لا يستطيع أن يدخل عليها غرفتها القريبة من
غرف أستاذه الذى يعمل معه فيها ، لما فى ذلك من الريب التى يجب أن
يتجنبها ، و إلا طرد من القصر شرّ طردة . إذن فلينتظر و يرقب الفرص.

جاءت له الفرصة المشتهاة ذات يوم. ذلك أن إحدى الجوارى تسلّمت
رسالة قيل لها إنها للأستاذ قوزمان . و إذ أنها لا تملك أن تذهب بها اليه
فى غرفه فقد جاءت إلى هرميون لتدبر فى تسليمها إليه ، وذكرت لها أنها
جاءت مع بريد عيذاب . فقدرت هرميون أنها رسالة الحارث ، ولذلك لم
تشأ أن ترسلها إلى أبيها ، بل أرسلت لمياءفى طلبه لتقرأها عندها أو تقرأها
فى حضوره ما دامت خاصة بها . وكان بطرس معه على عادته فى خلوته مع
جدّها يقرأ له ويتذاكر معه . فما أن تهيأ قوزمان للسير إلى ابنته حتى

تبدّى بطرس من وراء ظهر قوزمان يستمهل لمياء بالاشارة ، ويشفع الاشارة بمظاهر الرجاء والالحاح . وهال لمياء أن يستوقفها هذا الـكاتب ، وهو لم يجرؤ فيما مضى من أيامه قبل سفرها إلى مكة أو بعـده أن يكلمها بله أن يخاتل جدّها ويستوقفها ، فهذا مالا يبيحه عرف الماضى فى الاسكندرية ولا عرف الحاضر فى قصر الحاكم . ولـكنها لم تجد بداً أن تتمهل فى وقار لترى ما وراء ذلك . فقد يكون الامر جللا . ولذلك تلـكأت فى الخروج مع جدّها ، واتجهت إلى بطرس تقول له : أراك تريد أن تحادثنى فى أمر ذى بال ! قال نعم يا مولاتى ما كنت لاجرؤ على أن ألتمس منك التمـهّل إلا لأمر جلل . إن أباك رجل جليل وأمك سيدة نبيله ، وأنت أشرف



العذارى . ولقد عشت فى بيتكم عيشاً كريما ، فمن حقكم علىّ أن أخلص لكم النصيحة ، لا أرجو عليها جزاء ولا شكورا فقد أسلفتموه . قالت : هلاّ قلت ما لديك لجدّى ؟ قال : لقد قلتـه وهو يعرف بعضه من قبل ولكنه لم يشأ أن يتدخّل ، وأرى الامر عصيا . ولذلك رأيت ان أقوله لك أنت لأنه خاص بك ، ولو لقيت الشرّ بعد ذلك . هذا أقل ما يجب لك علىّ . قالت : وما هذا ؟ قال : لا تقبلى الزواج من دميان ولو ألقيت فى النار فهى أبرد منه وأحن . قالت : ويحك ؟ أتقول هذا عن دميان ؟ قال : إنى لك صديق ولا يهمّنى سواك . وإذ أنك لا تعرفين ما فى دنيانا هذه من الشرور فعلىّ أن أدلك على ما أنت قادمة عليه من الشر لتتقيه ولو نالنى الشر . ليس الرجل عدوّى ولا أنا ذو مأرب . قالت : ألا تخبرنى السبب ؟ قال : ألا تشعرين بما يقبض نفسك يا مولاتى . قالت : بلى ولكنى لا أدرى له سببا ، ومن الظلم أن تجزى أحدا بغير سبب تستبينه فقال : السبَب عندى يا مولاتى . لقد نظرت بعينى روحك إلى روحه فعرفت أنها روح شريرة . قالت : خبرنى لماذا كانت فى نظرك كذلك ؟ قال : أقسمى لى ألا تبوحى به عنى . قالت : أقسم لا ابوح ، قال : هو فتى الخمر والفسق والبغايا . واعلمى يا سيدتى ان معه الآن واحدة منهن جاء بها من الاسكندرية وأنزلها بجوار حصن نابليون الذى يعمل فيه ليكون قريبا منها فى كل وقت ، ولا يعرف بأمرها احد سواى وسوى امه ،ولذلك تريد ان تزوّجه منك املا ان ينصرف بك عنها ، ولكن هيهات إنه

يحبها حبا شديدا . وأزيد على ذلك أن له منها بنتا تسمى هرميون باسم أمك وولدا من أخرى هجرها فى الاسكندرية اسمه قوزمان باسم جدك . أما سمعته ليلة اجتمعتم كلكم فى البستان يقول : إن أحب الأسماء إليه اسم هرميون وقوزمان ؟ قالت : بلى ، فمن أخبرك بذلك ؟ أنت لم تكن معنا قال هو الذى أخبرنى هازئا بكم و بجهلكم . و إنما قال لى ذلك لأنى مطلع على أمره . إذن فقد ثبت لك قولى . قالت : نعم ، ولقد كنت أرى مظاهر ذلك على وجهه ، ولكنى لا أملك أن أدفع هذا السوء عنى إلا إذا استهدفت لغضب أمى وعمتى و زوجها ، وكل نساء القصر ، وكل من فيه من الأبناء والبنات ، وسيقولون عنى مالا يجمل . قال : لن يكون قولهم أشقى لك من حياة تشبه الدعارة ، ولا آلم لنفسك من آلامك يوم يتركك هنا ليجتمع بصديقته و بنته . حافظى على كرامتك ودينك ياابنة أشرف الرجال ، ولا تخشى لومة لائم فى الحق . تؤثرين أن تتزوجي رجلا فاسقا لاشرف عنده ولا قلب يجيء إليك كل يوم بيد دنسة ، وفم ملوث وقلب مع غيرك ارضاء لمن يهمهم أمرك ! هذه عمتك أقرب الناس اليك تضحى بك من أجل ولدها . فلماذا لا تضحين برغبتها الشريرة السافلة من أجل حياتك أنت . اعلمى ياميلياء أنى أحب لك الخير ، وأسدى إليك النصح الخالص وقد أمرنا القديسون أن نسارع إلى أنقاذ الناس ما استطعنا . ولست أستطيع إلا أن أخبرك بما أعلم ، وما كنت لاعلم لولا أننى كنت فى السوق فى الاسكندرية يوم أرادت رفيقته فيها أن تحرق البيت عليه فأنقذته

من النار ومن الشرطة والسجن محافظة على شرف سيّدى قوزمان. وأنا الذى أتولى عنه وربّى كتم أنفاس هذه المرأة فأدفع إليها نفقةابنهقوزمان كل شهر، لأنّى بحمد الله غنى عالى من الأملاك الواسعة فى جزيرة منوف وإن كنت أكره أن أقول ذلك.

كل ماذكره بطرس صحيح إلا فيما يختص بالأملاك فما كان يملك شيئا، وإلا ماروى عن رفيقة الاسكندرية فانها خدينته هو والطفل قوزمان ولده هو. ولكنه عزاه يوم ولد إلى دميان بهتانا. وحكاية حرق البيت صحيحة كذلك، ولكن المرأة أرادت إحراقه هو لادميان. وإنما فعلت ذلك لأنه جاء به إليها وحمّلها نفقات كثيرة أبد ثلاث ليال متوالية تقاضاها من دميان أضعافا مضاعفة ثم لم يعطها منهاشيئا. وكانت هى الليالى التى تذكر الحارث أنهم جاءوا بدميان على أثرها إلى بيت خاله مخمورا مهدّما. وكان بطرس هذا رفيقه فى فجوره بل دليله فى كل فجوره، وأستاذه المحنّك. ثم لما وضعت خدينة الاسكندرية ولدها من بطرس جاء إلى منف ليقنعه بالبهتان أنه ولده، وأنذره بفضيحة أمره لدى أبويه إذاهو لم يسترض المرأة بنفقة للولد. فرضى دميان بذلك، وصار بطرس يتقاضى للمرأة مرتبا للنفقه على الطفل، ولا تدرى المرأة من ذلك شيئا بتاتا. ولكى يبقى احتياله مستورا أقنع السيد دميان بأن من الخير له ألا يبدو للمرأة ولا للولد، ويكتفى من الامر بأن يرسل إليه النفقه باستمرار وهو يتولى عنه تسليمها إليها: ومادامت ساكتة فهذا غاية المنى. على أنه لما جاء إلى منف مع قوزان

واجتمع به فى بعض خلواته ، وعرف مايدبرون من زواجه أخبره أن الطفل كبر وأصبح مرتبه القديم ضئيلا ، وأن أمه طلبت زيادته ، ونصح له أن يجيبها إلى ذلك ، وإذ أنه عائد إلى الاسكندرية ليأتى لخاله بكتب وأدوات من منزله إذ عزم أن يقضى الشتاء كله فى منف، ولا بدّ له أن يلازمه فيها فقد نصحه أن يعطيه نفقة هذه المدة ليسلمها إياها . وأبان له أن أوجب ما يجب عليه، فى الوقت الذى يفكر فيه فى الزواج من لمياء، أن يبقى جوّ علاقته بالمدينة الاسكندرية جو وئام ورضا تام وإلا كانت المصيبة كبيرة. وزيادة فى تدليسه نصحه لهذا أن يكتب إليها رسالة رقيقة تتضمن المحبة والوعد بقرب اللقاء ويحملها قبلات الشوق إلى ولده العزيز. ففعل دميان كما نصح له الشيطان وأعطاه قدرا صالحا من المال وكتب له الرسالة المطلوبة بإملاء بطرس نفسه ، فأخذها بطرس وسافر إلى الاسكندرية لينفق المال فى أهوائه وليستفيد بالرسالة فيما يرى

وقد جاء الوقت المناسب للاستفادة من الرسالة ، فقدّمها إلى لمياء على أثر حديثه معها قائلا انه لم يتمكن من ايصالها إلى صاحبتها وابقاها الربّ معه لهذا اليوم . فتناولتها لمياء وقرأتها ورأت توقيع دميان عليها وردتها إليه فى سكوت وانصرفت بغير تعليق. ولكنه كان سكوتا لم يغب عن بطرس معناه فقد رأى لمياء يتقع لونها وتضطرب ، فأدرك أن سمه سرى الى القلب . ومن ثم ذهبت لتلقى والدتها وتعلنها بما أعلنت وكان ما كان من هلع والدتها عليها لما رأت عليها من مظاهر الجنون الذى كاد يستولى عليها لولا أن سارعت أمها وجدها إلى استرضائها بالوعد الصريح الذى قطعته على نفسها

الفصل التاسع والثلاثون

تدبير الله

غلب النوم على لمياء فى تلك الساعة مما هدّ قواها من الهم ، فحمدت أمها وجدها لله هذا الفضل ، ونهضا ليعاودا الحديث فى شأنها و يدبرا الخطة لاعلان نيفرت بما استقر عليه رأيهما فى أمر لمياء . وكانت عمدتهما فى ذلك أن الحارث لم يقر هذا الزواج ، وأن هرميون اشترطت لانفاذه أن ينال موافقته . نعم إن عمتها دعت البطريق وأعدّت كل شيء ولكنها تصرفت فى ذلك من تلقاء نفسها . و إذا ثارت عمتها وزمجرت وغضب زوجها لهذا واستاء فلا يصح أن تأبه هرميون لذلك ، بل يجب أن تجابهها إذا اقتضى الحال بأنها لا تغضب زوجها فى مرضاتها . وإذا أمعنت نيفرت فى تأنيبها لم يعد أمامها إلا أن تعلنها بما عرف أبوها من أهل الاسكندرية وهو أن ولدها ذو خدينة وذو ولد ، وأن العمة تعلم ذلك وأرادت أن تضحى بابنتها من أجل ولدها وما كان يليق بها هذا .

على هذا اتفقا وتركا للظروف تدبير التفاصيل . وما كانت هرميون فى حاجة إلى من يقويها أو يشد أزرها لأنها ستتكلم بلسان الأم التى رأت ابنتها الوحيدة منذ دقائق على وشك الجنون ، وهى الآن نائمة كالملك المطهر على وعد من أمها وجدها أن ينقذاها من الهاوية البعيدة الغور .

التي كانت على وشك أن تتردى فيها . ولـكنها رأت أن يسبقها أبوها الى غرف عمتها ليحضر هذا المشهد ، و يحول دون عوارض الامور . وأقرها قوزمان على هذا الرأى .

نهض الجد يلتمس غرف أخته ، وقد استعد هو أيضا للنضال معها وكان يعلم ماهى عليه من الشدة ، حتى لقد تلجأ إلى التواقح والاساءة البالغة لأهون سبب. ولـكنه مادخل عليها حتى رآها مكتئبة اكتئابا شديداً ،



وخشى أن تـكون قد سمعت بما جرى قبل أن تسمعه من هرميون ، وأنها توشك أن تنفجر فأخذته الشفقة على ابنته . وقال : خير أن أتلقى أنا أول صدماتها من أن تتلقاها هرميون المسكينة ، وعزم أن يتولى النضال عنها. فلما

حيّاها ليفتتح الحديث ، ولم ترد عليه التحية ، لأنها كانت مشغولة بالتفكير في أمر جلل،وجد في ذلك الفرصة الصالحة فقال : مابالك ياأختاه لاتردّين تحية أخيك ! هل هانت كرامتي لديك بعد أن شفي زوجك ولم يعد في حاجة إليّ ؟ قالت وقد تنبهت : معاذ الله يا أخي . فقاطعها : عنت بمعاذ ياأختاه ! ولكني وحقك ، وحق أبي وأمي لاأبقى في بيتك بعد يومي لاأنا ولا ابنتي ! أ كذا تعاملينني وأنا ضيفك ؟ أم ترين أني بعض من يلتمسون برّك . ثم دار على أعقابه يريد الرجوع إلى غرفه ليعدّ حموله . فنهضت أخته هلعة فزعه مما سمعت وأمسكت بأردانه تقول له ، وحق القديسين جميعا ماسمعتك ولا رأيتك قال : أيمكن أن يكون ذلك ؟ قالت : هذا هو الواقع و ربي ،ولو تمهلت لعذرتني وأيقنت أني صادقة . اجلس بربك،فلم يجلس. قالت : قدّر حالتي ياأخي لقد أعددت كل شيء لحفلة العرس ، فأرسلت أدعو جميع الحكام ووكلاءهم،وأرسلت في طلب الذبائح وفي طلب الطحين ، والفا كهةوكل شيء، على أثر مارضي مولانا البطريق أن يتولى الأكاليل لدميان ولمياء. ولكني علمت الآن قبيل مقدمك بدقائق أن البطريق مات أول أمس في دير المانطون فانظر أيّ هم وقع عليّ وأي خسارة ولقد اعتراني دوار شديد وضيق حازب ، لأنه لا بد لنا أن نلتزم الحداد عليه هنا ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، فهو كما تعلم من أدنى أقارب زوجي.قال قوزمان:هذا حادث كبير حقا ،فلا تؤاخذيني بما بدا مني، ولكن لعله من الخير أن وقع.قالت : لماذا ؟ قال : لأن الحارث أبا لمياء لم يوافق على هذا الزواج ، ولا يصح أن

يجرى أمر كهذا بغير رضاه . قالت متهكمة : الحارث ! من هو ذا الحارث ؟
قال قوزمان : هو زوج ابنتى وأبو لمياء ! صاحب الحق عليهما ولو كان اليوم بعيدا ! ولقد كنت أؤمل أن يجىء رده بالقبول ، ولذلك لم أتدخل، ولا سيما حين علقت هرميون إنفاذ الأمر على مشيئته . أما الآن فلم يعد لها أن تجيزه ولا لى أن أغضى الطرف عنه . قالت : وهرميون ما رأيها ؟
قال : لا رأى لها عندى بعد ما جاء رأى الرجل الذى يثق بى ويمروءتى ولذلك فانى راحل على كل حال فى الغد : وسأرسل فى طلب الحارث وأجىء به إليك لعلك تقتنعينه بصواب رأيك ، فان أمامك الآن متسعا من الوقت.
فصمتت العمة هنيهة ثم قالت ، لا بأس: ولكن هرميون، أهى مرتاحة إلى رفض زوجها ؟ لا أظن ذلك . قال قوزمان : كانت بالطبع تتمنى أن يوافق، ولذلك قبلت ما عرضت عليها على الفور ، قالت : عدنى أن تكون معنا
قال: لا أعدك بشىء يا أختاه . إنى أكره أن يذكرنى الناس بالشرفى شرهم وبالنكران فى خيرهم . لن أتردد فى إبداء رأيى فى المصلحة .قالت : وأنت ترى المصلحة فى هذا الزواج على ما أعتقد . قال قوزمان مراوغا : إن فتى نبيلا عفيفا من صلب جرجيس هو خير زوج للمياء الوديعة الجميلة .
زعمت الأم أنه يعنى ابنها فشكرته على ذلك

ذهب قوزمان إلى ابنته وهو يعتقد أن الله الذى يحب لمياء هو المدبر لذلك ، ويعتقد كذلك أنه لولا خطؤه وما بدا منه من الشدة فى مقابلة أخته لعدت عليه رأيه الذى أبداه فى نصرة الحارث جريمة يستحق عليها

أن تفرغ على رأسه غضبها لـكلامه ، وما كان فى قلبها من الهمّ لحادث موت البطريق الذى أفسد كل شىء

التقى قوزمان ابنته فى غرفة لمياء ، وخبرها بما جرى بالحرف تلو الحرف وهو سعيد بهذه الرواية . فرأى ابنته تجثو على ركبتيها شكرا لله ، ورأى لمياء قد أفاقت من نومها ونهضت تقبله وتشكره وتبكى من شدة فرحها ، وهى تقول له : كنت أعلم يا جدّى أنك منقذى وإن لم يبد لى منك إلا وجه متألم لما يعدّون لى. فأخذتها هرميون من صدر أبيها وضمتها إلى صدرها وأخذت تبكى وتحاول الاعتذار اليها فلم تستطع أن تبين ... وكان على لمياء عند هذا أن تطلق شمس السعادة فى الغرفة وفى الدنيا برمّتها .فنهضت مرحة تقول لهما : إن علينا أن نعدّ الحمول للرحيل وسأعين جدّى على ذلك على أن يعيننى هو أيضا قبل أن يذهب إلى غرفه . قال وهو يبتسم : ما هذا يا لمياء ؟ ما أراك فعلت شيئا . قالت بل فعلت كل شىء . أبقيتك فى جوارى هنا وهناك. لن أفارقك بعد الآن . فأخذها وقبلها وقال : ولا أنا. ولـكن علينا أن نـكتب رسالة إلى أبيك نطمئنه فيها عليك ، ونعلمه بأننا نزلنا على رأيه ونسلم الرسالة إلى رسول حاكم عيذاب . انهضى أنت يا هرميون فابدئى بخطابك . قالت لقد أعددته وأنت مع عمّى ودعوته الينا فادعه أنت أيضا وادعيه يا لمياء . قالت : هذا ما كنت عازمة عليه.

* * *

بعد أربعة أيام من ذلك اليوم المبارك كانت لمياء وأمّها وجدّها فى

البيت الذى قضت فيه طفولتها . وما كان أسعدها أن تروح وتجىء فيه ، وتنزل البستان تشارك حارسه فى تجميله ، وبلابله فى الغناء على أغصانه . ولكنها كانت حريصة ألا تغشاه فى وقت يكون فيه بطرس فى البيت ، وإن كان مقامه منه فى ناحية غير ناحية البستان . ولكنها مع ذلك كانت تراه واقفا فى ظل شجرة هناك ، أو مختبئا عند عطفة من البيت ، أو عند أحد التماثيل . تجد فى عينيه ذلك البريق الذى كان يخيفها ، فيتمثل لها بعض النمور التى شاهدتها فيما مضى فى أقفاصها فى حديقة قصر الوالى أيام كانت تزور خالتها وهى طفلة ، ولكنها ترى أحدها الآن سائبا طليقا يوشك أن ينقض عليها . ولذلك كانت تعجل إذا رأته بصعود درج السلم والدخول إلى البيت ممتقعة اللون . وفيما هى تصعد السلم ذات يوم رأت بطرس قد تبعها ثم انفتل على حين بغتة خارجا من باب البيت إلى الشارع، وذلك لأنه أحس خطوات آتية من الداخل فانصرف عما كان فى نيته فعله وخرج معاجلا . وكان القادم إذ ذاك هرميون أم لمياء . فلما رأتها كذلك هلعت وسألتها عن سبب هلعها فقالت: لا أدرى يا أماه لماذا أخشى هذا الرجل الذى يكتب لجدى ؟ إن فى عينيه بريقا يذعرنى ، كما أنى لا أدرى لماذا يقف تحت الأشجار ووراء التماثيل ينظر إلى . يخيل إلى حين تلمحه عينى وأنا غافلة عن وجوده معى أنه لص يريد أن يغافلنى ليقتلنى . لا أظن أن به حاجة للوقوف منى هذا الموقف إلا أن يكون فى نفسه شر يريد أن يلحقه بى . وأقسم لك يا أمى أنى كنت أرى كل الشر فى عينيه

حين كان يروى لى أخبار دميان فى غرفة جدى حتى خيّل إلىّ أنه كاذب وأنه يريد أن يوقعنى فى شرّ لولا ذلك الخطاب الذى رأيته . ولما استحلفنى ألا أبوح لأحد بأنه هو الذى أعلمنى بكل خبره ، خيّل إلى أنه بعض تدبيره لأذاى . بل كنت ساعة يمن عليكما فى السفينة بأنه هو الذى أطلعنى على أخبار دميان حتى أنقذتمونى منه — ويحلنى من ذلك القسم الذى أقسمته — أرى فى اعترافه هذا شراً يبيت لى ، هو ما يدلّ عليه اختباؤه وراء الأشجار والتماثيل والعطف . ألا يمكن يا والدتى أن يستغنى عنه جدى ليفارقنا ؟ قالت هرميون : لا أظن ذلك يا أبنتى ، إنه منه كما كان ورقة من أبيك. فصمتت لمياء ، وغابت فى مكة وهدى ونجران هنيهة تمثل لها ورقة فيها وأدبه وظرفه وخلوص طويته وقالت لأمها : أين هذا الثمر المفترس من ورقه النبيل العفيف؟أين يا أماه ليتهمعنا هنا ! إذن لكنا أسعد خلق الله ! خيل إلىّ يا أماه حين وصلنا إلى ميناء فيلاق أنى رأيته بباب أحد الحوانيت ولو لا أنه كان فى لباس عسكرى وقبعة رومية ما اعترونى فى أمره شك . ألا يجوز يا أماه ! أن تكون رسالة الوداع التى أرسلتها اليه قد جاءت به إلى الاسكندريه ؟ إنه يحبنا يا أماه حبا خالصا ويعلم أننا نحبه ونعرف قدره . منذ تلك الساعة لم يفارق شبحه عينى ، بل إنى وحقك أرى شبحه الآن يتردّد أمام عينى وكأنه يلوح من وراء السّور ، ولكن العجب أنى أراه فى لباس الجند . ها هوذا : انظرى معى يا أماه . عجلى قبل أن تخفيه أغصان الياسمين . وى ! لقد اختفى ومضى فى طريقه . ذهب يا أمى . ليته يعود !

هلعت هرميون لهـذا الحديث ، وظنت أن ابنتها أصيبت لوجدها بعارض من الجنون ، فالتفتت إليهـا وتمعنت فى عينيها ، فوجدت فيهما



دمعتين تترددان فى السقوط ، فأخذتها إلى صدرها وهى تقول ماذا يا لمياء ؟ أين ورقة منا الآن يا بنيّتى ! : قالت : خيّل إلىّ يا أمى أنى رأيته من وراء السور ، وأنه كان ينظر إلىّ .. ثم نظرت مرة أخرى إلى السور فرأت ورقة قد عاد ينظر من بين القضبان ، وإذ وقعت عينه عليها ابتسم لها فلم تشك لمياء فى أنه هو ، وأفلتت من ذراعى أمها وصاحت : إلينا ياورقة ! إلينا ! فازداد هلع هرميون ولا سيما حين خلتها ابنتها وجرت نحو الباب فاتحة ذراعيها وليس هناك أحد .

خيل إلى هرميون أن ابنتها جنّت فعلا ، وأنها الآن شاردة فى الطرقات شرود المجنون . ولكنها رأت الباب يفتح ويدخل منه فتى فى لباس الجند ، ورأت ابنتها تعانقه وتقبله ، وهو يعانقها كذلك ويقبلها قبلة المحب الشيّق ، ثم يرى هرميون فينحب اليها ويعانقها هى أيضا ويبكى على كتفها بكاء الطفل المشوق

كان هو ورقة بالطبع جاء يتنسّم الأخبار ويستمدّ قطرات السلوى من معالم الدار فاذا به يجد الأحباب بين الأشجار والأزهار ، فدخل ، ولم تقو نفوسهم على هذه المفاجأة السعيدة بعد كل ما لقوا من الشقاء ، فأسقطوا كل عرف وأزاحوا كل ستار ، وتركوا للقلوب هنيهة من الزمان تسعد فيها بالحق ، وتؤدى أمانتها من غير تحفظ ولا رياء ما دامت مطهرة لا تلوثها لوثة من نفس سافلة

كان هذا المنظر يجرى تحت أعين رجلين يختلفان كل مختلف : أحدهما قوزمان وكان يطل من شرفة بيته على بستان داره بعد ما تناول طعام صباحه ، ويعجب لبنتيه كيف تلقيان أجنبيا عنهما هذا اللقاء الرائع ، وإن كان قد أحس عند رؤيته كأنما شع فى قلبه نور يملؤه متعة ونعمة لأنه لم يستطع أن يسعدها بشىء منذ جاءاه ، فلم يتمهل حتى يعلماه من القادم ، بل نادي لمياء يسائلها : من هذا الذي أسعدتك رؤيته يا لمياء وأسعدتنى معك ! فالتفتت إليه فى شرفته تقول : جدّى . أنت ترى ! هذا ورقة يا جدى ! كأنما يحب أن يعرف الناس كلهم ورقة ولو لم يروه أو يسمعوا

به ، ويعلموا كذلك أنها تحبه. والحقيقة أنه يعرف عنه شيئا كثيراً من ابنته ، فقد خبَّرته عنه فى ليالى مقامهم الطويلة فى منف ما جعل الفتى فى عينه قدّيسا مباركا . فقال : مرحبا بولدنا الكريم اصعدوا إلىّ جميعاً . فأخذته لبياء من يده وصعدت به درجات السلم الرخامية هى وأمها

أما الرجل الثانى فكان بطرس البحر ينى . كان قد دار حول البيت دورة ودخل البستان من الباب الخلفىّ المعدّ للمكتبة ساعة دخل ورقة وعاد فوقف تحت شجرَة التين الكبيرة تستره أوراقها المهدله وما كان فى طريق الناظر إليها من أغصان شجرة ليمون فتية . هناك وقف يتسمع ويرى ويتميز من الغيظ : شاهد كل شىء وسمع كل شىء ، ورأى القبلات والمعانقات وقطرات دموع المحبة الخالصة ، وسمع الجدّ يحيى و يرحب ، فثبت له أن الغاية التى كان يؤمل تحقيقها والتى حفزته فى منف إلى الوشاية بدميان قد عادت فبعدت الآن بعدا سحيقا. فهذا فتى اجتمعت لبياء وأمها وجدّها على محبته والاحتفاء به ، فتى متزن القسمات ، حسن التقويم ، نبيل الطلعة خلاب البسمات ، عظيم القدر فى الجندية إذ هو أمير مائة وهو لم يعد العشرين بكثير ، وليس فى حركاته ولا إشاراته ولا نظراته مايدل على أنها مران تعمل ، أو اعتياد مراء . وإذ أدرك من بعض عباراته معهما أنه عربى ، فقد استنتج بغير ما حاجة إلى ذكاء أنه هو الفتى الذى قيل جاء به الأمير نيقتاس من مكة ليكون حارسه الخاص. حارسه الذى قيل كذلك لا يطيش له سهم ، ولا يفلت من سيفه مسايف . إذن فقد

انقطع الأمل . ولكن الشيطان لم يرض أن يسلمّ بالخيبة حتى يعرف من هذا . فقد يكون أخاها أو يكون ممن لامطمع لهم فى زواجها ، أو يكون من عشاق أمها ، أو صاحب زوجة وأولاد . فمن الواجب أن ينتظر ليرى ويعرف ولعلّه — حتى ولو خاب ماحدثته به نفسه — يستطيع أن يعاود المسير فى الطريق المؤدى إلى لمياء . إن الحيل لاتنفد مادامت كل الحيل عنده مشروعة حسنها وسيئها ، بل الوشاية جائزة ، وسجن و رقة جائز ، وقتله كذلك جائز . ولكن يجب أن يعرف من هو ؟ ويتفحّصه من جميع جهاته ولماذا هو فى لباس عسكرى رومى ؟ ولماذا يتقلد سيفا عربيا ؟ أما هذا فقد جاءه به العلم عرضا من عشرائه وأصحابه فى حىّ رقودة ليلة أمس فقد بلغهم أن الوالى استقدم من بلاد العرب فتى من رماة النبل الذين لا يخطئون ، والمسايفين الذين لايغلبون وجعله حارسا له فى الليل ، وأن هـذا الحارس لم يشأ أن يتقلد سيوفهم الرومية ، واستأذن من سيّده فى حمل سلاحه الخاص فسمح له بذلك . وأن الوالى علم بأنه يعشق امرأة أخيه الذى قتل فى القدس ، وأنها هي أيضا تحبه ، ولذلك لزمت القصر ولم تعد إلى بيت أبيها . ثم حاكوا حول هيلانة المسكينة أقاصيص نشرها الاوغاد والسفلة فقالوا : إنه يقصد إليها فى موهن الليل وهم يظنونه قائما على حراسة الوالى ، متسللا إليها من باب إلى باب ، بل إن الحارس لوكاس الشيخ هو الذى يمهّد هذا اللقاء ، وغير ذلك مما يفتريه السفلة الانذال فى كل زمان ويلفقونه زورا وبهتانا على من يخصهم الله بفضله فى

الحكم أو الرياسة أو الثروة. وكان بطرس أحد هؤلاء المتخرّصين وإن لم يمض على عودته إلى الاسكندرية أيام كثيرة يكون قد عرف فيها كل هذه الخبايا. ولم يتورع أن يفترى كل هذه الفرى على أيمّ سيئة الحظ هي هيلانة ابنة أستاذه الذى يؤويه. وكان أقل مايجب عليه ألا يسمح لأحد بتناول عرضها بمثل ذلك، بَلْه أن يمتنع هو ويعف عن الافتراء، ومع أنه سمع هذا الخبر فعلم بأن هناك على الاقل أشاعة بعودة بنت سيده من القدس وهو لايعلم بعودتها لم يطلع أستاذه على ماسمع، لأنه لم يكن يهمه من أستاذه هذا إلا مايستفيد هو منه. فأما أن يفيده بشيء ولو كان تافها أو كان مما لايضيره بشيء بتاتا فلا. لا لأنه يتعمد ألا يفيده، بل لأنه لايفكر فيه بتاتا. حسبه أن يأخذ منه مرتبه ويأكل من طعامه، ويكتب له مايريد كتابته، أو ينسخ لنفسه من مكتبته مايبيعه لطلاب العلم، ثم يغادر بيته فى العصر ليقضى بقية اليوم فى الحانات بعد أن يغير لباسه، الذى ارتضاه لنفسه مع قوزمان ذلك الملبس الخليط بين جبة القساوسة، ودرّاعة الناس، ليكون فى بيت قوزمان قريب الشبه بالكرام، بملبسه الآخر ليكون فى المدينة على حقيقته مع الناس فى الحانات والمواخير، وأندية المقامرين والصعاليك فلينتظر بطرس إذن ماتهيئه له الظروف من الوسائل، ولننتظر نحن كذلك لنرى ماذا يريد هـذا الشماس المنوفى الآبق أن يفعـل بالابرياء

أما ورقة فقد تلقاه قوزمان بذراعين مفتوحتين، فلما دنا منه أخذه

بينهما وقبله قبلات الأب يلقى ولده الغائب ، وهو يقول له : لقد وصفت لى ابنتاى أعشارك يا بنى، وأطلعتانى على كل حجرة من حجرات قلبك ، فلما رأيتك عرفتك على الفور ، ولو أنى ما كنت أقدر أن أراك ، ولا كانتا تقدران ذلك . فأنت فى مكة حبيس بين عربيتك وصحرائك ، ونحن هنا طليقون على البحر ، وإن كنا سنحتبس وشيكا إذ جاءنا الفرس .

وأخذ الثلاثة يتعاورون الفتى بالاسئلة : كيف ترك مكة وكيف جاء ؟ وكيف اتصل بخدمة القصر حتى لبس لباس الحرس ؟ وكان يجيب على كل سؤال بجوابه ، وهم دهشون لتوالى الاحداث فى زمن قصير كالذى مر على افتراقهما عنه . وكانت هرميون تزعم أنه تسلم رسالة وداعها مكة ، وأنه لذلك علم بأنهما قصدتا الاسكندرية فجاء إليها يحدوه حبه و وفاؤه فقالت:لقد كنت أخشى حين كتبت لك رسالة الوداع أن يحملك حبك لنا على متابعتنا . ولكنى ما كنت أستطيع أن أتركها قبل أن أودعك فلما علمت منه أنه غادر مكة قبل أن يعلم برحيلها عنها ، وانه لم يتسلم رسالتها وأنه كان يظن أنهما باقيتان بمكة حين كانتا فى مصر ، كما زعمنا أنه كان لايزال فى مكة حين أنه كان فى يثرب ومعان والاسكندرية عادت تسائله فى غضون ترحيبهم به وهم داخلون به الدار . فأخذ ورقة يذكر لهم ما مر به من الاحداث أثرما فضح من تدبير النضر لقتل رسول الله ، وأهدار المشركين دمه لقتله حسيبتهم فى تلك الليلة ، وما جرى من

هدار اليهود دمه كذلك لقتلة عملائهم وفارسهم. وكان على وشك أن يذكر حادثة التقائه بهيلانة فى معان ، ولكن لمياء قاطعته لحسن حظه سائلة : كيف عرفت بيت جدى ؟ أم أنك رأيتنا مصادفة ؟ قال وقد ارتاح إلى إهذه المقاطعة : أما اللقاء فمصادفة من تدبير الله لكيلا تطول وحشتى كنت أسير مع أنطونيوس بن لوكاس الحارس فى المدينة لا تنظرها وأعرفها ومر بى فى هذا الشارع ، فلما حاذينا هذا البيت وكنت قد رأيته يوم جئت ونسيت موقعه ، تذكرته فقلت لانطونيوس : أليس هذا بيت العالم قوزمان قال : بلى. فوقفت أتأمله وبى حنين إلى رؤية سيدى ولكنى كنت أعلم إنه فى مصر فمضيت متأسفا . ولكنى شعرت للبيت بحب عظيم أخذ يزداد عندى كل يوم حتى صار كعبتى فى الاسكندرية ، لا تهدأ نفسى فى يومها إلا إذا زرته وملأت من منظره قلبى . وأنا على هذا الحال منذ عرفت الطريق إليه: أجىء اليه كل يوم وأنظر من خلال السور إلى بابه و بستانه ثم أمضى ملآن القلب بالذكريات . وها قد أثابنى الله على هذا الحج : لقاء الاحباب والاصدقاء ، وانها وربى لاجمل نعمة . فارتاح قوزمان إلى حديث الفتى ونزل فى قلبه منزلا كريما . قالت لمياء : سمعتك تقول إنك رأيت هذا البيت يوم جئت ثم نسيت موقعه ، وأنك علمت يومئذ بغيبة جدى ؟ . قال وقد ابتسم وأغمض عينيه كأنه بريد أن يخفى شيئا : نعم . قالت كيف كان ذلك ؟ هل جاء بك أحد اليه ؟ قالت هرميون وقد رأت خجل الفتى فى ابتسامته واغماضه : لم هذا السؤال يالمياء ؟ أنت تعلمين أن ورقة آنى الاسكندرية فيمن يأتون من الغرباء ، ولا بد أن يبحث الغريب عن أقرب الناس

إليه فيها . فهل عجب أن يطلب إلى دليله أن يسير به إلى بيت جدك ؟
قالت لمياء : صدقت يا أماه . معذرة إليك ياورقه . لعلىّ أسأت فى هذا
السؤال . معذرة . قال : لا وربى لم تسيئى . ولو كنت وحيداً حين جئت
الاسكندرية غريباً عنها ماترددت فى التماس بيت جدّك الكريم .
إنى أراه كمولاى الحارث سواء بسواء ، وإن كان لى فيها فيما روى
لى أبى رحمه الله أبناء أعمام . ثم انى بحثت عنهم فعلمت أنهم رحلوا الى
الصعيد ، ولكنى جئت الاسكندرية منذ شهر تقريبا صحبة إنسان من
أقرب الناس إليكم ، وأحبهم لكم وإليكم . هو أوهى التى عرفتنى إلى
المقوقس فأخذنى فى حراسه مرفوع الدرجة بين رجال قصره . فنهضت
هرميون تقول : من هى هذه القريبة المحبة التى جاءت بك هنا ؟ والتى
عرفتك إلى الوالى ؟ أختى هيلانة ؟ وكان ورقه يحاذر أن يلم بحديث هيلانة
اتقاء لما وراء ذلك من ذكر مقتل زوجها وولدها ، وانقلاب مجتمع المسرة
محزنة ، وإن كان قد شعر أنه كالذى لايهمه من الناس إلا مصلحته منهم
ولذلك أجل الكلام عنها — وقصتها فى المنتصف — حتى يهديه الله إلى
مخرج لطيف المسلك . ولكن سؤال لمياء أحرجه فكان جوابه متردداً بين
الافصاح والابهام . وكان عليه أن يجيب الآن سؤال هرميون فاكتفى
بأن قال : نعم . السيدة هيلانة . قالوا : جاءت ؟ متى ؟ فاستعد يتكلم بما
يعلك ، ولكن القدر أسعده فقد رأى هيلانة نفسها قادمة نحو الغرفة التى

كان فيها فقال : أدع لهــا هى أن تتكلم وتحدثكم حديثها . إنى أراها قادمة .

وكانت هيلانة آتية نحوهم لم يرها سواه إذ كان وجهه إلى البــاب . جاءت لان الحارث لوكاس خبّرها أن ولده رأى نورا فى البيت ليلة أمس وخيل اليه أنه رأى الاستاذ نفسه وسيدته هرميون ، وأنه أرسله مرة أخرى ليستوثق فعاد يؤكد له عودة أهل البيت وسيدتيه هرميون وابنتها .ولذلك استأذنت هيلانة فى الحضور لزيارة أبيها وأختها وجاءت مع احدى قهرمانات القصر لذلك .

التفت الجمع فرأوها ونهضوا للقائها . وعرف ورقة ما وراء ذلك ، فانسحب إلى الردهة وهم مشغولون ونزل يلتمس الحديقة . ولشدّ ما كانت حرارة هذا اللقاء . فقد رأوها فى ثياب الحداد السوداء على غير علم منهم بما حدث ، ولم يروا معها ابنها فقدّروا أنه سبب ذلك . ولكنهم ما عتموا أن علموا بالداهية المزدوجة فهلعوا و بكوا وأعولوا ، وانتحى كل واحد منهم فى الغرفة ناحية يذرف فيها دمعه . و بقيت هيلانة بين يدى أبيها تبكى وهو يساقط دموعه على رأس ابنته المسكينة حزنا على زوجها وولدها ، وأسى لها و إشفاقا عليها ، وهو فى أثناء ذلك يحاول تعزيتها فلا يجد لفظا يؤاتيه ، فتركها وانصرف إلى الشرفة يطل على الحديقة لعله يصرف بالنظر اليها وقع البلية عن نفسه . فما استقر بها لحظة حتى رأى الجاور بطرس البحرينى يأتى من منعطف الدار مسرعا و يصعد السلم الخارجية فى حالة مريبة نبهته اليه .

فنهض ليطل عليه . ثم لم تمر لحظة حتى صمم ورأى مشهداً لم يخطر بباله أن يراه . ذلك أن ورقة كان قد رأى مقامه إذ ذاك نابيا إذ الحزن فى بعض أمره عورة ، وخطر له أن يترك الدار حتى يملكوا لقاءه فنزل يلتمس الطريق إلى القصر على أن يعود فى وقت آخر

فتح باب البيت ليخرج فاذا هو يلقى بطرس البطريني امامه . رأى أمامه فتى فى الثلاثين من العمر فى ملبس عجيب لا هو إلى ملبس أهل الدين ولا هو إلى ملبس عامة الناس ، ورأى وجها حسن التقاطيع ، كل ما فيه جميل حقيقة : بشرة سمراء صافية ، وأنف مستدق العرنين ، فوقه عينان نجلاوان كحيلتان ، ودونه فم رقيق الشفتين ألعسهما . وذقن حسن الاستدارة يعلوه عارضان عليهما لحية لامعة الشعر فى قصر فهى جميلة . ورأى فى الرجل تأدباً ، ولكنه شعر أنه تأدب فيه شيء من الافتعال والاتضاع . كل ذلك رآه ورقة ولكنه مع ذلك لم يستملح الفتى ولم يمل اليه قلبه . بل الواقع أنه شعر حين وقعت عيناه على عينه برعدة مفاجئة ، وذلك لأنه رأى بريق عينيه أكثر مما يجب للانسان . بريقا عزاه ورقة إلى ما انطوت عليه نفس المرئى من وفرة الحياة والقوة المضاعفة والجراءة مع الذكاء الشديد . وكان هذا فى حكم ورقة أخطر أنواع البشر . فهو لهذه المواهب الخارقة يكون مفرطاً فى الخبث والجراءة وإن لم يخل لذكائه من الجبانة التى تزيد فى حرصه ومكره . يرى جميع الناس صغاراً مهما كبروا ، ضعافا مهما قووا ، حمقى مهما رشدوا ، وأنه أحق منهم بكل ما فى أيديهم

من المتاع فان لم ينزلوا عنه بالرضا وبالتسليم له بحقه فيجب أن يأخذه منهم غلاباً نعم أن القوانين تحمى الضعاف وكل الناس فى عينه ضعاف ولكن لاشأن له بالقوانين، فقد وضعها الضعاف أنفسهم لحماية أنفسهم من أمثاله أصحاب الحق الفطرى على كل متاع . ومن الحق أن يسلم لهم بها إلا ريثما يجد الوسيلة الى الحصول عليه بما يسميه الضعفاء والقوانين إجراما ، ولا يسميه هو إلا احتيالا ألجأه اليه إنكار الضعفاء حقه

لم يحيه ورقة تعمدا ، ولا ترك الباب الذى فتحه مفتوحا لدخوله ، لأنه رآه واقفا ليس عليه أثر قدوم ، فلا بأس عليه أن يستمر فى وقوفه ، ولذلك أقفل ورقة الباب وهو خارج . فغاظ هذا العمل بطرس غيظاً كبيراً لأنه كان يود أن يدخل البيت فى غفلة أهله ليرى ويسمع . ولاح له وقد دخل ورقة ولمياء وأمها ودخلت بعدهم خالتها والقهرمانه ما يدعو الى التساؤل . وكان يمنى نفسه أن يفتح أحدهم الباب ويتركه كذلك حين يراه فذهب ووقف على الصدفة التى أمام الباب فى انتظار هذه الفرصة . فلما خرج ورقة وأقفل الباب وراءه غاظه هذا جدا وكان مغيظا منه من قبل غيرة وحسدا فقال له : حسبت القصر يعلّم الناس الأدب فاذا أنا مخطىء فيما حسبت . فنظر اليه ورقة هنيهة صامتا ثم قال وقد رأى سوء أدب الرجل وثبت له بعض ما توجّس من أنه شرير شديد الاحتقار للناس ، وأن خير ما يعالج به أمثاله دفعهم على الناصية لأول حادث : أخطأت حقاً يا سيّدى كما أخطأت أنا له فانى ما كنت أحسب هذه العيون البراقة تعمى عن رؤية البديهيات :

فذعر بطرس لهـذا الجواب الصارم ووقف يتأمل قائله فرآه على ما يبدو عليه من جنوح الى الخير على شيء بعيد الغور من رباطة الجأش والمسارعة إلى القراع . فخشيه ، ولـكن غيظه منه كان متغلبا عليه فرد يقول : إنكم معشر الحراس لا ترون فى الناس إلا ما ترون فى أنفسكم . قال ورقة : هنيئا لك ذكاؤك الذى دلك على أنى أراك سافلا قليل الحياء . فاضطرب بطرس ولـكنه تمالك نفسه وقال : لقد تساوينا فى السفالة إذن . قال ورقة : صدقت ولـكنى لا أسمح أن تفوقنى فيها ! ولطمه على وجهه لطمة قاسـية ردته الى الدرج وهوت قدمه فوقع على ظهره مدلى الرأس حتى بلغ أرض الحديقة . وخانته رجولته عند ذلك فظل على هـذا الحال مدة ، وأخذ يصرخ ويستعدي حتى نبَّه اليه الثكالى فنهضن ينظرن ما جرى ، ورآهن فى الشرفة فنهض يريد أن ينتقم من ورقة ، ولـكن ورقة ركله فارتد حيث كان .

على أن قوزمان كان قد سمع الحديث كله ورأى ما حدث من ساعة استراب صعود كاتبه على الدرج معاجلا ، وهو لا شأن له ببيت أستاذه إذ كان شأنه بالمـكتبة ولهذه باب مستقل خلف الحديقة . فترك الشرفة ونزل ليلقى الرجلين ويحول دون ماقد يكون وراء ذلك . فلما فتح الباب ورآه بطرس جدد الصياح والشجار ، وسأله الاستاذ متعجبا لأمره قائلا : لم هذا الصياح يابطرس ؟ قال : سل هـذا الوحش ياسيدى ماذا فعلت له حتى يشتمنى ويلطمنى ويلقينى على السلم كما رأيت . إنه رآنى فى هذا



الثوب المتواضع وهو فى هذا اللباس الزاهى فظن أن الثوب يعطيه الحق فى استخدام الناس وتوجيههم فى أغراضه السافلة ، ويجيز له لطمهم إذا هم لم يجيبوه إلى أغراضه الدنيئة . أنا لا أتردد عن خدمة النـاس فى الأمر الكريم ولكن لا يليق بكرامتى يا سيدى وأنا بعد شماس فى خدمة الكنيسة وخدمة العلم والعلماء أن أقف مع فاسق يسألنى عن حىّ الراقصات والعواهر ؟ إنه يريد منى أن أصحبه إليهن وأدله على مكانهن . أهذا ما وصلت إليه حالتى أنا المجاور المسكين ؟ لا . لم يعد لى فى هـذه المدينة

مقام . لا بدّ لى من العودة إلى صومعتى فى الدير . ثم انفجر يبكى و ينتحب !!

فدهش قوزمان لجراءة الرجل فى الافتراء وقال فى نفسه : غير بعيد أن تكون رواياته الماضية عمن كان يتشاجر معهم افتراءات كهذه وأنى أخطأت فى الانتصار له واستصدار العفو عنه من نيقتاس غير مرة . واشتدّت به دهشته حتى لم يجد ما يردّ به على هذا البكاء . أما ورقة فوقف يتأمل الرجل بابتسامة الساخر لانه رأى منظرا عجيبا شعر له بشىء من الارتياح فى صدره . ذلك أن فراسته لم تخطىء حين وقعت عينه على الرجل أوّل وهلة . وعجب قوزمان لهدوء نفس ورقة فى هذا الموقف وابتسامته الساخرة حتى من الفضيحة. وشغل قوزمان عن سؤاله فيما جرى، لا ليعلم بل ليستوثق، بتفحصه والاعجاب به . فلما همّ ورقة يبدى شيئا من تعجبه لقدرة الرجل على الافتراء بمنتهى الطلاقة والذلاقة — خشى بطرس أن يؤثر كلام ورقة فى قوزمان ، فأخذ يقطع عليه كلماته بالصراخ والزئاط والذهاب والمجىء و يكرّر التهمة بالصوت العالى ليسمع النساء على نحو ما اعتاد النجاح به فى حوادث شجاره الكثيرة فى حىّ المومسات ، وقد نسى أنه لم يبد يوما لاستاذه فى خلق الصخابين المقاطعين المعتادين مثل هذه المآزق . ولذلك نبهه قوزمان أن يخفض صوته وأن يخرج من بيته من فوره ولا يعود اليه . وأنذره أنه إذا عاد أو رئى فى البيت بعد حينه فسيسلمه إلى الشرطة الذين أنقذه منهم غير مرّة

صعق بطرس لهذا الحكم القاتل ، وأدرك أن ما جرى بينه و بين ورقة قد سمعه الاستاذ وشهده على حال ما ، و إلا فما كان يقضى هذا

القضاء الجازم الشديد . فلم يعقّب على كلامه ، والتفت نحو الباب وهو يتمتم بكلمات وعيد لم يأبه لها ورقة . وما كاد ورقة يلتفت إلى الاستاذ ليعتذر إليه مما جرى حتى قاطعه هذا قائلا : لقد رأيت قبل أن ترى ما رابنى منه وسمعت ما بدأ به كلامه معك وما رددت عليه ، ولا وزر عليك ، وأنا أولى أن أعتذر اليك من فرية هذا الرجل الذى خدعنى ثلاث سنوات متوالية .

الفصل الأربعون

المؤامرة

بلغت الشملالة بأورست حظيرة متجره الواسع العظيم في يوم واحد ، وكان من أغنياء الاسكندرية المعدودين وكبار تجار القمح والغلال فيها ، وإذ كان كثير الصلات بأصحاب مزارع القمح في الصعيد ومصر السفلى فضلا عما كان يمتلك من الضياع — فقد كان كثير الأسفار عالماً بالطرق عارفا بقيمة الزمن . وإذ رأى الشملالة كالعقاب في سيرها عرف قيمتها في عمله وانتوى أن يستولى عليها بالرغم من أنه علم من كوميوس شدة تمسك الفتى العربي بها ، وذلك إما بشرائها منه أو باغتصابها. وكان يعتمد في ذلك على أنه رومى من أساطين الحزب الازرق حزب الامبراطور الذى لا تجرؤ الشرطة أن تمسه بأذى ، وانه من ذوى الجاه بماله وعلاقته بالكنيسة الرومية العالية . على أنه انتوى ألا يستفيد من مركزه هذا الممتاز في تحقيق أمنيته إلا إذا عجز أن ينالها برضا من الفتى العربي وقبول كأن يدفع له فيها أغلى ثمن وأدعاه إلى التفريط فيها . غير أنه أبقى خطته النهائية حتى يرى وجه صاحبها ويحادثه ويحكم أى نوع هو من الرجال ليقيس عليه تدبيره

على أن ورقة لم يستطع أن يلقاه في الزيارات القليلة التى جاء فيها إلى رقودة مع أنطونيوس أو وهو يزور بيت قوزمان على عادته كل ضحى ليتزود

لقلبه بالنظر إلى مكان ولدت فيه منى النفس لمياء ، وعاشت ثلاثة عشر عاماً غذاها فيها وغذته : هو بما فيه من الكمال وهى بما عليه من الجمال . كان يقال له فى كل زيارة إن التاجر لم يأت بعد من بيته ، أو أنه أرسل يفيء بمرضه ، أو أنه ذهب إلى مريوط أو كانوب . حتى إذا كان اليوم الذى التقى فيه بلمياء وأمها ، وحدث ما حدث من مجيء هيلانة إلى بيت أبيها واصطدامه ببطرس البحرينى ، واستأذن من قوزمان فى الانصراف على أن يعود فى وقت آخر — خطر له أن يمرّ مرة أخرى على متجر أورست عسى أن يكون قد جاء

والواقع أن ورقة أخذ يتشمم ريح الغدر من الرجل ولكنه لم يرد أن يقطع بذلك ، فقد كان الرجل تاجراً محترما ، وكان من نواب المدينة فى المجلس وكان الضابط الذى أخذها منه فى يثرب يثنى عليه ، كما أن معه صكا يفيد أن الضابط أخذها له عينا . والضابط يعرف السيدة هيلانة ومنزلتها فى قصر الحاكم . وإذ أنه لم يرسل ما يفيد أنه تصرف فى أمرها بغيرما أعلنهما به فلاشك فى أنه ركبها ولاشك فى عودته فقد روي له أهل المتجر ما يفيد ذلك. ولذلك لم يذعره ما تشمم من ريح غدر الرجل ،ولا سيما لأنه يستطيع أن يشكوه إلى مولاه نيقتاس

لم يدخل المتجر هذه المرة من حيث اعتاد أن يدخل . فقد رأى له بابا شرقيا غير مطروق إلا لبعض مستخدميه ،وعمد إلى الدخول منه ليتجنب لقاء ذلك البواب الذى اعتاد أن يعطيه أجوبة غير مؤدية إلى لقائه . قصد

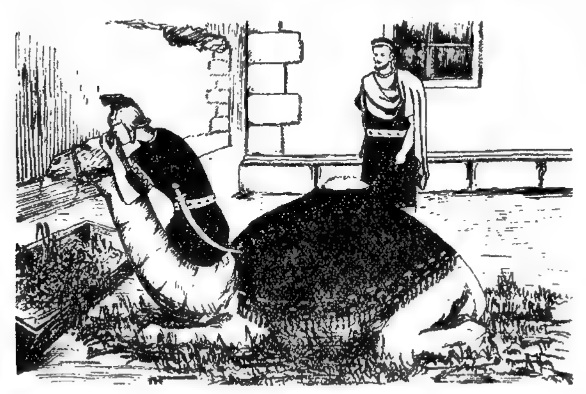
لى ذلك الباب وسأل الحارس عن أورست فأشار اليه وكان جالسا فى غرفته وظهره إلى الداخل . فأسرع خطوه حتى وقف بالبـاب ونظر اليه يسائله : السيد أورست ؟ فدهش الرجل أن يدخل عليه ضابط من حراس القصر دون أن يعلنه أحد من مستخدميه بقدومه لينهض لاستقباله عنـد الباب . ولذلك نهض من مجلسه عجلا وفى احترام كبير وهو يقول زاعماً أنه موفد اليه من الأمير : نعم يا سيد ، أنا أورست . مرحباً بك . تفضل بالجلوس . فلم يجلس ورقة . واستمر الرجل يقول : كيف قصّر أولئك الـكلاب فلم يعلمونى بقدمك لأنهض للقائك . قال : لا بأس بما جرى . هذا خير . جئت عرضا من الباب الشرقى . إنى أنا حارس الامير نيقتاس ، ورقة العربى . لى عندك أمانة . قال : أى أمانة يا سيدى ؟ قال : الناقة التى تفضلت بأن تأتى بها راكبا إلى الاسكندرية . فصمت الرجل ونكس رأسه مدة لا يعرف بم يجيب ، وانتظر أن يسأله ورقة سؤالا آخر عسى أن يجد فيه ناحية أو عاطفة أو معنى ينتفع به فى إنكارها أو تيئيسه منها ، كأن يقول له : لماذا لا تجيب ؟ أوهل نفقت ؟ أوضلت ؟ أوسرقت ؟ فيجيبه بقوله : نعم ، أو غير ذلك . ولـكن ورقة لم يزد على سؤاله حرفا وحرمه هـذه الامنية التى تمناها . وطال سكوت الرجل وطال انتظار ورقة لجوابه وهو واقف أمامه وقفة عرف الرجل معناها . وأدرك أنه أمام فتى مصمم ومستيئس ، فاذا هو أنـكرها فلا بد أن يستعدى عليه الامير ويأخذها قسراً ، وإذ هو أدعى أنها نفقت ، فربما كان له من هذا مخرج أهون . فقال : يحزننى

ياسيّدى أن أخبرك أنها نفقت أو بالاحرى أنها زلت عن الشاطىء بعد الكريون بقليل فوقعت وكسرت ذراعها ، فرأيت أن أذبحها على الفور وأتركها للفقراء . هى غلطتى يا سيدى ولكنه قضاء الله . كم ثمنها أيها الضابط ؟ إنى على استعداد أن أدفع ثمنها مضاعفاً ولو بلغ مائة دينار . فنظر إليه و رقة نظرة مكذب لما سمع وأراد أن يبلغه ذلك فقال له : ثمنها مائة دينار ورأسك معه . قال أورست فزعاً : ماذا تقول يا سيدى ! قال : أقول ما سمعت ثم تراجع فأقفل الباب الذى دخل منه فى انتظار جواب الرجل . فقال الرجل : إنك تجهل من أنا . قال : لص سافل . هذا ما أرى . وإذا كان لك إذ أنت رومى أن تعبث بيعقوبى أو غير يعقوبى من أهل هذه البلاد الكثيرة الكلام — فليس لك أن تعبث بعربى لا يعرف ميناً ولا يداور ! فعاد الرجل إلى مجلسه يفكر فى الخروج من المأزق الجديد الذى أدخل نفسه فيه ، وهو أكذوبة زلة الشملاله وذبحه إياها عند الكريون ، ولكنه تشجع وقال : إنك تظلمنى يا سيد وتظلم نفسك . هل يجمل بعاقل أن يسلم رقبته للجلاد من أجل ناقة ؟ قال : لا عليك منى ، ولكن هل يجمل بك أنت أن تعرض رأسك لسيفى على الفور من أجل ناقة تريد اغتصابها ! قال أورست : إذن فاستمع يا صاحبى ، الشملالة عندى . سليمة ومكرّمة ولكنى لم أجد مثلها مركباً وأنا تاجر كثير الاسفار ، وللزمن عند التاجر قيمة عظيمة ولا سيا فى هذه الايام . ولقد خطر لى أن أشتريها منك ، ولكني كنت علمت من كوسوس شدة تعلقك بها فلم أجد لذلك من حيلة

إلا ما رويت . وأنا مستعد الآن أن أردها إليك . ولكنى أرى أنه لم يعد لك بها حاجة قريبة . أنت فى القصر كما أرى ، ولن تحتاج إلى العودة بها إلى بلادك . ولدى القصر من وسائل النقل ما لا يخفى عنك . فأنا ألتمس منك فضلا : أن تطلب فيها ما تشاء فانى دافعه عن رضا ، أو تتركها أمانة عندى برهن أتركه عندك . أطعمها وأقوم لها بما يجب من الرعاية على أن يكون لى حق استخدامها فى أسفارى بحيث إذا كنتَ فى الاسكندرية وكنت فى حاجة اليها رددت إلىَّ رهنى وأخذتها و بحيث لا أملك أن أردها إليك وأستردّ مالى .

فكر ورقة فى الامر فوجد من مصلحته أن يفعل ذلك إذ كان حفظها غير ميسور له إلا بأجر كبير . ولكنه خشى أن يعود الرجل إلى إنكارها فتردّد ثم قال : وما هذا الرهن ؟ قال : ضعفا ما عرضت عليك : مائتا هرقلى . على أن يكون المال لك إذا أنت رغبت فى النزول عنها ، ولا يكون لى حق ردّ الناقة إليك وأستردّ مالى . فصمت ورقة هنيهة جاهد نفسه فيها مجاهدة كبيرة ثم قال : رضيت بذلك على أن يكون لى الحق فى زيارتها ومعاينة حالها كلما عنّ لى ذلك . قال الرجل : وإليك المال . ثم أخرج من خزانته قبضة إثر قبضة وعدها ودفعها فتناولها ورقة ثم تناول قرطاسا فكتب على نفسه صكا بما اتفقا عليه حين كتب ورقة صكاً بمثله . ثم تراضيا ونهضا لزيارة الشملالة فوجدها فى حظيرة يشتهى كثير من الناس أن تكون مرقدا لهم . فلما شمت ريح ورقة

التفتت إليه وعرفته فأرزمت فدنا منها وتناول رأسها فى كفيه وقبلها فى



ناصيتها وهو يقول مذكرا إياها بما مضى من أمرها : « إيه يا شملالة ! عرفت صاحبك ؟ أتذكرين ما قلت لك فى حلة الاراك ؟ نضو أسفار مثلك ، وحليف قفار . بيد أنى أحمى الذمار ، وأنبو عن مظنة العار ، ولقد عركت الدهر فما وجدت أعدل من الرمح ولا أمضى من الحسام البتار . لست أفارقك يا أخيّة ، وإنما أستودعك صاحبى حتى حين . هو فى حاجة إلى قائم ساقك وغيره إلى قائم سيفى ، ولكننا بعد هذا عروسان . ثم قبّلها مرة أخرى فى جبينها وانصرف مغرورق العين

شهد أورست هذا الوداع فتأثر هو أيضا ، وزال كل ما كان فى نفسه من أثر عراكه معه عند ما لقيه ، بل وقعت محبته فى قلبه حتى لم يطق أن

يفارقه . وإذ رأى ورقة تميل به قدمه نحو باب الخروج أقسم عليه ألا يتعجل في الانصراف وصارحه بما أصبح له من المنزلة عنده ، والتمس منه أن يقبل دعوته إلى الغداء معه عربونا على رضاه ومودّته . وكانت عباراته في ذلك تنساب في ثوب الصدق الصراح الذي لا تشوبه شائبة من مكر أو مجاملة . وكان على ورقة هيناً أن يرى ذلك . وإذ لم يكن في حاجة إلى الاسراع في العودة إلى القصر لأنه ما كان مطلوبا إليه أن يكون في خدمة الامير إلا في الليل ، أجاب دعوة أورست شاكرا ومعتذرا إليه مما بدا منه من الشدة معه ، غير أنه استمهله حتى يقضي زيارة كان قد ارتبط بهـا . وإذ علم أورست أنه قاصد بيت قوزمان استأذن منه في مرافقته قائلا : إن منزله يكاد يكون ملاصقا لولا ما يفصل بين حديقتيهما من زقاق ، وأنه يحسن في هذه الحالة أن يعرف المنزل ليجيء إليه مباشرة

سارا . وكان أورست معتادا أن يسلك إلى داره طريقا في بستان قديم لقصر قديم كان ملكا لحاكم مريوط السابق ، ولكن الثورات الماضية خرّبته لانضمام صاحبه إلى أعداء الامبراطور القائم ، ولم يبق منه إلا بعض حجراته السفلى وبعض حوائط عليا تحمل بقية سقوف هنا وهناك لم تأت عليها معاول الثوار فبقيت علما على ما كان عليه هذا القصر من الفخامة وكمال الزينه

فلما دنا الرجلان منه وقف ورقة يتأمل جمال نقوشه وصوره ، وأخذ يتطلع ويعجب وأورست معه يتحدث عن صاحبه وتذبذبه بين الفريقين

و ورقة دهش لما يرى. وفيما هما كذلك شعرا كأنما الجو الذى كان يحيط بهما



قد صفا وكأنما كان فيه دوىّ بعيد ثم خفت ، فنبههما السكون المفاجىء كما لو أنه لم يكن سكونا بل كان ضوضاء — إلى أن بالقصر شيئا ، ولكنهما لم يريا أن يدخلاه ولا أن يقفا ليتفحّصاه ، بل استمرّا فى طريقهما . حتى إذا لاح للعين شباك فى طبقته السفلى مخبوء وراء فروع بعض نبات مهمل فى الحديقة عرّج و رقة لينظر من بين قضبانه إلى داخل البيت المهجور ، ولشد ما كان عجبه إذ رأى جماعة من الناس عليهم سيما السراوة قد اجتمعوا فى هذا القبو أو السرب يتحدثون وقد بدت عليهم علائم الاهتمام الشديد بما هم فيه . كانوا أخلاطاً عجيبين من يعاقبة و يهود : بعضهم فيما يبدو من رجال الدين ، وكثرتهم من رجال الدنيا . ولشد ما كانت دهشته إذ تبيّن فيهم اثنين من أصحابه فى حلة الأراك باليمن هما إسحاق بن مرداس والحبر .

كانا جالسين مع أمثال لهما من يهود لم يعرف ممن هم ، وإن عرف من ثيابهم وسحناتهم أنهم يهود ، كما تبينّ فى الفريق الآخر صاحبه بطرس البحرينى و بعض رجال من قساوسة اليعاقبة خيّل إليه أنه رآهم فى القصر فى عيد الميلاد حينما جاءوا يهنئون الامير المقوقس نيقتاس بالعيد

كانو يتكلمون بلغة خليط بين الروميّة والقبطية فلم يفهم منها شيئا كثيرا، ولكنّه رأى صررا من المال ملقاة على الارض بين المجتمعين ، ورأى فى جانب المكان أكواما من السيوف، فأدرك ورقة على الفور أنه تآمر على الحكومة القائمة إذ لو لم يكن كذلك ما كانوا فى حاجة إلى الاختفاء . وكان يعلم نجوى اليهود فى جميع بقاع الامبراطورية الرومانيسة مما علم من أفعالهم فى ديار القدس والشام ، وما سمع من كل من اتصل بهم ولاسيّما من هيلانة ، ويعرف كذلك مقدار فرح اليعاقبة بانتصار كسرى وشماتتهم بأهل المذهب الرومىّ واعتقادهم أن كسري قد تنصّر وأنه يريد أن يتولىّ بطريق اليعاقبة فى مصر مراسم التنصير له

أدرك هذا وما كان أهون عليه أن يدرك ، ولكنه تنحىّ لصاحبه عن مكانه ليرى هو أيضا ويتبيَّنَه فى رأيه إن كان محتاجا إلى ذلك . فتقدّم أورست من حيث كان ورقة ينظر وسمع ماسمع ورأى مارأى ، وعاد يقرّ ورقة فيما خطر له وزاد عليه أنه فهم من حديثهم أنهم يدبّرون تدبيرا لفتح أبواب المدينة لجيوش الفرس . ما إن يرموا أول حجر عليها من

مجانيقهم حتى يدخلوا المدينة بلا حصار طويل . وسمع اسحاق يقول ويترجم له أنه اتفق مع السلار على ذلك وعلى ما يكون لكل ذي يد فى هذا العمل العظيم من كبير الأجر ، وأن المال الذى جاءوا به هو فى أكثره مال السلار أما السلاح فهو كما يعلمون من سلاح إخوانهم فى الاسكندرية تجيء به ليوزّع على الدهماء فى محاولتها قتل حرّاس الأبواب .

لم يكن لورقة بعد هذا إلا أن يؤجل اللقاء إلى يوم آخر لينصرف الى أداء واجبه إذ هو جندى ، وإذ هو حارس الامير الخاص . ورافقه أورست الى الطريق المؤدى إلى البراكيوم على أن يلقاه فى أقرب فرصة

ولكنّ ورقة لم يذهب إلى القصر بل ذهب إلى اقرب مخفر للشرطة وأنهى إلى ضابطه ما رأى وما سمع ، وطلب اليه أن يحاصر المكان ويقبض على من فيه . واعتذر إليه من انصرافه إلى القصر ليبلغ الامير . وسرعان ما نهض ضابط المخفر لهذه المهمة وسار بجنده لحصار المكان حين كان ورقة يغذ فى سيره إلى الأمير لينهى إليه خبر ما رأي وما فعل . لقيه فى قاعة الاستقبال الكبرى ووجد معه شيخا مهيبا فى لباسه الكهنوتية العليا . أدرك من فوره أنه البطريق الرومىّ الخالد الذكر حنا الرحوم صاحب البر والاحسان الذى ضرب به المثل ، والذى كان وجوده فى الاسكندرية نعمة لأهلها . لم يفرق بين رومىّ ويعقوبى ويهودى ، فالكل كانوا لديه أبناء الله الذى أسعده بولاية أمورهم . وكان الأمير مشغولا مع الرحوم فى حديث خطير كانا فيه يدبّران وسائل المقاومة إذ بلغهما قدوم السلار شاهين الفارسى

إلى الاسكندرية وكان الأمير قد أمر ألا يدخل عليه أحد ما دام مع البطريق ولكن ورقة لم يتردّد في الدخول عليه وهو معه لأنه كان مفوضا له أن يدخل متى شاء وأين شاء ولأن لديه فوق هذا خبرا خطيرا — دخل فاستاء الامير لدخوله ولكنه ما كاد يتبينه حتى انبسطت أساريره، وناداه حين كان يعتذر إلى البطريق بقوله : هذا حارسي العربي الأمين . إن وراءه خبرا عظيما ! أؤكد لك . ما وراءك يا بنيّ ؟ قال : مؤامرة ! فذعر العاهلان ونهضا من مجلسهما فزعين يقولان بصوت واحد : مؤامرة ! قال ورقة : أجل من اليهود واليعاقبة في حيّ رقودة . رأيتهم مجتمعين في سرب قصر ليونوتوس المتهدّم ومعهم أكوام من السلاح وصرر من المال ليفرقوها في الدهماء يوم يصل الفرس على أن يقتلوا حراس أبواب المدينة كي يدخلوا بلا عناء . ثم سرد لهما الحادث تفصيلا وأنه ذهب من فوره إلى ضابط الخفر وأبلغه ما رأى، وأنه تركه يستعدّ لحصار القصر القديم بجنوده ليقبض على المتآمرين، وجاء ينهي الخبر إلى مولاه

شكر العاهلان ورقة وأثنيا عليه ودعا له البطريق دعاء كريما وبعد قليل طلب اليه الأمير أن يعود ليأتيه بخبر ما جرى بعد ذلك . ولكن كان ضابط الخفر قد حضر إلى القصر على جواده واستؤذن له فدخل يقول: إنه ذهب إلى القصر القديم وحاصره من جميع جهاته ودخل ببعض جنده من باب كان مقفلا بل مسدودا من الداخل ولم يترك فيه مكانا لم يطرقه ولكنه لم يجد أحدا . فدهش ورقة وقال : عجبا ! وأخذ الشك يساور

الأمير و يوحنا كذلك فقال له : كيف ذلك ؟ إن ورقة رأى فيه جماعه من أعيان اليهود واليعاقبه ، ورأى أكواما من السلاح وصررا من المال . قال الضابط : أما أنهم كانوا هناك فلا شك عندى فى ذلك ، فقد سمعت لغظهم حين حاصرتهم كل ما وجدته هو السلاح و بعض دنانير فارسية مبعثرة فى أرض الغرفة ، هى هذه ثم قدم له منديلا صرّ فيه الدنانير فتناولها الامير ولم يفضه . واستمر الضابط يقول وأكبر الظن أن وعاءها انحلّ منهم ساعة الجرى ، ولم يستطيعوا فى عجلتهم أن يجمعوا كل ما تناثر

كاد نيقتاس يتميز من غيظه لافلات المتآمرين من يده ، وزاد غيظه أن حسن سياسته مع قساوسة اليعاقبة والرفق بهم والعدل معهم ثم إكرامهم بترك بطريقهم فى كنيسة الانجيلون فى الاسكندرية حين أنه كان محرّما عليه ذلك فى العهد السابق احتقارا له وامتهانا لشعبه ، لم تفد معهم شيئا ، وأن حمايته اليهود طول مدة ولايته ، وتسويتهم بالروم فى الحقوق المدنية لم تذهب حفيظتهم ، فتنفخ كدرا ولم يدر ماذا يفعل فصمت . وكان بوده لو يلقى نار غضبه على الضابط ولكنه لم يجد عليه ذنبا قريبا . على أن ورقة كان يعجب أين ذهب المتآمرون وخطر له أن يسأل الضابط : هل فتشتم صهريج القصر ؟ فكان سؤاله هذا وهو برىء المصدر متنفساً ينفس فيه نيقتاس العادل — إذ كان الرجل عادلا حقاً — مرجل غضبه ، واشتهت نفسه أن يقول الضابط : لقد فاتنى هذا — ليودى به و يعبث . ولكن الضابط قال : نعم . نزلته بنفسى أنا وعشرون من رجالى وما زلنا سائرين

حتى خرجنا منه إلى خندق مهجور . وأكبر الظن أنهم خرجوا منه كما أتوا منه . فلم يجد نيقتاس بعد ذلك ما يؤاخذه عليه ولكنه استمرّ فى حنقه ، ولحظ البطريق ذلك فتدخل يقول : لقد فعل الضابط واجبه فما عليه أن يعرف ما آخذ الصهاريج التى تملأ بيوتنا جميعا . ولكن نيقتاس لم يهتم بذلك وسأل الضابط : كم لك فى خدمة المدينة ؟ قال : منذ فتحها مولاى المقوقس . قال : ولا تدرى أن الصهاريج كانت فى كل عهد مخبأ وملاذا ومفرا . قال : الصهاريج للماء لا للهرب يا مولاى . قال : حتى ولو كانت فى قصر خرب منذ ثمانى سنوات : فصمت الرجل ولم يتكلم . قال : يحسن بك أن تتعرّف الخرائب التى فى اختصاصك وتقيم عليها العيون . اذهب وكن أرعى لوظيفتك بعد يومك

حيا الضابط وانصرف ولكنه ما كاد يصل إلى الباب حتى استوقفه الامير فعاد حين كان ورقة يقول لمولاه : إنه عرف من المتآمرين ثلاثة رجال . أحدهم يدعى بطرس البحرينى وهو كاتب كان حتى صباح اليوم فى خدمة السيد قوزمان العالم ثم طرده من خدمته لما تبيّن عليه من الريب. قال الوالى : إنى أعرفه حق المعرفة . إذن فقد كان شيطانا كما خبرونى . والآخران ؟ قال ورقة : الآخران أجنبيان عن الاسكندرية ، يهوديان : أحدهما من ولاة الحكم فى صنعاء اسمه اسحاق بن مرداس ، والآخر حبر من أحبارهم . لقيتهما فى الطريق إلى مكة وكانت لى بهما علاقة ، حين كانا ذاهبين إلى أرض المعاد لقاء السلار شاهين فى القدس ومعهما هدايا

لكسرى . وهما اللذان جاءا بمال الفرس الذى منه هذه الدنانير . ولعلك يا مولاى إذا قبضت عليهم قبضت على سائر المتآمرين . فسرّ نيقتاس ويوحنا لذلك سرورا عظيما . وأمر الوالى ضابط الخفر أن يبحث عنهم ويأتى اليه بهم . فانصرف الضابط راجيا أن يوفق إلى مرضاة الوالى ، واتجه إلى القبض على بطرس البحرينى لأنه كان فى نظره أهون الثلاثة عليه مشقة وإن كان أعظمهم خطرا

الفصل الحادي والاربعين

تفسير الشرط

كان بطرس البحرينى خبيرا بطبائع الناس ، ولم يكن الحبر اليهودى أقل منه فى هذا ولا اسحاق بن مرداس . ولذلك قدّر كل منهم — وقد فشلوا فى مؤامرتهم — أن لا بد أن يحاول بعض الفاشلين فضح أمرهم والوشاية بهم ليتقربوا إلى من فى يدهم الأمر حتى اليوم. ولا بأس عليهم أن يتقرّبوا فى الغد إلى أعدائهم. ولذلك استقرّ رأى بطرس البحرينى من ناحيته . واليهوديان من ناحية أخرى ألا يبقيا فى المدينة بعد ساعتهم تلك ساعة واحدة . ولذلك قصد هذا إلى بيت خليلته فجمع حاجاته وأعلن جميع الجيران أنه يغادر المدينة إلى حيث تلقى به السفينة الذاهبة الى نيقيوس ثم لا يعود . وخرج مودعا بكل مظاهر الأسف الجاف من جيرانه ومعارفه وهو يحمل حقيبته على كتفه بشكل يلفت النظر . وكان كلما سأله سائل ما بك يا بطرس ؟ أين ترحل ؟ يقول : إلى منوف : الى الدير الذى خرجت منه فلقيت الهوان فى بعدى عنه . لقد غضب علىّ الرجل الذى أحسنت اليه ، وصدّق فىّ وشاية كاذبة فلم أعد أطيق البقاء فى الدنيا التى يجزى المحسن فيها شرّ جزاء . ولكن هذا عقاب الرب لى على خدمة رومىّ كافر . على أنه لم يركب السفينة الى منوف بل خرج من باب القمر

ليعود من باب الشمس ، وقد غيّر زيّه وحلق لحيته وشاربه وقفل إلى كنيسة الأنجيلون حيث يلقى شريكا له فى المؤامرة الفاشلة ويستضيفه .
أما اليهوديان فذهبا من فورهما إلى حىّ اليهود واستودعا المال حبر الحىّ، وكان الرجل عليما بما جاءا فى صدده ومشتركا معهما فى التدبير واستأذنا ثم سافرا فعلا قاصدين إلى السلار ليبلغاه ما وقع ويخبراه بما فعلا بالمـال .
ولذلك لم تؤدّ مباحث الضابط إلى شىء مما أراد ، فقد أخبره أهل الحىّ الذى فيه خليلة بطرس أنهم رأوه راحلا وأنهم علموا أنه ذاهب إلى منوف وعلم الضابط من حراس باب الشمس أن اليهوديين خرجا قبـل السؤال بزمن ليس بقليل على الراحل على بغلين إلى حيث لا تصل إليهما يد أحد الآن حتى ولا نيقتاس نفسه إذ كان الفرس قد انتشروا فيماوراء الارباض الشرقية ويوشكون أن يحاصروا الاسكندريه . ولم يجرؤ الضابط أن يرفع نتيجة جهده إلى القصر فأرسل إلى ورقة خطابا مع أحد جنوده يذكر فيه خيبته ويرجو منه أن يتلطف فينهى ذلك إلى الأمير ويفيده .

كان الليل قد أرخى سدوله على الاسكندرية وأخذت هواجس الامير تعبث بفؤاده ، فتمثل المتآمرين مجتمعين وتمثلهم قائمين بثورة وانهم يقتلون الحراس ويفتحون الابواب ، وان الجيوش الفارسية تدفقوا فى المدينة ، وهرعوا إلى القصر ليقبضوا عليه ويقتلوه . فاضطرب وأخذ يسير فى غرفه مسرعا كالنمر المحبوس لا يدرى ماذا يفعل ، ولـكنّه علق على القبض على البحرينى واليهوديين آماله حين أن القبض على المتآمرين كلهم لو تمّ ما أمّنه

إلا من شرّهم وحدهم . وخطر له أن يستأنس فى ضيقه بو رقة حارسه المحبوب وأنيسه الذى أصبح يراه كالهواء لصدره فناداه ، وكان ورقة اذ ذاك آتيا إليه ليخبره بفرار بطرس و إسحاق. فلما رآه قال: ألم يردخبر من أور بيداس قال : بلى يامولاى ، الآن ، ولو لم تدعنى لـكنت أنهيته قبل أن تسألنى . إنهم فرّوا من المدينة وهذا أ كبر دليل على حبوط المؤامرة . قال:ولـكننى كنت أشتهى أن أصل بهم إلى بقيتهم . وكان اخلاص ورقة لنيقتاس وحب نيقتاس له قد رفع حد الكلفة بينهما . بل كان نيقتاس نفسه هو العامل على رفعها لـكى لا يحرم الأنيس والنصيح ، وليجد فى جواره محدثا يستبين الصواب من محادثته ، فقال له : لتنتقم منهم ياسيدى أم لتكفى نفسك شرّهم ؟ قال : لهذا وذاك ياورقة . قال : أما أن شرّهم قد زال فهذا ما لا شكّ فيه . إنهم لا يعملون إلا بالمال ، وقد ذهب اليهوديان بالمـال وأما أن تنتقم منهم فليس هذا وقته . إن لهم أهلا وأقارب وزعماء واحزابا . وأنت اليوم فى حاجة إلى هدوء الناس لئلا يتخذ بعضهم هذا الحادث عذرا من الخيانة بدعوى الانتقام لأهلهم ، أو دافعاً الى الثورة وقت الحصار . و إنا لنحمد الله الذى أفسد مؤامرتهم قبل أن تفرخ بيضتها . قال نيقتاس بعدشىء من التفكير : صدقت ياورقة . هذا كله بفضلك . قال . بل بفضل الله الذى يحبك يامولاى. لقدعثرت بهم عرضا ! اذ كنت أسير الى بيت الاستاذ قوزمان . فقال :أبى هيلانة . قال :نعم أبى هرميون امرأة أستاذى الحارث ابن كلدة . قال نيقتاس ضاحكا : أليس الرجل أبا السيّدتين ياورقة ؟ قال ورقة متعمداً تسرية الهمّ عن مولاه لما رآه كثير التفكير فى غير طائل :

بلى ياMولاى ، ولـكنى عرفته على أنه أبو امرأة أستاذى وجدّ ابنته لمياء . وسيبقى كذلك فى ذاكرتى وعلى لسانى ولو غضبت سيدتى هيلانة. فضحك الامير ضحكة سرّت عن نفسه كلّ هم وقال: لا أدرى والله على أى الأمرين أشكرك . على إحباطك المؤامرة ؟ أم على تسرية الهم عنى ؟ وكانت القهرمانة قد عادت بسيدتها هيلانة إلى القصر وعاد معهما قوزمان ليهنىء الأمير على سلامته . . فلما رآهم نيقتاس هلل لمرآهم ورحّب بهم ، وإذ كان يعرف علاقتهم جميعاً بورقة مما سبق لهيلانة اخباره به من تاريخ ورقة بمكة انبرى فيما هو فيه من الانشراح يفضح ورقة لدى هيلانة بما قال . فقالت مازحة : أهذا جزائى لديك يا ورقة ؟ قال : مازعمت الامير فاضحى لديك بهذه السرعة قالت هيلانة للامير : أنا أعرف سبب نسيانه إياى ياسمو الأمير ولـكنى لـكى أنتقم منه لا أبدى لك هذا السبب أمامه ولا امتعه بذكره قال : بل اذكريه بحق لديك ، لعل فيه فضيحة أخرى . قالت : إنه يحبّ لمياء بنت هرميون حب عبادة وهيام فهو لا يعرف من أبناء قوزمان سوى أم لمياء ، ولو تركت له العنان ليعرّف لك أبى لأنكر هرميون وقال جدّ لميـاء . فضحك الامير وقال . لقد قالها ورنى وأوجست ماذكرت . ما أشد وفاءك للمياء ياصاحبى ! ولـكن ترى هل تحبّه لمياء كما يحبها ؟ قال قوزمان : لقد أبت أن تتزوج ابن اختى رعيا لذكراه فيما أعتقـد ؛ على انها كانت اذ ذاك يائسة منه . قال : وهو ! لماذا لم يخطبها إليـكم وقد اجتمعتم ؟ قالت هيلانة : إنه يزعم أن أمها تأباها عليه ، وأقسم لك ياسموّ

الأمير أنها لا تتردّد في قبوله بعلا لابنتها . هكذا علمت منها اليوم ، لولا أنه يزعم أن أستاذه يكره أن يزوّج ابنته من غير قرشي من أعيان مكة .
على أن هرميون كانت قد اشترطت على زوجها أن يكون أمر زواج ابنتها بيدها ، وأقسمت إلا أن تزوجها في الاسكندرية وفي بيت الأمير نيقتاس نفسه .

قال نيقتاس : ويجب أن يستمرّ شرطها . وها نحن أولاء في الاسكندرية وورقة في بيتي بل هو ابني ، فأصبح من حقه بمقتضى هذا الشرط أن يأخذها رضيت أو لم ترض . أليس كذلك يا ورقة ؟

كان ورقة يستمع إلى هذا الحديث وهو مضطرب لأن هيلانة قد طارت به من الأرض إلى جوّ لم يكن قد استعدّ له بجناح ، فرفرف ورفرف وأسفّ ، ثم ركع على ركبتيه وتناول يد الأمير وقبلها وهو يقول له: مولاي الحبيب المبجّل ، أعفني بحق الله عليك

فتعجّب الامير لكلام ورقة ، والتفت إلى هيلانة يسألها عن سرّ هذا الرفض ؟ فقالت : ما سمعت حديث حب أصفى من حديث ورقة ولمياء ، ولكنه وفيّ لاستاذه جد الوفاء ويكره أن يقول عنه إذا هو تزوّج ابنته بغير رضا إنه اغتصبها ، وقد عرفت قدر ما عليه ورقة من النبل .
قال نيقتاس : وأين منه أستاذه الآن ؟ إنه في صحراء العرب ، وإذا جاز لعربي لم يهمنا نسبه أن يتزوج رومية خالصة لعلمه وفضله — فأحر أن يتزوج عربي مثله فتاة نصفها رومي ، ونصف عربي . وهذا العربي فيما يعرف

الناس وأعرف لا يقل عنه فضلا ونبلا . أليس كذلك يا قوزمان ؟ فأجاب قوزمان حين كان ورقة واقفا فى حيرة لا يدرى بما يقابل كلمات برّ سيده : لقد سمعت يا مولاى عن ورقة من ابنتىّ هرميون ولمياء ، ثم من هيلانة اليوم ما لم يكن يخطر لى على بال . إنه وحقك لقدّيس ، ولو كانت لى بنت ثالثة لعددت زواجها منه نعمة من الله علىّ . قال نيقتاس : ولمياء ؛ أليست ابنتك ؟ قال : بلى وإنى لأملك بفضلك أن أزوّجها منه لأننا كلنا رضوان ، وها أنت ذا ترى رأينا ، ولكن ما حيلتنا فيه ؟ لقد أقرّ لابنتى هيلانة وهو فى الصحراء أنه يحب لمياء ، بل هى التى استكشفت ذلك ولكنه يأبى أن يلتى أستاذه وفى نفسه ما قد يكون علامة أسى . قال نيقتاس : غداً يعقد عقده على لمياء هنا ! احضروا بها إلىّ غداً هى وأمها. إن لهؤلاء القديسين أعمالا وآراء لا نفهمها نحن أهل الدنيا الفانية. وضحك ضحكا متواصلا . ثم قال : سأراها ، فان رأيت أنها من الجمال والكمال بحيث تصلح لك أقطعتك فى الاسكندرية مرتزقا ورقّيتك وزوجتك إياها على يد أخيك فى القداسة يوحنا الرحوم نفسه وإلا . . . . ثم التفت بابتسامة صوب ورقة ولكن ورقة لم يكن موجوداً حين كان يتكلم . فقد انسلّ من المجتمع ساعة ذكر قوزمان ما ذكر عنه . فقال الامير: أين ورقة وإذ لم يجده أدرك سر هربه فضحك ثم نهض يبحث عنه فوجده عند غرفه فعاد اليهم ضاحكا حين كانت هيلانة تقول : إنه يجول كالظل لا يشعر به أحد . ما أشد حياءه يا سمو الامير . قال : رأيته واقفا على غلوة من

هنا . وضحك . قالت هيلانة . امض فيما اعتزمت فلن ينهى هـذه المسألة أحد سواك . وليبارك لنا الله فى مروءتك . إنا لا نجد لاثابة ورقة على ما فعل لنا من الطيبات الا أن نعطيه منى نفسة لمياء ، وإنا فى هذا الزواج لراغبون . قال : ليكن هذا . فى الغد .

انصرف قوزمان وهيلانة من مجلس الأمـير مودعين منه بأطيب التمنيات ، حينما كانا يدعوان له بالرغد وطول البقاء . ورآهما ورقه خارجين فلما يشأ أن يلقاهما تفاديا من موقف أمثل بما فر منه ، واختفى فى غرفه حتى مرا به فى طريقهما إلى سكن هيلانة

أما ورقة فقضى الليل على عادته ساهراً فى حراسة الامير ، وكان قمينا أن يدركه النعاس بعد ما لقى من الجهد فى يومه ، ولـكن حديث هيلانة والامير وما عرفه من جنوحهم إلى تحقيق أمنيته الغالية زاد فى يقظته فلقد فرح قلبه بما صرحت به هيلانة من أن لمياء تحبه ، وما فاه به قوزمان من أنها أبت ابن حاكم مصر رعيا لذكراه وتمنى لو يراها الآن ويأخذها بين يديه ويقبلها شكراً على حبها إياه ووفائها له ، ويحمد الله أمام عينيها على أنها عرفت فرط هيامه بها. ثم تمثل الليلة السعيدة التى يقدر له فيها أن يلقاها على انفراد ليروى لها قصة وجده بها ، ويذكر لها أنه كان فى خلوته ووحدته ، فى الليل وفى النهار ، وفى الصحراء والدار ، وفى الحل والترحال يتمثلها ويراها عياناً بياناً ، كأنما رسمت صورتها على حدقة العين ، فكل ضوء يمر بها ينعكس على فؤاده صورتها الجميلة فتزيد أوار قلبه ، ولـكن ،

يا لله ! ماذا يقول عنه أستاذه إذا جاء فوجد لمياء حليلة له بغير اذنه ! نعم إن الحارث لا يأبى زواج ابنته منه لو كان حرّا ، ولكنه لن يكون كذلك حتى ولو جاء إلى الاسكندرية وبعد عن مكة والنضر . سيرعى سلطة النضر عليه وسيأبى على كره منه اعلان رضاه عن زواجه من لمياء . اليس من الخير إذن أن يترك الأمور تجرى فيما يشاء لها ولا يعترض ؟ ولكن كيف يملك أن ينظر إلى استاذه نظرة البراءة التى اعتادها ليظفر منه بنظرة الحب التى كان يغمره بها . هذا مالا يطيقه

استمرّ ورقة يفكر على هذا الأسلوب حتى السحر ، والقصر صامت ساكن ، لا يسمع فيه إلا أقدام الديدبانات تروح وتجىء ، والليل طارح عليه ملاءات من أديمه ، لا ترى فيه إلا أشباح الجند ، وظلال أقتم من الليل للتماثيل القائمة فى جوانب الماشى والطرقات ، والبحر من وراء الأسوار يزمجر ويضطرب منذرا أهل اليابسة بويلاته اذا هم شمخوا بأنوف سفنهم وقلوعهم أكثر مما يجب . وضوء المنارة يكتسح الظلمة عن البحر ليكشف ما عليه من السفن الضالة ويدلها على مرفأ السلامة . حتى اذا أوشك الديك أن يصيح معلنا بقدوم الفجر ، صمت الديك وأغرقت الطبيعة فيما كانت فيه ، واذا هى تحيا بنقر أمثل بالطبيعة وأليق بزمجرة البحر . دقات تلو دقّات على دف ليس كمثله فى الدفوف : رقّ من خشب صلب وحديد مثبت فى اطار من حجارة ، فكان لها دوىّ رهيب . ذلك أن الفرس كانوا قد بلغوا الاسكندرية بخيلهم ورجلهم ، ونصبوا

دباباتهم ومجانيقهم حول الأسوار ، وأخذوا يضربون باب الشمس بالجلامد ، وينيرون الظلام بنيرانهم الأغريقية لينبهوا الحراس فيفتحوا لهم. ولكن الحراس كانوا غلاظ الأكباد فلم يجيبوا سؤلهم ، ولم يردوا عليهم الا بنيرات من حجارة وحديد تخبرهم أن للابواب طلاسم لاتفتح الا عليها .

لم يكن لورقة بعد ماسمع الا أن يوقظ الأمير ليخبره بقدوم الفرس . وكان جماعة من كبار ضباط الحامية قد وردوا إلى القصر ليعلنوا الأمير بوقوع الحصار الذى كان منتظراً لعل لدى الامير أوامر جديدة فى هذا . فما إن ارتدى حتى نزل إليهم . وكان أهل القصر قد تنبّهوا على دوىّ القذائف فهبوّا من مراقدهم مذعورين إلا الذين اعتادوا الحصار من قبل فلم يأبهوا لما وقع ، لانهم كانوا يعلمون أن الأسوار لم تبن لتتهدّم بل لتردّ العوادى وأن هذه الأسوار لم تقتحم فيما مضى حتى تقتحم اليوم ،[١] وان الاسكندرية ذات مرفأ عظيم على البحر يصل بينها و بين الدنيا برمتها فلا خوف عليها من المجاعة . نعم ان هرقل استنزف ذخيرتها من القمح والغلال ، ومن جنود الروم الأبطال ولكن كان فيها من هذه وتلك ما يقيمها على العز أعواماً لو أحسن الدفاع عنها[٢]. كل ما كانوا يخشونه أن ينفد الماء العذب الذى فى

---

(١) ارتد انطيوخوس ملك الشام عنها خائباً فى سنة ١٤ ق . م . ولم يفتحها الامبراطور دوقليطيان الرومانى فى سنة ٢٩٦ بعد الميلاد إلا بعد حصار دام ثمانية أشهر . ولم يدخلها نيقتاس سنة ٦١٠ إلا برضا أهلها وارتد عنها شيطان الشياطين بوبوسوس بخيبة قوية بعد ذلك بأشهر، وهى تستعصى الآن على الفرس (كما استعصت عليهم سنة ٥٠٠) فلا تفتح لهم إلا لما يعرو فى هذه الرواية ، كما أنها لم تفتح لعمرو إلا بحدث شبيه . (٢) بطلر

الصهاريج ، ولكنهم كانوا فى الشتاء ، وفى استطاعة كل بيت أن يجمع من فضل الله حاجة حياته بلا كبير عناء ويدخرها فى الصهاريج لأيام الصيف اذا منع الفرس عنهم ماء الخليج . ولذلك لم يضطرب أهل الاسكندرية إلا بمقدار ما شعروا من أنهم أصبحوا حبيسين وراء أسوارها المنيعة ، منقطعين عن اخوانهم فى الدلتا والصعيد انقطاعا تاما ، وان لم يكن يفيدهم اتصالهم بهم شيئاً كثيراً لوقوع تلك الجهات فى يد الفرس من قبل

أما نيقتاس فكان على غير حالهم . نعم انه لم يكن يخشى حصار الفرس لاطمئنانه الى أسوارها وكفاءة المرابطين عليها وقدرة مجانيقها ولكنه كان يخشى خيانة اليعاقبة واليهود . فهؤلاء فى اقتدارهم مهما ضعفوا أن يشغلوا حماة الأسوار عن حمايتها بما يجب لها من التوفر . وكانت مؤامرة الأمس سببا فى ايقاظ نفسه الى التعجيل بالعمل على وقاية المدينة من هذه الثورات الداخلية . وتذكر ما نصح به ورقة من ضرورة مضاعفة الجند فى حيّ رقودة واليهود فقال للقوّاد : انى أعلم أن ما تحت يدكم من الجند قليلون، ولكنكم لا تجهلون أن اليعاقبة كالبراغيث ان لم يؤلم البدنَ قرصُها كبير الايلام فهو يشغله عن الانصراف الى غير الحكة . واليهود شر من هؤلاء ، فهم كالبق تكفى بقة واحدة لتشغل البدن عن كل شيء . فاقتطعوا إذن من رجالكم من تستطيعون ليكونوا فى مخفرى رقودة ومعسكر قيصر تحت إمرة ضبّاط من الشباب يعملون بأمر ضابطى المخفرين . قالوا : كل هذا حق وإنا نازلون عليه من فورنا ، ولكننا نرى أن تدعو إليك بطريق اليعاقبة

وحبر اليهود تعلنهما بجزاء من يثور ، وتطلب إليهما تحـذير أتباعها من العبث . قال : هذا ما كنت عازما عليه ، ولـكني سأكتفي بأن أرسل إليهما رسولا يحسن القول .

ثم التفت إلى ورقة وكان واقفا وراءه فى المجلس فقال له : خذ جوادا وانصرف به إلى بطريق كنيسة الأنجيلون ، وإلى الحبر فى الـكنيس ، وأبلغ إلى كل منهما ما سمعت ولا حاجة الى توصيتك بما يقال . ثم انصرف الى مخدعك فنم . لقد تعبت طول يوم أمسك وسهرت طول ليلك وها نحن أولاء نكلفك عبثا . قال ورقة : ان سعيي فى خدمة مولاى يفعمنى قوة ، وتكليفه إياى بمهمّة للدولة مكرمة منه ومفخرة لى تزهيني وتنشطني . قال له الجمع : أحسنت الجواب يافتى ! بورك فيك ! وكان نيقتاس ينظر اليه وهو يسمع إعجاب قادة الجيش بحارسه مزدهيا ممتلئ القلب حبّا له ، كأنه ابنه لا أنه عربيّ لا يجمعه به من صلات الدنيا إلا حبّه للمياء ابنة هرميون الرومية التى عزم أن يزوّجه إياها فى عشية يومه

الفصل الثانى والأربعون

غرام مفاجىء

ذهب ورقة إلى كنيس اليهود فى حيّهم شرقا فيما وراء كنيسة المار مرقص وأنهى إلى الحبر رسالة المقوقس فتلقّاها الحبر باستياء عظيم . ولكنه كان فى الواقع استياء متكلفا . فقد كان اليهود يبيّتون الشر للروم فعلا واجتمع أحبارهم بمن جاءوا من بلاد القدس للعمل على الاسراع فى القضاء على حكمهم فى مصر . ولكنّ الحبر لم يكن له إلا أن يتظاهر بأن سوء الظن باليهود فى غير محله بعد ما ثبت للأمير ولاؤهم . قال ورقة : إن الأمير يعدّ السيّد الحبر الكبير مسئولا بالذات عن كل حركة من شأنها تعطيل الجند عن مدافعة المحاصرين ، ولا يريد أن يتّهمه بأنه اجتمع باسحاق بن مرداس والحبر اليمنى ولا أنه هو الذى دبر لهما الاجتماع ببعض قساوسة اليعاقبة فى سرب قصر ليونوتس المتهدم . فلما سمع الحبر هذه التهمة اضطرب وهلع وأخذ يقسم أغلظ الأقسام على أنه لم يرهما ولم يجتمع بهما ، وخانه حجاه فجعل كل انكاره منصرفا الى أنه لم يشترك فى شيء . ونسى أنه انما كان يقر بأنهما وجدا و بأن كان هناك اشتراك فى مؤامرة . فنهض ورقة يقول : لقد بلّغت رسالة الامير وهو لا يرجو الا أن تعوها . ثم خرج بين التحية

والاجلال من الحبر ورفقائه ، وامتطى جواده الى كنيسة الانجيليون للقاء اندرونيكوس بطريق اليعاقبة .

هناك تلقاه قسيس مهيب الطلعة برتبة مطران عرف أنه وكيل البطريق. فلما لقيه أحس ورقة كأنما قد رآه فى سرب القصر مع المتآمرين وتنبه إلى ذلك لما رأى الرجل الذى كان معه . فلما واجهه قال إنه آت برسالة من عند المقوقس يبلغها إلى البطريق نفسه ، ولذلك يرجو منه أن يستأذن له فى الدخول عليه . فاعتذر الوكيل بعدم استطاعته ذلك لأن البطريق مريض لا يقوى على مقابلة أحد وأنه إذا تفضل فأنهى اليه رسالة الامير فهو ضمين له بتنفيذ مشيئته فيها . وكان الرجل يتكلم وفى صوته رعدة لم تخف على ورقة فقال : لمن أوجه القول من رؤساء هذه الكنيسة الموقرة ؟ قال مخاطبه : لوكيلها تيوناس أيها الضابط الشريف قال: ومن هذا الذى يشهد معك الحديث ويسمع معك رسالة الامير ؟ وكان داعيه الى هذا السؤال أنه اشتبه فى الرجل الثانى أيضا فقد أحس أنه بطرس البحرينى بعينه إلا أنه حلق لحيته وشاربه وحواجبه كذلك ، وأخنى ظهره ولبس لباس الكنيسة ، ولكنه لم يشأ أن يفاجئه وانتظر جواب الوكيل . قال: هذا كاتبى . قال : منذ متى ؟ قال : منذ . . . جاءنا من كنيسة منوف قال ورقة : عرفت مخاطبى إذن . اسمعا . فاضطرب الرجلان وبدا الذعر على أعينهما ولكنهما تماسكا فانصرف ورقة يقول إن مولاى يحذركما من أن تعودا إلى مثل ما كنتما فيه بالامس مع إسحاق بن مرداس والحبر

اليمني في سرب قصر الحاكم ليونوتس وهو ينذركما وينذر البطريق وسائر رجال الكنيسة معكما أنه اذا قامت في هذا الحيّ اليعقوبي حركة أو شغب من شأنه أن يشغل الجند عن مدافعة الفرس فدمكم على رءوسكم... ثم نهض لينصرف. وقد حاول الرجلان أن يردّا تهمة التآمر التي القاها ورقة عليهما . وانبرى بطرس على عادته من الرئاط يفند التهمة ويستعدى الرب على الظالم واستقام عوده منه على غير وعى فكان صوته وعمله أدل عليه مما بقى من صورته ولكن ورقة لم يلتفت اليهما وخرج ولم يردّ بكلمه حينما كانا يسايرانه الى الباب وركب جواده وانصرف

عجب بطرس ووكيل الكنيسة كيف عرف أنهما كانا في ذلك السرب بالأمس وثبت لبطرس ماسمعه من أن ضابط المخفر في رقوده كان يبحث عنه فلم يصدقه ولم يصدقه المطران. ولذلك عادا إلى الغرفة صامتين من فزعهما. فلما استقرّا عادا الى التساؤل والرجم بالغيب وهما يكادان يحسّان شفرة السيف فوق رقبتهما . وأخذ كل منهما يفكر في طريقة للهرب من الاسكندريّة على الفور واتفقا على ذلك . ولكن الابواب كانت في ذلك الوقت مقفلة لايدخل أحد منها ولا يخرج بسبب الحصار الا ما كان على البحر فقد كان هناك اثنان : أحدهما باب ميناء لوكياس ، ميناء قصر الإمارة التي لايدخلها الا سفن الامير أو الامبراطور وتحميها الشلايين الحربية الخاصة، وباب الخليج عند اتصاله بالبحر في الميناء الغربية . كان هذا الباب مباحا للجمهور والصيادين ، غير أنه كان كسائر أبواب المدينة قد أقفل، وان ظل فحصون

بماس الحرب والحرّاقات التى كانت الميناء الغربية مخصصة لها (١) ولا بدّ أن يلقيا مشقة فى الخروج منه . ولكنهما استهانا بهذه المشقة وقرّرا الخروج على الفور قبل أن يجىء ضابط المخفر برجاله ليقبض عليهما . بيد أن هذين الرجلين كانا لا يملكان أن يطيلا مكثهما خارج الاسكندرية . وإذا سهل خروج الانسان من باب البحر فلم يكن من السهل العودة منه إلا بجواز ، أو أن يكون الطارق عالماً بكلمة السر التى يتقاضاها الحراس من راغبى الدخول وهى تتغيرّ كل يوم ، ومن أين لهما أن يعرفاها يومئذ ؟ على أنه لم يكن هذا بالمهم فى ذلك اليوم ، ولذلك عمدا إلى تنفيذ أهم الجانبين على أن ينظرا فى الجانب الآخر عند سنوح الحاجة اليه . فاستأذن الوكيل من البطريق فى الخروج من الاسكندرية والاستقرار بدير الهانطون حتى حين. وأبدى له ما كشف من أمره فاذن له وأوصاه أن يعدّ موكبا عظيم الشأن من أساقفة الدير وقساوسته ورهبانه ومعهم أندر نسخ الانجيل والتراتيل وأغلى الصلبان للقاء السلار شاهين الفارسى فى معسكره والاحتفاء به ، وتقديم ولاء اليعقوبية كلها اليه إذ هو يمثل ملك الملوك كسرى أبرويز حامى اليعقوبية. ففرح المطران الجليل لهذه المهمة العالية وخرج من فوره تحدوه الرغبتان . وأما بطرس فلم يكن فى حاجة إلى استئذان أحد ، لأنه لم يكن إلا صديقا كنسيا لا أكثر ولا أقل ولذلك عمد إلى مرافقة الوكيل حيث أراد . وهو فى تلك المدة متعجب كيف عرفه ورقة حتى بعد أن أزال كل شعر

---

(١) بطلر

وجهه وعوج قامته . ولكنه سرّ فى النهاية إذ يخرج من بلد يلقى فيها شيطانا أشد منه مكرا وأنفذ حيلا .

خرج الرجلان من باب البحر وذهبا من فورهما إلى دير الهانطون فبلغاه بعد ثلاث ساعات قضياها غيظا من حبوط المؤامرة وكشف رسول القصر ما كان لكل منهما فيها من اليد الطويلة . ولكنهما حمدا الرب على أنهما أصبحا بعيدين عن يد الامير التى كانت لولا حصار الفرس أطول من كلّ يد

على أن ورقة لم يكن فى نيته أن يستحث الامير على الرجلين . كان يعلم أن التهمة لا تثبت عليهما فى شىء وأن لن يكون من ورائها إلا اضطراب الحال فى رقودة ، وادعاء اليعاقبة أنه بهتان مما اعتاده الروم وظلم يريدون توقيعه عليهم جزاء ما ظهر لكسرى فى بلاد القدس من أن دينهم الرومى كفر فى كفر ، وأن دين اليعاقبة هو الدين الصحيح . وإذ مرّ ورقة على صديقه حارس المخفر ليبلغه ما كان من انصراف كل ما كان فى قلب الامير من ناحية المؤامرة — ذكر له ما وقف عليه كذلك وما يرى ، فأقرّه ضابط المخفر على رأيه وعده كل السداد . وكذلك ارتآه الأمير عند ما لقيه فى العشية وشكر لورقة حسن رأيه

كان التعب قد أخذ من ورقة كل مأخذ ، ولكنه كان إذ ترك المخفر قد وجد نفسه فى طريق لمياء ، بل الواقع أنه لوى عنان جواده نحو بيت قوزمان باختياره . فما إن عطف داخلا الطريق المؤدى إليه حتى شاهد لمياء فى

الشرفة مطلة على البستان متجهة البصر نحو البحر تستنشق نسيم البحر والقصر معا وتفتش فيه عن أنفاس ورقة لتنعشها حتى تلقاه فى الضحى . فقد علمت منه أن الصباح له والنهار لولا أنه مضطر إلى الرقاد فى بعض ساعاته ليسترد عافيته للسهر على الأمير . ولكنها سمعت وقع سنابك الجواد من الخلف فالتفتت فاذا هى تراه فشهقت شهقة الفرح بمرآه وبقيت فى مكانها لا تدرى ماذا تفعل . كانت تلقاه قبل يومها على أنه صديق يحبه كل انسان ، سوى أن حبها إياه غرام تخفيه ، أما اليوم وقد عرفت ما عرفت من خالتها وحديثها مع أمها بالأمس فى شأنه ـ ووقفت على خبيئة نفسه فى الصحراء وما قال لها فى الطريق من معان إلى مصر من حديث هواه النقى الذى كتمه فى قلبه وعمل على اخماده فى قلب لمياء ، وسمعت جدها يقول أنه يجب عليهم أن يسارعوا بتزويجه من لمياء اغتناماً لنعمة الله السانحة قبل أن يعرفه سادة الاسكندرية وأغنياؤها فيتألفوه وتتهافت بناتهم عليه ويزوجوه منهم وعرفت أن خالتها وجدها ذهبا إلى القصر ليستقويا بجاه الأمير على تردد أمها أو بالأحري ليقويها على تزويجها من ورقة ويعطيها عذراً تتقدم به لأبيها يوم تلقاه لتزويجها ابنته من فتى غير قرشى ولا ثقفى ولا من أعيان الجزيرة وإن كان أحق فى نظرهم ونظرها ونظر الحارث نفسه أن يكون على رأس اولئك السادة فى السيادة وأجدر أن تفخر به العرب فى عكاظ — فقد أصبح ذا معنى آخر لا يقوى حياؤها على مواجهته . هذا ما كانت تعرفه وتستنتج منه ، وكان سبباً فى اضطراب قلبها لدى رؤية ورقة اضطرابا

من نوع جديد . أما ما جرى بعد ذلك بعد ما عادت هيلانه وقوزمان من القصر لينهيا إلى هرميون رسالة الأمير وحكمه بتزويج ورقة ولمياء اليوم فلم تعرف من تفصيله شيئا لانها كانت فى فراشها عند ما جاءوا ، وان كانت القهرمانة قد أسرت إليها فى الصباح شيئاً من هذا فى صورة مبهمة لان أهلها كانوا فى تلك الساعة نياما اثر ما سهروا . نعم باتت ليلتها قلقة تفكر فى ورقه وفيما سمعت وتؤمل الآمال وتيقظت مبكرة . بيد أنها ذهبت إلى الشرفة تنظر صوب البحر لتكون مع ورقة حتى يفيق ولتستقبله حين يجيء فى الضحى . ولم تكن تدرى ان ورقة بات ليله سهران يفكر فيها ثم جرى ما جرى من اجتماع المجلس وأنه أتم مهمتين كبيرتين قبل أن تلتمس هى أرض الشرفة لانه شرع فيهما بعد الفجر بقليل ، فأحر به أن يكون فى بيت قوزمان ولمّا يمض على شروق الشمس غير قليل

وكان أصعب شيء على ورقة أن يلتقى لمياء وتقع عينه على عينها بعد ما جرى ليلة أمس فى غرفة الامير ، لأمرين : أولهما ما أعلنت هيلانه من حبه للمياء ، وكان يرجو أن يظلّ دفينا وثانيهما التماسه من مولاه أن يعفيه من الزواج بها لنفس السبب الذى يمنع هرميون على فرط حبها له وثقتها به ، وهو واجب الحصول على رضا الحارث . على أن ورقة كان يشعر أن رضا الحارث لا يكفى فى جعل هذا الزواج مبارك القسمات . فلن يعجو رضا الحارث أنه ليس من قريش ولا من ثقيف ولا من كرام العرب . كل ما يترتب على رضا الحارث أن يتم الزواج . ومعنى رضا الحارث رضاه بالمعرّة

بين العرب فى مكة و بلاد العرب لأنه يزوّج ابنته من فتى كانت أمه سبية وجارية ، وكان أبوه نجارا يرتزق من خدمة الكرام . وهو – أى ورقة — لا يطاوعه قلبه أن يحمل أستاذه الذى يحبه و يرعاه كل هذا من أجله .
نعم ان رسول الله وهو ابن عبد المطلب عظيم العرب وعنوان شرفها قد زوّج زينب ابنة عمته من زيد بن حارثة: وهو ـ و إن تبناه — سبيٌّ ومشترى ، ولكن العرب يعدّون رسول الله قد خرج عليهم فى دينهم ، فاذا هو خرج عليهم فيما تعارفوا عليه فى المصاهرات فالأمر أهون مائة مرة ، بل لا يستحق أن يذكر . أما الحارث فلم يخرج عليهم فى شىء . إنه لا يزال مستمسكا بمكيّته وطائفيّته على كرهه الوثنية ، وعلى أنه حنيفىّ وعلى أنه يعرف صدق الرسول و يقره ، فهو إذن ممن يستمسكون بعرف قريش وثقيف . وحقا أن ورقة مسلم ، والاسلام يرفع الحدود و يسوى بين الناس ويبدأ بهم حياة جديدة يستبقون فيها إلى ذروة الشرف بالتقوى والجهاد فى سبيل الله ولكن الحارث لم يشأ أن يسلم بهذا و إن كان يقول به . ثم كان ورقة يقول فى بعض سوانحه : أرانى مبالغا كثيرا فى توسيع مسافة الخلف بينى و بين الحارث . إن كانت أمى سبية من بنى لحيان فما من ذنبها أن سبيت وما من ذنب أهلها أنهم لم يعرفوا أين ذهب بها . بيد انها ما همت بالخنى ، بل فرت منه إلى بيت النبوة وضرب بها المثل فى العفة ، وما أنا بنتاج الخنى ، بل نتاج الطهر على يد الحنيفى الأعلى – من قبل رسول الله — فلماذا لا أفخر بهذا حين لا يستحيي أمثال عمرو بن العاص من انه ابن إحدى

تلك الجوارى البغيات اللائى كن يساعين بالفحشاء فى مكة . ولا يزال أعيان المشركين يستولدونهن وهم لا يرون فى ذلك معرة ، وهى المعرة العليا. وأبى ! من هو ؟ نجار ، لولاه لبقى بيت الله عاريا . . . عربى أزكى منهم محتدا لانه من الحيرة و بلاد الرخاء . وما هم ؟ رعاة أغنام ، وان علوا فتجار فى مكة يأكلون مما يبتزون من الجاهل بالأسعار ، و يرتزقون ارتزاق الكهنة من أغبياء الارض إذ يبيعونهم البزرة مما يأتى به الاغبياء أنفسهم من الغلال قربانا للاصنام، بالشىء الكثير ، قولا بأن فيها سر البركة والحياة السرمدية ، وغير ذلك من الاباطيل والكلام الفارغ الذى لا يزال مقدسا فى هذه الارض المسكينة . أبى كان عالما بصناعته وما يقتضى لها من علم الاولين والآخرين وكانوا جهلاء بكل شىء . أبى كان يعرف الجمال و يحبه وكان يتصوره و يصوغه ، وهم لا يتصورونه ولا يشتهونه ولا يخطر لهم على بال . أبى كان ينفع الناس بالحق وما نفعوا الناس فى شىء . هم يعيشون فى مكة ليتصيّدوا الحجاج كما يعيش الذئاب فى مراتع الاغنام ليأخذوها من آذانها . ولو خرجوا إلى الدنيا لماتوا جوعاً . ولو كان الحارث غير عالم أوغير طبيب لكان فى الاكثر مثل أبى جهل أو ابن أبى معيط فى السفاهة . وأنا لست عالما مثله ولا طبيبا ولكنى فى طريقه ، ولى من العلم بالعقاقير ما لا يبذنى فيه إلا قليل . نعم أخذت ذلك عنه وعن نعيم ، ولكنه أخذها هو أيضا عمن سبقه فى الدنيا. كما أنى فوق هذا رجل يغالى الامراء بى ، و يحكمون بأنى موضع الثقة العالية الجدير بالسفارة بين المواهل . فماذا يخسر الحارث بمصاهرتى ؟ لا شىء

إذن فما يكون على صواب فى أن يأبى علىّ لمياء التى غذيتها بروحى وغذتنى بروحها فكنت لها أبا وكانت لى أما . نحن أولى بأنفسنا لانتا ولدنا أنفسنا ، ولم يلد هو إلا بدنها . أيأبانى حين برضى لها بفتى غلف من بنى عبد الدار يعد نفسه ليرث أهله فى ابتزاز الاعراب من خدمة أحجار الكعبة ؟ لمياء لى ولو كره أبوها ما دام على كل ذلك الباطل

كانت هذه هواجس ورقة وهو ينعطف فى الزقاق الذي فيه بيت قوزمان. فما إن رأى لمياء فى الشرفة حتى فارقته كل تلك الهواجس . وخيل اليه أنه يرى أباها إلى جانبها . وأنه يقول له : ما فاتنى ما ذكرت يا ورقة . ولكننا نعيش فى دنيا لا بد لمن يريد أن يتعرف طريقه فى رقعتها المتدخلة الطرق المتوشجة المسالك من أن يسير برأى الناس وعرفهم وإلا أبوا عليه أن يسلك ويسير . أنت عندى كريم ومحبوب . ويجب عليك أن ترعى حرمتى فيما بقى لى فى الحياة من الايام وإلا أتلف العرب أيامى . ولولا أنى أعرف فيك النبل وأرجوه مارضيت أن تعاشرنى منذ جئت بك لأعلمك . لا تخنى يا ورقه . لا تخنّي ! ولا تختم أيامك معى بنكران لجميلى عليك

لم يطق ورقة أن يستمر فى الاستماع إلى صوت ضميره فأسقط من عينه دمعة ثم اتجه إلى الله بقلبه يقول : رباه ! أنت أعلم بسرى ونجواى . وأنت أبصر بالحق فاهدنى واعصمنى من الزلل ـ اهدنى الصراط المستقيم ، ولا تؤاخذنى بما هجست به نفسى. فانك أعلم بتواضعى ورضاي بما قسمت لى

ولكنه كان فى ذلك الوقت الذى يناجى فيه ربّه يرعى حق الفتاة التى كان واثقا أنها إنمـا نهضت مبكرة ووقفت فى الشرفة تتسلف قدومه . فتلقاها باشارة المودة والحب فى تحية القادم.فلم يكن لها بد من أن تتلقاه كذلك ، وان لم يفارقها ما كانت فيه من الحياء والاضطراب . ثم نزلت إلى الطابق الاول من البيت لتفتح له الباب وتدخله حين كان يترجّل . فلما فتحت لمياء باب البيت كان ورقة يفتح باب الحديقة فلمـا وقعت عليه عينها وقفت وقفة حائر لا تدرى أتستمرّ واقفة لتحدثه أم تذهب لتعلن أهلها بقدمه ؟ كان الرأى الثانى أقرب اليهـا ولذلك تركت الباب وعادت تنبه خالتها دون أن تنتظر لحظة ليحيّيها ورقة بالكلام كما حيّاها وحيته بالابتسام المفعم بكل معانى السعادة لمرآها وكل معانى ما كان فيه بالامس . على أنه وجد فيما فعلت لمياء مخرجا لهمن موقف كل ما كان يمكن أنيحدث فيه خطأ ، حتى الـكلمة العارضة ، حتى التحية . على أنه قد قال كل شىء وفعل كل شىء ولم يعد هناك حاجه إلى الكلام . ولان لمياء قد عرفت من نظرته وابتسامته اليوم كل خفى كما عرف من ابتسامتها ونظرتها كل شىء كذلك

وفيما هو يدخل جواده فى الحديقة وهو متجه إلى الدرج الرخامى فى جره الجوادمنلجامه—كانصاحبه أورست مارا بالزقاقفى طريقه إلىمتجره . وكانت هيلانة قد نهضت وجاءت إلى الشرفة ووقفت تحيي ورقة بابتسامة كمشرق الشمس ملئت محبة ونعمة وكلمات كنغم الموسيقى ابتعثه الفرح

والأمل . واشتغل ورقة بالحديث معها والتسليم عليهـا عن رؤية صاحبه واشتغل صاحبه عن تنبيهه إليه بما فتنه من جمال هيلانة وسحر ابتسامتها



وبنور السعادة التى كانت تلقيها على ورقة وعلى الحديقة كأنما هي شمس أخرى يطلع بهـا الصباح على أزهارها خاصة . على أنه لم يكن يستطيع أن يستمر فى استراقه هذه النظرات من هيلانة لأنها لمحته ورأت على وجهه معالم المسرّة لرؤيتها فطربت نفسها أن يكون لها من فضل الله مزيّة أن تسـعد قلوب الرجال بحسن طلعتها وزادها الطرب رواء وسحراً وحلاوة

نعم . فلفت اورست نظر صاحبه اليه بتحية جهر بهـا فلما لمحه ورقة ارتد مسرعاً للقائه حيث سمع صوته وسلم عليه ووقفا يتحادثان وألح أورست عليه أن يزوره اليوم ويتغدى معه كما وعد ولـكن ورقة كان فى حاجة إلى النوم فقال له : لم تغف عينى لحظة واحدة وحقك يااورست من قبل أن

ألقاك أمس ولا أدرى كيف أجيب هذا الرجاء ؟ ألا تعفينى ؟ قال : تعال فنم عندى . إنى أعزب ولن تضايق أحدا . فصمت ورقة ولم يرد إذ كان عليه وعلى أهل بيت قوزمان كلهم أن يكونوا فى القصر فى العشى . فقال أورست : أراك مشغولا . قال ورقة : أعفنى بحقك من هذا ، اليوم . سأجيء إليك فى الغد . ليس هذا اليوم ملكى . فرضى أورست بهذا الوعد وحيا ورقة تحية حارة بعثها فى نفسه مالقى فى قلبه من الحرارة لدى مرأى هيلانة مشرقة فى شرفة البيت فى جمال الانوثة الناضجة التى تعبث بفؤاد رجل فى مثل سن أورست منيفا على الاربعين ، ولهمثل بصره بدقائق الجمال وتفاصيله . وانصرف وهو على هذا الحال مشغول القلب بمن رأى بعد ما استرق لنفسه لمحة من صاحبة الشرفة يتغذى بها فى الطريق إلى متجره . ولكنها كانت إذ ذاك تنظر إلية مرتاحة إلى قسامته وجمال هندامه . فلما غاب أرادت أن تعرف من الرجل قبل أن تشتغل بالحديث مع ورقة فى شئونه على ألا يبدو منها كبير اهتمام بمن شغلها مرآه فى الحقيقة فقالت لورقة: من هذا الذى حرمنا بعض حرية لقائك بما لك عندنا من المحبة والحنو ؟ قال : شكراً لسيدتى على هذا اللقاء الاوفى . هذا صاحبى أورست الذى جاء بناقتى من أتريب بفضلك . قالت : التاجر الذى ذكره كوسموس . قال : نعم بل أكبر تجار الغلال فى الاسكندريه وأحد نوابها فى المجلس . وكانت هرميون قد جاءت هى أيضا وجاء قوزمان هو ولمياء فقالوا له : ألا تصعد؟ اربط جوادك حيث شئت واصعد . قال أريد أن أنام . هذا وقت نومى

قال قوزمان مبتسما : اصعد فنم فى فراشى . إنه دفىء الآن جداً . ثم ضحك وقال: اصعد. اصعد . إنى أريدك . انزلى فهاتيه بالمياء . فاختفت لمياء لتنزل وتأتى به . وخشى ورقة بعد ما اعتذر بأنه راغب فى النوم أن يقال له : لم جئت إن كنت تريد النوم ؟ فقال لهم ستقولون : فيم جئت إن كان هذا وقت رقادك ؟ ولكن الحقيقة أنى كنت موفدا إلى حبر اليهود برسالة من الامير وأخرى إلى أندرونيكوس، ولم أطق أن أعود حتى أراكم. قالوا : مرحباً

وكانت لمياء قد بلغت مكانه فأخذته من يده وصعدت به درج الحديقة ثم درج السلم فى فسحة (٢) البيت وهى تحادثه فى غير ما فى نفسها إلا أنها قالت : أرى هذه الملابس أليق بك من ذلك الثوب الأسود الذى كنت تلبسه فى الصحراء . قال ورقة مبتسما : كنت ألبسه حدادا على نفسى كما يفعل أهل هذى البلاد . أما الآن .... فأغضت لمياء طرفها مبتسمة فى خفر ودّ لو يلتهمه بالتهامها . وكان فى تلك الأثناء ينظر إليها بعين السعادة التى فى الدنيا كلها لولا لمحة كانت وراء تلك السعادة لم تخف عنها . ولكنّها كانت قد لقيت أهلها عند السلم فتركته لهم . هناك فتح الشيخ ذراعيه فتلقاه بينهما وقبّله، وهو يقول له بصوت الأب الشاكر

---

(٢) الفسحة عندنا نحن المصريين هى المكان الحادث بين الغرف على الجانبين أو حيث تكتنف به ، ولا أعرف لها كلمة فى العربية الصحيحة يمكن أن يعرف بها القارىء قصدى لكثرة التشكيك فيما اختار لها اللغويون من كلمات فقد اختاروا لها كلمة ردهة ، وبهو وغير ذلك ، والقواميس لا تفيد ما أرادوا . ولست فى مقام التجهيل هنا فأكون مع المشككين ؛ بل انى لاوثر أن أتهم بالجهل مع الابانة على أن أدعى العلم مع الاضرار بالناس

لله فضله عليه: مرحبا بزوج لمياء ! وكانت كلمة منتزعة من قلب مفعم بالحنوّ والرضا والاعزاز فانحنى ورقة مغرورق العين يقبّل يده حين كانت هيلانة وهرميون واقفتين والدموع فى عيونهما فرحاً به وسعادة بأنه أصبح لهم جميعاً . ثم سلمتا عليه فانحنى على يد هرميون يقبّلها فقبلته فى عارضه قبلة الأم. أما هيلانة فجالت فى المجلس مرحّبة ومتكلّمة بما جعل الموقف هيّنا . وأما لمياء فاختفت إذ ذاك لتخفى بعض عبرات لم تقو على كبحها ، وظلت بعيدة عنهم حتى حين

الفصل الثالث والأربعون

القدّيس الأنانيّ

ذهب أهل بيت قوزمان بلمياء إلى القصر ليلقوا الأمير طوعا لمشيئته، واستعدادا للنزول على إرادته ، وكانت هيلانة أشدّ الذاهبين فرحا بما هم فى صدده . أما هرميون فكانت على ما ترى من أن ورقة أليق الشباب بابنتها وأحبّهم إليها ، تشعر بأن سعادتها ينقصها شىء لتوصف بالسعادة التامة من غير مبالغة . كانت تذكر الحارث زوجها الطيّب المفعم القلب بالمحبّة لها والذى دلّ على صفاء معين نفسه بما ذكر فى صومعة الأسقف من عواطف برٍّ كان ينضح بها قلبه وما بدا منه من تمام الرعاية لهـا والعناية بها حيث تنقل ، وبما رضى أن ينزل عن أملاكه كلها فى الاسكندرية ومريوط إكراماً لها ومغالاة بها ، فتأسف فى نفسها لأنها ذاهبة باختيارها إلى قصر الأمير لتشهد بعينها وتقرّ بلسانها زواجا تعلم حق العلم أن الحارث لا يرتاح إليه تمام الارتياح ، وإن كان فى ذاته صوابا كل الصواب ، ومغنما لها ولابنتها كل مغنم ، لأن الحارث كان على فرط حبّه لورقة وثقته به وقوله لها إنه المثل الأكمل فى الرجولة والفضيلة — يتحسر على أنه لا يملك أن يزوّجه ابنته لانه ليس ثقفيا ولا قرشيا ولا من بيت من بيوت السياده فى العرب . نعم أن هذا السبب غير وجيه إذا ووجه بالحق من أمر ورقة الذى

لم يبالغ أبوها فيما وصفه به لنيقتاس من أنه قديس وفيما تعلم هى وهيلانة ونيقتاس ، بله لمياء وكل من اتصل به من أنه الفتى النقى الذى لا يستطيع القلب مهما كان غفلاً أوكان مريضا إلا أن يتلقاه بالترحاب والحنو والاعجاب والاجلال ، ولكن المسألة عرف ، والحارث يعيش من عربيته فى جوّ له كغيره من عرف الشعوب الاخرى خصائص وأعاجيب : كأن يزوجوا لمياء الزهرة الهيليفية الموطَّنة بجلف من أجلاف بنى عبدالدار ويأبوها على ورقة الكامل المهذب لكيلا يقال زوّج الحارث بن كلدة الثقفى ابنته من ابن النجار الذي كان يعيش على فضل أبناء عبد الدار وأمثالهم من بيوتات مكه . على أن هرميون لاترى من حقها أن تقول له : لكل قاعدة استثناء، وورقة ممن يجب أن يوضع لهم عرف خاص. فهى إذا جاءت اليوم الى قصر الامير لتزويج ابنتها فلن تكون فرحتها على شدتها كاملة خالصة .إن لزوجها عليها حقوقا حتى ولو كانت بعيدة عنه كل هذا البعد، مقطوعة عنه هذا الانقطاع. بل لو كانت مطلقة منه ما نقصته هذه الحقوق

بلغوا القصر فى المساء ونزلوا ببيت هيلانة ، وسألوا عن ورقة فقيل مع الامير وإن الامير مع يوحنا الرّحوم بطريق الروم الجليل ،وإن هناك اجتماعا حربيا عظيما للتذاكر فيما هم فيه من شئون الدّفاع عن الاسكندرية مع الاستمرار على معونة هرقل وإمداده بالغلال لاطعام الجيوش المدافعة عن القسطنطينية . فقد كان جل اعتماد هرقل ورجال الامبراطورية على ما يرد إليهم من مصر[1] ولذلك انتظر قوزمان حتى ينفضّ المجلس.

(١) بطلر وجيبون

انتهى المجلس إلى أنه لاخوف على الاسكندرية من ناحية الفرس فهى تقوى على الحصار ما شاء الله ، و إنما الخوف من ناحية أهلها أنفسهم والروم معهم إذا نفدت المئونة أو شعروا بقلّتها . لأن مافيها من الغلال إنما يكفى أهلها بضعة أشهر بشرط أن ينقطعوا عما كان عليهم إرساله كل شهر إلى القسطنطينية فاذا أراد الامبراطور أن يستمروا فى الدفاع عنهـا بعد ذلك فيجب أن يبحث فى لمبارديا(٢) و بلاد داسيا و ولاخيا(٣) عن مورد من القمح يرسل تباعا إلى الاسكندرية رداً لما أخذت القسطنطينية منها . وانه يجب عليهم أن يبادروا فيرسلوا إلى الامبراطور رسالة بالواقع فان أبى إلا أن يستنزف غلال مصر على العادة فقد أعذروا

من الذى يرسلونه فى هذه المهمّـة الخطيرة ؟ أورست أكبر تجّار الغلال فى الاسكندرية ، وأعرف الناس باحصـائيات المخزون والمدخر ، وعضو مجلس المدينة الذى يستطيع أن يتكلم باسمها كما تكلّم من قبل ، على أن يرافقه الحارس الأول للأمير : ورقة . وعنرم من هنا الجم أن نيقتاس لم يكن حسن الظن باورست . وقد سبق له أن اتهمـه بالتشيع للامبراطور فوقاس ولم ينج من الاضطهاد إلا بشفاعة يوحنا الرحوم نفسه فقرنوا به ورقة لأنهم يعلمون أنه موضع ثقته ، ولن يقيم اعتراضا على سفره كما انهم قدّروا أن الامبراطور سيسأل عن دخائل الامور فى عاصمة امبراطوريته الثانية ولا بد أن يتذاكر فى شئونهـا مع الرسول . و إذ كان

---

(٢) شمالى ايطاليا (٣) رومانيا الآن

ورقة مطلعاً على كل شيء في الاسكندرية لملاقته الدائمة بالامير وحضوره مجلس العسكر معه واطلاعه على أسرار الدولة ولوقوفه على ما كان يدبّره اليعاقبة واليهود من المؤامرات ، ولأنه حسن المدخل لا يتهيب أن يلقى البراطرة بماعوّدته الصحراء كما يتهيّب الرّوميّ الذي نشأ وعاش بين الواجبات والتزامات أهل القصور ، فهو أفضل من يرسل في هذه المهمة . ورأوا أنه يحسن أن يرسل في طلب أورست الليلة ليستعد للسفر ، وليتعرّف إلى رفيقه قال ورقة : إنه من أصدقائي وأشد الناس ولاءً للأمير وللامبراطور . قال البطريق وقد فرح لهذه الشهادة المفاجئة التي جاءت مؤيدة لحسن ظنه في اورست : نعمت الشهادة ياورقة . إن الله يرسل برهان الحق المجهول على ألسنة من ليس لهم مصلحة في ترويجه . هذا أيها الأمير نيقتاس الذي وشوا لك في حقه فأبعدته عنك من غير أن تتبين . قال نيقتاس راداً لهذه الشهادة : سيذهب له ورقة برضاى ويستدعيه إليّ . إنّ خطأ ورقة ـ إن أخطأ ـ أصدق عندي من برهان سواه ! وكان ورقة يعرف سبب هذا الرد المؤلم للبطريق في مجلس الجيش فقد كان الأمير يرى أنه يعطى لنفسه من الحقوق ما ليس له ، ويتدخّل في شئون الحاكم في حين أن مهمّته في الدنيا الصلاة والصوم وما يلحق بهما . فكان هذا الموقف معبّراً عما في نفس الأمير من استرابة البطريق ومقته . فسارع ورقة إلى تغيير الجو بقوله : فداء الامير دمي وحياتي .

على أن الامير كان يشتهي ألا يفكر المجلس في حارسه الخاص ،

ولـكنه لم يكن له بعد هذا الايضاح إلا أن يوافق . غير أنه قبل أن يقول لا بأس بذهاب ورقة مع أورست — أخذ ينظر إليه مدةً طويلة ذكر فيها أن سيُحرم رؤيتـه وقد أصبح يحبّه كما لو كان ولده ، وتذكر أنه وعد أن يلتقى اليوم لمياء ليعقد له عليها ، وفى السفر تأجيل لذلك . وهو ما كان يشتهى أن يذاكر فيه ورقة على الفور ، ولـكنه لم يستطع فاكتفى بحديث العين . وكان ورقة فى تلك الأثناء يفكر فى بعده عن لميـاء ووقع هذا النبأ عليها ، ولـكنه وجده أخف من أن تعلم أنه على شدة هيامه بها ، ورغبته فى أن تكون له — كان سيبدى للأمير إذا اجتمعا أنه يرى إرجاء العقد حتى تستأذن هرميون زوجها ، ووجد فى غيبته فى القسطنطينية فرصة لذهاب الرسول إلى الحارث وعودته ، أو ما كان سيبديه له من أن الحارث إذا قبل فمعنى قبوله أنه سيتحمَّل تعيير الناس من أجله ، وهو ما لا يجمل به قبوله ، ثم طار به الفكر فى أجواز الأرض فانتقل إلى بلاد العرب والنضر وقريش وغاب وراء أجواء وادى النيل ثم عاد إلى الاسكندرية فرأى الأمير يبتسم فى مواجهته كأنما يقول له ما رأيك فى هذا الذى لم يكن فى الحسبان ؟ فقال له : نعم أذهب يامولاى . لا أجد خيرا من ذلك مخرجا .

لم يكن ورقة يريد بقوله « مخرجا » ما فهم القوّاد منـه ، فقد زعموا أنه يريد المخرج مما كانوا فيه ولذلك أثنوا عليه ، وانبرى بعضهم يهونون عليه المشقة فذكروا القسطنطينية وجمالها ، والامبراطور وأبَّهته ، وغبطوه على رؤية الدنيا وجلال الملك . وإذ استقرَّ الأمر على ذلك نهض الأمير

فنهضوا ، وودعوا ورقة بأطيب الدعاء .

خلا المكان إلا من الأمير والبطريق وورقة ، وإذا بأحد الخصيان يتقدم فيبلغ ورقة أن العالم قوزمان وأولاده ينتظرون دعوة الأمير للقائهم كما أمر . فالتفت نيقتاس يسأل ورقة : فيم جاء الخصي ؟ فقال له ورقة مبتسما وموعزاً برأيه : الاستاذ قوزمان لم يعلم انى مسافر إلى القسطنطينية وانه يحسن قبل أن يمضى شيء أن يرسل إلى الحارث بطلب اذنه فى زواج لمياء ، فهو يعلن مولاى بقدومه طوعا لأمره ليلة أمس . قال نيقتاس : ماذا؟ أأنت تريد إرجاء العقد على ابنة الحارث حتى تعود ؟ قال : قد يرى مولاى ذلك . قال : بل لا أراه ، وسيتم العقد اليوم على أن تتزوّج بعد عودتك . سيكون ذلك أدعى إلى تعجيلك بالعودة . ولقد دعوت السيد البطريق ليبارك زواجك . ثم التفت نيقتاس إلى يوحنا ليكلمه فى هذا الصدد . فلم يكن لورقة بعد هذا التضييق إلا أن ينظر فى مخرج آخر ، فألهمه ، ولذلك ردّ يقول : فضل من مولاى ونعمته ، ولكننا نحن العرب لا نتزوّج كما يتزوج الروم يا مولاى . قال البطريق كيف ذلك يابنىّ . قال إنى كما يعلم مولاى مسلم أدين بدين محمد بن عبد الله . قال البطريق وقد شغله اسم الرسول عليه السلام عما هم فى صدده : أجل سمعت بقيام رجل فى بنى ابراهيم يدعو إلى إله إسرائيل . أهو هذا الذى أنت على دينه ؟ قال ورقة : نعم يامولاى البطريق ، إنه يدعو العالمين كافة إلى توحيد الله لا ينكر أحداً من أنبيائه ، ولكنه رسول الله إلى الخلق أجمعين ليوحّدوا

الله و يسقطوا الشرك . قال البطريق : أهو يؤمن بالمسيح ؟ قال : أجل على أنه عليه السلام نفخة من روح الله ، وانه عبده ورسوله بعثه رحمة للعالمين . أما أنه ابن الله أو أنه إلــه فلا . فغاظه هذا الكلام ، وسأل ورقة: وأنت تدين بهذا ؟ قال : وأدعو إليه يا سيّدى . قال : أنت كافر يا بنى بديننا فكيف نزوجك منا ! قال نيقتاس : ليست العروس منا أيها السيد البطريق، إن أباها مثله عربىّ : الحارث بن كلدة الطبيب الذى تعرف، قال: حقا ، فما دخل الكنيسة إذن فى هذا الزواج ؟ لا هو من ديننا ولا هما من قومنا . خير له أن يتزوج على ملة أهله ! قال ورقة : هذا ما أردت يا مولاى . ولكن مولاى الأمير أراد أن يخصنى بفضله فى أن أظفر بدعاء مولاى البطريق



وبركته . قال : أعفنى يا بنىّ . إنى لا أدرى كيف أدعو لكافر بربوبية المسيح أو أبارك له زواجا : قال ادع لى كما تدعو لجوادك . قال ولا هـذا يا بنىّ . ثم نهض على نية الخروج وورقة يقول : شكراً لمولاى البطريق إن الانجيل يأمر أهله أن يحبوا أعداءهم ، وكنت أولى بمحبتك لأنى لست عدوًّا لك . قال : أنا أحبك حباً عظيما جدا ، ولكن الحب شيء والدعاء لك شيء آخر . ثم مضى يحاول ستر غضبه المزدوج من نيقتـاس لإيوائه كافراً وما كان من رغبته فى أن يعقد له على حفيدة قوزمان . وخرج بعد أن ودع وداعا صوريا جافا

عاد الأمير إلى مقرّه يقول لورقة : تعال خبّرنى ما سرّ هذه المداورة . أما أنك أغضبت الرجل فلا يهمنى . أنت تعرف انى أكرهه وأكره كلّ البطارقة والقساوسة الذين فى العالم ، وكذلك كل من يجعل له بالدين سلطانا على الناس بالمنح والمنع والحرمان . أريد ديناً لا أكليروس فيه ولا دخل لكاهن فى أمور أهله . قال ورقة : هذا دين الاسلام يامولاى ، دين يقول إن الله واحد . يسوّى بين الناس ، ويجعل الملك فى الأصلح المختار من أعيان أهله ، ويصل بين الناس وبين الله مباشرة بلا واسطة من قسّيس أو كاهن أو بطريق ، فليس له من هؤلاء أحد . ثم هو يحرّم الرهبنة ، ويلغي الإكليروس . قال : هذا نعمة يابنىّ . إنه فيما أرى يزيل كل ما نشكو منه فى هذه الأرض من البغى والعدوان باسم الدين . إن العالم فى حروب رهيبة بسبب اختلاف الدين ، والاكليروس هم الذين يدفعون الملوك إليها ،

والملوك يدفعون الشعوب المسكينة . فاذا خلصت الدنيا من سلطان المتزعمين بالدين حقنت دماء الشعوب . اسمع ياورقة : سينتشر هذا الدين الذى ذكرت لى أؤكد لك ، وسيكتسح كل ما سبقه من العقائد ، لأنى أراه بغية كل قلب . و إذا هيئ لك أن تجتمع بالامبراطور (٤) نخبّره عنه كما خبّرتنى فسيسرّ له . إنه كما رويت لك مثلى : له مذهب خاص ؛ فهو يكره هذه الفروق بين اليعاقبة والملكانيين ، ويكره الإكليروس ، ولو تهيأت له الفرصة لنسخهما وأتى بمذهب جديد (٥) . ليته يأخذ بمذهب ابن عبدالله ولكنك لم تغدنى عن سرّ رغبتك أمس فى إعفائى إياك من الزواج بلمياء ومن فرحك بالرحيل إلى القسطنطينية ، وما فعلت من إغضاب الرجل عليك . إذا أقنعتنى ساعدتك ، و إلا فلا بدّ لى من إتمام ما استحضرت قوزمان و بناته من أجله . قال ورقة : إن الحارث بن كلدة أستاذى يحبنى حباً يقلّ فى وصفه حبّ الوالد ولده ، وحبي اياه حب الابن العارف بالجميل الذى يفتديه من أهون سوء بروحه . ولو ملك الحارث أن يزوّجنى من لمياء ما تردد بل لسعى إليه ، ولكنه من سراة العرب ويخشى المعرة أن يقال زوّج الحارث بن كلدة ابنته من فتى لا نسب له . فأبى كان تجاراً من أهل هذه البلاد كما علمت يا مولاى ، وأمى كانت سبية . و إن وفائى لأستاذى

---

(٤) المعروف عن هرقل أنه لما وصلته دعوه النبي عليه السلام إلى الاسلام طابت نفسه له ورد الرسول مكرما ولكنه ما كان يستطيع أن يبدى جنوحه إليه لئلا يطيح به اكليروس دولته

(٥) هذا ما حدث فعلا بعد عهدنا هذا بعشرين عاما

وتقديرى لحاله ليمنعنى من أن أستغلّ حب لمياء وأهلها لى ، وأستعين بعظيم جاه مولاى فى تحقيق أمنيتى . قال نيقتاس : فإذا رضى الحارث مثلا قال: إن رضاه يقرّب مسافة الخلف ولكنه لا يجمع بيننا . قال نيقتاس : كيف ذلك ؟ قال : سيكون مضحياً من أجلى . وهل يجمل بى أن أقبل تضحية من أستاذى ! إنى إن فعلت كنت كمن يضحى بأبيه . وما أشدّ هذا على نفسى ! قال نيقتاس : أما أنك قدّيس يا ورقة فما لا شك فيه ، ولكنك قديس أنانىّ . فشده ورقه وقال : أنانى يا مولاى ! قال : أجل . إنك تخشى أن تتهم نفسك أو يتهمك الناس بقبول ما تسميه تضحية من غيرك لك ، وما هو كذلك لأن له عوضاً عظيما من جانب آخر ، وتنسى أنك تضحى بغيرك وتقتله بلا أقل رحمة ولا أقل عوض . فقال ورقة : ما هذا ياسيدى ؟ قال : أنت نسيت حق لمياء فى هذه الملحمة . لقد حملتها على حبك . قال : كلا وربى يامولاى . قال : بلى . قد يكون حسن الأدب وكمال الخلق ، ولطف المعاملة ، ووسامة الخلقة ، والرجولة ، وكل ما يجب أن يتصف به الرجل — ذنباً للرجل من حيث لايدرى(٦) . أنت عشّقتها فيك بهذا ، وماهى بقديسة مثلك . هى امرأة ، والمرأة هى الانسان المعقول تصرفه فى هذه الحياة ، الذى لا ينظر إلا إلى جانب الحق الصراح من

---

(٦) يروى ان بن الخطاب رضى الله عنه وجد نساء المدينة يفتتن بنصر بن حجاج لفرط حسنه فجز ناصيته فزاد حسنا . فأمره أن يرحل عن المدينة فرحل إلى العراق ومكث هناك سنين ثم آخذت أمه أمير المؤمنين لحرمانه إياها رؤية ولدها حين يتمتع هو بأولاده فأذن برجوعه وقيل انما رجع بعد وفاة عمر

الأمر لا الخيال ولا الوهم . هى الصواب ، وهى ترى أن تكون لها وتشتهيه ولا تهمها أراجيف العادات السخيفة التى روَّجها الأنانيون لأنفسهم كبراً وادعاءً وإنك لمتناقض فى دينك . ألم تقل لى ان نبيك سوّى بين الناس ؟ ماذا بك من عيب ؟ من أنا ؟ ومن هرقل ؟ ومن أكثر ملوك الأرض ؟ قطاع طريق فى أصلهم ونسبهم وجميع أعمالهم، ولا يزالون كذلك : لصوصاً وقطاع طريق . أما أنت فمن أبوين شريفين ، بل من أشرف أبوين . لقد ذكرت لى هيلانة قصة أبويك . ولمياء أحق منك برعاية والدها . إنما يرعى الوالد ما ذكرت من أجل أولاده ، وهاهى ذى ابنته تنزل عن هذا الحق من أجلك — إن كان هناك نزول — لتكون لها ، وأنت تأبى إلا أن تخجلها من نفسها ، وتكسر قلبها لتحيي قلبك وقلب الحارث . ياللأنانية والجور ، وإقرار المظالم ! لا . لن أقر جريمة كهذى . سيكون زواجك الآن ! وإن كنت مسافراً . أريد أن أحفظ على لمياء قلبها وأكافئها على حبها ، وأمانتها وشجاعتها وعقلها

ثم صفق نيقتاس وأمر الحارس أن يرجو من السيد قوزمان وأهل بيته القدوم . فلما انصرف قال : وسأكتب أنا للحارث فى ذلك وأنا الضمين لك برضاه . أنه فى مكة أليس كذلك ؟ قال : بل فى جدّة يامولاى . قال : هذا أهون ، بل لماذا لا يأتى ! سأرجو منه الحضور . فقال ورقة : ألا تنتظر يامولاى حتى يجيء الحارث من مكة وتحادثه . قال : لا أنتظر . لماذا أنتظر ؟ إنّ من عادتى أن أنفذ الأمر على الفور ما إن تبينت وجه الحق فيه . ثم

أرى ما يجد بعد ذلك . أما الانتظار الذى يسميه بعض الناس حكمةوحسن نظر ويأتون على صوابه بألف دليل من سـيئات العجلة — فاعلم أن هذه الأدلة هى عقـاب التلكؤ . زواجكما واجب ، واجتماع قلبيكما حق ، فمن العدل والحزم عقده على الفور . بل التعجيل به أوجب ، لأنه أمر غير عادىّ يتطلب معالجته بعمل حاسم . أما إذا أنا رضيت أن أؤجل تنفيذه إلى ما بعد ورود رأى الحارث ، فقد نزلت عن يقينى بصواب رأيى فيه ، وأسلمت الأمر إلى ذى هوى أو متورّط لا يملك فضيلة الحـكم متجرداً . إن حكم كما حكمت أكون قد أنفقت زمناً فى غير طائل ، وإن حكم بغير ما حكمت أكون قد امتهنت العدل بالتماسه من المتهم ، وهو الحمق كله . لم يبق إذن إلا أن أعقد العقد

فانحنى ورقة يقبّـل يد الأمير من فرط فرحه لولا ما كان يتجاذبه من عواطف الخجل من أستاذه ، لأنه كان يشعر كأنه يأخذ شـيئاً من وراء صاحبه . ولـكنه فى الواقع كان يرى فى سفره إلى القسطنطينية فرصة لمعرفة رأي الحارث قبل أن يعود منها . فهو إذا عقد له على لمياء كان سفره وسيلة لتأجيل يوم الدخول بها حتى يرجع ، فإن كان جواب الحارث بالرضا ــ وهو ما يرجوه ــ لم يعر ما وراءه شيئاً من همه ، وإلا فدا العقـد بشىء عصيب وإن قطع نياط قلبه وأسـلمه الأمر إلى الوجد والجنون . ثم تذكر ما قاله نيقتاس من حبّ لمياء إياه ، وأنها تؤثره على الدنيا وعلى أبيها ، وتؤمل فيه أن يؤثرها على نفسه وعرف قريش ، وانه بما انتوى إنمـا يخون ما تؤمله

فيه من رعايتها حتى ولو أدى الأمر إلى شيء من التضحية ، وهو شيء جديد لم يكن قد خطر له على بال ، فوجف قلبه وخجل منها . وأحس أنه لم يعر أمنيتها تلك شيئا من تقديره ، ورأى قدر ما تفعل بإيثاره حتى على رضا أبيها . وتذكر فتى نجران من بني عبد المدان ، وفتى مكة من بني عبد الدار وفتى منف ابن حاكمها ، وأنها تركتهم كلهم رعيا لذكراه ، فملاه الخجل من نفسه وصاح قلبه : بأبي أنت وأمي يالمياء . سأكون لك على الدنيا كلها . إن الحق فيما قال نيقتاس وفيما قلت بما فعلت . إلىّ . إلىّ . سيبارك زواجنا سيد قريش وسيد الخلق أجمعين . فماذا يهمني من بني عبد الدار وبني جمح الذين لا يزالون لحمقهم وفساد رأيهم يعبدون الأصنام ! ويريدون أن ينحروا أمثالنا على قدمي وثن من عرفهم الممقوت ، كما ينحرون البدن على الأنصاب الصماء . إلىّ . إلىّ . إن الله يبارك لنا ، والراشدون شهود على الحق فيما نحن في صدده ، فماذا يهمنا من السفهاء !

مرت هذه الأخيلة كلها حين كان ورقة يلمس أصابع سيده الحكيم يقبلها شكراً له على براهين بره الشديد وحبه إياه ، فقبلها مرة أخرى وكانت قبلته في الثانية طويلة ، وذلك حين كان قوزمان وهرميون وهيلانة ولمياء داخلين . وأدرك نيقتاس سر هذه القبلة الثانية الطويلة . وكانت عينه قد لمحت لمياء فيما لمح ورأى زهرة أنضر من زهرات الربيع تخطر على بساط القاعة خطرة مائسة ، فملكته هزة الحبور بأنه أنفق جهداً في محله ، وأن عمله كان صوابا من جميع النواحي ، لأن ورقة كان على كمال رجولته حسن

الحلفة فمزج نيقتاس تحيته للقادمين بما كان فيه من الحديث، وقال يحادث لمياء : انظرى يالمياء . لقد جعلت لك من هذا القدّيس رجلا مثلنا ليعرف كيف يقدّر هذا الحسن وهذه الرقة . ثم تقدم إليهم وسلّم عليهم ، وانبرى أهل لمياء يشكرون الوالى بالدّعاء . وكانت هيلانة أفصحهم فى ذلك قولا . ولما جاء دور لميـاء ومدّت يدها للسـلام وانحنت لم يترك نيقتاس يدها ، بل قال للجميع مازحا : لم يشأ ورقة أن يعقد له أبونا البطريق يوحنا الرحوم نفسه ، الذى يتصرّف وهو فى الاسكندرية فى ملـكوت السموات والأرض . أو بالأحرى لم يشأ البطريق نفسه أن يتولى هذا العقد ، لأنه علم أن ورقة يؤمن بإله واحـد لم يلد ولم يولد! ولذلك عزمت على أن أزوّجهما أنا بما لى من حق الولاية على الناس . والزواج مسألة دنيوية خالصة ، لا يصح أن يتدخّل فيهـا الاكليروس بتاتا . هى أمر يترتب عليه حقوق والتزامات وواجبات ومواريث . فما شأن أهـل الـكنيسة فى ذلك ! ألا ترى ذلك ياقوزمان ؟ قال : ما عجبت لشىء عجبى أن يتدخّل أهـل الآخرة فى شئون أهل الدنيا ، وسكوتنا نحن أهل الدنيا عن ذلك . كان يجب أن يكون أمر الزواج فى يد الشرطة لا الـكنيسة . هـذا افتئات على الحقوق ، وتفريط من ولاة أمر الناس فى حقوق الناس . وقالت هرميون : إنهـم فى بلادهم يعقدون الزواج بأهون من هذا : بالقبول وحده ، ولـكنهم يعلنونه بما لديهم من وسائل الاعلان : بالدعوة إلى وليمة ، أو الاحتفال بالزفاف . قال نيقتاس: وأنتم راضون بذلك ؟ قالوا : كل الرضا . قال : وأمها ؟ قال قوزمان . إنّ لها

وحدها حق الولاية عليها فى الزواج . هذا شرط شرطناه على زوجها يوم زوّجناه منها ، و إليك صك ذلك . فتناوله الأمير وقرأه ، ثم التفت إلى ورقة وقال : ففيم إذن ما كنت فيه ؟ قال: إنّ مولاتى لتعلم سرى،وهى على ما ترى ما كانت تريد أن تصدر إلا عن البر بزوجها قال : هذا من أمرها أما اليوم وهذا الصك معنا فقد عدونا ذلك . أأنت راضية عن هذا الزواج يا هرميون ؟ قالت : أما عن نفسي فكل الرضا . وأما . . . . قال نيقتاس مقاطعا : لا يهمني ما وراء ذلك لأن فى يدى صكا بحقك ، فلم يبق إلا لمياء ، ثم ابتسم وقال : هل هى راضية ؟ فأجابوا : نعم . قال : أريد أن أسمع صوتها فلا بدّ أن يكون جميلاً كوجهها ، فابتسمت لمياء حياءً ، وحرضتها هيلانة وقوزمان أن تقول نعم . فقالتها فى النهاية . فقال نيقتاس : صدق حدسى ثم التفت إلى ورقة وقال : وأنت أيها القديس ؟ قال : نزلت عن قداستى يا مولاى . إنى كما تشاء لى . قال : أشاء لك أن تكون زوجا للمياء وأخا وصديقا ووليا أمينا . هات يدك . فلما تناولها جمعها إلى يد لمياء وقال:لقد تحاببتما زمانا طويلا حب نقاء وتقى و رجولة صحيحه وأنوثة مطهرة وتمني كل منكما أن يكون زوجا لصاحبه ورفيقا فى الحياة الدنيا على سنة الولاء والتعاون والرعاية الخالصة. فليكن ما أردتما برضا كما ورضا من لهم الولاية فى أمركما . وأنتما من هذه اللحظة زوجان . فركع العروسان يقبلان يده فقبلهما معا وبارك عليهما ثم قال : سأكتب لكل منكما وثيقة تختم بخاتم القصر وتمهر بامضائى و يشهد عليها الحاضرون .وسأكتب لك ياورقة

وثيقة أخرى أرفع بها رتبتك درجة حتى تلتى الامبراطور فى القسطنطينية برتبة أعلى ، وأخرى بتمليكك عقارا فى الاسكندرية هدية منى اليك لعرسك بعد عودتك . وأنت منذ اليوم إلى حين سفرك فى إجازة تقضيها بجوار لمياء . فركع ورقة ولمياء شكرا للأمير ، وتناولا يده يقبلانها فقبلهما نيقتاس وبارك عليهما . حين كانت تبكى هرميون وهيلانة بل وقوزمان



لفرط مسرّتهم وتأثرهم بفضل الأمير ، وشكروه على هذا البر وتأثر الأمير لهذا المشهد وخطا متراجعا وهو يقول : لو كانت معركة من معاركنا مع الفرس ما أجهدت نفسى هذا الاجهاد. أف للقدّيسين والقدّيسات!

فضحك قوزمان لهذه الملاحظة وضحك ورقة والأختان معه، لأنه كان يعلم أنه يشير بها إلى تردد ورقة فى إنفاذ مشيئته . كما أنه كان يعلم أن نيقتاس رجل له منصب خاص فى الدين لولا تملكه منه ما تمّ زواج ورقة بلمياء

على أن الامير كان يشير أيضا إلى رفض البطريق أن تكون له يد فى هذا الزواج ما دام ورقة كافرا بربوبية المسيح، ولذلك تساءل : خبرونى بربكم أليس هذا التزويج أكرم وأصح؟ فقال ورقة : هو ما يفعله العرب يا مولاى ، ويكفى فى الاسلام قبول الطرفين ، والشهود للاعلان والكتابة للإثبات . قال : سأزيد على الوثائق أن زواجكما على سنة الاسلام إذن . ثم توجه إلى لمياء مسائلا فى غير حاجة إلى علم : هل أنت مسلمة يا لمياء ؟ قالت ولم تتردد : أجل والحمد لله يامولاى . فشده الحاضرون لذلك . وقالت أمها : متى كان ذلك يا بنية ؟ قالت : منذ أحببت ورقة . فقال ورقة : ولا أدرى! فضحك نيقتاس وضحك الحاضرون معه . وقال نيقتاس: واشهدوا يا شهود العرس أننى أنا أيضا أسلمت اليوم على يد ورقة من حيث لا يدرى . إنه قديس حقيقة . ثم نهض الامير وانصرف ليترك للأهل والعروسين فرصة النعيم بعشية العرس

الفصل الرابع والاربعون

على هامش الحوادث

خلا ورقة بأهله فهنأوه وقبّلوه جميعا وقبّلهم . وكان أول ماتساءلوا عنه حكاية سفره إلى القسطنطينية فذكر سببها بقدر مايجمل به ذكره من أسرار الدولة لغير أهلها . فأسفوا لفراقه هذا القريب ، ولكن هيلانة تدخّلت فى الامر تهوّن فراقه فقالت : إنّ السعادة التى نلناها الليلة أكثر من حقنا فلنجعل الزيادة عوضا من ألمنا لغيبة ورقة ، ولنحتفل الليلة بما نلنا من السعادة التى لم نكن ننتظرها . لقد تغلبنا على هرميون وورقة معا ، وهذا أكبر شىء. هلمّوا بنا إلى دارى . قال قوزمان: بل إلى دارنا. نحن هناك أكثر حرّية . وانصرفوا على ذلك

وفيما هم فى الطريق تذكر ورقة أن مجلس الجيش كلّفه أن يلقى أورست فى ليلته وينهى اليه قرار سفره ، ولا بدّ من تنفيذ ذلك . ولكنه لم يقو على فراق لمياء فى هذه الساعة السعيدة لتأدية هذه المهمة . وخطر له أن يؤجلها إلى غده ، ولكنه كذلك لم يقو على مخالفة الامر . ورأى أن يستفتى قوزمان حينما وصلوا إلى دارهم ، فأشار عليه أن يدعوه إليه ، وأقرّته هيلانة على هذا الرأى مشددة . فأرسل ورقة إليه رسالة رقيقة مع حارس البستان ، ولم يكن هذا يجهل بيته إذ كان فى حدود بيت قوزمان فذهب إليه

قضى الجمع ساعة من أطيب ساعات حياتهم كان ورقة فى غضونها يكلم لمياء بنظراته وابتساماته التى كان يتلو فيها قصة حبه لها ويذكر مالقى من أجلها من أخيها النضر حتى صاحت هرميون : لعل من أسباب رضاى بتعجيل العقد رغبتى فى أن يبلغ الخبر أذنيه فيصمهما ، ولكن هيهات ! كيف نرسل إليه الخبر؟ لم يعد هذا ممكنا والفرس يحاصروننا ويسدون علينا الوادى . قال : بل هو ماسيحدث غدا يامولاتى . فاعترض الجمع على هذه التسمية وقالوا : أحب النداء إليها الآن أن تقول لها ياأمى . فابتسم ورقة وقال : لقد كان القلب يحدثنى أنى منها كذلك حتى حين قطعت الأمل ، وعملت من ناحيتى على سد كل سبيل . لقد كنت على حق يومئذ ، ولكنى لم أكن على حق هنا . ألا ليبارك الله فى مولاى الأمير وليجعلنى فداه . لقد بصرنى بما أعمانى عنه اطراد الأمر . إنه سيرسل رسولا خاصا إلى مولاى الحارث فى جدة أو فى مكة . ولن يعدم الرسول وسيلة لبلوغ تلك الديار العزيزة . وسأحمله رسائل إلى ياقوم وأمى وإلى مولاى رسول الله ليبارك زواجنا ويدعو لنا . فتأوهت هرميون وقالت : كنت أحب أن أرسل إلى الحارث رسالة ولكنى لاأدرى كيف أجرؤ على ذلك بعد أن كتبنا له كلنا رسائل نستعطفه فيها ونرجو دعاءه ونلتمس منه الحضور إلينا فلم يرد علينا واستمر فى غضبه على لتركى إياه فى مكة عند مافررت بلمياء من أذى النضر . قال ورقة : وهل جاءنا خبر

أنه تسلّم الرسائل ؟ قالت : لم يصلنى شىء ، ولكن الرسول الذى حملها كان من البرّ بنا فى أول مرة بحيث لا أشك فى أنه سلمها إليه كما سلم الأولى . ولو أنه استعصى عليه تسليمه إياها مافاته أن يكتب إلىّ كما فعل أول مرة . قال قوزمان : إنما كتبت الرسائل يوم تركنا منف فهو إذا كان قد سافر بها فما كان عمك أن يعود برد أو خبر لأن حال الطريق اليوم غيرها بالامس ، أو لعله أرسلها إلى منف فبقيت هناك ولم تهتم نيفرت بها انتقاما منا جميعا . لا ليس هذا برهانا . إن الرسائل فى أيام الحروب والحصار لا يسهل وصولها إلى أربابها . ترى كيف يرحل إليه رسول الأمير ؟ قال ورقة : لعله سيسير بالبحر إلى كانوب ثم ينحدر فى النيل أو فى الصحراء كيفما شاء . إن هؤلاء الرسل أدرى بوسائل تأدية الرسائل . سيخبره الامير فى رسالته بما فعل ، ثم ابتسم وقال : وسيحمل الوزر كله عنى وعن لمياء وسيدتى الأم ! فضحكت هيلانة قائلة : الحمد لله على أنه لن يلقى شيئاً من الوزر علىّ . فقال أبوها : بل الوزر وحدك وزرك فيما كان . قالت هيلانة إن كان وزرا . قال : بلى . بلى . زعمت ذكاءك يعرف قصدى يا بنيتى فقالت لقد كان ذكائى مشغولا عن هذا التفسير بأن لك فى هذا الوزر نصيبا كبيرا يا أبى . فضحك الجمع لهذا ، واستمرت هيلانه فى كلامها : لقد قلت للأمير إنه قديس . قال وهو يمزح مغالطا هيلانه كما غالطته : أجل ، ولكن ليس معنى هذا أن أعطى القديس حينئذ ، فالقديسون لا يتزوّجون قال الجمع : وى يا أبى . أأنت غير راض عن زواج ورقة . قال : من قال

هذا ؟ قالوا : أنت تقول هذا قال : لا . ما كان ورقة ليتزوّج لو ظل على قدامته . أما وقد نزل قليلا وأصبح مثلنا نحن الناس فقد أصبحت لمياء صالحة له . فضحك الجمع لهذه المغالطة الاغريقية التى اعتاد العلماء أن يمزحوا بها مع الناس ، وقالت هيلانة : صلحا ياأبى ، لست من أهل الجدل مثلك . ونهضت هيلانة تقبله ، و إذابحارس البستان يؤذنهم بمجيء أورست ، وهمّ ورقة بالنزول إليه ولكن هيلانة تساءلت : ألا يصح أن ندعو رجلا عظيما كهذا إلى الطابق الاعلى ؟ إنه من رجال المجلس فياعلمت من ورقة . والواقع أن ورقة لم يخبرها إلا بأنه أكبر تجار الغلال فى المدينة ومن كبار أغنيائها . ولكنها شغلت به منذ كان مارا بباب دار أبيها ساعة لقيت ورقة وأرادت أن تعرف ظاهره وباطنه ، فلما لقيت أباها قبل أن يصعد ورقة إليها روت له أن ورقه جاء وأنه مع رجل يدعى أورست ، وسألته فى غضون الحديث عمن يكون أورست هذا ؟ لتعرف عنه شيئا أكثر ، فأخبرها أنه من أعضاء المجلس . واليوم نسيت من القائل لها ذلك منهما وعزت القول إلى ورقة ، ثم تنبهت إلى خطئهافعلاهاشيءخفيف من الخجل لأنها لم تكن تريد أن يفتضح لها سر . ولحظه ورقة حين كان ينظر إليها . على أن أباها أنقذ الموقف بقوله : إنى أعرف الرجل حق المعرفة ولا أرى بأسا من صعوده إلا أن يكون ورقة ... فقال ورقه وقد رأي رغبة هيلانة فى الالتقاء بالرجل الوسيم الذى شاهدته منشرفة المنزل ، حين اقترحت دعوته وحين اقترحت صعوده : لاأري فى ذلك بأسا .

إنه رجل عظيم وأنا أحبه و إن كانت صداقتنا وليدة السيف

جيء بأورست وكان إذ ذاك فى لباس فاخر كأنه شعر أن سيلقى هيلانة التى رآها فى شرفة البيت وهام بها فؤاده ، فاستعدّ لهذا اللقاء بما يجب له ، وقابله الجمع بالترحاب العظيم ،وكانوا جميعا فى ذلك الملبس الكريم الذى استعدوا فيه للقاء الأمير بمناسبة زواج ابنتهم ولمّا يمض عليه وقت يذكر ، وورقة فى لباسه العسكرى الجميل . فكان الحفل بالغا حدّ الكمال والرّوعة . واتخذت هيلانة لنفسها صفة الزعامة فى المنزل وساعدها هذا على الحركة والكلام وتحية الضيف بالقدر الواجب وتمكنت من ابداء قدرتها الساحرة الكمينة فيها حتى كادت الأربعون من سنى حياة الرجل تزول ولا يبقى إلا سبع سنوات يتكلم أورست بلسانها ، و يرجو بقلبها . وكادت هذه السنوات السبع تزول منها أربع أيضا عند ماطلبت إليه هيلانة أن يهنىء صاحبه إذ عقد له الأمير على لمياء . فنهض أورست يهنىء ورقة ، وتجاوز التهنئة بالسلام والقول إلى العناق والتقبيل. ولم يفت هيلانة معنى هذا ، فقد كانت تتأمل كل همزة من همزات نفسه فى صوته أوفى يديه أو فى بدنه ، وهى مجدّة فى توجيه عينى الرجل وقلبه وحسه كله إلى حيث تريد .فلما انصرف إلى لمياء يهنئها بدرت منه كلة عرفت منها هيلانة أنها بلغت مرادها فألقت عصاها واستقرّت . قال أورست : أما أنك ياورقة موفق فهذا مالا شك فيه. إن من يظفر بكريمة من بيت قوزمان أشرف رجل فى الاسكندرية وأحبهم إلى أهلها جديرألا يعدّ أيامه من هذه الدنيا بل من حياة السعادة الابدية

الخالدة أسلفت إليه . هنيئا لك ياورقة ماوفقت إليه فشكره ورقة على تهنئته وشكره قوزمان على تحيته وحمد الله . وعملت هيلانة على ترك المجلس للرجلين فكان ماأرادت . فذكر ورقة لأورست مهمته وما كلف به من السفر معه إلى القسطنطينية للقاء الامبراطور . فقال أورست وقد فوجيء : كنت أريد أن أقول لك إنه لولا أنى أسافر معك مارضيت. قال ورقة: والآن ؟ قال : أريد أن أقول لا أسافر ولو كنت معى . ثم ضحك . قال ورقة : ويحى ! لماذا ؟ قال أورست : هل لى أن ألقاك غدا ؟ بل أنت قبلت دعوتى ياصاحبي فانا فى ابتظارك . قال ورقة : لم يعد لى أن أثبت على وعدى حتى تقول لى لماذا تريد أن تلقانى غدا ولا تلقانى الليلة ؟ والله ياأورست ماهوّن علىّ فراق زوجتى إلا أنك مرافقى : فقال أورست : إما أن نتساوى فى ذلك أوفلا : أنا أيضا أريد أن تكون لى زوجه لأقول لك عنها كما قلت لى « والله ماهوّن علىّ فراق زوجتى إلا أنك مرافقى » قال ورقة : ألست متزوّجا ياأورست فى هذه السن ! قال : كانت لى زوجة منذ عشر سنين ثم غلبنى عليها الغلاّب ، فان شئت أن أرافقك فسر بأمنيتى إلى قوزمان وحققها لى : إنى أحببت هيلانة منذ ما وقعت عينى عليها هذا الصباح ، ورأيتها الليلة فتنة للعين والقلب معا . وقد علمت أنها أيم فلا محظور من زواجنا . قال ورقة : لابد من رضا الامير فوق رضاها ورضا أبيها . قال أورست : كل هذا عليك . هذا شرط لسفرى وإلا فاذهب أنت وحدك . قال ورقة : سأمضى فى ذلك وسأجيئك غدا بالجواب

وأرجو أن أوفق . فارتاح أورست إلى ذلك وشكره وقبّله .وكانت هيلانة قد عادت هي وأبوها وسمعت هرميون ولمياء جمل التوديع فحضرتا لتوديع الضيف صديق ورقة .

فلما زايل المنزل واجتمع ورقة بهرميون خبرها بأمنيّة أورست فارتاحت إليهـا وسرّت وكلمت أختها فى ذلك على الفور ، وما كانت فى حاجة إلى السؤال فى أمر دبّرته هى . على أنهـا تظاهرت بأنهـا تترك كلتها لأبيها ، ورأى أبوها الخير فيما كان ... وكان نبأ ورقة لأورست ثانى يوم عظيما . وذهب قوزمان يستأذن نيقتاس فى الأمر فأذن وكانت ليلة أخرى سعيدة ، إلا انهما أجلا يوم الزفاف إلى حين عودتهما من القسطنطينية

نتركهما إذن يسافران إلى القسطنطينية ويشهدان سوء حالها فى الباطن والظاهر بما كان بين سراتها وقادتها من التنازع وشاه و زر الفارسى رابض قبالتهم بجحافله فى انتظار الساعة الصالحة للانقضاض عليهم — ثم يلقيان الأمبراطور بعد قضائهما قرابة شهر فى انتظار الأذن ويلقيان اليه مهمتهما ، ويتحادثان فى شئون مصر والاسكندرية فيزداد الامبراطور غما وحزنا ، ولكن ورقة يملأ نفسه نشاطا وأملا بقوله : يامولاى ، إن رسول الله محمد بن عبد الله أوحي إليه أن الروم سيعودون فيغلبون . قال الله تعالى على لسان نبيّه «غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »فلم يبق لمولاى الامبراطور إلا أن يؤمل الخير ويرجو ذلك اليوم القريب . فقال هرقل : أما والله ياورقة لو تمت نبوءة نبيك لأعلنن

إيمانى به وليكونن لى معه شأن جميل . ولقد أراد الرجلان أن يعودا إلى الاسكندرية على أثر أداء مهمتهما ولكن الامبراطور كان قد أنس بهما فاستمهلهما الى لقاء آخر . غير أن الامبراطور شغل عنهما ، وكانا كلما أرسلا يلتمسان لقاءه لم تبلغه خاصته ملتمسهما استهانة بهما من ناحية وبالامير نيقتاس من ناحية أخرى . حتى مضى عليهما فى المدينة ثلاثة أشهر . وقدّر ورقة أن هذا المنع مقصود به النكاية من رجال القصر فى نيقتاس ، فاضطر إلى أن يتصدى لموكب الامبراطور وهو ذاهب للصلاة يوم الأحد . وكاد الحرس يقتلونه ظنًا أنه أحد من جاءهم الخبر بتآمرهم على الامبراطور ، ولكن ورقة دافع عن نفسه حتى لمحه الامبراطور ومنعهم عنه ، وتعجب كيف لم يرجع الى مصر حتى ذلك اليوم . وإذ قال له إنه انتظر طوعا لأمره ، وأنه التمس لقاءه غير مرة علم أن حاشيته كذبته حين قالت إنه عاد هو وأورست إلى مصر ، فاعتذر إلى ورقة بما وسعه ، وترضاه بأن عيّنه حارس شرف فى فرقته وعيّن أورست عضو شرف فى المجلس الخاص ، ثم حمّلهما رسائل سريه إلى نيقتاس وودعهما أكرم وداع

الفصل الخامس والأربعون

شفاعة الحب

جاءت رسالة قوزمان وبنتيه إلى بيت الحارث مع نفس صاحب السفينة الذى جاء بالرسالة الاولى . فقد استطاع فى تلك المدة أن يعدّ وسقا جديدا من خيرات مصر ليبيعه فى بلاد العرب . وكان الحارث قد زايلته الحمّى واسترد شيئا من العافية والقدرة على مقابلة الناس. ولكنه لم يتسلم الرسالة، بل تسلمها ولده النضر على غير علم من أبيه وفضها وأعادها إلى صاحب السفينة ليقرأها له ليعرف ما فيها إذ كانت كلها بالرّومية حتى رسالة لمياء . و إذ وجد أن هرميون تعلنه بعدولها عما كانت قد رضيت بانفاذه من زواج لمياء بمميان وتعتذر اليه من خطئها حتى مع تعليقها الأمر على شرط قبوله ، ثم تترضى زوجها وتطلب اليه العفو عنها لما سبّبت له من الحزن الذى برّح به ، وتبدى له تمنيها لو كانت معه فى جدة لتقوم على خدمته ، و وجد أن لمياء تغمر والدها بفيض من المحبة والدموع، وقوزمان يدعوه إلى الاسكندرية ويهوّن عليه الامر، إذ يذكر أنه لا خوف عليهم من الفرس لان فى مقدورهم أن يركبوا البحر إلى ما وراءها إلى قيرين (برقه) أو غيرها ، خشى النضر أن يتأثر أبوه برجائهم فيرحل إليهم فى الاسكندرية ، وتكون هرميون قد انتصرت عليه ، فعزم على ألا يطلع أباه على الرسالة ، ولا أن يعلمه على

الأقل بعدول هرميون عن تزويج ابنته ، مقتا منه لهرميون واستبقاء لوجد أبيه عليها ولو آذاه هذا الوجد . وكاشف أخته قُتيلة بذلك — وكانت قد حضرت من الطائف للقيام بشئون أبيها فى مرضه — معتذرا بأن حالة أبيها لا تسمح أن تهزه عواطف عنيفة تبعثها عواطف شوق الابنة وعبارات ترضّى الزوجة . وحذّر أخته أن تفاتح أباها فى شىء من ذلك لئلا يطلب اليه الرسالة ، وهو لا يريد أن يطلعه عليها . ولكن قُتيلة كانت أرق قلبا من أخيها ، وأرعى لأبيها ، فانها رأته كثير التفكير كثير الزفرات ، فأدركت أنه يفكر فى امرأته وابنته ، وأنه فى ضيق لما قدر من أن يكون السهم نفذ فتزوجت لمياء من دميان . وثبت لها هذا من هذيانه فى نومه وخشيت أن تعاوده الحمى أو يصيبه الجنون وهو قريب ممن يكون فى مثل حاله ، فلم تعد ترى رأى أخيها النضر من صلاحية كتمان الامر عن أبيها ، وإن كانت تعلم أن النضر لم يرد هذا وحده ، بل أراد أن يمنع عودة الصلة القلبية بين أبيه وامرأته الرومية وابنته منها . وعزمت قتيلة على تسرية همه بافضائها اليه بما يسره ، ولكنها لم تجد الوقت المناسب للحديث معه فى ذلك ، حتى أفاق والدها ذات صباح ، وجلس يستقبل الشمس تملأ غرفته وتنعش النفس — وقال لها : يا ليتنى تخنت جدة مقاما لهرميون ! . إذن لم يكن حدث ما حدث ! فوجدت قتيلة فى ذلك الوقت المناسب وقالت الحمد لله يا أبى على أن امرأتك نزلت على إرادتك فلم تزوج لمياء من



ابن عمتها . فالتفت الحارث اليها يسائلها بنظراته فى شيء من الدهشة وقال :
أنا لم أتمكن من أن أرسل اليها ردّ رسالتها حتى يكون لى لديها إرادة تنزل عليها
أو تعلو . قالت قتيلة : بلى يا أبى ، كان ما خططته فى مطلع رسالتك كافيا
للدلالة على رفضك ، فأرسله أخى مع صاحب السفينة الذي جاءك برسالتها ،
وأبدى له أخى أن من أسباب مرضك ما أصابك من الحزن لما علمت .
قال : لقد أحسن صنعا . قالت : ولقد عاد صاحب السفينة منذ أيام بما
يفيد انتهاء الأمر إلى القطع ، وسافرت لمياء وهرميون وجدها إلى
الاسكندرية . هكذا علم صاحب السفينة من رسول القصر الذى كان

آتى له بالرسالة من عيذاب . ولكن أخى لم يشأ أن يفاجئك بهذا الخبر السار ، حتى تقوى على احتماله . ولقد رأيت العافية فى وجهك هذا الصباح فأنهيته اليك . قال الحارث وقد أشرق شىء من النور فى وجهه الحسن : الحمد لله يا بنيتى . ليس لى على شكره يدان . لم أجد وحقك فيمن رأيت من الشباب فى بلاد الله فتى تحتقره العين وتمجه النفس كهذا الفتى دميان الذى كانوا يريدون تزويج لمياء منه . مخنث مغرم بالنساء ! تأملى فى هذا . هذا أسوأ صنف فى الرجال . ألم يرسلوا معه رسالة ؟ فحارت قتيلة بم تجيب ، وأخوها قد حذّرها ، ولكنها لم تجد غير الصدق وسيلة قائلة لنفسها : أأرعى أخى على باطل ولا أرعى أبى على حق ؟ ولكنها مع ذلك تلطفت فقالت : بلى ولكنك كنت ضعيفا لما جاء بها صاحب السفينة ، ولم تكن تملك أن تقرأ ولا كان من المستحسن أن تشغل بها ، فأبقاها أخي معه حتى تقوى . عسى أن يعود اليوم من مكة ! على أن النضر لم يعد إلى جدة قبل أيام . فلما جاء تلقته أخته بما جرى ليتدبر فغضب عليهـا وأنبها . وكان النضر قد مزّق الرسالة فى بعض أحوال نزقة وألقاها . فلما سأله أبوه عنها ادّعى أنه لا يدرى أين هى ، وأنه يرّجح أنها سقطت منه فى الطريق إلى مكة . وأراد أن يلهى أباه عنها فقال : إنها رسالة صغيرة كتبت فيما أظن على عجلة . فقال الحارث : ليتك تركتها مع أختك أو تركتها بجوار فراشى . فما كنت قارئها حتى أقوى . قال : تالله تفتأ تذكر تلك الباغية حتى تهلك أسى . قال : الله المستعان على ما تفعل معى يا بنى . قال : عدت إلى

شكوكك القديمه يا أبى ! قال : شكوكى ! ليتك قلت يقينى ! قال : أنت وما ترى ! ولكنى أعدك أن ستأتى إليك هرميون ولمياء عما قريب على نفس السفينة التى سافرتا عليها ! قال الحارث : من أين لك هذا ؟ قال : مما وقع ، فقد علمت الآن إذ مررت بالسوق فالتقيت ببعض تجارة عيذاب أن الفرس نزلوا بلاد مصر وتلقاهم قساوسة المصريين بالترحيب وأنهم استولوا من الروم على منف وبابليون وأتريب ونيقيوس ، ويوشكون أن يحاصروا الاسكندرية . فاذا لم يكن قوزمان قد رحل بابنتيه إلى الغرب صوب قبرين (برقة) لينجوا وهو ما كنت أفعله لو كنت فى مكانه فهو لا بد حاضر هنا ما دام طريق الصحراء والصعيد خاليا . فلم يرد الحارث على كلام ولده ، وانحنى يفكر فى امرأته وابنته ، ثم التفت عنه واستلقى فى فراشه لكيلا يرى وجه ولده

كان زياد فى ذلك الوقت واقفا بالباب على عادة الخدم استعدادا لاجابة نداء سادته إذا هم احتاجوا إليه . وكان لا بد له فى هذا الموقف أن يسمع ما جرى بين النضر ووالده من الحديث . فلما سمع ما قاله النضر من أنه فقد الرسالة ، ولا يدرى أين فقدها وكان زياد يعلم انه مزقها فى مكة ، أدرك أنه تعمد إخفاء الرسالة عن أبيه نكاية بسيدتيه هرميون ولمياء . وانما ادرك ذلك لأنه تذكر حديثا جرى بينه وبين وجنه سودة خاصا بهذه الرسالة من ناحية عرضية . ذلك أنه كان قد ذهب إلى مكة فى بعض حاجة لسيده وشم فى أردانها رائحة طيبة فلما سألها عن مصدرها ، روت له من

أمرها أن سيدها النضر لما عاد من جدة وأخرج ما كان فى جوالقه كان من بين مافيه لفافات مخطوطة عرضها لعين زوجته حينما تناولها وقال لها شامتا: هذه من هرميون اللعينة وابنتها وأبيها إلى أبى يتزلفون فيها إليه. ثم مزقها طولا وعرضا وهو يسب هرميون ويشتمها وأعطى سودة إياها وقال لها: خذيها فأشعلى بها كانونك ، وأن سودة لم تحرقها بل احتفظت بها لأنها وجدت بها عطرا جميلا ، فدستها فى ثيابها لتعطرها بهـا . تذكر زياد هـذه الحادثة حينما كان النضر يتكلم وعزم على أن يأتى باللفافات من عند سـودة ممزقة كما هى ، عند مايعود إلى مكة عسى أن يكون فيها خير لسيدتيه المحبوبتين. على أنه كتم الأمر عن سيده حتى أرسلوه الى مكة فى حاجة لهم فأحضرها. ولم يقدمها إلى الحارث ويذكر له قصتها حتى خلا البيت برحيل النضر وقتيلة عن جدة . وسأل مولاه بحق لمياء أن يكتم الخبر عن سيده النضر لئلا يؤذى سودة ويؤذيه معها . فطمأنه سيده وأثنى عليه وأثابه ، وتناول الرسائل الممزقة يقرؤها ما استطاع أن يقرأ .

هل كان فى استطاعة الحارث أن يجيب دعوة أحبابه ؟ بل هل يجمل به أن ينزل على حكم امرأته وقد سافرت بغير علمه وارسلت اليه كلاماً مراً ؟ الجواب نعم . لا مستحيل مع الحب فانه يحب امرأته ويحب ابنته. والحب يقول إنهـا لم تخطىء فى الفراق وانه لا فائدة من استمرار تظاهره بالـكدر منها وهو لو رآها لاعتذر اليها . والواقع أن جوهر كدره كان لأنها لم تمكنه من أن يتظاهر بالغضب عليها هنيهة تتلوها كلمة منها فى شبه نغمة اعتذار

فيعفو عنهـا ، ثم يتكرم بأن يسير وراءها طائعاً أو يتقدمها مختاراً . إذن فليرحل إلى الاسكندرية ما دامت تدعوه وترجوه ، ويرجوه كذلك حموه وابنته العزيزة لمياء التى كانوا قد اوشكوا أن يؤذوها من حيث لا يعلمون . ويجب لكى لا تتكرر هذه الحادثة ان يكون بجوارها . ولكن كيف يرحل والفرس منتشرون فى البلاد ولا بد أن تكون أبواب الاسكندرية مقفلة ؟ الحب يقول هذا لا شىء مطلقا فان هناك ألف وسيلة ووسيلة للقاء هرميون ولمياء . فليرحل إلى عيذاب إذن فى الغد . لا داعى الى قضاء يوم آخر فى جدة . وليأخذ معه زيادا . فقال له: ما رأيك يازياد فى أن نرحل فى سفرة الى الاسكندرية تشاهد فيها الدنيا وسيدتيك لمياء وهرميون ونأتى بهما إلى جدة ؟قال زياد . لارأى لى معك ياسيدى، و إن كنت أشتهى ذلك.قال: أشعر أنى استعدت قوتى ونشاطى عند ماخطر لى أن أذهب الى مصر . ان سيدتك ترجو أن اجيئها لأعود بها هى ولمياء الى جدة لأنها تشعر الآن بالخطر المحيق . قال زياد أصبح السفر اليها فرضاً يامولاى . فقال الحارث : هيىء للرحلة فى الغد اذن ، وانظر هل من سفينة شاخصة إلى عيذاب .

* * *

بلغا عيذاب . ولكنهما لم يستطيعا أن يقطعا الصحراء الى قفط اذ انتفى الأمن منها على اثر انتشار أخبار انحدار الروم فى كل مكان. ولكن المقادير هيأت لهما صحبة بزعيم أحد مناسر اللصوص جاء الى عيذاب

يلتمس صيداً فمرض وعاده الحارث وشفاه فحفظ له جميله وتعهد بنقله إلى قفط سالماً . ولكن الحارث لم يستطع أن يبحر من قفط الى سيوط لا فى البحر ولا فى البرّ لان جنود الفرس كانوا قد انتشروا فى الصعيد وانتشرت أمامهم و وراءهم مناسر اللصوص من المصريين أنفسهم حتى أصبحت النقلة باختيار صاحبها حمقاً صريحاً . فانتظر الحارث فى قفط حتى تهيأت الفرصة لذلك . كان لابد لحاكمها الرومى من أن يرحل عنها قبل مقدم الفرس وإلا قتل . و إذ كان الحارث قد اتصل به من قبل وتألفه ، والحاكم يعرف غايته ، أعلنه بذلك سرا ، و واعده فى ظاهر المدينـة من جنوب ليعبر النيل الى الشاطىء الغربى وهناك ينتظران حتى يوافيهم جنده بحموله و يسافروا جميعا فى طريق الواحة المقابلة ، على أن ينعطفوا إلى الشمال فى طريق الشاطىء بعيدين عن طريق الجند والمناسر معاً . على هذه الخطة عملوا ورحلوا عن قفط بعد أن قضى الحارث فيها قرابة شهرين ، قاصدين إلى ما وراء الفيوم .

ولشد ما كانت شماتة الحاكم الرومى بقساوسة القبط إذ كان يعلم أنهم على فرط ما أبدوا من الفرح وما قدموا من براهين الترحيب القلبى بالفرس لم يلقوا من الفرس إلا رعاية متورّط لا يدرى سر فرح المأكول بآكله . فما لبثوا أن انقلبوا عليهم بالأذى والابتزاز وان لم يعترضوا لصلواتهم فى كنائسهم وترهبهم فى أديارهم (١) بل تركوهم يصلون ما شاءوا ويدعون

(١) بطلر

ماشاءوا وانصرفوا الى ماجاءوا من أجله . فقد كان الفرس قوما دنيويين يفتحون البلاد ليملكوها ولا تهمهم الأديان ولا المذاهب ولا يحملون أحداً على قبول دينهم . ولذلك ما كانوا يتعرضون لأديان أهلها .جاءوا ليطردوا الروم و يحلوا محلهم فى استغلال مصر واستعباد أهل مصر ، فاجلاؤهم إذا سرّ القبط لم يكن مقصودا منه أن يفرح القبط بل أن يتمكنوا من بلادهم ويستولوا على خيراتها (٢) فان كان فى الكنائس شيء من هذه الخيرات دخلوها للاستيلاء عليها لا ليمنعوا صلاة الناس فيها لمن يحبون من الآلهة ! أما قساوسة القبط فكان كل مايشغلهم من أمور الدنيا أن يقول لهم الحاكم إن دينهم هو الحق ودين غيرهم باطل . ولذلك يجب أن يفرحوا لدخول المجوس بينهم ، و يجب عليهم أن يحملوا الناس على أن يعطوهم أموالهم وأنفسهم ووطنهم من أوله إلى آخره من أجل أن يقول لهم الحاكم إنه هو الحقّ لا حقّ سواه ، وأنكم أولاد الله الحقيقيون .أما غيركم فأولاد حرام! وكانوا على هذا الحال المزرى منذ ما كان فى هذا البلد السيء الحظ بأهله

---

(٢) قال بطلر فى كتابه فتح مصر والاسكندرية صفحة ١٤ من الترجمة العربية للاستاذ أبى حديد «الحق أن أمور الدين فى القرن السابع كانت فى مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة . كان كل الاختلاف على أمور العقائد والديانة . وكان الدين عندهم هو الاعتقاد المجرد بأمور معينة لا أنه المعين الذى يستمد منه الناس مايعينهم على العمل الصالح . وكان الناس لا يكادون يحسون بشيء اسمه حب الوطن وما كانت عداوتهم عند اختلاف الجنس لتثور ويتقد لهيبها على الاكثر إذا إلا اختلف معها المذهب الدينى »

أديان . غيّر الكهنة دين هذا البلد ألف مرة وكان كل دين قائم هو الحق، الذى يجب من أجل الاعتراف بحلاوته أن يعودوا فيحملوا المصريين على التفريط فى وطنهم وأنفسهم ، وينسون أنهم كانوا يفعلون مثل ذلك فى عهد الدين السابق .

***

لم تكن الفيوم قد وقعت بعد فى يد الفرس ولذلك بقى بها الحارث مدة فى جوار صاحبه حاكم قفط الذى جاء معه ، فى انتظار أن يقوم منها عير الى الاسكندرية ، حتى علم هذا الحاكم أن هناك جماعة من جند الروم القدماء عازمين على السفر إلى الاسكندرية ليعززوا حاميتها فتكلم معهم فى شأنه وسمحوا أن يلقاهم فى مكان معين خارج الفيوم ليرافقهم على أن يكتم يوم سفره حتى لا يتنبه اللصوص اليهم .

جاء يوم السفر فودع الحارث صديقه حاكم قفط وشكره على فضله شكراً جزيلا وأكرم جنوده بما أوجب عليه البر فى ذلك المقام ، وخرج هو وزياد الى حيث يجتمع بعير الروم الراحل إلى الاسكندريه وانحدر معهم إلى البحر .

ولشد ما كانت دهشته إذ رأى فى العير بعد مسيرة ساعة صديقه الفيلسوف اليمنى — نعيا الصيدلانى — الذى كان استودعه ورقة . أما كونه فى مصر فلم يدهشه لأنه كان يعلم شدة رغبته فى رؤية مصر وأما كيف أتى الى مصر فكان هذا محل دهشته وعجبه ، لأن الطريق فيها فى هذه الأيام

لم يكن مما يجوز لمثله أن يستسهله ، وهو لا يطلب زوجة مثله يحبها أو ابنة شاقته الوحدة والشفقة اليها . ولذلك سأله فى ذلك : فقال نعيم : قد يكون الصديق أحب الى الانسان من امرأته ويكون للانسان ولد من غير صلبه أحب اليه من ابن دمه . ولقد جئت إلى مكة لاراك وأرى ولدى ورقة هناك وعلمت أنك فى جدة فجئت جدة فقيل رحلت الى مصر فادركت أنك قصدت الى بيت قوزمان لترى امرأتك وابنتك . واذ كنت عازماً من قبل على السفر الى مصر فقد وجدت الدافع الى ذلك مزدوجا ، ولم أتهيَّب الطريق لأنك لم تتهيبه. ولكن العجب انك لم تصل بعد الى الاسكندرية حين أنى جئت فى أثرك بعد شهرين . قال قضيتهما فى الطريق . قال :ولكنى لاأرى ورقة فاين ذهب ! ألم يعد اليك . قال : لا : واحسرتاه ! لقد أهدر ولدى النضر دمه فرحله بنو هاشم الى يثرب فهو هناك الآن . فلما سمع نعيم هذا الخبر حزن حزناً عميقا لأنه كان يشتهى أن يرى ورقة . ولعله مااشتد به العزم على السفر إلى مصر إلا أملا فى لقائه إذ قدر أن يكون الحارث قد عمل على ارجاعه ، ولكنه سرّى عن نفسه الهمّ على عادته بأن اسقط الامر من قلبه لينعم بلقاء الحارث .

قضت القافلة عشرة أيام حتى بلغت ديرا قائما على مدى خمسة عشر ميلا من الاسكندرية . هناك وقف بهم الضابط الرومى صاحب العير ليردهم عن متابعته قائلا : هنا مكان الافتراق أيها السادة الأغراب. لقد التمستم أن تسيروا فى حمانا حتى تبلغوا الشاطىء وهانحن أولاء قد بلغناه

وسنركب البحر من هذا المكان قاصدين إلى الاسكندرية وهي لن تفتح اليوم بابها . البحرى لغير الروم . انها فى حصار كما تعلمون. نستودعكم الله . فتقدم الحارث ونعيم يودعانه ويشكرانه . على أن الحارث رجا منه أن يعمل على لقاء العالم قوزمان أكبر أطباء الاسكندرية واشهر علماء معهدها فيخبره بمجيئه، وأنه سينزل فى دير المانطون فى انتظار ما يفعله للسماح له بدخول المدينة

رحل الروم فى سفينة صيد استأجروها الى الاسكندرية وقصد الحارث بنعيم وزياد على الاقدام الى الدير القريب فقضوا فى ضيافة أهله بقية يومهم ثم خرجوا الى طريق الاسكندرية قاصدين الى دير كان للحارث بوكيله صحبة ومودة كانت سببا فى إقراضه أيام قدراً من المال رمموا به الدير أثر ما أنزل به أعوان بونوسوس من التهديم وأعطوه فى مقابل قرضه قطعة من السوق المجاورة للكنيسة . وانما اضطر أهل الدير الى الاستقراض لأن بونوسوس و رجاله كانوا قد استولوا على جميع أملاكهم فى مصر العليا والسفلى وقطعوا عنهم المدد واستولوا كذلك على كل ما كان فى خزائن الدير وسائر الأديار اليعقوبية من الأموال .

فرح الوكيل به فرحا عظيما وانزله هو وصاحبه مكانا مكرما ولكن الحارث لم يرض أن يظل عالة على أهله بلا عمل حتى يرى نتيجة ما كلف به الضابط الرومى بل أخذ فى ثانى يوم يتولى هو ونعيم تطبيب مرضى الدير، وكذلك كل من كان يجىء من الجيرة يستطب برقى رهبانه وتعاويذهم .

وظل على هذا الحال مدة طويلة لم يرد اليه فى غضونها ما كان يؤمله ، ولا عرف كيف يدخل إلى الاسكندرية اذ كان جند الفرس معسكرين حول اسوارها ومنتشرين فى أرباضها ، ومحاولة الخروج للنظر واستكشاف الحال ضرب من المجازفة بالحياة والكرامة معاً . فاستمر فى الدير فى انتظار وسيلة يأتى بها القدر

ولكن هذه الوسيلة لم تتهيأ له على عجل كما كان يؤمل اذ كانت أبواب الاسكندرية مقفلة بسبب الحصار فاضطر المسكين أن يقضى شهراً آخر فى ضيافة الوكيل .

هناك علم الحارث من وكيل الدير وحلقته أن الجيوش التى تحاصر الاسكندرية هى نفس الجيوش التى فتحوا بها القدس وأن الكثرة فيها من عرب شمالى الجزيرة العربية (٣) والقلة من الفرس وأن السلار شاهين قائدهم الأعظم أحاط الاسكندرية بمجانيق عظيمة تلقى جلامد الصخر على الأسوار ولكنها لا تفعل بها شيئا يذكر ، بل ترتد عنها مهشمة كما ترتد كرات الصبية على ملقيها ، وأن بعضها وقع على بعض أبراج كنيسة القديس مرقس القائمة بالقرب من السور الشرقى ،ولكنها لم تبلغ منها مبلغ الأذى الكبير . وعلم أنهم أتوا بقواذف النيران تحمل كتلا مغمورة فى النفط والكبريت وتلقيها فيما وراء الأسوار ولكنها لا تقع إلا على فضاء معد فى الاسكندرية لمثل ذلك . وأتوا بدباباتهم العجيبة بل الصروح العالية

«٣» بطلر

المتحركة على عجل ملأى بالمقاتلة والسلاح أملا أن يستطيعوا تقريبها من الأسوار و يركبوها ، ولـكنهم ما فعلوا بها شيئا فقد كانت تزمجر بآلاتها وتخور فتجيبها من أسوار الاسكندرية المنيعة المازئة رعود وبروق وصواعق من صخور ونيران تفتك بهم فتكا ذريعا فيضطرون إلى الارتداد عنهـا والعودة إلى مضاربهم ليحاولوا الأمر بجهد أشد فى يوم آخر . ولـكنهم ما كانوا يظفرون فى اليوم الآخر بأكثر مماظفروا فى الاول .

كانوا شجعانا أشـداء معودين النصر والغلب، وقدهدموا جميع أسوار الحصون فى الشـام وأرمينية وكان آخر ما فعلوا هدمهم أسوار أورشليم وامتلاكها . ولذلك كانت خيبتهم فى كل محاولة ، شديدة عليهم محنقة لهم . ولـكن جيوشهم فى الشـام والقدس كانوا فى أكثرهم من عرب الجزيرة الأشداء يقاتلون روما فتت الحروب والهزائم فى أعضادهم . أماهنا فيحاربون أقلية روميّـة تعتز بأكثرية عربية جموها من بلاد لو بيا فى الغرب وسينا فى الشرق وزنوج لا يعرفون هوادة ولا يفترون . كان هرقل قد استنفد غالبية العنصر الرومى الاسكندرى فى حروب هجومه على القسطنطينية أيام حارب فوقاس وفى دفاعه فى أرمينية ليستردها من كسرى أبرويز ، فالحرب فى جوهرها حرب بين عرب وعرب تعززهم فى الاسكندرية أقلية من الروم وفى خارجها أقلية من الفرس

من أجل هذا الفشل الذى منيت به جيوش الفرس أمام أسوار مدينة الاسكندرية المنيعة أبد ثمانية أشهر زعم صغار الأحلام من السكان واللاجئين

الى عشرات الأديار القائمة فى أرباض الاسكندرية من يعقوبية ورومية أنه يحق لهم أن يتمتعوا بالسخرية بجند السلار شاهين وهم مارّون بأديارهم أو جالسون يستريحون فى ظل جدرانهم . ولذلك لم يترددوا أن يسقطوا عليهم من الكوى المقفلة كلمات السخرية بهم وبالهتهم ميثرا . فانصرف الجنود عن أسوار الاسكندرية السميكة الراسخة إلى جدران الأديار الرقيقة المتزعزعة ليهدموها ويؤدبوا الساخرين منهم بما لدى الفرس من وسائل التأديب والانتقام مع فرط الاحتقار

هذا ما علمه الحارث وما رآه يوم أن فاض به الوجد فاستقر به الرأى على أن يحاول الوصول الى الاسكندرية بطريق البحر فخرج قاصداً الى ميناء لوكياس ـ ميناء القصر ـ عسى أن يلقى فيها ضابطا من ضباط الاسطول سمح الخلق يرضى أن يسير بكلمة منه الى الأمير ليسمح له بالدخول . وما كان يشك فى قبول الأمير رجاءه لأنه كان معروفاً لديه بأنه عديل اخيه تيودور زوج هيلانة ابنة قوزمان وكثيرا ما اجتمع به حينما كان يرافق قوزمان فى زياراته له اذ هو نسيب وإذ هو عميد معهد العلم الاسكندرى . وقد كان الحارث يفكر فى هذه الوسيلة من قبل ، ولكنه امتنع لسببين أولهما أنه كلف الضابط الفيومى لقاء قوزمان وثانيهما أن الطريق ملآن بجنود الفرس ولن يرعى الجند أيام الحرب حق أحد أو كرامته ، والطريق فى البحر كالطريق فى البر مصون بكشافة الاسطول الرومى ، ولا بد أن يظنوا انه

دسيسة أو جاسوس ، فيؤذوه وربما قتلوه قبل ان يستبين لهم أمره .

فلما لم يظهر أثر لسفارة الضابط الرومى — اذ كان فى الواقع قد قضى نحبه ثانى يوم دخوله الاسكندرية فى هجمة كانت للفرس على أسوارها — وطال الانتظار قصر حبل الصبر من الحارث وعزم أن يجازف . ولكن وكيل الدير لم يرض له هذا حتى يدبّره على وجه أنفى لشرور فى الطاقة تجاوزها . ذلك بأن يركب الحارث وصحبه احدى السفن الشبيهة بسفن الصيد وينضم باسمه الى الصيادين اذا خرجوا فى العصر الى البحر الأعظم وينزلج الى ميناء لوكياس . نعم أنه لن يلق هناك من رجال الاسطول برا سريعاً ولكنه يتفادى بعمله هذا احدى العقبتين بل العقبة الكبرى ، أى نواظير الميناء الغربية ، الذين يتعاملون مع الجمهور فهم لهذا شديدو الحرص ، شديدو الارتياب فى كل انسان ومحال أن يأذنوا بمرور أحد لا يكون ممن يسمح لهم بارتياد البحر . وهيهات ان ينجو الحارث من سوء ظنهم وعقابهم العاجل مهما كان بريئاً .

التمسوا الوسيلة الى ذلك . وكتب وكيل الدير بخطه وخاتم الدير شهادة بأن الحارث غريب جاء يلتمس أهله فى الاسكندرية وأنه من ذوى الصلة والقرابة بسمو الأمير . ورجا ممن يطلع على كتابه من اليعاقبة ان يساعده على بلوغ ميناء لوكياس . وخرج الحارث ونعيم وزياد فى السفينة على نحو ما دبر الوكيل . وكانت الرقعة التى كتبها قمينة بتحقيق تدبيره على وجه أكمل

بلغ الحارث وصاحباه ميناء لوكياس . ويا هول مالقى : ما كاد رجال

الاسطول يلمحونه حتى خرجت اليه حراقة عليها نفر من شياطين البحر جمعوا سفينته اليهم ونزل بها ثلاثة رجال شاهر بن السيوف يسائلونه من هو؟ ولم جاء؟ وكيف جاء؟ ولم ينتظروا حتى يجيبهم ، بل تعاوروه ونقلوه هو وصاحباه الى سفينتهم ، وانزلوهم فى غرفة مما يعد لسجن الجنود حتى ينظروا فى أمره

كانت أوامر ضابط الميناء الأميرى شديدة جداً ، ولذلك كان فى استطاعة الحارث أن يدنو بسفينة من الاسكندرية حتى يبلغ الأرض ، دليل على تقصير كشافة الأسطول فى اداء واجب الرقابة . ولذلك أرادوا ان يخفوا أمره عن ولاة الأمر بل فكر بعضهم فى اغراقه هو ومن معه اخفاء لتقصيرهم . ومال الرقباء الى الأخذ بهذا الرأى وتنفيذه ولكنهم جلوه حتى يدخل الليل فينفذوه فى خفاء . ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان أحد . ذلك أن هؤلاء الرقباء خطر لهم أن يفتشوا حقائب الحارث وزميله ليأخذوا مافيها فلما جاء الليل نزلوا الزورق الذى جاء فيه الحارث وتعجل أحدهم فى الانتقال اليه وزلت قدمه وهوى فى البحر . واذ كان يحاول النجاة أمسك بجانب الزورق فقلبه بمن فيه ممن سبقوه وغرقوا أجمعين قبل أن يتنبه اليهم أحد .

ولكن الحارث بقى فى سجنه هو وصاحباه يومين كاملين منسيين لايذوقون طعاماً ولا شراباً وكادوا يقضون جوعاً ، حتى اذا رأوا سفينة كريمة داخلة الميناء عليها علم القسطنطينية ، خطر لهم ان ينبهوا

اليهم من فيها فنادوا بأعلى أصواتهم : أيها الامراء انظروا الينا وانقذونا انا محبوسون هنا منـذ يومين وسنموت جوعاً ! هـذا ما قالوه ولـكن لم يسمع كلامهم أحـد ، فقد كان رجال الاسطول يحيون القادمين ساعة دخولهم فلم يلتفت اليهم أحد اذ زعموا انهم كانوا مثلهم يحيون .

فلما مرقت السفينة الامبراطورية القادمة ، وهدأت الأصوات عادوا الى الصياح فالتفت اليهم بعض رجال الاسطول . واذ رأوا اشباحاً غريبة السحنة عنهم والزى دنوا منهم وسألوهم فانبرى الحارث يروى قصته على النحو الذى رآه أمثل به . وسرعان ما انتقل اليهم بعض ضباط السفينة وأخرجوهم وساروا بهم الى أمير الميناء

كان أمير الميناء رجلا مهـذباً ولذلك ما سمع نبأهم حتى اعتذر اليهم مما لقوا واكرمهم بما وجب وأمر لهم بحساء ساخن ثم بطعام وسمح للحارث ان يكتب ما يشاء للمقوقس ليرسله اليه

الفصل السادس والاربعون

نقض الصحيفة

لم يجد رسول نيقتاس أبا لمياء فى جدة. وخبّره أهل الميناء أنهم شاهدوه يركب سفينة مصريه إلى عيذاب منذ أربعة أشهر. وإذ كان الرسول معروفا لهم بأنه بريد فقد أشاروا عليه أن يسلم الرسالة إلى ولده النضر ويفرغ من أمرها ، مادام راحلا إلى مكة لتسليم رسائل أخرى إلى بعض أهلها. وقالوا له : لعل النضر يستطيع أن يجيب عليها بما يرتاح إليه فؤاد المرسل أو يدله على مكانه أو يفيده بما ينتفع به المرسل من الأخبار

على هذا رحل البريد إلى مكة وقصد إلى بيت النضر ، فلما استأذن عليه ودخل وجده فى جماعة من أعيان مكة تبدو عليهم سيماء الكآبة والغيظ وكأنهم كانوا يتحدثون فى أمر جلل قطعه عليهم البريد بدخوله ، فنظروا إليه جامدين وهو يحييهم ثم رد النضر تحيته مقتضبا ولم يدعه إلى الجلوس . فجثا الرجل على ركبته وأخذ يقول : إنى رسول سمو حاكم مصر ، جئت إلى السيد الحارث بن كلدة برسالة من عنده . ولكنى لم أجده فى جدة كما قيل لى . قال النضر : هات الرسالة فأعطاه الرجل إياها واستمر جاثيا ينتظر جوابا : فلما نشرها النضر ليقرأها وجدها بالرومية فطواها ونظر إلى البريد مغضباً وقال : أنا لا أعرف الرومية . تتركها الآن حتى

نجد من يقرؤها لنا و يترجمها . قال أحد الجلوس : لعله يعرف القراءة بالرومية أتعرفها يافتى ؟ قال : لا . إنى عربى الأصل و إن كنت أتكلم الرومية قال : فهل تدرى فيم كتبت ؟ قال : خبر سار . إن مولاى الامير نيقتاس



يخبر سيدى الحارث بزواج ابنته حفيدة العالم قوزمان من كبير حراس قصره وهو فتى من أصل عربى شريف ، عظيم الهمة أصبح لفضله وأمانته و بره بمولاه صاحب الكلمة العليا فى قصره قال: مااسمه ياترى ؟ قال : اسمه ورقة بن صليح قال النضر مشدوها ونهض من مجلسه قليلا : مااسمه؟! قال البريد : ورقة بن صليح !قال: ابن الجارية والنجار القبطى! أهذا هو الخبر السار الذى جئت به . انه لأسوأ خبر . فأخذ الرجل بما رأى من استيائهم ولم يجب وأخذ يقلب وجهه من الجالسين من طرف الى

طرف ، فرأى النضر قد استطال وجهه وفمه وجمدت أصابعه على الطومار وحاول أن يتكلم فانعقد لسانه ، وخشى أحد الحاضرين أن يخرج الوجد بالنضر ،لما رأى من فرط مادهاه لدن سماع هذا النبأ، فيؤذى الرسول

فأشار الى الرسول بعينه أن يتراجع ويحاذر . ثم مال على النضر ومد يده ليأخذ منه الطومار الذى كتبت عليه الرسالة ، ولكن يد النضر كانت قد شلَّت فلم يقو صاحبه على استلال الرسالة من قبضته إلا بعلاج طويل كاد يتلفها . وكان هذا حليفه فى الشرّ والفساد وأذى المسلمين : عقبة بن أبى معيط . جاءه منذ هنيهة يبلّغه خبر سوء عظيم ، فاجتمع السوءان على النضر فى وقت معا ، ولذلك أصيب بشىء من الفالج (١)

أدرك ابن معيط ذلك فأرسل من فوره إلى حجّام ليحجم النضر وجاء وحجمه وحملوه إلى داره

أما المصرىّ فخرج يبحث عن بيت باقوم ليسلّم إليه رسالة ورقة . وكان منذ دخل مكة يرى على قرب منه غلاما فرهاً يسايره وهو يتطلّع إليه ، فلم يهمّه أمره وحسبه فضوليا يتعجّب لملبسه ، فابتسم وسأله عن بيت الحارث بن كلدة فتطوّع الغلام ليدلّه عليه وسار أمامه حتى إذا بلغه ودخله الرسول — وقف الغلام بالقرب من الباب ينتظر خروجه . فلما خرج عاد يسايره . فقال الرسول : ألا تزال هنا ؟ قال : أنا فى انتظارك ياسيّد . هل لك فى مروءة ؟ قال : فيم ؟ قال : تأخذ هذه الدراهم وتشترى لى لحما وخبزا.

---

(١) ورد فى كتب السيرة ان الله جزى النضر بكتابته صحيفة مقاطعة بنى هاشم شللا أصابه فى أصابعه

إن أبي جائع ، وأمي تكاد تموت من المسغبة . قال : وما يمنعك من أن تشتري أنت بمالك ما تشاء ! قال : إني من موالي بيت رسول الله . قال: وهل لا يليق بموالي بيت الرسول أن يشتروا كما يشتري موالي غيرهم ؟ أم أنهم لا يتنزلون للشراء بأيديهم ! قال الغلام : ليتهم كموالي أخس الناس في مكة . إنه محظور عليهم أن يشتروا لسادتهم شيئا من أسواقها . إن النضر بن الحارث وصحبه الذين رأيتهم معه وسائر قريش قد أجمعوا على مقاطعتهم ، وهم يعرفوننا نحن موالي بيت بني هاشم جميعاً فلا يبيعوننا شيئا ولا يعاملوننا . ولذلك فإني أخرج كل يوم إلى باب العمرة (٢) في انتظار الأجانب عن المدينة فأساعدهم فيما يلتمسون وأرجو منهم في مقابل صنيعي أن يشتروا لي بنقودي طعاما لسادتي من سوق حزورة هذه فآخذه إليهم قال المصري : إذا لم يكن في ذلك بأس فهيا . هات دراهمك . ماذا تريد ؟ قال الغلام : لحماً وخبزا وسمنا . ولكني لا أستطيع أن أقف بجانبك لئلا يعرفوا أنك تشتري لي . سأنتظرك عند باب الصفا الذي يرى في آخر هذا الدرب فاذا اشتريت وعدت فسر في الدرب حتى تلقاني أو ألقاك . وهناك سأسير أمامك فتتبعني حتى آخذ منك ما تشتري . قال المصري : هذه مهمة شاقة . فقال الفتى : إلا على مروءتك . إني أراك كريم النفس . قال : شكرا لك . ولكني أريدك لأمر آخر . قال : ماهو ؟ قال : أتعرف بيت رجل رومي اسمه باقوم . قال الغلام : نعم ، بل أنا من أهل بيته عينا

(٢) هو صوب جدة

فماذا تريد منه ؟ قال : عندى له رسالة من ولده . قال الغلام : ورقة ؟ قال نعم . قال : أهو حىٌّ ياسيدى ؟ قال : حىٌّ يرزق ، وهو اليوم أمير كبير ، وهو الذى كتب هذه الرسالة . قال : هو سيّدى ومولاى . أهو عائد إلى مكة ؟ قال : يعود إلى مكة ! لا لن يترك ما هو فيه من العزّ والنعيم فى الاسكندرية ويأتى هنا إلى بلد ليس فيه طعام ولا شراب . قال الغلام : سأركض ياسيّدى أخبر والده وأمه بقدومك ريثما تشترى الطعام وأعود إليك قال : افعل . سأنتظرك حتى تجىء . قال : بل سأنتظرك

كان هذا الغلام رؤبة غلام القرضاب الذى أنقذه ورقة ، أغرى أمه بالحج ليأتى معها إلى مكة ويرى سيّده وصديقه الذى تعلق به قلبه ، فجاءا ونزلا فى بيت باقوم ، ثم أغراها بالبقاء فى مكة فقبلت . ورأت العفيفة فى وجودهما فى بيتها شيئا من السلوى ، فعرضت عليهما أن يبقيا معها فقبلا ذلك شاكرين وعاشا معها منذ ذلك الحين يعملان فى خدمتها وفى خدمة مولاتها أم المؤمنين

عاد رؤبة إلى دار باقوم ليخبره خبر مجىء رسول من عندورقة بكتاب وأبلغه ما سمع من الرسول من أمر ورقة وأنه صار أميرا فى قصر الملك فى الاسكندرية فزغردت تماضر وأم رؤبة فرحا بما سمعنا ونهضتا لاعداد مكان للضيف البشير ، وخرج رؤبة للقائه كما اتفق معه ، وإذا به يسمع زئاطا كبيرا وجلبة واردة من أندية المشركين حول الكعبة ، ورأى قوما يتراكضون نحو شعب أبى طالب وهم يهلّلون فرحين ، فاستوقف القطيع

منهم قائلا : مهلا ! مهلا ! لن تكون الأسبق بعد ما فاتتك الكرائم فكن الأول فى إخبارى بما لديك . فضحك المحادث وكان يعرف أنه من أهل الشعب مثله وقال له : إن المشركين اختلفوا فيما بينهم على أمر المقاطعة ، وذلك على أثر الآية العظيمة التى أظهرت صدق رسول الله . قال : ماهذا ؟ قال : إن أبا طالب خرج من الشعب إلى الحرم فاجتمع الملأ من قريش وقال لهم : إن ابن أخى أخبرنى أن الله أرسل الأرضة على صحيفتكم التى كتبتموها فيما بينكم لمقاطعتنا فأكلت مافيها من قطيعة رحم وظلم (٢) وتركت اسم الله تعالى لم يُمَسّ فأحضروها ، فان كان ابن أخى صادقا علمتم أنكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا ، وإن كان كاذبا علمنا أنكم على حق وأنا على باطل . فقاموا سراعاً وأحضروها من جوف الكعبة حيث كانوا علقوها لتكون حجة على المشركين فيما بينهم ، فوجدوا الأمر كله كما قال رسول الله . فقويت نفس أبى طالب واشتد صوته وقال . قد تبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة . فنكسوا رءوسهم ثم قالوا : إنما تأتوننا بالسحر والبهتان . وأرادوا أن يتملصوا من هذا البرهان العظيم . ولكن قام من بين المشركين نفر من أجوادهم منهم هشام بن عمرو ، وزهير بن أمية ، والمطعم ابن عدىّ ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأعلنوا نقض الصحيفة (٣) ونادوا فى مكة يقولون : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام

---

(٢) كتب السيرة

(٣) ابن الاثير وكتب السيرة

ونلبس الثياب و بنو هاشم هلكى لايبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ ألا لتفتح الأسواق لهم ، ويكن لهم فيها مالنا . وكنا ذاهبين لنخبر مولاتنا أم المؤمنين بهذا الخبر ، وكنت أرجو أن أكون أسبقهم إلى ذلك فإذا أنت تمنعنى .
قال رؤبة : يجب علينا أن نحمد الله على برهانه وعلى انتهاء ضائقة المسلمين .
ثم ودّعه وانصرف فى طريق صاحبه

وكان قد سبق لمن نقضوا الصحيفة أن اجتمعوا فى بيت النضر بإخوانهم من المشركين وتذاكروا فى شأن نقضها مع أبى جهل والنضر وابن أبى معيط عندما علموا بقدوم أبى طالب وما لقى إخوانهم بنو هاشم من الأذى طوال السنوات الثلاث التى قضوها فى الشعب ، وأعلنوهم بعزمهم على نقض الصحيفة . فرماهم هؤلاء بالنكوص والخيانة ، وحدث بينهم فى بيت النضر ماحدث من التشاتم والتنابذ قبل مقدم رسول نيقتاس . فلما خبّره خبر زواج لمياء من ورقة كان فى خبره الصّدمة الكبرى لفؤاده فأصابه ما أصابه

علت الزغاريد فى حى بنى هاشم ، وتوارد الموالى على الأسواق يشترون ويستبضعون وهم آمنون . وشهد رسول نيقتاس هذا فسره الأمر ، ولكنه كان قد اشترى حاجة الغلام وخرج بها فلقيه قادما عليه وهو مطمئن فهنأه بما كان ، وشكره رؤبة على فضله وأبلغه أن باقوم فى انتظاره

قضى المصرىّ يومين فى مكة كان فيهما محل الرعاية من باقوم وتماضر وبلال وزيد بن حارثة ، وذكر فيهما زواج ورقة من لمياء بنت الحارث

بفضل الأمير ، فزغردوا فرحا وسروراً ، وذكر ما يلقى من رعاية الأمير وما بلغ إليه من العزّة والمكانة ، وخبرّهم أن فى نية ورقة أن يأتى بأهله إليه عندما تستقر الأمور فى الاسكندرية ، وطمأنهم عليه قولا بأن الفرس يوشكون أن يتركوا المدينة يأساً من حصارها ، وأيده ياقوم فى هذا الرأى . وكان بلال يسائله : هل رآه يصلي ؟ قال : إنه لم يره يصلى ، ولكنه علم من الجنود الذين تحت أمره أنه يصلى مرتين فى اليوم بعد أن يغتسل اغتسالا خاصاً لهذه الصلاة . والأمير يحبه لهذا حتى لقد قيل إن الأمير يصلى معه

لم يكن هذا صدقا فيما يختص بالأمير ، ولكن حبّ الجنود لورقة وتأثرهم بما يروى عنه وما يعلمون من تمام صلاحه وارتياح الوالى إليه جعلهم يتقوّلون أشياء مما ينسجم فيما يعلمون . وعند ذلك عنّ لبلال رضى الله عنه أن يهدى القبطىّ رسول نيقتاس إلى الاسلام ، لأنه عربى من مواليد الإسكندرية اليعقوبيين ولذلك لم يغادر رسول نيقتاس مكة حتى كان قد أسلم وصلى واخاله لقى رسول الله مبايعا ومتمليا من نوره ومعاهداً له على التوحيد والأمانة لله

وكان رؤبة قد هامت نفسه شوقا إلى صديقه وسيده ورقة واشتهى أن يراه ، وألحّ على أمه فى ذلك . ولكنها لم تكن تستطيع أن تجيب هـذا الرجاء على الفور حتى ترى رأى من معها ، وكان الجمع قد سمعوا قصته فوافقوا على سفره مع الرسول تحقيقا لرغبة الغلام الوفىّ وليكون فى خدمة ورقة فى وحشته .

ولذلك زوّدوه بما يجب للطريق من المال ، وحمّله كل منهم رسالة إلى سيده ورقة . وخرج به الرسول عائدا إلى الاسكندرية من طريق الصحراء فالبحر فميناء لوكياس ومنها دخل الى القصر بفضل ما معه من جواز المرور وبأنه من برد القصر المعروفين .

———*———

الفصل السابع والأربعون

باب القمر

طال وقوف الجيوش الفارسية وراء أسوار الاسكندرية يحاولون تهديمها بالمجانيق ومدافع النار الاغريقية فلا يستطيعون أن يزعزعوا منها حجرا . وكلما دنوا من الأسوار بدباباتهم المصفحة بالحديد يحاولون اعتلاء الأسوار بما يلقون عليها من غلالات من النار ليزحزحوا عنها حماتها انصبّ عليهم من أبراجها شواظ نيران مثلها تفتى راكبي تلك الدّبابات من جنود الفرس والعرب الذين اقتحموا أسوار القدس منذ عهد قريب ، وجيء بهم لينالوا مجدا آخر على الروم بفتح الاسكندرية . ووقف السلار شاهين أمام فسطاطه القائم على تبّة فى تلال نيكر و بوليس (١) ينظر إلى بابها الغربى ـ باب القمر ـ نظرة الغيظ والحنق بأن هـذا الباب شهد هزيمة جنوده وفناء جموعه ، و يعجب كيف تقوى الأخشاب ولو كانت مصفّحة على مقاومة الألوف من الجنود والألوف من الأحجار التى كانت مجانيقه ترميه بها لتكسر مصاريعه أبد الأشهر الثمانية التى قضاها حتى الآن فى محاولته فتحه . وأخذ يتخيّل فى عجزه وضيقه أخيـلة لفتح الباب ليس تحقيقها فى مقدور إنسان، ولـكنها أخيلة مما يزيد به العقل يأس اليائس، فيقول : لو كان فى الطاقة أن يكون فى

---

(١) ناحية المكس والقبارى

قدرة المجانيق رمى قذائفها فوق الباب والسور وتنعطف هـذه القذائف وتلتوى فى سيرها ثم تجرى بعد ذلك راجعة فى خط مستقيم لتضرب الباب من الداخل حين تضربه قذائف أخرى من الخارج لأمكن دقه وتهشيمه. ولـكنه كان لا يقف عند هذه الأمنية ليتأملها بل ينتقل إلى أمنية أخرى فيقول: لو كانت الزلازل تأتى الآن فتهز الأرض هزة تتشقق على أثرها جدران السور أو تندك لوجد الانسان إلى الاسكندرية ألف باب يدخل منها. ولـكنه كان يقف عند هذه الأمنية مدة أطول من وقوفه عند الأولى فقد قال له بعض القساوسة اليعقوبيين الذين بكروا إليـه يرفعون آيات ولاء اليعقوبية لممثل ناصرها الأعظم كسرى أبرويز زوج مارية التقية النقية التى عرفت دين الحق فأعلنته، واخذوا يتبارون عنده بالعلم بتاريخ البطارقة والأديار: إن جزيرة أنتر رود (٢) وأخواتها من الجزيرات التى كانت عليها قصور البطالسة قد هبطت فى البحر هى و بعض الشاطىء القريب بفعل الزلازل. فقال السلار فى نفسه: لماذا لا تهبط الأسوار كذلك بفعل زلزال شديد أو غير شديد ما دام يشقق السور ولو قليلا، حتى إذا ضرب الشقوق بالمجانيق تناثرت أحجارها، وهيأت له طريقا بل طرقا ينصب منها ألوف الجنود فى المدينة، و يغرقون حاميتها القليلة العدد!

والواقع أن هرقل كان منذ سنوات قد استنفد جل من كان فى

---

(٢) كانت فى الميناء الشرقية من شرقيها ويمكن رؤيتها تحت الماء فى بعض أيام صفاء الجو واطمئنان البحر

الاسكندرية من جيوش الروم التى كانت تحميها . طلبها لتساعده على حماية القسطنطينية من شاه ورز قائد الفرس هناك فأرسلت إليه . وكان يظن أنه إذا قدّر أن تتغلب الفرس على أسوار القدس وينصرفوا إلى الاسكندرية وهـذا مالم يكن يظن هرقل إمكانه — فقد يكون لديه متسَّع من الوقت لاعادة جنودها إليها ليحموها ، وإرسال نجـدات من عنده تلو نجدات . ولـكن سوء حظه لم يمكّنه من تنفيذ هـذا التدبير ، لان قائد الفرس شاه ورز الذى اكتسح الروم عن الاناضول برمّتها يحاول العبور (٣) اليها فلم يكن فى طاقة هرقل أن يردّ جنـديًا واحدا إلى الاسكندرية ، بل إنه على العكس من ذلك أرسل إلى نيقتاس يستنجده ويستقيه ويطلب إليه أن يرسل إليه بعض المسترزقة الذين جمعهم من صحراء لو بياوسينا للدفاع عن الاسكندريّة ، ما دامت الاسكندرية آمنة وراء حصونها التى أعجزت بونوسوس نفسه وأعجزت حتى الآن السلار شاهين نفسه ، وهو الذى دكّ حصون أورشليم . ولـكنّ نيقتاس لم يستطيع إجابة سؤل مولاه وردّ معتذرا (٤) بأن سبيل التطوّع قد قطع عليه ولم يبق لحماية قصره إلا حرسه

---

(٣) كانت دولة بيزانطة تدفع جزية سنوية للترك فى أيام الامبراطور موريقوس لحمايتهم من جيرانهم الفرس وغيرهم فلما قتل قوزمان فوقاس بدعوى أنه أذل بيزانطة للترك وجد الفرس فى ذلك فرصة للقضاء على الروم . ولم يستطع هرقل أن يعود إلى التماس حماية الترك خوف المعره فى شعبه حين كان الفرس يتألفون الترك . فاندحر الروم ولم يعودوا ليغلبوا سنة ٦٢٨ حتى لجأ هرقل الى الترك يطلب حمايتهم كسلفه ، وكان كسرى قد سرح جيشه العربى الذى أعطاه النصر.

(٤) براشيا وبطلر وجيبون نقلا عن سترابو وغيره

من الزنوج (٥) وأرسل ورقة وأورست برسالة وبيانات فذهبا إليه كما قد رأينا ، وعادا بوعود لم يتحقق منها شيء ، أو بالأحرى لم ينفذ منها إلا ما أباح الامبراطور لنيقتاس عمله إذا أخذ اليأس يتولاه .

ذهبت تلك الأخيلة مع الريح ولكنها زادت في غيظ السلار وضيقه ساعة كان جماعة كبيرة من قساوسة أديار اليعقوبية على رأسهم تيوناس وكيل البطريق يسيرون إليه في جبابهم الكهنوتية الفضفاضة يرفع بعضهم صلبانا من الفضة وأخرى من الذهب ، ويحمل بعضهم نسخا غالية من الكتاب المقدس مما بذل الرهبان وقتا طويلا في تزيينه بماء الذهب المشرق الجميل ، وبالرسوم الملونة التي تشرح الصدر. جاءوا إليه ليدعوا الرب عنده أن يفتح عليه ويعطيه النصر الذي طال انتظاره .وهم يقدمون لهذه الصلاة في الطريق إلى السلار بانشاد الاناشيد وترتيل التراتيل ليثبتوا له ولاءهم باستعجال الثالوث المقدس لتحقيق ما يجب عليه تحقيقه من أجل عيونهم لاكتساح دين الكفر الرومي الذي يقول بان جسد المسيح (عليه السلام) لايفنى ! ويرون أن هذا القول كبير جدا وكفر جدا ويجب لتطهير البلاد منه ، أن يعطوا الفرس — الذين لا يعترفون بشيء من دينهم حتى ولا بان المسيح وجد — بلادهم كلها وأعناقهم حتى التراقي أملا أن يتمكنوا في ظلال نارهم من نشر الدين الحق الذي لا يمكن إلا ان يكون دينهم . ويرى غيرهم أنهم انما يقدمون المثل من حيث لايشعرون على أن الدنيا ما شقيت

---

(٥) بطلر وجيبون

بشيء شئونها بأمثـال حضراتهم إذ يبيعون أوطان الشعوب ويسلمون للفاتحين رقاب الناس واعراضهم من أجل أن يحتفظوا هم بأوطانهم الخاصة — الاديار والمعابد والضياع والمزارع — وتتحمل الشعوب بعد ذلك وزر عملهم وسوء آرائهم وفضيحة التاريخ لهم ظلما وتعجلا من الـكاتبين فى الحكم . فالواقع أن كهنوت كل أمة كان هو المسيطر على شعبها المتصرف فى شئونها يسوقهم فى كل سبيل ويقضى فى حاضرها ومستقبلها بما لا يتفق الا مع مصلحة القساوسة الخاصة ، ولا تملك الشعوب أن تعصى لهم أمرا أو تعرف وجها لدفع آذاهم عنها لأن طاعتهم فيما وقر فى قلوب الشعب ، من طاعة الرب الذى أسلمهم أسواط الحرمان والطرد وأعطاهم باسم كل مااختلقوا من القوانين والشرائع حق الحيلولة بين الرجل وامرأته والوالد وأولاده . على أن الشعب المصرى لم يشترك مع هؤلاء القساوسة فى شيء اللهم الا خدم الأديار ومن كانوا يحيطون بهم من جيرة الحىّ . أما الفلاحون والصناع فلن يكونوا يرون معنى لهذه الوفود ولا هذه الصلوات والتراتيل . وإذا كانوا قد تراءوا باغتباطهم فهو تراء لدفع الأذي الناتج عن أنفسهم أو هو مشايعة منهم لقساوستهم الذين يدعون لأنفسهم فى كل زمان الرشد والاخلاص وحق الولاية على الناس ويتبجحون بأنهم أعرف بالواجب

على أن هذا الوفد المقدس لم يجئ هذه المرة باختيار أعضائه كلهم بل نزولا على إرادة زائر كريم واسقف من أكبر اساقفة اليعقوبية هو أسقف نجران الهرم المريض . علم من الركبان بدخول الفرس مصر فوجد الهمة

والصحة والشباب لتحمّل مشقة السفر فى البيداء والجبال على ظهور الجمال ثم فى السفن ليأتى من أقصى الأرض ليلتق أمير الفرس ويقيم عنده أجرّ صلاة . كان وصوله الى دير الهانطون على أثر خروج الحارث منه بقليل. وكان لمقدمه هو وقساوسته ضجة فرح عظيمة فى الدير بلغ صداها مسامع الرهبان فى الاديار المجاورة فجاءوا يسلمون على زميلهم القديم وممثلهم الأعظم فى بلاد العرب ويصلون معه صلاة شكر حارة للرب على وصوله سالما واجتماعهم به فى يوم سعيد جدا هو يوم الأمل القريب بزوال مذهب الكفر الرومى الذى استولى على أكثر ما كان يجب أن يكون لهم وحدهم من الارزاق والطيبات.



ولذلك دعاهم الأسقف المحترم الى تنظيم موكب كبير يسير الى السلار فى

معسكره ويقيم الصلاة أمامه ويدعو بأدعيته الطيبة لتعجيل يوم انتصاره على الروم ويمهدوا لذلك بانشاد أعذب التراتيل على مسمع من البحر والسماء .

صوت الغناء فى أذن المحنق المغيظ يزيد فى الهه وغيظه ، ولمع الذهب والفضة و إشراق الملابس الزاهية بألوانها يؤلم المحزون إيلاماشديدا . ولذلك كانت أصوات ذلك الوفد التقى والوان ارديته الرسمية و بريق المعدنين الكريمين — مؤلمة لنفس السلار الأعظم ، حتى لم يجد بدًّا حين عرف من القادمون وعرف غايتهم أن يعاجلهم برسول يقول لهم : اسكتوا ! إن السلار لايطيق سماع هذه الأصوات . فسكتوا وقطعوا بقية الطريق إليه كقطيع من التيوس المنعّمة فى زرائب الأغنياء

وكان السلار قد اشتد به وجده إذ يجىء هؤلاء السادة ليشكروا الربّ على مجيئه و يدعوه أن يفتح عليه بفتح الأسكندرية وقت أن كان قد استقرّ رأيه على تركها كما تركها بونوسوس ، ولكنه كتم مافى نفسه ، حتى إذا بلغ وفد الرهبان حظيرته وحيّوه بأكرم الدعوات وأغلاها لم يرد عليهم بل وقف صامتا وهم صامتون ولم يسمح لأحد منهم بالجلوس . وظل ينظر إليهم مفكرا شارد الفكر يريد أن يجيبهم بالحقيقة التى فى نفسه ولكنّه امتنع . وخيّل إليه أنه كان يقول لهم : أيها القوم الذين بليت بأمثالهم كل الشعوب فى كل أرض ، إنىّ ماجئت أنصر دينا على دين . و إنه لايهمّ الفارسىّ الذى يدين بدين ميثرا — وإن كنت لاأومن بميثرا ولا

بغيره — أن يعلو فى مصر غير دين ميثرا. ولن يكون منا يوم يتم لنا النصر إلا التسامح مع أرباب كل دين. فأمّا أن يكون لـكم ميزة خاصة. فلا: إننا جئنا هنا لنمتلك البلاد وندخلها فى سلطة ملك الملوك كسرى أبرويز لا ليـكون لنا بأديارِكم وكنائسـكم علاقة ما دمتم لا تحدثون ما يعرقل أعمـال الملك . كل ما نطلبه إليكم أن تقبعوا فيها كما قبعتم حتى الآن . لا يكون لـكم بأهل هذا البلد ومصالحه الدنيوية شأن بتاتا . ماشأنكم أنتم بالملك وتدبيره والحكومة وتصرفاتها ! وأنتم بعيدون عن الدنيا بأديارِكم . ثم طال سكوت السلار وسكوت الوفد فى انتظار كلامه ، وقد أخذ الذعر يعتريهم حتى نطق فقـال : شكراً لكم أيها الوفد الذى جاء لولائه لكسرى يصلى لربّه ويدعو بنصر سيوفه على الروم . هذا يدل على كرهكم الروم وبحق ماتكرهون لأنهم ظلمة يتدخلون فى أديان الناس ويريدون حملهم على دينهم فان لم يستطيعوا اضطهدوهم كما اضطهدوكم ، وحرّموا عليهم العيش مثلهم . وليس هذا من العدل ولا من واجب الحكومة والسداد . فصاح الوفد مهللين لهذا الـكلام الجميل واستمر شاهين يقول : أما ملك الملوك كسرى العظيم العـادل فانه لا يميز دينا على دين ، بل الناس عنده سـواء لانه لم يأت لذلك بل ليجلى الروم عن هذه البلاد ، ويحكمها بما فيه الخير للناس جميعـا . وستزول بطرقتهم بزوالهم ، ولو بقيت ما مسها بسوء . ولـكنها ستزول فافرحوا إذن . والآن ، اذهبوا إلى أديارِكم ، وصلّوا ما شئتم هناك ، ورتلوا ما شئتم فأنتم فى أمن . ولـكن حذار أن يهزأ رهبانكم ومن لجأوا من الشعب إلى الأديار مرة أخرى بجنودى

ويلقوا عليهم الأحجار والأوضار ، وإلا رددت إلى الدنيا الأرض التى تقوم عليها أديارکم ليزرعها الناس ويأتوا للدنيا بالخيرات

فانبرى بعض القساوسة يعتذرون بمافضل السفهاء ويلتمسون منه الصفح ولكن كلام السلار لم يعجب أسقف نجران بل خيّب أمله الذى من أجله جاء من أقصى الأرض فقال للسلار : ولكن مولانا کسرى أبرويز قدعقد مجمعا (٦) معجلا منذ أيام فى القدس ليعرف أى مذاهب المسيحية هو الحق فوجد أن دين اليعقوبية هو الصحيح . ولذلك أعلن الناس بضرورة اعتناقه ليكون دين الدولة لا دين سواه ، وكلام السلار الأعظم ينافى رأى ملك الملوك

فأدرك السلار ما فى طىّ هذا الردّ من الامتعاض والجراءة ولكنه كظم غيظه وقال : لقد أخطأ من بلّغك أنه أمر فى ذلك بشىء . قد يكون اتضح له ان دين اليعقوبية أقرب إلى العقل من سواه ، ولكنه لم يأمر أن يكون دين الدولة ، فانه لا يريد أن يشغل نفسه بما لا يهمه . ولذلك أذن لمودستوس وهو من بطارقة الروم أن يعود إلى القدس ويعيد بناء الكنائس الرومية التى هدمتها الحرب وأعمال اليهود المزرية ومدّ حمايته لكل دين (٧) وسيحميكم أنتم أيضا . ويكون لكم من الشأن بقدر ما لغيركم لا أكثر بذرة ولا أقل بذرة . أم تريدون ياحضرات القساوسة والرهبان أن يجعل كسرى جيوشه تحت أمركم توجهونها فى مصلحتكم إكراما لذواتكم الطيّبة . انصرفوا فى إكرام وتحية

---

(٦) المجمع الكبير كان فى سنة ٦١٨ (٧) بطلر وجيبون

انصرفت ذواتهم الطيّبة حزانى لخيبة أملهم البالغة ، ولـكن أحدهم قال لهم : بل أنتم قد نلتم منه الأمان لأنفسكم ولدينكم ، وإذ لن يبقى فى مصر من أتباع مذهب الروم إلا نفر قليل فسيكون دينكم هو الأعلى ،ومن الواجب أن تعودوا إلى الدير مغتبطين ، وتتظاهروا بالمسرّة والحبور حين تعودون إلى الدور لئلا يشمت بكم من لم يروا رأى أسقف نجران فى الخروج إلى السلار !

فوافق الجمع على هذا الرأي ، ولـكنهم لم يشرعوا فى الترتيل والانشاد حتى دنوا من الدير الأعظم ،غير أنهم كانوا ينشّزون «تنشيزاً» قبيحا من فرط ما كانوا فيه من الغمّ ،ولذلك أقلعوا عن الترتيل قبل أن يصلوا إلى حظيرة الدير ، وضاعت عليهم التفعيلة البديعة التى كانوا قد نظّموا خطواتهم عليها ليدخلوا بها الدير العظيم دخول الفاتح المنتصر !

أما السلار شاهين فأخذ يحاسب نفسه على تلك الكلمات المرة ويقول: ترانى أسأت فى هذا اللقاء وقلت لهم ما كان يجب أن أقول سواه ؟ ولكن هل كان يجمل بى أن أكرمهم وأنا أمقت هؤلاء الناس وأمثالهم فى كل أمة وأعتقد أنهم أفسدوا العقائد الطيبة وأفسدوا الشعوب ،وأسلموهم للأذى المستمر ! ثم هل كان لى أن أقول ما ليس فى نيّة كسرى السير عليه فى حكم هذه البلاد ! إنه تسامح مع جميع الأديان وأذن لأهلها أن يعيدوا كنائسهم وبيعهم ، وضرب على أيدى اليهود ضربة ردّت كيدهم فى معامم (٨) . هذه هى السياسة الحكيمة وسأجرى عليها فى مصر إذا قدّر لى فتح هذا الباب

(٨) جيبون وبطلر

المستعصى و بقيت والياً عليها . و إذا قدّر لى أن أستقل بملك مصر — وهو ما أؤمّله — فأول ما يجب عليَّ أن أريح هذا الشعب المهيأ لكل عظيم من سلطة رجال الدين عليه . وثانى أمر أفعله أن أدله على أن الكرامة الصحيحة هى كرامة العقل . فمادام العقل حرا يفكر تفكير الراشدين و يحكم حكم المنطق و يلتزمه ولا يقبل سواه من أحد — فلن يغلب ولن يفرّط فى أوطانه كما رأيت ولن يفرحه أن يجىء ظالم جديد محل ظالم قديم . كل ما فى هذه البلاد من ضعف الهمة وقلة الشعور بالكرامة الوطنية — مرجعه أولئك المرتلون وما يوقّرون فى عقول الناس من ساعة أن يولدوا ، بل من قبل أن يولدوا : وهم فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى حين يوارون القبور — من عقائد تنبو بهم عن الدنيا ، وتهوّن عليهم ذلة الحياة وظلم الحكام . يوقرونها فى نفوسهم فى كل ظرف ويوقرون معها الذعر من تحكيم العقل والمنطق والتفكير الصحيح فيها ، ولذلك ينشأون أبعد ما يكونون عن الكرامتين : كرامة العقل وكرامة الفعل

إذا أصبحت ملكا على مصر فسأعيد دار الحكمة التى أوصى ببنائها استاذنا استاذ الراشدين أرسطو ، وكان لمصر بفضلها فضل أعظم على العالمين فان اسقاطه نظرية الروح أم الشرور والأراجيف لم يترك مجالا لفلسفة ماوراء الطبيعة الكاذبة المدلسة ولم يمكن الذئاب من أن يدعوا العلم بها ويقيموا أنفسهم ولاة وكهنوتا وقساوسة . ولكن واحسرتاه جرى عليها ما يجرى على كل شعب يترك كرامة العقل ليلحق بالأراجيف والأوهام فهدمها

الذئاب ليقيموا بدلهـا حظـائر للشـياه . سأعيدها وأصونهـا وأمنع أيدى العبث عنها وعن ديار مصر بلا أقل تسامح . سأعمل على نشر عقيدته الراشدة لأرد إلى هذا الشعب كرامة الأرومة العربية التى أفسدتها القسلوسة والـكهنة فى هذه الارض

ثم التفت إلى أسـوار الأسكندرية وإلى مجانيقه تدقها وترتد عنها . فقال : هيهات أن يتحقق هذا الحلم ، وهذه الأسوار تهزأ بقواى منذ حاصرتها . وهم لا يشعرون بحبس الطعام عنهم والخبز مادام البحر معهم يأتيهم بخيرات ماوراءه من بلاد الروم ، وفيه غذاء لا يفنى . وهاهى ذى سفائن الصيادين مجدة فى اصطياد خيرات البحر بالشباك فتموّنها ، وتلك تأتى إليها بما تريد من غلال . أما الخضر ففى كل بيت بستان وتحت كل بيت صهريج قدر البيت نفسه . بيد أن مطر هذه البقاع غزير فهى فى غير حاجة قصوى إلى مياه النيل . سيطول الحصار إذن وستطول آلامى . ثم تأوه ودار على عقبه يلتمس خيمته ، والهم يملـكه من كل جانب وإذا هو يرى على مدى غير بعيد منه رجلا فى زى الصيادين يتسلق الصخرة التى كان فسطاط السلار منصوبا على ساحتها و يعلوها .

ولمحه الحارس فجرى نحوه رافعا سيفه وهو يقول : مكانك يارجل ! من أنت ؟ فأجاب الرجل : صديق للسلار ، ثم رفع يديه برهانا على أنه لا يريد أذى . وكان السلار قد رآه فوقف ليتفحص حاله ، ولما رآه مأمون الجانب قال للحارس : أطلقه ، ثم كلمه بالرومية إذ كان السلار يعرفها ، يسائله عن

نفسه وفيم جاء ؟ . فرد عليه الرجل : إنه جاء ليسدى إليه خيرا قال لاخير تسديه الا أن يفتح لى هذا الباب . قال . وأنا جئت لذلك . قال شاهين : لخدمة دينك ؟ قال : لخدمة دنياى . مالى وللدين . أنا رجل ياسيدى مثلك ومثل كل ذى مطمع فى الحياة . قال : حسبتك قسيسا فان هذه الملابس ملابس الذين كانوا عندى الآن يرتلون وينشدون ، يريدون أن يقنعونى أن الترتيل يفتح الأسوار . لا . لايفتحها إلا تراتيل المجانيق بأصواتها المنكرة أو همس الهامسين بأنفاسهم المخبرة ، فبأى هذه الآلات تؤمن ؟ قال : لكل عهد إيمان ، وأنا أومن اليوم بالثانية ، هى أفعل وأسرع وأنجع . قال : هات . هات واطلب ماتشاء .



ما اسمك يا صاحبي أولا ؟ قال : اسمي بطرس البحريني : كنت شماسا وتركت هذه الحرفه ، ولكنني رجل أخدم العلم ، ولقد كنت أعمل من قبل أن تجيئوا على تهوين الفتح عليكم ، فقد لقيت إسحاق بن مرداس اليمني حين جاء هو والحبر لتدبير ثورة في الداخل تعينكم على فتح الأبواب من الخارج ولكن تدبيرنا لم يكلل بالنجاح . قال السلار : أعرف كل شيء فكيف تخدمني . قال : افتح لك « باب القمر » . قال السلار مشدوها و به نهزة الفرح : تفتحه ! قال بطرس : أفتحه بلا كبير عناء . قال : لعمري لو فعلت لأملأن زورقك مالا . كيف يكون ذلك ؟ قال : أما المال و إن كان عصب الحياة فلا يهمني . أمر آخر لا يكلفك شيئاً مطلقاً وهو كل شيء عندي . قال السلار : امرأة ورب . قال بطرس : أجل ورب امرأة ، تعطى لي سبيّة لتكون لي زوجة بالحلال . أنا لا أريد أن أسيء إلى من أحبّ . قال السلار : ليكن ذلك يابطرس ، ومعها ملء جيوبك وقلنسوتك دنانير . هذا عهد السلار شاهين يقطعه على نفسه باسمه واسم كسرى ملك الملوك . و إذا فتحت الباب تخذ من تشاء من جندي ليكونوا تحت أمرك وليستولوا لك على بيتها وعليها ، وعلى من تشاء فيه . قال : شكراً لمولاي السّلار ، وهاك المفتاح : أنت تعلم أن الاسكندرية غير أبوابها أبواباً على البحر ، منها باب ميناء قصر الحاكم الرومي ، ومنها باب ميناء الخليج الذي يأتي من النيل و يدخل الاسكندرية من جنوبيها . قال : نعم قال بطرس : هذا الباب يخرج منه الصيادون و يعودون بالسّمك لبيعه في

حلقة عند ملتقى الخليج بشارع كانوب الذى يقطعه آتياً من باب القمر هذاالى باب الشمس ذاك فى شرقى المدينة . قال السلار : علمت ذلك قال بطرس : وهذه الحلقةقريبة جدا من باب القمر لا تبعد عنه إلا مرمى السهم أو أكثر قليلا . قال السلار : أعرف ذلك . قال بطرس : ولكن الصيادين إذا خرجوا بمراكبهم لا يملكون أن يعودوا فى الفجر إلا إذا أعطواحراس هذا الباب كلمة السّر.وكلمة السرهذه كما يعلم مولاى السلار تجدّد كل ليلة . قال السلار : هل عرفتها ؟ . قال بطرس : أعرفها اليوم ياسيّدى. وبها تستطيع أن تدخل الميناء الليلة عينا إذا شئت ان تنتهز فرصة مرض صاحب المراكب ، فأنى لا أضمن أن يظل على مرضه فى الغد ، ولا أضمن أن أتمكن من المجيىء اليك كما جئت اليوم . قال السلار :وماذا تريد منى أن أفعل ؟ قال بطرس : تعد أو بعين رجلاً من رجالك الأشداء فى زى صيادين يحلون محل رجالى الذين صرفتهم الليلة عن الصيد بدعوى مرض رئيسهم ، حتى أدخلهم الميناء وأمرّ بهم إلى الحلقة . من هناك يذهبون أشتاتا إلى باب القمر فيقتلون حرامه و يفتحونهوتكون قدأعددت جيوشك للدخول فيدخلون بلا أقل عناء (١)

كانت فرحة السلار بهذا التدبير عظيمة جداً . ولكنه صمت يفكر ويتأمل بطرس متفحصاً ومقلبا الأمر على الف وجه ، ورأى أنه أمام رجل كل مافيه يدل على الخيانة ، وخشى أن تكون روايته احدى مكائدالحروب قصديها أذاه فأخذيسائله ليتبين أمره فقال له:وما كلمة السّر الليلة؟قال بطرس:

---

(١) بطلر

« الأمانة » . هى كلمة رهيبة يامولاى ولكن أنظر هل لى حق فى خيانة أمانة هؤلاء الناس ، أم لا؟ على أثر وصولى الاسكندرية فى طلب العلم ودخولى معهدها رأيت أحد اساتذته الروم يتألفنى تألفا لم يكن له فى نظرى مبرر يومئذ . ولكننى عرفت أن السبب فى ذلك ما نمى اليه من أنى من أسرة غنية فى منوف وأن أبى يرسل الى كل شهر مقداراً كبيراً من المال . فخطر له أن يرتزق من ورائى . وكذلك كان يبدى اهتماما بدراستى و يدعونى الى منزله ، وقدمنى إلى زوجته وابنته . وكان يسمح لى بالاختلاء الى ابنته لكى يثير فينا امنية الشباب . والواقع أنه تمكن بهذه الواسطة من ايقاظ حب شديد فى قلبى لهذه الفتاة حتى اوشكت أن أجن بها فعرضت عليها أن أتزوجها فقبلت وذكرت الأمر لأبويها فقبلا ولكنهما أجلا التنفيذ الى مدى . ثم اعلننى أبوها بأنه يخشى أن أترك ابنته وأعود إلى بلدى فى جزيرة منوف، وأنه لكى يضمن بقائى فى الاسكندرية يجب علىّ أن أبيع أرضى وعقارى هنالك واشترى بدلها من أرض مريوط واملاك الاسكندرية، وأن أكتب العقد باسمها ففعلت لفرط حبى لها. ولكنه أخذ يماطلني . ورأيت منه عين الغدر ومن الفتاة عين الرغبة فى الخلاص منى لانها أشتهت أن تتزوّج بمالى رجلاً من كبار رجال القصر . وعبثا ما حاولته لاتمام الزواج. وفى يوم من الأيام دعانى اليه ضابط الخفر وقال لى أنه محرّم علىّ أن اطرق بيت الرومىّ لأنه لايريدنى ولأن ابنته مخطوبة لضابط مثله ، وأنه اذا رآنى فى الحي الذى تسكن فيه خطيبتى فهو لايكتفى من الأمر بحبسى

وعبثا ماحاولته لاقناعه بهذا الظلم فقد أغرى الضابط بى جنوده فتعاورونى وضربونى وساقونى الى منزلى لآخذ منها ملابسى ، واخرجونى بها من الاسكندرية وانذرونى بالقتل اذا هم رأونى فيها بعد ذلك اليوم

خرجت ، ولكنى لم أطق البقاء خارج الاسكندرية بل أخذت أفكر فى طريقة للانتقام وأخذ خطيبتى ، التى أعلم حق العلم أنها تحبنى لولا سلطان أبيها عليها . ولذلك احتلت حتى عدت ، ولا اطيل عليك القول ـ فقد كان اضطرارى للاختفاء سبباً فى الالتقاء بجماعة من أهل كنيسة الانجيليون اليعقوبية وفئة من اليهود والاشتراك معهم فى العمل لاقامة ثورة فى المدينة تساعدك على الدخول . واجتمعنا فى بيت قديم .

فلما جاء ذكر هذه القصة التى يعرفها السلار تنبه وأخذ الشك يزايله من ناحية الرجل ، وقال له : قل . قل : فقال بطرس : اجتمعنا كلنا ومعنا أخد ولاة اليمن اسمه اسحاق بن مرداس . قال السلار : نعم ومن ؟ وحبر من أحبار اليمن أيضاً . قال : صدقت ، وكان معهما أموال وسلاح . قال : صدقت . قال : اذن لا أطيل عليك القول . علم بعضهم باجتماعنا وعرفنى المبلغ فأهدر الوالى دمى وطلبونى فى كل مكان فخرجت من المدينة هاربا ثم عدت واحتلت فى الدخول لانتقم . . اشتغلت حمالاً ثم صياداً أملا فى ان اعرف كلمة السر لاستفيد منها . واحسنت ثقة الرئيس بى لكى أتمكن من أن أنوب عنه عند الحاجة . ولكن هذه الحاجة لم تبد على عجل . فقد بقيت فى انتظارها خمسة أشهر . ومنذ أيام دعانى استاذى صاحب مرا كب

الصيد الذى اشتغل معه وعهد الى رياسة الصيد والأمرة لأنه مريض ولأنى محل ثقته دون سائر الصيادين وعرفنى الى ضابط المرفأ والجند الموكلين بحراسة باب البحر وملأهم بى ثقة . وأبلغهم انى وكيله وصهره المنتظر وإلىّ تعطى كلمة السر كل ليلة وتقبل منى لذلك . فهل ترانى على حق فى خيانة امانة اولئك اللصوص الكفرة ؟ قال السلار : على الحق الأعلى وانا واثق بك الآن كل الثقة . وسأعطيك عشرة من رجالى توجههم فى مصلحتك على هواك . قال بطرس : شكراً لمولاى . هذا ما قدرته . ولذلك لم أتردد فى أن استعد للأمر من قبل أن اجيء اليك فاشتريت لك باسم استاذى المريض قمصانا وقلانس مما يلبسه الصيادون ، وجئتك بخمس سفن من سفنه وهى الآن على مدى مائتى خطوة منك مربوطة إلى الشاطىء فى حراسة رجلين من أخلص رجالى وأشدهم رغبة فى نوالك . فهل أنت مستعد لتنفيذ ذلك ؟

قال السلار وكان يلهث من شدة سروره : مستعد ! وددت لو أجعل هذا الضياء ظلاما وأشرع فى العمل على الفور . سأعد العدة لذلك لتوى ، وعلامة على شكرى لك وللرجلين خذ هذا الكيس نصفه للرجلين ونصفه ثمن الملابس التى جئت بها . إن فيه مائتى دينار ، وسيكون أجرك بعد هذا مضاعفا عشرين مرة أو خمسين ، وسيكون لك ما أردت لتظفر بالفتاة على أى صورة شئت . ماذا أنت فاعل الآن ؟ قال : أعود إلى الاسكندرية لأخرج ببقية رجالى إلى الصيد وأتركهم يصطادون ثم أجيء إليك فى السحر فى سفينة صغيرة لأدخل بجندك إلى الخليج .

هل أعدم حيلة وأنا فى البحر على هواى ؟ قال السلار وقد ضحك طربا : لا ور بى . من دبر كل هذا لايعدم الحيلة. قال : إلى الملتقى إذن ياسيدى . قبل الفجر بساعة . ثم ودعه بتجلة وشيعه السلار بفرط الاكرام والشكر .

الفصل الثامن والاربعون

اجتماع الشمل

فى الوقت الذى كان فيه بطرس البحرينى يحادث السلار شاهين و يشترط عليه أجره فى إدخاله المدينة ، والحارث بن كلدة حبيسا هو وصاحباه فى مرفأ لوكياس فى غرفة السفينة — كان ورقة وأورست قد عادا إلى الاسكندرية ولقيا الأمير بما كان معهما من رسائل الامبراطور السيء الحظ . وإذ عرف الأمير ما فيها من استحالة إمداد الاسكندرية بشيء من المئونة أو الجنود — أمر من فوره بدعوة جميع أعضاء المجلس الحربى ليبلغهم ردّ الامبراطور ويتذاكر معهم فيما يجب عليهم فعله لتموين المدينة و زيادة حاميتها و إلا سقطت فى يد الفرس وطلب الى أورست أن ينتظر ليحضر المجلس ولأنه يريده هو ورقة بعد انصراف الاعضاء للتكلّم معهما فى أمر خاص جاء إليه فى الرسائل . فانصرف أورست وورقة مثقلى القلب بما بدا على وجه الامير من الهمّ . وشعرا أن هناك أمرا يشغل باله غير أمر المؤنة والجنود ، وقدّرا أنه توقّع سقوط المدينة فى يد الفرس وإذ أن أمور الحياة مرتبطة فقد اتجّه فكرهما إلى ما هما قادمان عليه من أمر الزواج حين أن المدينة ساءت حالها وملك اليأس القلوب فيها ، والزواج أمر يجب له انشراح القلب وطمانينة النفس وامتلاؤها بالأمل المشرق . فقال أورست : لقد فكّرت فى أن أنتقل بهيلانة إلى الغرب ياورقة ،

وأقضى فى قبرين مايشاء الله لى من الزمن ثم أعود إلى الاسكندرية بعد ركود العاصفة . إن لى سفنا فى كانوب ومن السهل أن أرسل فى طلبها إلى مرفأ القصر لو سمح الأمير لى بذلك لأرحل عليها . وليتك ياورقة تكون معنا ! قبرين آمن مكان . ولكنك لاتستطيع فراق مولاك ولاهو يستطيع فراقك حتى ولو رحل عن الاسكندرية . من يكتب عنه نيقتاس إلى مولاه بمثل ما كتب عنك لايتركه بل ولا يجمل بك أن تتركه . قال : لن أتركه حتى نموت معاً . قال أورست : ولمياء وأمها ؟ قال : سأجىء بهما إلى بيت هيلانة هى وقوزمان لكيلا أضطر إلى تركه لحظه. هكذا اقترح الامير يوم سافرنا . كما أنه قال لى إنه إذا رحل عن الاسكندرية — وهو ما أكاد أراه الان رحلت معه . ولقد ذكرت الامر لها ولقوزمان فى حينه فأقرّوه وأقرته السيّدة هيلانة أيضا ، وهى تؤثر الرحلة إلى إحدى جزائر البحر الرومى على أن تتجه إلى الغرب كما كان أبوها يرى . قال أورست: إذن فالى جزائر البحر أنتقل بها ما دامت تؤثرها .ليس لى حاجة خاصة فى قبرين على أنى أرى فى هذه الحالة أن أكون معكم . ترى هل يأبى الامير ذلك ؟ . قال ورقة : لا أظنه يأبى . هذا أمر لا تصب عليه فيه . ولكننا نرجو الله الا يلجئنا الى فراق الاسكندرية. وفيما هما يتذاكران دخل عليهما حارس الباب يقول لورقة : إن بالباب غلاما عربيا لايعرف من الرومية كلمتين يريد لقاءك . فضحك ورقة وقال : فكيف عرفت قصده إذن ؟ قال : إنه يكرر اسمك . ورقة . ورقة . ويحمل رسائل أبى أن يسلّمها

إلا إليك يدا بيد . قال : هاته هو والرسائل . وأخذ ورقة يسائل نفسه : ترى من يكون هذا الغلام ؟ ولكنه لم يهتد إلى جواب حتى رأى الغلام قادما فى عباءة وعقال وسيف كأنه بطل صغير .

ولشدّ ما كان فرحهما باللقاء ، فقد تعلق رؤبة برقبة ورقة وأخذ يقبله ويقبله ، وورقة محتضن له يقبله كذلك وأورست يتأمل هذا المشهد ويعجب وقد خطر له أنه أخوه أو أحد أقربائه ولكنه علم بعد ذلك نبأه ونبأ الشملالة ولما هدأ الحال تناول ورقة الرسائل وأخذ يقرؤها واحدة بعد أخرى ، والغلام لا يغمض له عنه جفن لشدّة سروره وإعجابه . وورقة يسائله عن أخبار بيت رسول الله وما فعل المشركون بالمسلمين فى هذه الأيام ، والغلام يجيب بالقول الفصيح والبيان الذى عرفه منه ورقة . ولشدّما كان فرح ورقة عند ما علم أن أجواد قريش لم يسعهم بعد ما أكلت الارضة صحيفة الاذى إلا أن ينقضوا ما كانوا تعاهدوا عليه من مقاطعة بنى هاشم جزاء حمايتهم رسول الله ويعيدوا المياه بينهم إلى مجاريها

أما قصة رؤبة فهي أنه جاء مع البريد منذ أشهر ولكنه علم أن ورقة لم يكن قد عاد بعد من بلاد الروم ، فوجد من الخير أن يبحث عن بيت سيدته لمياء ليستضيفها فقد علم من الرسول انه تزوّجها — فذهب إليها وبقى كل يوم يتردّد على القصر ليسأل الحارس عن ورقة حتى علم الان أنه عاد ، فرجع إلى لمياء يخبرها وعاد اليه بالرسائل . فسرّ ورقة بتصرف الغلام

وأطلع أورست على مافعل ، وأخذ يسائله عن أحوال آل بيت لمياء فطمأنه وذكر له أشواقهم وتحياتهم

وإذ شعر ورقة أن أعضاء المجلس أخذوا يتوافدون أشار عليه أن يعود إلى بيت قوزمان حتى يوافيه هناك ، وأخرجه من غير طريق الوافدين مشيعا بكل محبة وكل ثناء

اجتمع المجلس وأنهي إليهم الامير رسالة الامبراطور وأخذ يتذاكر معهم فيا يجب عليهم فعله إزاء استحالة تموين البلد بشيء من القسطنطينية فلم يهتدوا إلى رأى سريع ، ولكنهم اتفقوا على أن يرسلوا سفنا الى والى إفريقية (تونس) ليشترى لهم برا وغلالا ، ويلتمسوا منه أن يجمع لهم من يستطيع جمعه من متطوعة البربر لتعزيز الحامية . وخطر لاحدهم أن يجندوا من فى الاسكندرية من اليعاقبة واليهود و يجعلوا عليهم ضباطا من الروم ولكن المجلس لم يستحسن ذلك قائلا . انه لا أمان لهم فقد يتركون أمكنتهم على الاسوار و يخلون للدبابات الفارسية مكانا هادئا يدخل الجنود منه . خير لنا ألا نفكر فيهم أو نذيع أننا فكرنا فيهم خشية أن يتخذوا من ذلك دليلا على ضعفنا فينشطوا للمؤامرات والثورات وهى شر مانخشى فى هذا الوقت ، أو يعلم به السلار فيقوى قلبه ويزداد عنفه . ولكننا نرجو من سمو الوالى أن يتجاوز لنا عن بعض زنوجه لنمرزجهم الأبراج . قال نيقتاس بعد تفكير : خذوا كل حرسى منهم ومن غيرهم ولكن اتركوا لى عشرة لحراسة باب الميناء ومثلهم لحراسة الباب الشرقى من القصر

لاينبغى غير هذا . سيكون هؤلاء تحت إمرة ورقة تخذوا ضباطهم كذلك وسأكتب إلى والى تونس يجمع لنا متطوعة من البربر.

فشكر القوّاد للأمير فضله ونهضوا ليدبروا ذلك ويدبروا معه السفن الذاهبة إلى أفريقية إلا أن الأمير استبقى أكبرهم واختلى به ثم عاد به يتحادثان وفى يد هذا الضابط الكبير طومار لاح إنه ذو خطر إذ كان مما يمنح عادة فى التولية أو الترقية. حتى إذا انصرف الضابط وخلا المكان إلا من نيقتاس وورقة وأورست — رؤى نيقتاس يروح ويجيء فى القاعة مفكرا ثم وقف والتفت اليهما يسألهما : ألم يكلفكما الامبراطور بشيء تبلغانى إياه غير ما فى الرسائل ؟ قال أورست : لم يطلب إلينا يا مولاى شيئا معينا ، ولكنه أطلعنا على ما هو فيه من الضيق وأبدى لنا استحالة إمداد الاسكندرية بشيء وقال : إذا لم يساعدنا الله هنا فالقسطنطينية واقعة لا محالة فى أيدى الفرس . ويحزننى يا مولاى أن أقول ان عينه أغرورقت بالدموع وهو يقول : من لى بمثل نيقتاس يكون إلى جوارى ، إنى لا أجد منى صديقا لى آتمنه أو أستشيره . ولكن ماذا أفعل وعاصمتى الثانية توشك أن تقع فى يد أعدائى . فلما سمع نيقتاس هذه الرواية اغرورقت عيناه بالدموع وقال : اسمع يا ورقة ، وأنت يا أورست . أنا أعرف أنكما متلهفان الآن على رؤية عروسيكما . هذا أمر فطرى . ولكن ما قيمة التقائكما بالعروسين إذا كانت المدينة على وشك أن تقع فى يد الفرس أجلا ليلة زفافكما إلى يوم تطمئنان فيه . لم يبق عندنا من الجند ما يكفى

للدّفاع ، ولو عرف السلار ذلك لأقلع عن هذه الأحجار التى يرميها بغير طائل ولهجم بجنوده على الأسوار مرّة أخرى وعلاها . نعم سيذهب نصفهم قتلى فى الهجوم ولكنه سيدخل الاسكندرية بالنصف الباقى بعد أن يفنى الحامية كلها وهذا ما لا بد أن ينتهى إليه أمره . ولذلك عولت على السفر خفية . إن الامبراطور يبيح لى ذلك ، بل إنه يأمرنى به فى صورة نصيحة لأنه يريدنى، وأنا أرى الخير فيما نصح وهو يرى ليوحنا الرحوم هذا الرأى ويلح فيه اتقاء لأذى أهل كنيسة الأنجيليون، فهؤلاء لا يهمهم من هذه الحرب إلا أن يروا بطريق الروم قتيلا أو مطرودا . وأنا لا أشك فى أنهم يقتلونه وان كان قد أحسن اليهم . ألم يقتلوا سلفه ! فقال ورقة : ومن يتولى أمر المدينة من بعدك يا مولاى ؟ قال : رئيس الجند وقد أسلمته الآن أمرا بذلك وتفويضا . اسمع يا أورست ، إنك رومى فاذا بقيت فى الاسكندرية فأنت قتيل وامرأتك سبية ، وكذلك أنت يا ورقة وإن لم تكن روميا فأنت حارسى الأمين ، وامرأتك وأهلك كلهم روم ؛ وأخشى أن يقتلوا أو تفضح أعراضهم . وإذ أن أيام الزواج الأولى أسعد أيام المرأة فقد رأيت ألا أحرمهما هذه النعمة . قال أورست : أنرحل معك يا مولاى إن سمحت؟ قال نيقتاس : هذا ما أردت : والآن فاذهب إلى دارك هات كل مالك وكل ما ترى نقله ، ودع وكيلك فيما هو فيه من انتظار عودتك ، أو فليفعل ما ترى . ولكن اذهب إلى يوحنا الرحوم أنه صديقك وبلغه عنى دعوة الامبراطور له وقل له ينقل ما يحتاج إلى نقله معه الآن ويأت به الينا

هذا إذا شاء ، وسيشاء حتما . لقد خبرنى برغبته فى النقلة منذ أيام . ولا بد أن نرحل فجر هذه الليلة جميعا . أنى إذا بقيت فى الاسكندرية ليلة استعصى علىّ الخروج منها . لست من المتطيّرين ولكن النفس إذا انطلقت من إسارها كرهت أن تبقى فى سجنها لحظة ولو كانت تملك الفكاك . وأنت يا ورقة ، حذار أن تذهب إلى لمياء حتى آذن لك إنى أريدك الآن . كل دقيقة غالية ، ثم يكون لك ما شئت بعد ذلك . إنّ البحر هادىء هذه الأيام . أليس كذلك ؟ قال : لقد تعودته . قال : حسن لتكن ليلة زفافك فى البحر إذن أنت وأورست . كل منكما فى سفينة خاصة . أيرضيكما ذلك؟ قالا : ما أشد حمدنا لله عليك قال الوالى: سأعد حمولى الخاصة وما يهم نقله، لا بد أن تكون معى . وإذا جاء أورست وحنا الرحوم فانقل كل متاعنا إلى السفن . وإذا شئات فقل بضاعة الإمبراطور ستعود بها أنت وأورست. قال ورقة : ألا يحسن أن يجىء قوزمان بأولاده كذلك يا مولاى إلى بيت سيدتى هيلانه ليكون قريبا ؟ قال : عجبا . ألم أقل ذلك يا ورقة ؟ فظهر على ورقة الانكار فقال الأمير . زعمت أننى قلت لأورست شيئا من هذا ؟ وإلا فكيف يرحل بدونها ؟ قال ورقة : فليذهب أورست إذن اليهم وينقل حمولهم كذلك قال : نعم . نعم . على أن يجرى الأمر سرا وإلا أثار بفعله الغوغاء . قال أورست : كن مطمئنا يا مولاى . سأكون عند حسن ظنك ، وإن منزلى يجاور منزل قوزمان فلن يلتفت الناس إلى شىء كثير ، وسأنقل متاعنا فى جوالق القمح فلا يلتفت إلىّ أحد . قال : إذن فاذهب من فورك

ذهب أورست ودبر ما اتفق عليه بحذافيره ، وفيما نيقتاس يهم بالصعود بورقة لتنفيذ ما عزم عليه من جمع حمول السفر بدت على ورقة أمارات الأسف أن يضطر الأمر مولاه إلى ترك الاسكندرية . فسأله نيقتاس : فيم تفكر يا ورقة ؟ قال : فى سفرك يا مولاى وترك عروس الدنيا لغير زوج كريم . قال نيقتاس : أجل . هذا ما يؤلمنى ولكنه أخف الضررين إن العاصمة فى خطر كما تعلم والامبراطور فى ذهول ، ويحتاج إلى مشير ونصير ولا سيما على الأحزاب السافلة المنشقة عليه والعاملة على ترك الحرب والاتفاق مع الفرس . ولكن الامبراطور عزم على أن يجدد الحلف مع الترك كما فعل موريقس ليغيروا على الفرس من وراء ويردوهم إلى ديارهم . قال ورقة : هذا رأى حسن يا سيدى ، ولعله يريدك لهذا قال : أجل . لذلك . وفيما هما يتكلمان لاح الحارس فى آخر القاعة برقعة صغيرة فى يده . فلما أذن له وتناولها نيقتاس وقرأها تفتحت عينه دهشة وقال لورقة : خذ . هذا لك فيما أعتقد وإن لم يكن باسمك . فاذا هو كتاب من الحارث بن كلدة إلى الامير نيقتاس يقول له فيه :

سيّدى الأمير

حاولت مدى بضعة أشهر أن أدخل الاسكندرية لأرى زوجتى هرميون بنت العالم قوزمان أخت امرأة أخيك هيلانه ، وأرى ابنتى وأكون معهما فى هذه الضائقة فلم أوفق . حتى هدانى الله إلى مينائك بعد جهد جهيد . ورجائى من الأمير أن يأذن لى بالدخول وله جزيل شكرى وعظيم ولائى

الحارث بن كلده

فدهش ورقة لهذا وقال : بضعة أشهر . إذن فرسول مولاي لم يلقه فى جدة قال : ولا فى مكة . وإنما التقى بولده الأكبر فأسلمه الرسالة ، فما وقف على مافيها حتى جمدت أصابع يده عليها ولم يقو على تركها ، فأخذوها منه فإذا هو قد انشل أهذا الذى أهدر دمك ياورقة ؟ قال : نعم يامولاى قال : لقد نال جزاءه العادل . قال ورقة : ألا ليلطف به الله . وليحسن إليه ويهده إلى الحق . إنه رجل شرير يامولاى . كان يريد قتل رسول الله غيلة . فلما فضحت أمره بقتل القاتل أهدر دمى ، فشرّدنى عن بلادى وعن نبيّ . قال نيقتاس : ولكنه هو الذى شرّد لمياء وأمها كذلك وجمع بينكما فى الاسكندرية . لماذا لاتذكر فضل ربك فى ذلك . قال ماقمت للصلاة مرة إلا وذكرت فضل الله علىّ فى ذلك وفضلك ، وفى أنى وجدت فيك أبا وسيدا ، فكانت صلاتى كلها بقلبي وروحى . قال : أنت منى كولدى ياورقة . ثم ابتسم وقال : أتأذن لحميك بالدخول ؟ قال ورقة : لاأدرى أين يذهب . إن ذهابه إلى بيت قوزمان يشغلهم عن التحميل . وأرى أن يبقى حيث هو حتى نلقاه ويرحل معنا . قال : بل يأتى ويدخل بيت هيلانة حتى إذا انتهينا من تحميل الحمول دعوناه أو ذهبنا إليه. وستأتى إليه هرميون وابنته وتكون إذ ذاك مفاجأة طيبة ، وسأتولى الكلام معه فيما كان من تزويجى إياك ابنته وأنا الضمين بموافقته ورضاه ، بل وبالحمد لله على ماتم . أقلع عما أنت فيه الآن من الاضطراب فانى أكاد أسمع وجيف قلبك . قال ورقة جامعا : شكرا لمولاى ، قال : خلّ عنك الشكر ، واكتب لضابط المرفأ

يأذن للحارث بن كلدة بالدخول بنفسه دون حوله . سيرحل معنا هو أيضا إلى القسطنطينية إذا شاء ، وإلا فرحلتي جزيرة رودس ، وهي أقرب إلى بلاد العرب من القسطنطينية . ثم نادى نيقتاس جندىّ الحراسة وأمره أن يرسل إلى لوكاس حارس بيت السيدة هيلانه من ينبهه إلى مقدم ضيف كريم ويوصيه باعداد الدار والتفت إلى ورقه يقول : إذا أتممت الرسالة فأدركني في غرفي . ذهب الأمير وجلس ورقه يكتب بطاقة الأذن للضابط بادخال أستاذه وأعطاها إلى الجندىّ الحارس ، وهو لايدرى كيف كتبها، ولا ماذا كتب . فقد اجتمعت عليه كل هواجس الدنيا ، وغاب عن وعيه بما ملأ فؤاده من الوساوس ، وعاد إلى ما كان فيه من قبل من تصوير الحال لنفسه في صورته التي أصغرته في عيني نفسه . وقدّر أن الحارث سيرضى تسليما بالأمر الواقع ، ولكن عينه ستنم عن أسفه ، واقتضاب كلماته سينم عن عتبه على ورقة كيف لم يساعده وهو الابن البار على الاحتفاظ بكرامته بين بني عبد الدار وجمح وبني مخزوم وغيرهم من بطون قريش الذين يعيشون على عرف بينهم من لم يرعه أسقطوه . ولم يذكر ورقة حق لمياء عليه في هذا ، ولا ماقال من أن خير الخلق وسيد قريش سيبارك على زواجه ، ومضى مطرق الرأس إلى غرف مولاه ليكون في خدمته من إعداد حقائب الرحيل وصناديقه . وقد رأى ورقة أن يقول لأستاذه عند البادرة الأولى منه : يامولاى ، ما كان زواج ابنتك كله

باختيارى . إنى أحبها حبا مقدّسا ومطهّرا ، ولقد أراد الله الذى يعرف نجوى نفسى أن يمكننى من أن أقف منك موقف الولاء والرعاية . وهاهى ذى ابنتك كما كانت معك فى هدى ومكة ونجران ، إن ضاعت حياتى على أثر تسريحها فما يهمنى إلا أن تحسن الظنّ بى . ليس عندى البرهان على عرفانى حقك إلا هذا . هذا مافكر أن يقوله للحارث . أما ما قاله لنفسه فهو أن لاقيمة للحياة بعد لمياء ، ولن يأبى عليه مولاه بعد هذا أن يتركه فى الاسكندرية ليدافع عنها بقدر ما يستطيع ويموت مرتاح القلب

***

جمعت قهرمانات القصر وخصيانه مارأى الأمير حمله من الاموال والتحف والملابس والكتب القيمة وأضابير مراسلات الامبراطور ، ونقلت باشراف ورقة وتدبيره إلى السفن الامبراطورية بدعوى إبعادها عن الخطر وكان أورست ويوحنا الرحوم قد فعلا مثل ذلك، كل من ناحية لم يلفتوا الى عملهما أحداً . وهوّن الأمر على أورست أنه كان يملك عربات كثيرة لنقل غلاله ، وكان له عمال كثيرون أخبرهم أنه يريد أن ينقل متاعه ومتاع نسيبه العالم قوزمان إلى مكان أمين غربى الاسكندرية تفاديا من ثورات القساوسة واليهود

أما قوزمان وأهل بيته فقد جاءوا إلى المنزل الذى كان لهيلانة فى القصر ومعهم ضيفهم الصغير روبة وقابلهم لوكاس بتحية الولاء ، وقد زعم أنهم هم الذين عناهم رسول الجندى الحارس حين طلب إليه أن يستمع لقاء ضيف

كريم فقال لقوزمان : عجبى ياسيدى ، لقد أرسل إلىّ سيدى الضابط ورقة يأمرنى أن أعدّ الدار لضيف عظيم ، وهل أنت ضيف ياسيدى ؟ وظن قوزمان أنّ القول تمويه من ورقة فابتسم وقال : كيف لا ياأخى لوكاس ! ألا تدرى أن صلتنا بهذا القصر قد انقطعت منذ أصبحت سيدتك هيلانة زوجة للسيد أورست نائب المدينة وكبير تجار الغلال فيها ! فبهت لوكاس وقال بعد صمت قليل : مبارك ياسيدى . مبارك . إنه والله لرجل عظيم كثير الخيرات . نعم ياسيدى هو يستحقها . إيذن لى أن أذهب لأهنئها. نعم لم يكن فى الدنيا أطيب قلبا ولا أكرم نفسا من سيدى تيودور ، ولكن ماحيلتنا فى إرادة الله . ليس علينا إلا أن نتقبّل المقدر بالصبر وبالرضا كذلك إن أردنا أن نكون مسيحيين حقيقيين . ودخل لوكاس يقدم تهنئته الحكيمة إلى هيلانة

وفيما هم فى ذلك جىء بالشريف العربى — الحارث بن كلدة — ينتظر مقدم الأمير . ولم يكن من صعد به السّلّم يعلم أن فى الدار أحدا لأنه جاء من الميناء حين كان لوكاس مشغولا بتهنئة سيدته هيلانة

وكان الحارث يزعم أنه سيدخل مكانا معدا لضيافة الرجال ، ولذلك دهش إذ رأى فى صدر القاعة أشباح سيدات تخالط أشباح رجال فتراجع يسائل صاحبه عمّن يرى . وخطر على باله أن مصاحبه أخطأ . ولكن فؤاده كان قد ترجم ما حملت إليه عيناه من صور زوجته وابنته وقوزمان فتردد . وكانت هرميون قد تنبهت لشبح زوجها فنهضت صائحة تقول : الحارث !

الحارث ! فى الوقت الذى كانت لمياء قد رأته فجرت نحوه : أبى ! أبى !
وسمع الحارث صوتها فعاد إلى القاعة عجلا ليرى القائل ، و إذا هو يجد
لمياء تتعلق بأكتافه ، فتناولها وتناولته بالعناق والتقبيل والبكاء ، ثم أتت
زوجته فعانقته طويلا و بكت على كتفه بكاء مرًّا و بكى الحارث معها حتى
لم يعودا يستطيعان الفراق لولا أن قوزمان تقدم إليه هو وهيلانة فسلما عليه
متعجبين لمقدمه وعادوا به جميعا إلى حيث كانوا ، وهم يسائلونه كيف جاء !
ومن أرسله إليهم ! قال: ماعجبكم بأشدّ من عجبى . تمهلوا قليلا : ثم أخرج
من جيبه البطاقة التى كتبها ورقة وأمضاها وقال : من ورقة الذى أمضى هذا
الاذن بدخولى الميناء ؟ قالت هرميون : ابن العفيفة ياحارث . وانبرت
هيلانة تتكلم عنه بما وسع قلبها من الحب لورقة ، وقوزمان بما وسع فؤاده من
الاكبار والاجلال . فقال قوزمان : هيلانة ردت إليه بعض فضله عليها
فعرفته على حقيقته إلى الأمير نيقتاس ساعة كان الامير فى أشد الحاجة إلى
القوى الأمين ، فأدخله فى خدمته ومنحه من أجلها رتبة على الفور عالية .
وهو الآن حارسه الخاص وصاحب الكلمة العليا فى القصر وفى الاسكندرية
برمتها لوفائه للأمير ونزاهته فى كل عمل ، ورشده النادر فى كل حادث ،
وكبره عن دنايا الدنيا وغوايات الشباب . قالت : والله ما استطعت أن
أرد له جميلاً و إنما أحسنت إلى نيقتاس . فضل هذا الفتى علىّ أعلى من أن
يبلغه شكر أو تصل إليه يد بيد . إنه قديس . قال الحارث : هذا ما أعرفه
فيه . قال قوزمان : وقد منحه الامبراطور هرقل فيما علمت منذ ساعة لقب

حارس خاص عند ما أرسله نيقتاس فى مهمة عليا لمجلس الجيش . على أنه لم يعد من القسطنطينية إلا ظهر اليوم ولم نره بعد . قال الحارث : لقدرأيت



سفينة بيزنطية عائدة من القسطنطينية وأهل الميناء يحيون من فيها . كان فيها اثنان ظاهران ،ولكنى ماقدرت انه أحدهما .

ولكن كيف جاءهنا ؟ إنى علمت أنه فى يثرب عند خئولة رسول الله . فانبرت هيلانة وقوزمان يخبرانه بما كان من أمره فى يثرب ومعان وفى الصحراء . والحارث يقول معجبا طربا :

هذا ولدى . هذا تلميذى . هذا مثال الفتى المسلم الذى سيكونه كل عربى عند ما تتم دعوة سيد العرب محمد بن عبد الله . قالت لمياء ، وكانت كل هذه الأثناء تحت جناح والدها : وكل فتاة عربية يا أبى . قال : أحسنت يابنية . ولكن لماذا لا أراه هنا . قال قوزمان : إنه مع الأمير يعد عدة الرحيل عن الاسكندرية . وقد أمره ألا يرى لمياء ولا تراه

حتى يفرغ من إعداد حموله ، ونحن راحلون معه . وأدركت لمياء أنه سيذكر حكاية زواجه فتركت المجلس تفاديا من موقفها الحرج . وقال الحارث دهشا : لماذا يحرّم عليه لقاء لمياء خاصة وعليها لقاءه خاصة ولا يحرّم ذلك على من عداهما ؟ قال قوزمان مغالطا : لأننا مسافرون جميعا . قال : عجبي لك ياسيدى . من ذا الذى تعنيه بالجمع فى قولك ؟ ألا ترى أنك تتكلم بالأحاجى . قال : لا أحاجى فى ذلك . ولكن الأمير رأى الاسكندرية توشك أن تقع فى أيدى الفرس إذ لم يبق من حاميتها من يكفون لمداومة القتال . وقد أرسل الامبراطور يقول : إنه لا يستطيع أن يرد إليها من كان قد أخذه من حاميتها ولا أن يموّنها بشيء من الغلال ، وأباح لنيقتاس ويوحنا الرحوم أن يجيئا إليه . وقد رأى نيقتاس صواب الرحيل . وإذ كنا أقرب الناس إليه وإلى حارسه الخاص ولده ورقة الذى لا بد أن يصاحبه وهو يعلم ما سيلقى كل رومى من سيوف الفرس عند دخولهم — فقد أرسل إلىّ صهرى وعديلك الجديد أورست ليحمل حمولنا ويأتى بنا إليه هنا لنسافر الليلة فى غفلة من المدينه . قال : ولكنى سمعتك تذكر وتستثنى هرميون وحدها . قال قوزمان مستمراً فى تجهيله وإبهامه : ذلك لأن أمرها أصبح موكولا إلى زوجها بعد ما جاء . قال الحارث وابنتى أليس لى عليها ما لى على امرأتى ؟ وكانت لمياء فى هذه الأثناء واقفة تتسمع بجوار عضادة الباب من الغرفة التى انسحبت إليها وهى هلعة من هذا الحديث خائفة ألا ينتهى إلى خير . وزاد هلعها أن رأت روبة يدخل القاعة

مستبشرا ويتقدم نحوها ليخبرها بقدوم ورقة ، فاضطرب قلبها لذلك .

ولما لاح ورقة فى المدخل لم تقو على الوقوف فارتمت على مقعد كان وراءها .
دخل ورقة فى لباسه العسكرى الجميل تراه ولا يراها . فاتجهت إليه العيون
معجبة ومزدهية ، والقلوب تحييه بمحبتها وإجلالها ، والأفواه تعجل له آيات
الرضا والحمد لله عليه ببسمات ، إلا الحارث فانه غضب أن يكون الحال فى
هذا البيت بحيث يدخل ضابط من ضباط القصر على النساء بلا استئذان
وتنهض إحداهن للقائه بتحية شوق وهو لا يدرى من هو . وكان على قوزمان
أن يرد على كلام الحارث فلما رأى ورقة داخلا قال للحارث : ليس فى الأمر
أحاجى ، ولكنك لا تريد أن تفهم القول الذى ليس فيه خفاء . سل إذن
هذا الضابط فلعله يستطيع أن يعطى لك جوابا . فاضطر الحارث أن ينظر
إلى القادم فاذا هو يرى فتى أروع يتقدم نحوه بخطى كريمة ، وإلى جانبه
سيفه العربى الملتوى الذى كان الحارث يعلم أن زيد بن حارثة أهداه إياه
وقال : هـذا من سيوف رسول الله . فلما تبيّنه نهض هو أيضا للقائه وهو
يصيح : ولدى ورقة ! وسمعت لمياء هـذا النداء فخارت قواها وبكت
حيث هى ولكنها نهضت بقوة الحب لترى . وإذا الحارث يضمه بين
ذراعيه ويقبله ثم يقبله وهو يقول له : أنت ورقة ! ما أسعدنى برؤيتك ،
وأخذ كل منهما يذرف الدمع من سروره بهذا الاجتماع ، وانحنى ورقة يقبل
يده فلم يمنعه الحارث أن يقبلها لأنه كان يشعر أنه ولده الذى يخصه بكل
حب وكل رعاية . وجلس حيث كان آملا أنه يجلس بجانبه ، ولكن ورقة

انتحى فى مجلس أمامهم ، وكان فى نيته أن يفتح الحديث فى أمر لمياء على الفور . فما إن سأله الحارث عن حاله حتى انبرى له فى الرد عليه يقول : ياسيّدى وأستاذى وأبى . أنا على ما تعهد فىّ ، وكما تركتنى،ولدك وتلميذك وخادمك ، فباركنى . قال الحارث : ليبارك عليك الله ورسوله قال. فاعف عنى . قال : علام أعفو . ما أسـأت إلىّ فى حياتك قط . قال : استمع لى ياأبى ، إنى ما جهلت منزلتى منك لا بينى و بينك خاصة ، فهى منزلة البنوة ولا بينى و بين الناس ، فما أنا إلا ابن نجار من أهل هذه البلاد ، وأنت من أنت فى الدنيا و بلاد العرب

ولـكنّ سيدتى هيلانة اطّلعت على نجوى نفسى وأنا وحيد فى الصحراء قبل أن أعرف من هى . وعلمت بفرط حبي للمياء ، وفرط حبها لى قبل أن تعلم أنها هنا . فلما وجدتها هنا رأت أن الخير فى زواجنا فى هذه الغربة الدائمة فأبلغت الأمير قصتّنا على غير رجاء منى ، والتمست منه أن يسقط كل حقك علىّ وعلى ابنتك وامرأتك و يعمل على الجمع بيننا . فدعانا الأمير إليه، وطلب إلىّ أن أبدى سبب رفضى أن يعقد لنـا ، فأبديت له أنك لا تملك بين قومك أن يقال زوّج الحارث بن كلدة الثقفى ابنته من ابن سبيةّ ونجار، وأنك إن رضيت بهذا الزواج كنت مضحياً بكرامتك فى قومك من أجلى ، وأنا لا أرضى أن تضحىّ لى بشىء فأنعم أنا وتشقى أنت . ولكن مولاى الأمير قال : إنى قدّيس أنانىّ ، لأنى رعيت كرامتى لديك وحقك علىّ فى غيبتك ورضيت أن أضحى بلمياء وحب لمياء . وألزمنى أن أقبل العقد ، بل عقده

يقينا برضاك . وكان ذلك فى حضرة سادتى هؤلاء . وأرسل إليك فى مكة بخطه كتابا مع رسول خاص يسترضيك و يطلب بركتك ، ولكنك كنت هنا قبل سفر الرسول ولا نعلم . على أن الله أنقذنى من حيرتى فقد جاء سفرى إلى القسطنطينية على أثر العقد ، وجاءت عودتى للقاء لمياء بعد لقائك ؛ وها أنا ذا ورهن طوع أمرك ، فما أن تقلها كلمة حتى أقولها كلمة ، وكأن لم يكن شىء . إن مولاى يرحل بكم الليلة تفاديا من وقوعكم فى الأسر ، ولن يطول شقائى من بعدكم . سأبقى فى الاسكندرية أدافع عن بلد أبى وأهلى ، بلد آوانى ولقيت فيه نفحة من نفحات السعادة بقرب لمياء منى . حتى إذا حم القضاء قتلت نفسى بسيف رسول الله هذا! إذا أيقنت بالهلاك داعياً لكم بطول الحياة وللمياء بالسعادة فى جوار سواى

فلما سمع الجمع هذا الكلام بكوا ، وسمعت لمياء تنشج فى بكائها فى الغرفة المجاورة . و إذا الحارث ينهض من مجلسه و يرفع يديه فى غيبوبة من تأثره ، و يتناول ورقة متأثراً من كلامه و يصيح : إلىّ ياولدى . إلىّ يانعمة الله . بعداً لبنى عبد الدار وثقيف ، بعدا للأكاذيب والأراجيف! لتراب نعليك أشرف من هاماتهم جميعا . تعالى يالمياء ، خذى زوجك وعيشى معه فى بركة منى وسلام من الله . واذكرانى دائما بالدعوات ، فان نفسيكما أطهر النفوس . فأتت بها خالتها بين يديه فتناولها وقبلها وقبل ورقة بين بكاء الحاضرين من فرط السرور ، وجمعهما بين يديه يقول : خذ زوجتك . و إذا بالأمير قادم فلما رأى هذا المشهد أدرك ما جرى فقال على

عادته من السماحة : حسبت أن الأمر يحتاج إلى مقالى ودفاعى عما فعلت

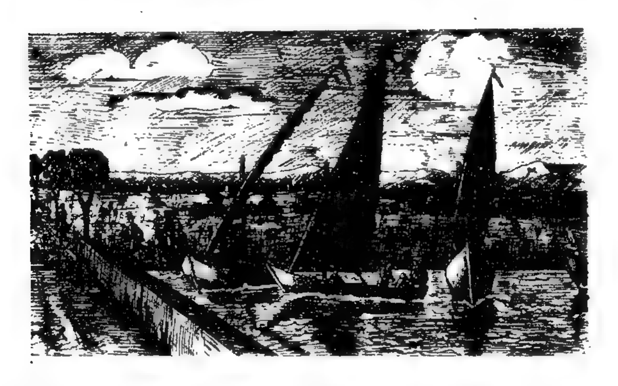


قال الحارث وهو يتقدم لتحيته : لقد كان الحق الذى رأيته وفعلته أبلغ مقال يامولاى . تقبل شكرى ودعائى لك بطول البقاء . ثم تقدم إلى الأمير وانحنى وقبّل يده ، فبارك له الأمير بزواج ابنته وقال : أنت إذن معنا . قال : نعم قال : فانصرفوا من فوركم إلى السفائن . ستجدون هناك يوحنا الرحوم وأورست . فقال الحارث : إن معى يامولاى رجلين : أحدهما خادمى زياد ، والآخر صديق لى من اليهود ولكنه بغير عقيدة. قال : مرحى ! من هذا ؟ فالتفت الحارث إلى ورقة يقول : من تظن ياورقة ؟ قال : نعيم الصيدلانى وربى . لقد كان مشوقا إلى الاسكندرية . قال الحارث : انه يامولاى صيدلانى من يهود صنعاء مغرم بالأسفار وله فى الحياة فلسفة خاصة أسلم من كل فلسفة

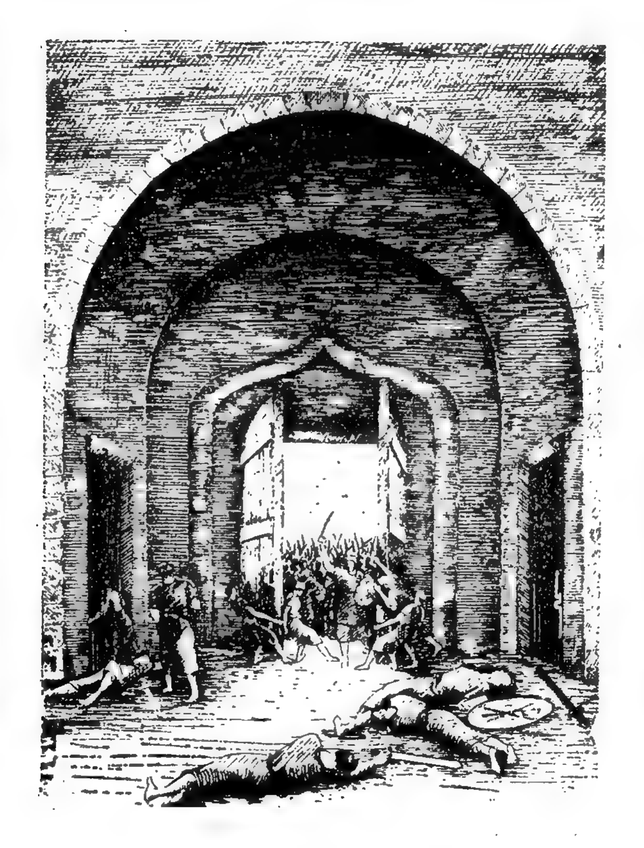
ولشد ما كانت فرحتى وعجبى إذ وجدته فى قافلة رومية كانت خارجة من الفيوم تلتمس الشاطىء مجانبة معسكر الفرس . قال نيقتـاس : ليكن هذا الفيلسوف النادر المثال معى أنا : لأنى أحب أهل الآراء الخاصة متى كانوا راشدين . وليجىء خادمك معك . إنا سننزل رودس . فمن شـاء العودة إلى بلاده فهى قريبة من الشاطىء . مرحباً بالأضياف . قال الحارث: شكراً للأمير وحمداً لله عليه . فالتفت الأمير إلى لمياء وتناول يدها وقال : هلم يا لمياء معى أنا . ستكونين فى صونى حتى نبلغ السفائن ، حين نكون جميعاً فى صون زوجك ورقة . قال ورقة : كلنا فداء للأمير . واستمر الأمير يحادث لمياء وهى تسير بجانبه يقول لها : وسيكون زفافك إليه فى السفينة ، وكذلك خالتك هيلانة إلى أورست . ثم اتجه اليها يقول : انه الآن هناك ينتظرك ياهيلانة و به من نار الشوق إليك ما لا يبرد أواره ماء البحر كله . وضحك وضحك الجمع وساروا وراء الأمير نحو القصر الكبير من الطريق الذى جاء منه يتقدمهم ورقة ويتعقبهم رؤبة فى ملبسه العربى الجميل ، وسيفه الملتوى القصير

فما فتح الباب الذى يؤدى إلى قصر الأمير حتى تواردت على الآذان فى سكون الليل وظلمته الحالكة أصوات عويل وصياح وجلبـة بعيدة ، وهتافات بالفارسية وأخرى بالعربية . فأدرك الجمع أن الفرس قد فتحوا أحد الأبواب ودخلوا . أما كيف دخلوا فهذا ما لم يكن أحد من أهل القصر يعرفه ، لأنهم ما كانوا يظنون أن فى إمكان أحد اقتحام الأسوار التى

استعصت على كل قائد قبل السلار إلا أن يكون الأمر بخيانة من أهلها . ولذلك التفت المقوقس الى الجمع وقال : خيانةوحق آلهة روما وأولمبيا معا! لا يفتح فى الاسكندرية باب من خارجها ولو اجتمعت عليه جيوش الفرس والروم معاً ! أسرعوا إلى مراكب البحر وانجوا بالنساء أولا



والواقع كذلك ، فقد تمكن بطرس البحرينى فى شرذمة من جنود الفرس الذين ألبسهم ثياب الصيادين وأركبهم سفن السمك وبكلمة «الامانة» التي حفّظهم إياها أن يدخلوا من باب البحر على فم خليج كليوباترا و يبلغوا جسر شارع كانوب و يصعدوا إلى البر و يسيروا تحت ستار الليل فى السحر يحملون تحت أثوابهم سيوفا أعدّت لهذه الليلة الرهيبة الى باب القمر. هناك وجدوا الحراس نياما على عادتهم إلا من أعدوه للسهر عليهم، فقتلوه قبل أن



يتيقظ سائر إخوانه وينهضوا إلى سلاحهم . ثم أعملوا السيوف فيهم على الفور وفتحوا الباب للألوف التي كانت واقفة في الخارج تنتظر فتحه . فدخلت وتدفقت في المدينة وهي بعد نائمة ، واعتلت الأسوار من الداخل والخارج وجرت بينها و بين الجنود على الأسوار ملاحم كانت تتساقط فيها الجنود عن الجدران على جانبي السور . وانصرف سائر الجند إلى المدينة يضربون هنا وهناك و يقتلون كل من يلقونه رجالا ونساء وأطفالا ، وينهبون ويسلبون و يفضحون العرض ويبغون . حتى إذا انتبهت جيوش الحامية التي على الأسوار الشرقية خلتها وجاءت لتلقى الفرس في الطرقات مستيئسة مستميتة في الدفاع عن القصر والكنيسة

كانت موقعة دامية فاصلة دالت على أثرها دولة الروم في مصر ، كما دالت من الشام وأرمينية . دالت بسقوط الاسكندرية عاصمة مصر وعروس البحر الأبيض المتوسط كما سقط من قبلها سائر القطر من شماليه إلى جنوبيه وقضى في ذمتها بقية الجيش الرومى وقواده إلا من استطاع النجاة بركوب البحر فيما كانوا أعدوه لأولادهم ومتاعهم من السفائن ضناً بهم و به أن يقعوا في أيدى جنود الفرس أو في أيدى الغوغاء من اليعاقبة واليهود إذا دفعتهم أيدى القساوسة والأحبار للثورة والشغب

جرى ذلك والأمير في بيت هيلانة لا يسمع لأن القصر بعيد . هو في الشرق من الاسكندرية عند رأس لوكياس (رأس السلسلة) والملحمة عند باب القمر في الغرب منها . على أن الأبواب والنوافذ كانت مقفلة إذ

الوقت شتاء (١) فلما فتح باب الرواق واتصل بالجو تواردت الأصوات مع ريح الغرب بما فى طياتها من صراخ مذعر ، وعويل فاجع ، وهتاف مخيف وقعقعة أسلحة تتلاطم . فأدركوا الحقيقة المؤلمة ونزلوا مهرولين يلتمسون طريق المرفأ الامبراطورى

فما كاد النساء يبلغن الشاطىء حتى رئى جماعة من جنود الفرس يجرون وراء الجمع ، وحراس القصر يتساقطون تحت سيوفهم إذ فاجأهم جنود الفرس وهم مشغولون بتحييهم لما يرون من نهوض الأمير مبكراً هو وحارسه والبطريق الأعظم يوحنا الرحوم وأتباع له من القساوسه ونساء ورجال لم يشهدوهم من قبل .

كان الفرس ممن دخلوا مع بطرس فى مراكب الصيادين. جعلهم السلار شاهين تحت إمرته ، وأمرهم أن يكونوا طوع أمره فيما يرى . ولذلك لم يذهب بهم إلى باب القمر مع سائر إخوانهم بل سار بهم إلى بيت قوزمان ليستعين بهم على سبي لمياء . هناك اقتحموا باب الحديقة وقتلوا الحارس ليأمنوا استغاثته ، وصعدوا الدرج الذى شهد منه النساء إذلالا ورقة لبطرس . واقتحم باب الدار أيضا وصعد يبحث عن أهلها وهو متنكر ملثم الوجه . فلما لم يجد بالدار أحدا ووجد أثر التحميل والرحيل سقط فى يده وأدرك أن الفريسة فرت من بين أصابعه . ولكنه على عادته لم ييأس فنزل بالجند مسرعا وهو فى أشد الأسف لقتله الحارس المسكين إذ كان يستطيع أن

---

(١) آخر سنة ٦١٨ عن بطلر

يدله أين ذهبوا ليقتفى آثارهم ، وفى نيته أن يبحث عنهم فى كل مظنة . ولذلك لم ينقطع جهده عند ذلك الحد

ذهب بهم إلى بيت أورست مارا من باب المكتبة الذى كان له منذ عهد غير بعيد واقتحم بهم بيت الغائب . وإنما ذهب هناك لانه كان وهو متنكر بحرفة الصيادين لا ينقطع عن بيت خليلته بعد إن نقلها إلى مكان آخر ، وعرف ممن يتصلون به فى صورته الجديدة أن هيلانة تزوجت من أورست، ولمياء من ورقة، ولكنهماسافرا إلى القسطنطينيه فى مهمة للأمير . فقدر بطرس أن الرجلين عادا أو أن هيلانة انتقلت إلى بيتها الجديد وأن أهلها ذهبوا اليها فى زيارة وقدر غير ذلك . فسار إلى بيت أورست ليرى أى وجوه حدسه أصدق

لم يجد بغيته فى بيت أورست كذلك ورأى أثر تحميل لرحيل فكاد يصعق لخيبته . ولكنه كان يقول : إذا مات الأمل جدّ أمل . بقى لى أن أذهب إلى القصر فقد يكونون فى البيت الذى كان لهيلانة ، وهوفى معزل عن الجند والحراس . لم لايكون كذلك! إن كان الرجلان قد عادا وليس لهما أثر فى بيت أورست ولا قوزمان فلعلهما فى القصر . لعلّ المقوقس قد أذن لحارسه أن يدخل بلمياء فى بيت هيلانة . لعلّ . . . لعلّ . . . هلم بنا يارجال إلى القصر الصغير

ذهبوا إلى باب لوكاس مسرعين ، وكان لوكاس حارسه قد سمع صوت صياح وعويل ففتح الباب وخرج إلى العراء يتسمع ليطمئن ، وإذا هو

يجد أعوان بطرس قادمين نحوه فدلف نحو الباب ليقفله ، ولكنه ما كاد يلمس المزلاج ليوثقه حتى دفعه بطرس ومن معه فسقط تحت أقدامهم بلا حراك .
صعدوا فلم يجدوا أحداً فى الدار ، ولكنهم رأوا باب الرواق مفتوحاً فأموه ووقفوا ينظرون إلى ساحة القصر فيما كان قد ظهر من نور الفجر . وهناك رأى بطرس أشباح قوزمان والحارث يسيران مع الأمير ولميله وأمها وخالتها ورأى ورقه يتقدمهم وروبة فى أثرهم ولكنه لم يعرف من هو ؟ فهبطوا مسرعين نحوهم. ولكن الأمير كان فى ذلك الوقت قد أدرك ماجرى عند باب القصر فأمر قوزمان والحارث أن يعجلا بادراك المراكب بالنساء فبلغوها . وسار هو يحادث ورقة أنه يحسن وقد حمّ القضاء أن ينظر فيمن يبلغ القهرمانة الأمر عسى أن تتمكن من النزول هى ومن ترى فيما تجد فى الميناء من السفائن الامبراطورية . لم يكن ورقة يستطيع أن يفعل الآن شيئاً فلم يجد غير روبة فأدناه وامره أن يذهب إلى القهرمانة — وكانت قد جاءت إلى بيت هيلانة لتحييها وتودعها — ويقول لها كلمتين بالرومية معناهما «انجى بنفسك» فحفظهما روبة وعاد ليصعد إلى بيت هيلانة ، ولكنه ما كاد ينعطف ليصعد السلم إلى البيت حتى رأى جنود الفرس فى قتال مع حراس الرواق فعاد أدراجه يخبر ورقة بما وجد ، والفرس فى أثره ، وقد أصبحوا الآن خمسة إذ سقط نصفهم فى العراك مع الحراس وإن كانوا قد تركوا الحراس بين قتيل وجريح. وكان النسوة قد نزلن المراكب واشتغل قوزمان والحارث بأمرهن ، فلم يبق إلا الأمير وورقة ليقاتلام قتال المهارة والشجاعة .

كان نيقتاس علما من أعلام المسايفة المشهورين بمقاتلة الجموع، ولذلك لم يهتم برجحان عددهم، والتفت إلى ورقة ينشطه فقال له بروح المرح المستهين بالمخاطر : مرحى لورقة وأمير ورقة ! هذا يومنا ! أرنى كيف تدافع عن لمياء ! قال ورقة : وعن أميرى . ثم هجم على منازله وهو يصيح على عادته : يارسول الله ! والتحموا فإذا الامير يطيح رأسا وراء رأس كأنما هو يبرى قلما، حين كان ورقة يتأمل عيناً براقة فى ظلام السحر كانت تصب عليه نيران ألف من صغار الحباحب . فأدرك على الفور أنه غريمه بطرس البحرينى . وزاد يقينه بذلك حينما سمعه يقول : اقتلوا لى هذا . إنه غريمى . وما هى إلا لحظة حتى كان السيد البحرينى مقطوع اليـد مشطور الفك وملقى على الأرض جاحظ العين واللسـان معا . ضربه ورقة كما ضرب العملاق، وهى الضربة التى تعلمها من باقوم : ضربة من أدنى إلى أعلى تطيح باليد فإن قطعها السيف استقر صـدره تحت الفك فأما هشمه أو انحدر إلى الرقبة فقطعها. وهذا ما لقيه السيد بطرس. وكان الأمير قد لمح ورقة وهو فى مواجهة خصمه، فلما رأى هذه الضربة النادرة المثال قال له فى سماحته معجبا :مرحى! ستعلمنى هذه الضربة عند ما نركب السفن! اضرب ضربة أخرى مثلها لأرى ثانيا كيف تكون! ولـكنه لم ينتظر حتى يرى بل سار إلى الميناء مطمئنا إلى العاقبة.

لم يبق من الخمسة إلا اثنان حاولا الهرب من حيث أتيا. ولـكنهما لم ينجوا فقد سقط أحدهما بضربة صرعته قبل أن يدرى من أين جاءته ولا من الضارب لها . على أنها جاءته من رؤبة. زعم أن فى الحراس أحياء يكفون المعونة فانسل كالصل إلى القهرمانة يخبرها . ولما عاد تلقى الرجل فقتله حين

كان ورقة يجرى وراء الخامس فى هروبه . ولكن الرجل ألقى سلاحه والتفت صائحا : الأمان يا ورقة ! ثم جثا على الأرض ورفع يديه ضارعا

لم يعرفه ورقة أول الأمر ولكنه تأمله ورأى أنه مسعد اليثربى الذى لقيه فى عمان .فقال ورقة : مسعد !. قال : معذرة ياورقة وغفرانا ، جئت لك برسالة من سيدى أسعد بن زرارة ، ولكن الفرس أخذوها منى وضمونى بالرغم منى إلى جيوشهم ، وحملنى إخوانى من أهل مدين وتبوك على ذلك ـ وكانوا فى جيش الفرس ـ وكان نصيبى أن أقاتلك وأنا لا أدرى . أعف عنى . قال: انهض عفا الله عنك . ولكن ماذا كان فى الرسالة ؟ قال : إن سيدى ابن زرارة لم ينس فضلك عليه. و إذ أن الخزرج والأوس اتحدوا واتفقوا فيما بينهم على الاسلام ودعوة رسول الله إلى الهجرة إليهم ليعزوه و ينصروا دينه ـ فقد أرسلنى لأستدعيك . قال : ارجع إلى بلادك بسلام منى إلى ابن زرارة وشكر وخبره بما رأيت. قال: لا أستطيع العودة الآن. ليس لى راحلة . قال ابحث عن متجر التاجر أورست فى حى رقودة وخذ منه جملا لى فعد بها هدية منى إلى إياس بن معاذ . وخذ هذه الأمارة إلى رئيس المتجر وانصرف على عجل. ثم أعطاه الورقة التى كانت بينه و بين أورست وقال له: إنى راحل إلى القسطنطينية فاستودعك الله .

وكانت القهرمانة قد تمكنت من اعداد الحمول وجاءت بالخصيان والجوارى فساروا جميعا الى السفائن ونزلوها حين كان الحارث وهرميون ولمياء فى سفينة ذات شطرين ليكون أحدهما لورقة وعروسه. وكانت هيلانه وأورست فى أخرى بجوارهم. وكان الأمير والبطريق والصيدلانى نعيم معهما ،

ف سفينة امبراطورية واقفين إذ ذاك يرقبون مقدم ورقة ليرحلوا

وكان البحارة قد علموا بما جرى ، فلما رأوا ورقة صاحوا مع الجمع مرحى ! مرحى ! وخطا ورقة يتبعه رؤبة الى سفينة الحارث فتلقاه أهله بالقبلات والتهنئة على سلامته والاعجاب بشجاعته التى أذاعها الأمير وهو منصرف إلى سفينته . وإذا بالأمير عن ظهر سفينته يناديه . فتركهم ورقة وذهب يحادثه من فوق حيزومها . فقال له الأمير : ماذا خبرتنى عما أوحى ألى نبيك الكريم ؟ قال : عزاء يامولاى وتأميل، لابد أن يتحقق . قال : قله للبطريق لعله يتعزى . فقال ورقة : إن الله يقول :

« غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون »

« فى بضع سنين »

أملوا الخير ياسادة بيزنطة ، وارقبوا يوم النصر على بنى ساسان وصلوا لله الذى يجزى كل نفس بما تعمل . فرفع البطريق يديه إلى السماء داعيا ومصليا ورفعت السفائن قلوعها مثله مؤمنة وهى خارجه من ميناء لوكياس لكى تعود اليها بعد تسع سنين — ٦٢٧ ميلادية .

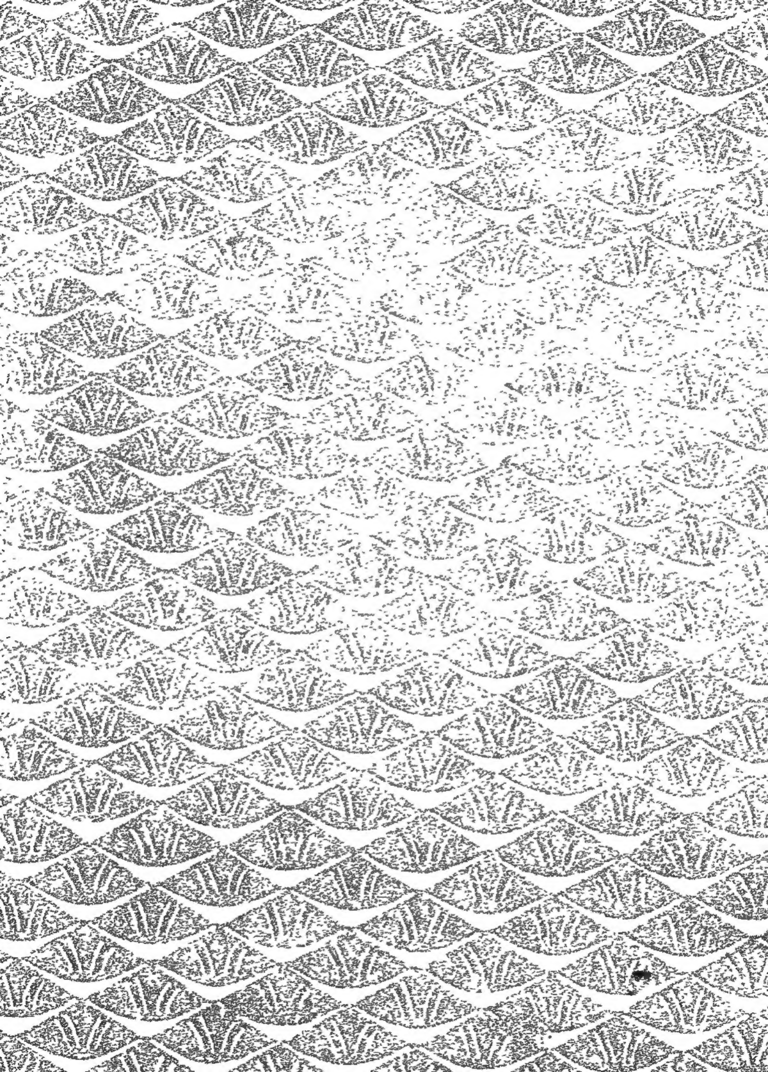
انتهى

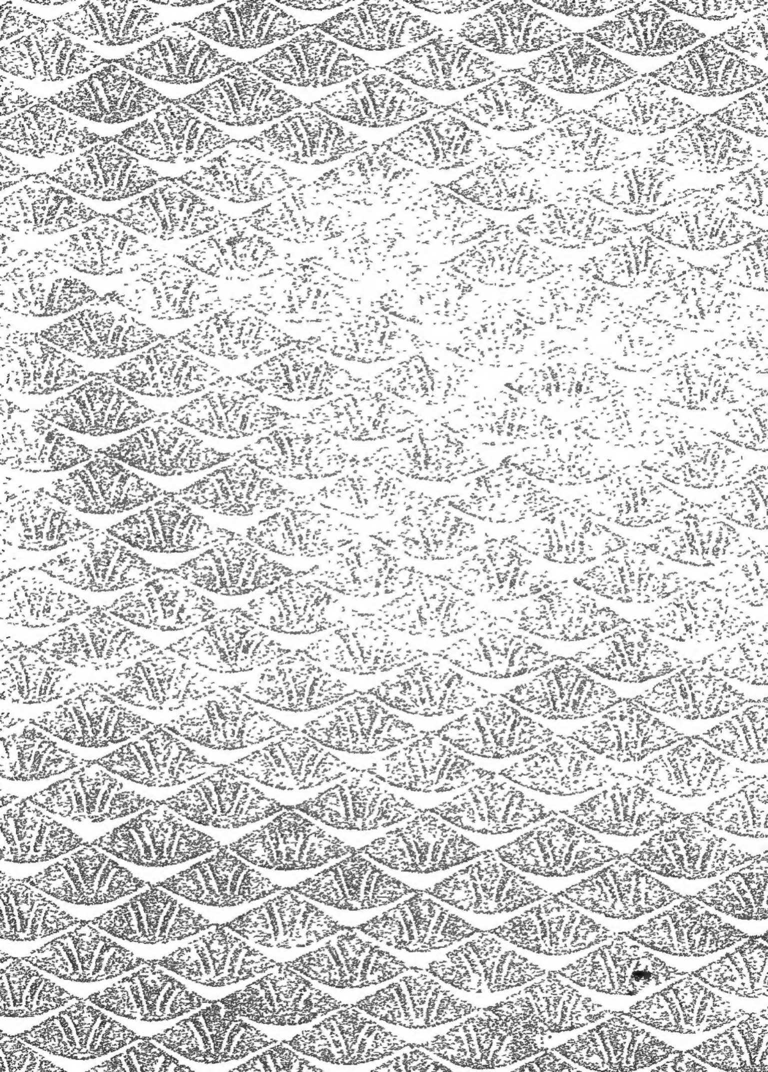
﴿ الرواية الثانية ﴾

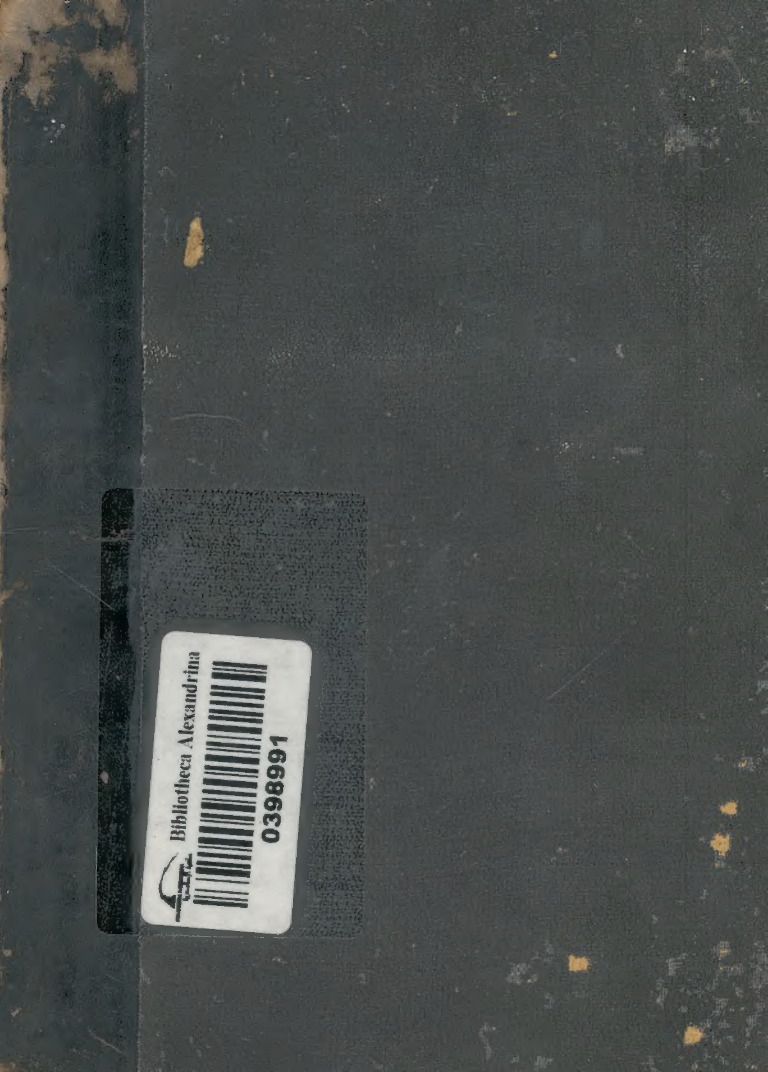
مات الشمس عن خلافة الفاروق رضى الله عنه الى

فتح الاسكندرية على يد عمرو بن العاص

سنة ٦٤١ ميلادية






Bibliotheca Alexandrina
03988991